



برهان سونميز

ترجمها عن التركية: صفوان الشلبي

روايـة

الحجر والظلال

برهان سونميز

الحجَر والظِّلال

(رواية)

ترجمها عن التركية: صفوان الشلبي

الحجَر والظِّلال

الحجر والظِّلال

تأليف: برهان سونميز
ترجمة: صفوان الشلبي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-04-765-0



إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2023

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@kalimat.ae
www.kalimatgroup.ae

تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقًا
لنظام التصنيف العمري الصادر عن وزارة الثقافة والشباب
المرجع: MC-10-01-5373466
الفئة العمرية: جميع الفئات العمرية

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل التركي:
Taş ve Gölge



"لا شيء عصي على الفهم خارج معرفة الإنسان
أكثر من قلبه".

هوميروس، الأوديسة

"الموت لغز، وسيظل كذلك دائمًا".
ملحمة جلجامش

مقبرة مركز أفندي

إسطنبول

1984

فكَّر أقدو مليًا بالشاهد الذي سينحته لقبر الميت ذي السبعة أسماء، الذي دُفن صباح اليوم. سحب نفسًا من سيجارته، ورشف رشفة من الشاي. رفع إصبعيه القابضتين على السيجارة كأنَّه يكلِّم شخصًا أمامه، وقال محدثًا نفسه إنه ينبغي أن يكون لون شاهدِ قبرِ هذا الرجل أسود، مع ثقبٍ دائري في وسطه كي يرى الناظرُ من أحد طرفي الثقب الفضاء الواسع. رؤية الفضاء من خلال الثقب يسحر اللب ويدعو إلى التأمل. ذلك الميت كان من المحاربين القدماء؛ أثناء عملية درسيم العسكرية، عُثر عليه جريحًا وفاقدًا للوعي على ضفاف نهر الفرات. تبيّن فيما بعد أنه قد فقد ذاكرته. ادَّعى من وجده من العساكر أن اسمه حيدر، وقد جُرح خلال هجوم قامت به جماعة ظاظا الكردية. ادَّعوا أنه أحد رفاقِهم الجند وضمُّوه إلى وحدتهم العسكرية، وأعطوه ماضيًا ومستقبلًا جديدين. شُفيت جراح حيدر سريعًا وعاد إلى حمل السلاح، واستخدم سوطه دون أدنى شعور بالذنب، ليلهب به ظهور أسرى جماعة ظاظا الذين اقتيدوا من قُراهم حفاة عراة في مسيرة وعرة،

وأجواء حارة حتى أوصل من بقي منهم على قيد الحياة إلى القيادة العسكرية في درسيم.

في تلك الأثناء، تعرّف عجوز أعمى من بين الأسرى على حيدر من صوته. كانا من أبناء القرية نفسها؛ روى له ما يعرفه عن ماضيه، وأن اسمه عليٌّ وليس حيدر، وقد سقط جريحًا على ضفة النهر بعد إصابته بطلق ناري بينما كان يحاول الهرب من العساكر أثناء تهجيرهم للقرويين من قراهم. حين حامت حول حقيقة هويته الشكوك، فرّ من المعسكر وهرب جنوبًا إلى سهل ما بين النهرين. لقد أضاع هويته ما بين النهرين. لا هو عليّ، ولا هو حيدر، لا يتذكر طفولة أي منهما. من لا يتذكر طفولته، لا يمكنه معرفة نفسه. يصدِّقُ من؟ العجوز الأعمى أم العساكر؟ تابع مسيرة حياته، ومضى تائهًا حتى وافاه أجله. تابع النجوم، التجأ إلى الله، قرأ كل ما وجد من كتب على أمل الوصول إلى الأمان. على مدى أربعين عامًا، تنقَّل بين القدس والقاهرة وكريت وأثينا وروما وإسطنبول، وأينما تنقَّل حمل اسمًا جديدًا، واعتنق دينًا مختلفًا، وحين نُقل اليوم إلى المقبرة، كان في كفن قد اصفرَّ لونه، وعُلِّقت عليه رقعة كُتب عليها سبعة أسماء: علي، حيدر، عيسى، موسى، محمد، يونس، آدم. أمضى الأسبوع الأخير من عمره راقدًا في فراشه، في غرفة تعجُّ بالكتب وزجاجات الخمر. حمَّل جاره الذي أتى لزيارته، رسالة وحقيبة ليوصلها بعد وفاته إلى أقدو نحات شواهد القبور.

عندما هبط الليل، ودخلت الناس بيوتها، وغشّى الضباب شوارع إسطنبَول، وساد المقبرة سكون عميق، فتح أقدو المغلف:

"أوصيك خيرًا بشاهد قبري يا أقدو. لقد اعتنقت أديانًا عدة، واضطررت لاستخدام أسماء عديدة. في النهاية أضحيت بلا هوية، ومن

كثرة ما استخدمت من الأسماء، بتُّ بلا اسم. أنا أعرفك منذ طفولتك، ومن صوتك العذب عندما كنت تغنّي. ما زال اسمك أقدو في ذاكرتي، لكن ماذا كان اسمي في ذلك الوقت؟ لا أذكر! في العام الماضي، لقد علمت بطريق الصدفة، أنك تعيش في مقبرة مركز أفندي. علمت بكل ما عانيته وما مررت به من ظروف صعبة. لم أقصد إليك، فالأموات من حولك لا يعدّون ولا يحصون. لقد قيل لي أنك تنحت شاهد قبر لكل روح وما يناسبها. انحت لي واحدًا، ليقل شاهد قبري لكل الكائنات إنني لست بمؤمن. انحت شاهد قبر لي بهذا المعنى، أتركُ لك في المغلف بعض المال بدل تكاليف نحت شاهد القبر، إضافة إلى أتعاب غنائك في طفولتك، وفي حقيبتي بعض من أشيائي، لعلك تنتفع بها".

تنهّد أقدو ثم ترك الرسالة فوق المغلف بعد أن قرأها للمرة الثانية. نظر إلى الضباب الذي يلفُّ المقبرة، وتساءل أي من الأصوات ستصدر من البعيد في هذه الليلة. في الليالي الضبابية، كان يسمع صوت طفولته أحيانًا، وأنين الأموات في أحايين أخرى. وبينما كان يقرأ الرسالة، تراءى له طيف طفولته بقدمين حافيتين يراقبه من خلف الضباب. كان طيف طفولته يقف بصمود أشجار السرو. يتحرك بخفة، ويخطو، فيسمع صوت تهشم عيدان الشجر الجافة تحت قدميه. كل طقطقة كانت تُحيي فيه أصوات الطفولة، أصوات الضحك والغناء والصياح كانت ترتفع معًا، وتنشر جوًا من المرح في المقبرة، غير آبهة بأنّات الأموات. شعر أقدو بدنو تلك الأصوات ثانية، فغمرته السعادة. انتصب في جلسته وأصغى إلى الليل؛ ما دام يتذكر طفولته، فهو على الأقل يعلم اسمه، وذلك يكفي لمعرفته لنفسه. هو ليس مثل الرجل ذي السبعة أسماء. ما عايشه من أحداث طوال سنوات، محفوظ بعناية في

ذاكرته، حتى كلمات كل أغنية من أغنيات طفولته، يحتفظ بها في ذاكرته بما فيها ألحانها القديمة.

تذكّر إحدى تلك الأغنيات التي أعانته على سدّ جوعه، بعد أن غنّاها في الميادين والأسواق، فراح يتمتم بكلماتها. شرع يغني بهدوء كي لا يوقظ كلبه النائم عند قدميه. لا تهدري أي من أيامي هباء/ فيوم واحد كالعمر كله/ لا يغرنكِ بريق عمري/ فالعمر كله كيوم واحد. عندما كان طفلًا يغني بصوت ملتاع عند الجدران الباردة، تخرج النساء من بيوتهن، ويقتربن منه ويربتن على رأسه. يقدمن له الخبز والحليب الساخن، وفراشًا في بيوتهن أحيانًا. كان يشعر بالسعادة، ومثل كل طفل يتيم كان يشعر بحنان لمسات أيديهن والأمان في حضنهن. يغرق في نوم هو الأجمل في بيوتهن. كان يتخيل أن تلك المرأة هي أمه، وحين يغمض عينيه، يتمنى أن يكون ذلك حقيقة عند استيقاظه من النوم في اليوم التالي. تلك الليالي، كانت بطول العمر كله. وحين يفتح عينيه في الصباح، ويرى صاحبة البيت أمامه، ينظر إليها بمحبة ويروي لها ما رآه في المنام ليلًا. يروي رؤيته لرجل عجوز في أحلامه دومًا، ينحت حجارة في المقبرة، يؤويه في بيته ليقيه من البرد، ويسمح له بملاعبة كلبه، وأن هذا الرجل العجوز يحنُّ إلى أمه التي لم يرها قط.

ذاك الحلم كان حلم من؟ أ كان حلم العجوز أقدو في طفولته، أم حلم الطفولة في شيخوخة أقدو؟ إن اضطراب عقل ذاك الذي يحمل سبعة أسماء كالذي يمضي حياته جاهلًا لنفسه. هذه هي الحياة، وكم هي غريبة! قال أقدو. رشف رشفة من الشاي، وسحب نفسًا من سيجارته. عندما نفث الدخان في الهواء، سقط رماد سيجارته على الطاولة. بدا له الرماد في الأجواء الضبابية جميلًا، رماديًا وهشًّا. انحنى ونفخ عليه، ثم تابع تطاير ذراته في

الهواء نحو المقبرة. بعد أن ساد السكون في أجواء المقبرة، آنذاك أدرك أن أصوات الأطفال قد اختفت. توقفت أيضًا أصوات المركبات المنبعثة من الطريق المجاور للمقبرة، والتي تشقُّ سكون الليل بهديرها. إما أن المركبات باتت تُبطء من سرعتها من شدة الضباب، أو أن كل شوارع المدينة قد خلت من المارة بعد أن أووا إلى بيوتهم.

كانت أربعينية الشتاء قد حلّت، لقد أُعلن في الراديو أن ليلة هذا اليوم هي أطول ليالي السنة. الضباب سينقشع بعد منتصف الليل، وسيهطل الثلج مع تباشير الصباح. المدينة التي نامت على بياض الضباب، ستصحو غدًا على بياض الثلج. إذا ما أغلقت العاصفة الثلجية الطرقات ستعطِّل المدارس لبضعة أيام، وسيفرح الأطفال بذلك. فَرَحُ الأطفال جميل، لكن ماذا سيحل بالمشردين وكلاب الشوارع؟ هؤلاء سيلتجئون إلى أسفل حائط أو جدار متهدم، منتظرين ما يخبئه لهم القدر لآخر لحظات من حياتهم. إذا ما حالف الحظ المشردين سيُعثر على جثثهم المتجمدة، ويُدفنون في مدافن مجهولي الهوية، وإذا ما كانوا أوفر حظًا سيُذكرون كعدد في الإذاعة والصحف. حين تُذكر أعداد من يموتون تجمدًا خلال العواصف الثلجية التي تهب على إسطنبول، لا تُذكر أعداد الكلاب الضالة أبدًا، وتترك جيفها لتتعفن وتتحلل في مكبات النفايات. من الصعب جدًا، تحمُّل برد إسطنبول ورطوبة بحرها الصقيعية التي تنخر العظم. لأقدو بيت بجدران وسقف متين، ونار موقدة. في مثل تلك الليالي، يترك مصباح بيته الخارجي مضيئًا مثل منارة السفن كي يهتدي بنوره المشردون، ويلجئون إليه. عواء كلبه كان إشارة أخرى، ودعوى لكلاب الشوارع للجوء إليه أيضًا. في تلك الأثناء، كان كلبه يتمدّد تحت الطاولة، وقد امتلأ بطنه وحلّق في جو من الأمان.

لا يرفّ فراؤه لساعات، لقد تقدّم في السن، إذ أصبح في الآونة الأخيرة ينام في الفناء الخلفي للبيت، كلما سنحت له الفرصة خلال النهار في كوخه الصغير لساعات طويلة. لقد بات يأكل بلا شهية، ولا يكمل حتى أكثر الأطعمة المحببة إليه.

أقدو يتقدّم في السن أيضًا. يدرك ذلك من شعوره بتقلّصٍ في ظهره عند أقل هبوط لدرجات الحرارة والبرودة، لا من ابيضاض لحيته أو تناقص عدد أسنانه. معصمه في متانته المعتادة، يعمل واقفًا طوال النهار، ويحمل الحجارة والرخام. لا يشتكي من ضخامة جسده، لكنه منذ فترة بدأ يشعر كأن قطعة جليد قد وُضعت في وسط ظهره، وتسبب له الشعور بقشعريرة غير محتملة. لاحظ ذلك مع هبوط درجات الحرارة في الخريف، فأخذ حذره من البرد خلال شهر ديسمبر. وبعد أن كانت حرارة جمرات المنقل الموضوع إلى جانب الطاولة لتسخين الشاي كافية لتشعره بالدفء، بات بحاجة إلى بطانية يلتحف بها لتدفئة ظهره.

يستيقظ مع تباشير الصباح كل يوم، ينحت الحجارة والرخام في ورشةٍ خلف البيت طوال النهار، ولا يتوقّف عن العمل حتى غروب الشمس. بعد أن ينفض الغبار عن رأسه وثيابه، يغسل يديه ووجهه، ثم يجلس إلى طاولة في الشرفة، يتناول عشاءه ثم يستمع إلى الراديو بينما يشرب الشاي. ينظر إلى القبور، ويحاول رؤية أرواح الأموات الجدد وأن يفهمها، ويحدّد سبب تعاستها، ثم يشرع ليلًا، بالتخيّل في ذهنه، بشكل شاهد القبر الذي سينحته لها فيَ صباح اليوم التالي. حين يشرد يغمض عينيه، يبني قصورًا في أحلام تمتد طوال الليل. وحين ينظر إلى أشجار السرو التي تحوط بالمقبرة، يظن أن الزمن قد توقّف، وأن جنيَّة النوم قد أرقدت أطفال الحي في فراشهم وجاءت

إليه. مع ارتفاع صوت البوم القادم من الجهة الغربية من المقبرة، يرفع رأسه، ويحدّق في الفراغ محاولًا معرفة مكان وعمر هذا البوم. هذا البوم يعيش في جحر سرّي في هذه المقبرة التي أُطلق عليها اسم مقبرة مركز أفندي. ومن يسمع هذا الصوت المهيب والعظيم لهذا البوم يظن أنه لا يزال يعيش في هذه المقبرة منذ إنشائها. يصوّت في الحر، وفي البرد، وفي كل المواسم. لا ينام ولا يموت، وكأنه يعيش معلقًا بالسماء من جناحيه كروح حكم عليها بالخلود.

مع سواد السكون المصاحب لتلبُّد الضباب في أجواء المدينة وانقطاع ضجيج المركبات على الطريق السريع، اعتقد أقدو أن هذا السكون قد يساعده على سماع صوت البوم. أخذ إبريق الشاي من على المنقل، وملأ كأسه. سحب البطانية التي على ظهره من طرفيها ولفها حول كتفيه. عدّل جلسته على الأريكة واتكأ على الوسادة، حرّك الشاي بعد إضافة ثلاث ملاعق من السكر إلى الكأس، ثم أرهف السمع إلى الظلام الأبيض. الليل يعني تمييز الأصوات لا السكون، الأصوات خلال النهار تختلط معًا وتتحوّل إلى ضوضاء، بينما في الليل يظهر كل صوت بصفائه الخاص. أناشيد الطفولة، وأنّات الأرواح، ونداء صوت البوم. ما كانت هذه الأصوات واضحة في صخب النهار، وكذلك الآلام والأشواق. عندما يكون المرء بمفرده في الليل، يشعر بألم صافٍ. يمكن أن يثير خرير النبع إلى جوار شجرة يهوذا أحزانًا قديمة في الظلام، وأن يملأ القلب لوعة لفراق الحبيب منذ سنوات، تحمّل هذه الأشجان سهلاً أثناء النهار، لكن حين يكون المرء وحده ليلًا، يشعر بالوحدة الصارخة.

الأرواح التي تبدأ أنّاتها تنتشر شيئًا فشيئًا في الضباب، تعتقد في الليل أنها وحيدة في هذا العالم. الأرواح التي تستيقظ على أملٍ كل صباح،

تعتقد أن الشمس تشرق من أجلها، وتواسي نفسها بنسج آلاف الأوهام حول أصوات وقع خطوات الزوار المارين من جوارها نحو قبور أخرى. تمضي الوقت في ضجيج الدنيا، فتنسى الزمان والقدر. حتى حلول المساء، عند الغسق، حين يختلط غبار الظلام بأشعة الضوء، ترتجف ثم تدرك بحيرة أين مقامها. تشعر بالحزن والخوف معًا. ممن ستطلب العون؟ ليس هناك سوى البوم الصاخب أحيانًا، والكلب العجوز وأڤدو، وحين تناجي السماء لا يسمع صوتها أحد سواها.

نظر أڤدو نحو جموع الأرواح التي تئن في المقابر. يا ربنا، كانت الأرواح تئن قائلة، كيف نشعر بالأمل من دونك! يا ربنا! لا تتركنا في هذه الدنيا الغامضة مع اليأس والشجن.

ضحك أڤدو وقال، يا للأموات المساكين.

لا يستطيع المرء اختيار مكان ولادته، لكنه يستطيع اختيار مكان دفنه. الذين في القبور يدركون ذلك بعد وفاتهم، بينما كانوا يسعون خلف رغباتهم طوال عمرهم. لم يكن لدى أي منهم الوقت للتفكير في مكان دفنه، يندبون ويعوّلون حين يجدون أنفسهم محاصرين فجأة، في حفرة. لكن أڤدو كان يفكر في مكان دفنه في فراغ طويل مظلم دام ليلة واحدة، اختار أن يدفن في هذه المقبرة منذ أن استقر فيها قبل سنوات. بنى لنفسه قبرًا إلى جوار قبر تحت شجرة يهوذا، ونصب له شاهدًا بلا اسم، حجر أڤدو صقيل ومتين. ولما يحين يومه، سيدخل هناك ويتمدّد إلى جانب المرأة التي تنتظره في القبر المجاور. في ليلة ساكنة طويلة ومظلمة، حين ينطلق نجم فضي من إحدى جهات السماء إلى الجهة الأخرى. يا ربنا!

بعد أن استقر أڤدو في المقبرة، وأصلح البيت المتهدم، وبدأ في نحت

شواهد القبور في الورشة التي أقامها خلف البيت، أدرك أن للّيل أصواتًا، للأموات وأوراق الأشجار أصواتًا وحتى للنجوم أصواتًا أيضًا. فكّر أن يشارك الآخرين بما يسمعه من أصوات في المقبرة، ظنًا منه أن الجميع سيتفهمونه. لكن عندما أخبر زوار المقبرة عن سماعه الأرواح تتضرّع، تفاجأ من ردة فعلهم، ومن نظرة الشفقة التي رمقوه بها، بعد أن ظنّوه مجنونًا. في النهاية، أيقن أن الناس لن يفهموا هذه الحقيقة، ففهم هذه الحقيقة كالحب الذي يحتاج فهمه إلى الشعور به أولًا، فقرَّر أن يحتفظ لنفسه بما تسمعه أذناه. لم يشارك أحدًا بما يدور في ذهنه سوى الجرو الذي وجده في المقبرة. مضت عشرة أعوام، جعل خلالها كلبه يعتاد على أصوات الليل، بعد أن أنقذه من الموت وأطعمه وكبّره. تناولا الطعام جنبًا إلى جنب. لقد شعر بالأمان بوجوده، وحين أصابه المرض، استعاد عافيته من تمدده عند قدميه، ومن الأصوات الدافئة التي يصدرها، لا مما تناوله من أدوية وعلاجات. أكثر ما كان يحزنه تقدم كلبه في السن، ماذا سيفعل من دونه؟ عدّل أقدو من جلسته على الأريكة كي يتمكن من رؤية كلبه النائم منذ ساعة، ونظر إليه بحنان. انحنى تحت الطاولة ولامس عنق الكلب برفق، همس لكلبه: "إياك أن تموت يا توتيفي، ماذا سأفعل إذا ما مت؟". بينما همَّ بمتابعة كلامه سمع للكلب هريرًا. سكت وأصاخ السمع، انتظر سماع صوت يُسليه، لكن لا صوتًا صدر.

أشعل الراديو؛ المذيعة والمذيع يتجاذبان أطراف الحديث. حديثهما يدور حول الضباب، وتوقّف حركة الملاحة ما بين ضفتي إسطنبول، وعن جبهة هوائية باردة قادمة من البلقان يصحبها تساقط الثلوج في إسطنبول. يدعوان الجميع إلى عدم الخروج من المنازل هذه الليلة ويوم غد أيضًا،

والخلود إلى الراحة على الأرائك الدافئة للتمتع بالأجواء الشتوية، وينصحان المستمعين، باختيار أحد أشرطة الفيديو ومتابعة أحد الأفلام أو قراءة أحد الكتب الموجودة على أرفف المكتبة، لتمضية الوقت بسكينة وهدوء. نصيحة أخرى لمحبي العرق، أن يصاحب قدحهم قليلًا من الجبن الأبيض والمازة، إضافة إلى الاستماع إلى الموسيقى الهادئة ليلًا. الإسطنبوليون العاملون بجدٍّ يستحقون بعض الراحة في هذه الأيام الصعبة التي تمر بها بلادنا، فالخلود إلى الراحة حق، مثل ما أن العمل الجاد واجب. أهديا أول أغنية في البرنامج إلى مواطني إسطنبول الذين يستحقون الاستماع إليها. كان أقدو أحد المواطنين الذين قبلوا الهدية، إذ رفع من صوت الراديو قليلًا. حين كان يُسأل عن موطنه الأصلي، كان يجيب أنه إسطنبولي على اعتبار أنه سيُدفن فيها، لقد سمع من أحد زوار المقبرة أن السكان الأصليين لهذه المدينة هي الأشجار. عندما سيطر العثمانيون على المدينة فأشجار السرو البيزنطية كانت قائمة، ولا تزال حية حتى اليوم، وهي المالكة لهذه القبور. كان أقدو يشعر كأنه أحد تلك الأشجار. عند انتهاء الأغنية، قرأت المذيعة عناوين الأخبار: تجاوزت قيمة الدولار أربعمئة وثلاثين ليرة، وتم اعتقال سبعة انفصاليين في القتال الدائر في ناحية إروه، وصرّح وزير التربية الوطنية بأنه سيتم بناء مسجد للمديرية العامة للتربية الرياضية، وتم إلقاء القبض على أفراد عصابة احتالت على مئات الأشخاص من خلال إنشاء مكتب وهمي للخدمات لتأمين العمالة في الخارج، وتباع تذاكر اليانصيب الوطني لإصدار العام الجديد في السوق السوداء بعد نفادها من مراكز البيع بعد فترة قصيرة من طرحها في الأسواق، وحصل أحد لاعبي نادي يونجاسبور على بطاقة حمراء بعد أن أخذ بخناق الحكم في المباراة التي جرت بين بشيكطاش ويونجاسبور.

الإرهابي محمد علي أغجا الذي قتل الصحفي عبدي إبكتشي في إسطنبول قبل خمس سنوات، وتمكن بعد اعتقاله في تركيا من الفرار من سجنه، وأصيب بجراح أثناء محاولته اغتيال البابا يوحنا بولس الثاني في الفاتيكان، صرح في أول لقاء صحفي أُجري معه في سجنه في إيطاليا أنه قومي تركي، لكنه اِلتزم الصمت حين سُئل عمن دفعه إلى القيام بمحاولته لاغتيال البابا. تم الإعلان عن نتائج استطلاع حديث في القضية الخلافية حول صواب أو خطأ الجمع بين الذكور والإناث في المدارس؛ نتيجة الاستطلاع كانت أكثر من تسعين في المئة لصالح التعليم المختلط. حين انتهت الأخبار، روى المذيع نكتة بذيئة، فضحك والمذيعة معًا مقهقهين، ثم تبع ذلك موسيقى راقصة.

قرّب أقدو أصابعه التي أصابها البرد إلى النار، لامس طوب المنقل بأطراف أصابعه؛ الطوب ساخن. حرّك نار المنقل بالملقط، أخذ إبريق الشاي وملأ كأسه، كم ترتيب هذا الكأس؟ كل مساء، كان يستهلك عددًا لا يستهان به من كؤوس الشاي وحفنة من السكر، ثم يغطّ في النوم دون معاناة من الأرق. مصدر الطاقة التي يحصل عليها كي يتمكن من العمل في اليوم التالي حتى المساء لم يكن ما يتناوله من طعام، بل ما يتناوله من الشاي والسكر. لذلك كان يقول عما يتلقاه من أجر لقاء عمل شواهد القبور؛ إنه بدل الشاي والسكر لا بدل رغيف العيش.

تأمل الحقيبة التي تركها له الرجل ذو السبعة أسماء، والتي كانت على الطاولة منذ المساء ثم حملها ووضعها على ركبتيه. "يجب أن يكون شاهد قبر هذا الرجل من الرخام الأسود الموشح، لتبدو تلك العروق الدقيقة على سطح الرخام مثل سيل من النجوم في السماء ليلًا"، قال في قرارة نفسه. الرخام الأسود القادم من منطقة أكشهير، مناسب لهذا الغرض على الرغم

من صعوبة نحته. العروق على السطح الأسود تشبه ما تتركه النجوم من أثر أبيض ما بين لحظة ظهورها واختفائها، الفتحة الدائرية التي سيحدثها في وسط الرخام ستشبه (وادي غي) لتدعو للتأمل والتفكير. ربما هناك أبدية للإنسان في ذلك الظلام اللامتناهي. قد يتساءل البعض إذا كان هناك من عاد بعد ذهابه إلى الطرف الآخر، أو ربما من ذهب لا يرغب في العودة. مثلما لا يرغب الأحياء الموت، ربما الأموات أيضًا لا يرغبون الحياة. كيف يجتمع وجود الله بالموت، إذ يبدو أن الموت هو الحقيقة الوحيدة القائمة. الجواب في أحضان الموت، ومن سيعلم ذلك؟ ذو السبعة أسماء ميِّت في الطرف الآخر الآن، وما كان يبحث عنه طوال عمره قد وجده هناك أخيرًا، كل من سينظر إلى شاهد قبره سيعتقد ذلك.

الجلد الأسود للحقيبة قد تقادم وتشقّق في أكثر من جهة، وامتلأ بالخدوش. بينما كان أقدو يمرّر أصابعه المخشوشنة على الحقيبة، لمع في ذهنه أن لونها هو ما أوحى له بعمل شاهد القبر من الرخام الأسود. الحقيبة ليست بالكبيرة ومليئة بالخدوش الدقيقة، ولها رباط يحيط بها من الأعلى حتى يلتقي بالقفل في وسطها. مرَّر أقدو سبابته على الرباط وصولًا إلى القفل وضغط عليه ففُتح تلقائيًا دون مفتاح. وما إن كشف غطاء الحقيبة، حتى صدمته رائحة عفونة ورطوبة فاحت من داخلها. أدخل يده في جيبها الداخلي، فوجد دفترًا وقلم حبر ونايًا.

أخرج أقدو الدفتر ذا الغلاف الجلدي. تأمل غلافه الأمامي والخلفي ثم قلّب صفحاته. حواف الصفحات مهترئة، والكتابة الحبرية بهتت، الصفحات الأخيرة للدفتر فارغة. بدا لأقدو أن هذا الدفتر ليس سوى مفكرة كان الرجل ذو السبعة أسماء يدوّن فيها يومياته. كان مليئًا بأسطر هنا

وهناك قد شُطبت، وملاحظات قد كُتبت لاحقًا في الحواف يصعب قراءتها، فالأحرف دقيقة كالنمل، بالإضافة إلى الإضاءة الشحيحة. بينما قصر عينيه محاولًا قراءة ما يتصفحه من صفحات بشكل عشوائي، توقف عند سماعه حسيسًا آتيًا من خلف الضباب، رفع رأسه ثم حدّق في الظلام الأبيض.

ما هذا الصوت، هل هو لأرواح قلقة تتهامس، أم من نسج خيال طفولة واسع؟ هل هو غصن شجرة بيزنطية قديمة انتظرت لقرون لتسقط الآن في قبر فُتح حديثًا؟ أصاخ أقدو السمع إلى الليل، لكنَّه لم يسمع سوى صوت النبع. يجب ألا ينسى إغلاق محبس النبع. قد يحصل انجماد في كل مكان مع حلول الصباح، فتتجمد المياه في الأنابيب ويزداد حجمها، مما قد يؤدي إلى تصدُّع الأنابيب. عليه إغلاق محبس النبع قبل النوم، ولا ضير لو أبقاه مغلقًا لبضعة أيام حسب برودة الطقس. الماء يجري كلّ أيام السنة، ماذا لو أوقف جريانه بضعة أيام؟ أليس من حقِّ النبع أن يرتاح أيضًا؟ "هو من مواطني إسطنبول أيضًا،" قال أقدو محدقًا بجدية إلى الراديو كأن المذيعين يمكنهما سماعه.

انقطع صوت النبع للحظة، ثم عاد إلى التدفُّق ثانية. إما أن حيوانًا قد مرَّ تحت الماء - وهذا احتمال غير ممكن في هذا الجو البارد - أو أنّ شخصًا ما قد شرب من ماء النبع.

استيقظ توتيفي ورفع رأسه، زمجر عدَّة مرات. لا ينهض توتيفي من نومه الثقيل بلا داعٍ، لابد أن أحدًا ما جوار النبع.

أغلق أقدو الراديو. تريَّث قليلًا بانتظار سماع صوت، ثم نادى باتجاه النبع.

"من هناك؟"

لم يتلقَّ ردًا.

أعاد أقدو دفتر المذكرات إلى الحقيبة، أدرك أنّ عليه قراءة ما كتبه الرجل ذو السبعة أسماء في مذكراته كي يحسن اختيار شاهد لقبره. لا رخام أسود ولا وادي غي محفور في الرخام، ربما سيحتاج شاهدُ قبر هذا الميِّت إلى حجر مختلف. عليه عدم التسرع، وقراءة مذكراته على مهل، وأن يجسِّد روحه في مخيِّلته لليال طويلة أولًا، ثم يقرِّر شكل شاهد قبره.

نهض توتيفي على قوائمه، نبح بحدَّة وأبرز أسنانه. ربت أقدو على عنق توتيفي، وقال: "لا عليك، اهدأ، شخص بلا مأوى في زيارتنا".

أسمع أقدو صوته للشخص الواقف في الضباب وأشعره أنه يعرف مكانه حين نادى مرة أخرى.

"هناك! أنت الواقف عند النبع! أعلم أنك هناك على الرغم من الضباب. هيا تعال، ستتجمد من البرد. كلبي لن يؤذيك، تعال إلى جوار المنقل لتتدفأ".

راح ماء النبع يتدفَّق بين أشجار السرو بصوته الصافي من جديد، حين تكون الليالي بلا نجوم ولا أقمار ولا طيور يصبح النبع السيد الأوحد للمقبرة، وعندما بات الضباب أكثر انتشارًا وأشدّ كثافة، هيمن صوت الماء على الزمان، وطغى على مظاهر الموت في المقبرة. فتح أقدو علبة تبغه ولفَّ سيجارتين بانتظار سماع حسيس مرة أخرى. أشعل إحدى السيجارتين من جمر المنقل، وسحب نفسًا عميقًا.

"عندي سجائر، هيا تعال، لقد لففت لك واحدة!"

حين دام السكون طويلًا، خال أقدو أنه أخطأ الظن.

أو ربما بعض المنقِّبين عن الدفائن؟ إن الباحثين عن الدفائن يترددون

على المقابر منذ العام الماضي، ينبشون قبورًا مجهولة من خلال خرائط غريبة بحثًا عن ذهب مدفون. إمام الجامع ألقى القبض على عدد منهم، لكن المنقِّبين لم ييأسوا، وعاودوا البحث بمجارف بلاستيكية ونبش التراب بأيديهم كي لا يحدثوا جلبة. كثر الباحثون عن الدفائن مع شائعات انتشرت حول عثور البعض على أقداح ذهبية وعملات قديمة في بعض القبور. ثم إنّ أڤدو قد سمع ما أزعجه من إشاعة تقول إن هذا النبع قد فجّره قديس مسيحي كان يعيش هنا قبل مجيء العثمانيين، ومياهه مباركة بفضل أدعية الحواريين، ورخامه المليء بكتابات قديمة يخفي تحته زمردًا ومجوهرات أخرى نفيسة. في ليلة ظلماء قبل شهرين، أتى باحثون عن الدفائن للتنقيب تحت حجارة النبع، لكن أڤدو تنبَّه إلى وجودهم بفضل نباح توتيفي، فطاردهم وصاح خلفهم.

هل عاوَدوا المجيء ثانية يا ترى؟

بينما كان أڤدو ينهض من مكانه، لاح له ظلٌّ شاحب في الضباب. لم يَبدُ كشخص حي، بل كميت خرج من قبره بصعوبة شديدة، ونجح بالمشي مترنحًا حتى هنا، لكنه بالكاد يستطيع الوقوف. حين فرك عينيه وأمعن النظر نحو الظل، تأكد له أنها ليست سوى فتاة صغيرة لباسها أشبه بكفن حتى أسفل ركبتيها، وذراعاها عظمتان طويلتان تتأرجحان على جانبيها، وتجرّ قدميها من شدة الإعياء، أطرافها ملطخة بالطين وإحدى قدميها حافية، شعرها مبعثر، وشفتاها متقرحتان.

تقدمت الفتاة قليلًا ثم توقفت على مسافة غير بعيدة من البيت، انتظرت ورأسها مائل إلى صدرها. ربما كانت خجلة من دخول البيت دون دعوة من صاحبه، أو ربما لم تعد قواها تساعدها على متابعة المشي. ذهب

أقدو إليها، ووضع حول كتفيها البطانية التي كانت على ظهره. مرّر ذراعه تحت إبطها وضمّ جسدها النحيل إليه، ثم تقدم بخطى ثقيلة كأنها جريحة ويخشى أن تتأذى، حتى أوصلها إلى الشرفة. أجلسها على الأريكة وخلع فردة حذائها الوحيدة. أحضر قطعة قماش وجثا على ركبتيه ومسح قدميها وكاحليها. كانت قدماها كقطعتي جليد أصابهما الخدر حتى أنها لم تشعر بأصابعه المخشوشنة بينما كان يدلكهما كي يضفي عليها الشعور بالدفء. كانت الفتاة عاجزة عن الكلام، تضم ذراعيها حول صدرها وترتعش من شدة شعورها بالبرد. "حالها ليست على ما يرام"، قال أقدو. أمسك الفتاة من ذراعها لمساعدتها على النهوض، الفتاة كجثة هامدة لم تبدِ أية حركة. ما كان من أقدو إلا أن حملها بين يديه وأدخلها إلى الغرفة. سرير في أحد جوانب الغرفة، وأريكة طويلة في الجهة المقابلة، أرقد الفتاة على السرير ثم غطّاها باللحاف. تناول منشفة كانت على جانب السرير وخرج ثانية إلى الشرفة، لفّ بالمنشفة الطوبة الساخنة الموجودة فوق المنقل إلى جانب إبريق الشاي؛ يمكن الإحساس بحرارة الطوبة على الرغم من لفّها مرتين بالمنشفة. عاد إلى الداخل، رفع اللحاف، ووضع الطوبة تحت ركبتي الفتاة، ثم أعاد تغطيتها باللحاف.

"في الأجواء الباردة، أقوم بتسخين هذه الطوبة على النار، وأضعها في سريري، تحافظ على حرارتها حتى الصباح".

ذهب أقدو إلى المدفأة في الركن المقابل للباب. المدفأة كبيرة الحجم ولها بابان، واحد جانبي وآخر علوي. فتح الباب الجانبي وألقم المدفأة بعضًا من عيدان الحطب، فأحيا النار من جديد، بعد أن خمد جمرها.

"بعد قليل، سيصبح هذا المكان مثل الحمّام".

رفع قِدرًا كان على الأرض ووضعه على المدفأة. هذه المدفأة من النوع الذي يستخدم للتدفئة والطبخ أيضًا، وهذا الركن هو مطبخ المنزل، أكواب وأطباق وأوانٍ وُضعت على الرف المثبَّت على الحائط. أكياس صغيرة تحوي بعض الأطعمة قد صُفّت على صندوق جانبي، أخذ أقدو ملعقة من الرف، فتح غطاء القدر، وقال:

"حساء الكشك، لقد أعددته هذا المساء. لننتظر قليلًا حتى يسخن جيدًا. عندما أشعر بالبرد، أتناول الحساء فأشعر بالدفء، سيمنحك الحيوية أيضًا. ليتكِ أتيتِ من قبل، ولم تنتظري في هذا الجو البارد..."

ألقى أقدو نظرة على النار في المدفأة ثم حركها بالملقط. حين استدار رأى الفتاة قد مالت جانبًا وضمت ساقيها وفخذيها إلى صدرها، وضغطت الطوبة على بطنها. يبدو أن نقطة ضعفها هناك، فهي تحاول تدفئة معدتها لا ساقيها العاريتين. كانت تقلّب بصرها في أرجاء الغرفة، تتأمل الصورة المعلقة على الحائط، والصندوق في الزاوية، والأكواب والأطباق والأواني التي على الرف. عيناها واسعتان، ربما هما هكذا دائمًا أو ربما تبدوان هكذا من شدَّة هزال وجهها، أنفها يسيل وتسعل قليلًا.

"هل أنتِ بخير؟" سأل أقدو.

"أجل"، قالت الفتاة بصوت واهن.

"ستصبحين أحسن. املئي معدتك واستريحي. سيصبح صوتك أقوى أيضًا، حسائي جعل الكثير من الناس يستعيدون قواهم، تذوقيه الآن وسترين..."، قال أقدو.

ساعد أقدو الفتاة على النهوض، وأسندها إلى الحائط ووضع وسادة خلف ظهرها. اتجه إلى ركن المطبخ وفتح غطاء القدر ثم نظر إلى البخار،

سكب الحساء في طبق، عاد وجلس على حافة السرير. أمسك الطبق في يده وناول الملعقة للفتاة، انزلقت الملعقة من يد الفتاة وسقطت على اللحاف.

استضاف أقدو في بيته العديد من المشردين وتقاسم طعامه مع المعدمين، هذه هي أول مرة يرى فيها شخصًا بمثل هذا الوهن والمرض.

"متى أكلت آخر مرة؟"، سألها.

رفعت الفتاة بصرها ونظرت إليه، "لم أعدّ الأيام"، قالت.

أخذ أقدو الملعقة، غمسها في الحساء ووضعها في فم الفتاة. نصف ما في الملعقة من حساء سال داخل فمها، والنصف الآخر سال من شفتيها، مسح فمها بالمنشفة.

هذه المرة، ملأ الملعقة بحساء أقل، ووضعها بين شفتيها ببطء.

"هكذا أفضل".

انبسط وجه الفتاة بعد بضع ملاعق، واسترخت بشرتها الباردة. إذا داومت على الأكل والراحة فحالها ستتحسن في غضون يومين، وستقف على قدميها. لكن ما على عنقها من كدمات وجروح في ذراعها تحتاج إلى وقت أطول للشفاء، سيبقى أثر هذه الجروح باقيًا حتى وإن طال التئامها لعدة أيام.

"متى نمت آخر مرة على سرير دافئ؟"

ردت الفتاة هذه المرة دون أن تنظر إلى وجه أقدو، "لم أعدّ الأسابيع".

أطلق أقدو ضحكة لا إرادية، التقت عيناه بعيني الفتاة التي فوجئت بضحكته هذه. أعطى لوجهه شيئًا من الجدّية، "أضحك أحيانًا هكذا" قال، "لا تبالي".

أدارت الفتاة نظرها جانبًا.

ملأ أقدو الملعقة ثانية.

جوهر الحياة هو في هذه الملعقة، والمدفأة الساخنة والسرير الناعم. هذا هو حلم أولئك الذين يعيشون في الشارع جوعى، على الرغم من ذلك فهذا بعيد المنال. يهيمون على وجوههم في الطرقات، لا يحلمون كثيرًا، وتنتشر على جسدهم الكثير من القروح، لا يسألون بعضهم بعضًا عن أحلامهم ولا عن قروحهم. لم يرد أقدو أن يسأل أيضًا، المهم الآن حساء الكشك الساخن الغني بالبهارات والسمن.

"هل أحببت حسائي؟"

"نعم".

"أكملي هذا الطبق، كي أسكب لك طبقًا آخر".

بدأ تنفسها ينتظم شيئًا فشيئًا، رفعت يدها وأبعدت شعرها المتدلي على جبينها، تلك الحركة أعطت أقدو بعض الأمل لعلها تمسك الملعقة بنفسها أثناء تناولها لطبق الحساء الثاني.

"لا يمكن لأحد أن يؤذيك هنا، هل تَعينَ ذلك؟ أنت لا تعرفينني، لقد أتيت هنا صدفة في الظلام، لكن الجميع هنا يعرفني ويثق بي، ثقي بي أنت أيضًا، ستنامين هنا بعد تناولك حساءك، أما أنا سأنام على تلك الأريكة، إذا أردت شيئًا نادي عليّ".

أكدت الفتاة موافقتها على ما قاله أقدو بحركة من رأسها. هذا الجسد المعذّب ماذا يضيره إذا لم يثق، بل ماذا سيصيبها أسوء مما أصابها؟

حاولت الفتاة النهوض، "سأحضر بعض الماء"، قالت.

"لا عليك، أنا أحضر لك"، قال أقدو ثم ملأ كوب ماءٍ من الإبريق الموجود على الصندوق وأحضره، "أضع الإبريق بالقرب من المدفأة كي لا يبرد

الماء. إنه فاتر ويمكنك شربه بكل راحة".

شربت الفتاة نصف كأس الماء بصعوبة وبشكل متقطع، لم تستطع شربه كله. أبعد أڤدو يده الممسكة بالكأس بهدوء جانبًا.

"شكرًا".

"لنكمل الحساء الآن".

"هل يمكنني التوقف قليلًا؟ الأكل بعد انقطاع دام أيامًا أتعبني".

"لا بأس، يمكنك ذلك".

قام أڤدو بتعديل وضعية الوسادة خلفها، وأسند ظهرها.

"اسمي أڤدو" قال وواصل كلامه دون انتظار أي رد، "لقد أعددت الشاي على المنقل في الشرفة، هل أحضر لك كأسًا؟"

"أجل".

بينما كان أڤدو يخطو نحو ركن المطبخ، أشار إلى كلبه الراقد إلى جانب المدفأة، "هذا الكلب الذي ينام طوال الوقت اسمه توتيفي، يستيقظ فقط حين يلتقط أنفه رائحة شخص غريب، رأيت؟ لقد قبِل بوجودك هنا على الفور، ولم يعاملك كغريبة".

اختار من الرف، كوبًا كبيرًا بعروة، ووضع فيه ملعقة صغيرة من السكر، فتح الباب بحذر كي لا يزعج توتيفي، بينما كان يخطو خارج الباب، سمع صوت الفتاة يصدر بضعف كالهمس.

"ريحان".

توقّف أڤدو ونظر إلى عيني الفتاة اللتين ازدادتا اتساعًا. في الخارج، بينما كان ماء النبع يترقرق على الرخام الأبيض كأنه يردد للأموات تهويدة كي يعودوا إلى النوم ثانية، تسلّل صقيع الليل إلى داخل البيت من خلال الباب

المنفرج، الصقيع الذي كان يُشعر أقدو بالبرد كل مساء، أشعره هذه المرة بالانتعاش.

"ريحان"، ردّد بصوت خفيض.

الجمر في المنقل كان متوهجًا. وقف أقدو في الشرفة، وتحدّث مع النار كما يفعل في كثير من الأحيان وما تعلمه في طفولته. أتعلمين أن للمسنين ماضٍ طويل وللشباب مستقبلٌ طويل؟ ماذا جرى لمستقبل الشباب الطويل؟ حتى أنا قد بلغت سن الشيخوخة متمسكًا بحبل الزمن، في حين هؤلاء الشباب لا حاضرهم واضح ولا مستقبلهم. كالأموات بينما هم أحياء، وحبل الزمن بين أصابعهم على وشك أن ينقطع وقريبًا، فأعداد الشباب الأموات على وشك أن يتجاوز أعداد كبار السن الأموات في هذه المقبرة.

لمس أقدو إبريق الشاي متفحصًا حرارته بأصابعه. صبَّ الشاي في الكوب، وأضاف إليه ثلاث ملاعق من السكر وحرّكه، أضاف ملعقة سكر أخرى على اعتبار أن الفتاة بحاجة إلى بعض الطاقة.

حين دخل، رأى الفتاة قد غرقت في النوم. مال رأسها جانبًا وتراخت أصابعها القابضة على اللحاف. تتنفس بعمق، وقليل من الدم ينزف من جرح أيمن شفتها. ترك أقدو كأس الشاي وذهب إلى الفتاة، مسح الدم عن شفتها بالمنشفة. لم تشعر الفتاة بذلك، بل حتى عيناها لم ترمشا. عدّل أقدو من وضعية الوسادة، ثم رفع رأس الفتاة بهدوء ووضعه على الوسادة، ونَحَّى جانبًا شعرها المتناثر على جبينها. أدخل يديها تحت اللحاف، ثم وضع الطوبة تحت ركبتيها، وغطّاها باللحاف جيدًا.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل. خرج أقدو وأفرغ إبريق الشاي، أخمد النار بنثر التراب على المنقل. أخذ الحقيبة عن الطاولة وعاد

إلى الداخل، وضع لحافًا على الأريكة في الغرفة، أطفأ النور واستلقى على الأريكة بثيابه. أضواء دقيقة كانت تتراقص على السقف انعكاسًا لنار المدفأة الظاهرة من فتحات صغيرة في جسم المدفأة. الأصوات المختلفة الصادرة في الغرفة أشعرت أقدو بالسعادة: جرجرة النار في المدفأة، هرهرة توتيفي الراقد إلى جوار المدفأة، الأنفاس الهادئة للفتاة النائمة على بعد ذراعين منه كأنها غارقة في الأحلام، إلى جانب انعكاسات النار على السقف التي تتوهج متراقصة، فتَنشُر أعدادًا من النجوم في سماء الغرفة. بينما كان الليل يبدأ على السقف داخل البيت، كان الفجر على وشك الانبلاج خارج البيت.

غطّى أقدو صدره باللحاف، ثم غرق في النوم بينما كان يستمع إلى أنفاس الفتاة. صوت النبع طاف في المقبرة سبعة أشواط بينما هم نيام، ريح قادمة من البحر جاءت ومشّطت أغصان أشجار السرو الباسقة. الديدان الموجودة في أعماق القبور تقلقلت على الرغم من أنها كانت في سباتها الشتوي، الطيور غير المهاجرة لجأت إلى الفراغات ما بين قرميد أسطح الأبنية، الدخان المتصاعد من المداخن تقلص وتضاءل، الصقيع غطى الأسطح الحجرية. وبينما كانت سماء الليل تتلبد شيئًا فشيئًا، كان لون المقبرة والمدينة التي تحيط بالمقبرة، والبحر الذي يحيط بالمدينة يتغير من الأزرق إلى الأبيض، ومن الأبيض إلى الأسود في الصورة نفسها، النار في المدفأة همد لهبها واسودت. حينذاك، رفع توتيفي رأسه ونظر حوله.

ما إن شرع توتيفي بالزمجرة، حتى فتح أقدو عينيه، نهض ونظر جانبًا، الفتاة نائمة في ضوء المصباح الخارجي المتسلل إلى الداخل، بدا وجه الفتاة كوجه طفلة شاحب.

"اسكت يا توتيفي،" قال أقدو "ستوقظ الفتاة".

لم يستمع توتيفي له، واستمر بالزمجرة.

لبس أقدو حذاءه، فتح الباب وخرج، تبعه توتيفي.

بدا الضباب قد انقشع بعض الشيء، إذ تمكن أقدو من تمييز النبع. لكن، حين سمع صوت الماء الجاري، تذكر أنه نسي إغلاق المحبس. دلف إلى الطرف الخلفي من البيت وهو يحدث نفسه، رفع غطاء صندوق أرضي وأغلق المحبس داخله، ثم عاد إلى الشرفة.

"أترى يا توتيفي؟ لا حس ولا حسيس".

تعالى نباح كلب من بعيد، من جهة البحر زمجر توتيفي.

"ألذلك تزمجر؟" قال أقدو "هل أيقظتني لأن أحد أصدقائك كان ينبح؟"

واصل توتيفي النباح عدة مرات تباعًا. رد عليه الكلب الآخر بالمثل.

"حسنًا كفى، ستستيقظ الفتاة الآن".

في تلك اللحظة، سمع صوت الفتاة بالباب.

"إنهم قادمون".

"ماذا؟" قال أقدو متفاجئًا برؤيتها، "الجو في الخارج جليدي، عودي إلى الفراش في الحال".

اصطحبها إلى الداخل، وأوصلها حتى السرير، ثم أرقدها في الفراش، أدرك أن ارتعاش الفتاة لم يكن من البرد هذه المرة، بل من الخوف.

"لماذا نهضت من السرير؟ أنت بحاجة إلى الاستلقاء والراحة" قال.

"إنهم قادمون، هذا كلبهم، لقد اقتفوا أثري".

"من هم؟"

"الدرك، رجال الشرطة..."

كانت شفتاها ترتجفان وعيناها تدمعان.

سكت أقدو لبرهة، مفكراً بما سيقوله، "لماذا؟ هل سرقت؟ هل قتلت أحدًا؟"

"لم أفعل شيئًا".

"ما الذي يريدونه إذن؟"

"يسألون عن أشخاص لا أعرفهم، وعن أمور لا علم لي بها".

لمعت بذهن أقدو احتمالات كثيرة، لكن عندما لم يستطع الجزم بأي منها، لم يرَ أمامه أي خيار سوى ترك الفتاة بحالها.

"ريحان" قال مخاطبًا الفتاة باسمها أول مرة، "لا تخشي شيئًا، هناك قانون ونظام، حتى لو أنك قد فعلت شيئًا خاطئًا فلا عقاب أكثر من السجن، السجن ليس أسوأ من الحياة خارجه".

"لا يمكنني تحمل المزيد".

"إذا كان من يتعقبك رجال قانون كما قلت، فلن يؤذوك".

"كلا، لن أسمح لهم أن يقبضوا عليّ حية".

"لِمَ أنتِ خائفة إلى هذه الدرجة؟"

"أفضل الموت..."

"على رسلك، اهدئي".

"كنت معتقلة في سجونهم منذ أسابيع، وفي هذا المساء، أتيحت لي الفرصة للهروب مع هبوط الضباب، حتى وصلت إلى هنا".

"سأتكلم معهم، سأجد طريقة ما".

"أين السكين؟" قالت ريحان ثم نهضت لتتجه نحو ركن المطبخ.

"أي سكين؟" قال أقدو ثم أمسكها من كتفيها وأجلسها ثانية.

"أعطني سكينًا".

"كيف يمكنك مواجهتهم بسكين؟"

"سأقتل نفسي، أعطني سكينًا".

"ماذا تقولين، أيعقل هذا التصرف؟"

"لن أسمح لهم بالقبض عليّ حية".

"ربما أنت مخطئة، ولا أحد يتعقبك. هذا مجرد نباح كلب ضال".

"إنه كلب أثر، يقترب أكثر فأكثر".

أصغى كلاهما للصوت القادم من بعيد. نباح الكلب بات بين القبور، يتنقل بين الأشجار والحجارة التي عشقت رائحة الفتاة، ويتقدم على مهل نحوها.

"أنا لا أعرفك يا ابنتي" قال أقدو، "لكنني سأساعدك، تابعي الهرب أيًا كانوا المتعقبين، عندما يصلون إلى هنا، سأشاغلهم حتى أتيح لك الوقت للابتعاد والهروب".

"سيلحقون بي".

"هناك طريق أسفلتي إلى جوار المقبرة، إذا عبرته إلى الجانب الآخر، ستدخلين في سور القلعة القديمة. لن يستطيع أحد أن يجدك داخل سراديبه".

"سيلتقط الكلب رائحتي، مهما حاولت فلن أتمكن من الذهاب بعيدًا، أعطني سكينًا".

حاولت ريحان مجددًا النهوض لتذهب إلى ركن المطبخ. أمسكها أقدو من كتفيها.

"انتظري، دعيني أفكر قليلًا" قال.

وقفت ريحان بيأس، انتظرت بينما شعرت بملوحة دموعها تلامس شفتها التي عاود نزف جرحها، ثم بصوت مرتجف قالت: "أڤدو... أڤدو..."

قصر أڤدو عينيه مفكرًا في طريقة لمساعدة الفتاة. لم يلحظ أن ريحان قد هتفت باسمه مرتين، ظل يتمتم في قرارة نفسه. "لابد من وجود طريقة ما، أجل، لابد من ذلك".

"أڤدو" قالت ريحان ثانية، "لم يكن مجيئي إليك عرضًا، لقد قصدتك لذاتك".

"ليس عرّضا؟ ماذا يعني ذلك؟"

"لقد سبق لي أن أتيت إلى هذه المقبرة لزيارة إليف، إليف التي ترقد في القبر تحت شجرة يهوذا، كنت أعرف اسمك، وقد رأيتك أول مرة في ذلك اليوم".

"هل قلت إليف؟" قال أڤدو قاصرًا عينيه.

"لقد لجأت إليك طلبًا لمساعدتك، لا مكان آخر لي كي أذهب إليه، وإلا ما كنت لأسبب لك المشاكل" قالت ريحان.

"من أين تعرفين إليف؟"

"إنها خالتي".

حاول أڤدو أن يقول شيئًا، لكن لسانه اعتقل من الدهشة. رجع بذاكرته إلى سنين بعيدة مضت، وطافت في ذهنه أسماء ووجوه نسي بعضها وما زال يذكر بعضها الآخر"، إذن إليف خالتك..." ظلّ يردد.

"أنا أقول الحقيقة".

"أمك... أجل، أتذكرها".

"لم يبقَ لي أحد في هذه المدينة".

"لقد أصبتِ بالمجيء إليّ، لكن..."

"كنت مضطرة".

قطع حديثهم النباح الحاد لتوتيفي الواقف عند الباب.

أمسكت ريحان يدي أقدو باكية، "أرجوك" قالت متوسلة، "لا تسلمني إليهم حية، أتوسل إليك".

أخذ أقدو يديها بين كفيه، وتكلم بصوت حازم: " إنهم يقتربون، لا وقت لدينا للكلام، سأخبّئك في الخلف".

"تخبّئني؟ أين؟"

"هناك مكان مناسب، تعالي".

"سيلتقط الكلب رائحتي".

"لا ، لن يستطيع، صدقيني".

"كيف ذلك؟"

"تعالي سترين، هيّا أسرعي".

تكلمت ريحان وهي تشهق باكية، "لكن أعطني سكينًا، لأستخدمها إذا ما عثروا عليّ".

"سأعطيك لكن بشرط، أن تبقي هادئة وأن تفعلي ما أقوله لك".

"كما تشاء".

أحضر أقدو سكين الخبز من الرف في الزاوية، ووضعها في كف ريحان، ثم أمسك بأصابعها النحيلة.

"أريدك أن تعديني بأن تنتظري ولا تستخدمي السكين حتى اللحظة الأخيرة، هل اتفقنا؟" قال.

"حسنًا، أعدك"، قالت ريحان وقد احمرت عيناها.

لفّ أقدو ريحان بالبطانية وأخذها بين ذراعيه، وانطلق بها خارج البيت مسرعًا، أطفأ في طريقه المصباح الذي ينير الشرفة، بينما كان يهرع إلى الفناء الخلفي للبيت، خاطب توتيفي بصوت خفيض.

"توتيفي تعال هنا! توتيفي!"

مرّ بين قطع من الحجارة مختلفة الأحجام بانتظار أن تُنحت، وشواهد قبور غير مكتملة. عبر الورشة التي كان يعمل فيها طوال النهار، وتقدم عشر خطوات أخرى ثم وقف إلى جوار علوٍ في الأرض متوسط الارتفاع، وأشار إلى الجحر المحفور أسفله.

"هذا الجحر هو عرين توتيفي، إنه ضيق للغاية بحيث لا يمكن أن يسع إلا لكلب. أنت ضعيفة، ويمكن أن يسعك أيضًا".

بدت ريحان متشكّكة، "سيجدونني هنا" قالت.

"لا ، لن يجدوك. بعد أن تدخلي الجحر، سأضع توتيفي في المدخل. سيظنون أن كلبهم قد تعقّب توتيفي. عليك الانتظار في الداخل ولا تصدري أدنى صوت أو حركة"، قال أقدو.

"أليس الجحر صغيرًا؟"

"إنه يمتد طويلًا في العمق، لا تقلقي، عميقة بما يكفي لكليكما".

"كما ترى، ليس لديَّ خيار آخر".

"هيّا أسرعي".

انبطحت ريحان على الأرض ووضعت قدميها في الحفرة وراحت تحشر جسدها زحفًا ببطء، حين لم يبق خارج الجحر سوى رأسها ويدها الممسكة بالسكين، قالت: "أقدو.. أريد أن أخبرك شيئًا".

"ستخبرينني فيما بعد، لا وقت للحديث الآن".

"يجب أن أخبرك الآن، لا نعلم ماذا سيحصل فيما بعد".

"له علاقة بإليف؟"

"كلا، يخصني أنا".

"قولي، أسمعك".

"أظن أنني حامل" قالت ريحان.

ارتفعت يدا أقدو عاليًا، قصّر عينيه، تردد بقول شيء ما. ربّت على شعر ريحان، ثم أمسك كتفيها ودفعها برفق، تابعها بينما تنزلق في الجحر وعيناها مغرورقتان، ثم اختفت داخل الباب الصغير للجحر.

أمسك بعنق توتيفي الذي كان ينتظر خلفه، وسحبه إلى باب الجحر، "تعال يا بني"، قال: "حان دورك الآن، ادخل إلى عرينك".

تموضع توتيفي بباب الجحر، كعادته المفضلة دائمًا، وربض مادًّا قائمتيه الأماميتين على الأرض، وهازًّا لسانه الطويل.

"أحسنت، أحسنت" قال أقدو، "انتظر هنا، لا تنهض من مكانك أبدًا" ثم أخرج من جيبه قطعة من اللحم المجفف كان قد أخذها من المطبخ حين أحضر السكين، وضعها أمام توتيفي ونظر إليه بحنان.

بدأ الثلج بالهطول. قبل أن تشرق الشمس، سيصبح كل شيء هنا أبيض.

عاد أقدو إلى البيت، أقفل الباب. قام بتوضيب الأريكة حيث كان نائمًا قبل قليل، ورفع اللحاف عنها. خلع سترته الصوفية وبنطاله، واندس في الفراش في سرواله وقميصه الداخلي. تناول الطوبة التي سبق أن أعطاها للفتاة ووضعها على بطنه مثلها.

بعد أن كان صوت النبع هو الصوت الوحيد المسموع في المقبرة منذ المساء، بات نباح الكلاب وصياح الرجال هو الصوت المهيمن عليها في

نهاية الليل مع انقشاع الضباب. كانوا يتقدمون خطوة خطوة، يوجهون ضوء مصابيحهم اليدوية إلى الأشجار وينظرون إلى أغصانها. يتفقدون كل قبر يقف الكلب عنده، ويتشاورون. "رئيسي! هناك كوخ، يبدو كأنه مسكون!"، صوت صاح بحماس، وتلاه رد صارم: "أطلق الكلب، فورًا!"، ثم استأنف: "ليذهب رجلان خلف الكوخ في الحال".

تحرك الكلب إلى النبع أولًا، ودار حوله، ثم انطلق بثقة نحو البيت. صعد إلى الشرفة وتشمم الأريكة، ثم طاف في أرجاء الشرفة. في النهاية، توقف أمام الباب، مسح أنفه على العتبة، وتلاحقت أنفاسه على نحو سريع. وصل صوت أنفاسه البخارية إلى مسامع أقدو. انتظر أقدو بصبر، أمسك بأطراف اللحاف وشدّها إليه. لم يشعر بمثل هذا الخوف مسبقًا، أ كان من الأجدر أن يحمل سكينًا، هو الآخر؟

انكسر مزلاج الباب بركلة، وتأرجح الباب للخلف حتى ارتطم بالحائط.

"ماذا يجري؟" صاح أقدو وهبّ واقفًا. عاد إلى السكينة في ضوء المصابيح وفوّهات البنادِق التي ملأت الغرفة.

"ارفع يديك!"

"قف في مكانك!"

"إياك أن تتحرك!"

"حسنًا، حسنًا، لن أتحرك".

أشعلوا الضوء في الغرفة، ألقوا نظرة سريعة حولهم.

"من في تلك الغرفة الخلفية؟"

"لا أحد هناك، إنها حمّام".

"فتّشوها!"

فَتْحُ بابِ الحمّام وإغلاقه تمَّ في رمشة عين. نظروا تحت السرير، في الصندوق، بعثروا الألحفة والبطانيات المكدسة على الأريكة.

عددهم أكثر من عشرة، غالبيتهم يرتدون زيًّا عسكريًّا، وثلاثة منهم بملابس مدنية. الجنود يحملون بنادق والمَدنيون يحملون مسدسات، أحد المدنيين من يعطي الأوامر. كانوا يخاطبونه بالقول "رئيسي!" ربما كان من رجال الأمن أو المخابرات.

خرج الرئيس وألقى نظرة على الأريكة والمنقل والطاولة في الشرفة. عاد إلى الغرفة حين رأى أن الكلب لا يزال يتحرك ويتنشق. ذهب إلى الزاوية حيث الصندوق، عندما فتحوا غطاء الصندوق، تبعثرت أكياس الطعام ووقع الإبريق وكوب الشاي على الأرض، انحنى والتقط إحدى شظايا الزجاج الحادة.

التفت وتأمل أقدو: "أهذه شظية من كوب شاي؟" سأل.

"نعم، كوب شاي".

"كان هذا الكوب ممتلئًا، أليس كذلك؟ الشاي انسكب على الأرض".

تردّد أقدو هنيهة، نظر إلى الأرض، لم يجد شيئًا ليقوله.

"أجل"، قال.

"عليك أن تقول رئيسي حين تتكلم معي".

"نعم يا رئيسي!"

"يدعونني بالرئيس كوبرا، ضع ذلك في رأسك".

"فهمت، يا رئيسي".

"ملأت كأسًا من الشاي ثم تركته هنا، أليس كذلك؟"

"سكبت في الكوب آخر ما تبقّى من الشاي في الإبريق لأشربه، وحين شعرت بمرارة مذاقه، تركته. على أية حال فقد شربت كثيرًا الليلة".

بينما كان الرئيس يعبث بشاربه المائل إلى الحمرة، بعثر بطرف قدمه الزجاج المكسور، "رأيتُ أيضًا كوبًا على الطاولة في الشرفة. كم شخصًا كنتم هنا الليلة؟"

لم يتوقع أقدو هذا السؤال، أعطى أقرب إجابة للحقيقة: "يمر بعض المشردين أحيانًا ويطلبون شيئًا من الخبز، أحدهم جاء وطلب أن يشرب الشاي ثم ذهب".

"هل ذهب في هذا الجو البارد؟ مع وجود منقل في الخارج ومدفأة في الداخل؟"

"لا أحد يعلم ماذا أو كيف يفكرون يا رئيسي، ولا متى يأتون أو يذهبون. ربما كان أصدقاؤه بانتظاره عند السور، يقضون معظم وقتهم تحت الأسوار على الجانب الآخر من الطريق الأسفلتي، ويأتون إلى هنا في بعض الأحيان".

بينما أقدو يرد على استفسارات الرئيس، كان يرتدي بنطاله وحذاءه.

"هناك صحن غير مغسول"، قال الرئيس.

"صحن الحساء".

"لا أرى صحنًا آخر، ألم تقدم حساء للمشرد الذي جاءك؟"

"أطعمته هذا صحنه، كنت قد تناولت عشاءي قبل مجيئه، غسلت صحني ووضعته في مكانه".

"إذن فالرجل قد تناول الحساء ثم شرب الشاي وغادر".

"أخذ معه بعض الخبز".

"من كان؟"

"لا أعرف، لا يذكرون أسماءهم لي وحتى لو قالوا لي، فلن أتذكرها".

ضغط الرئيس على ذراع أقدو بقوة، وتكلم بينما يصر على أسنانه مهددًا.

"لا تنسَ! إذا ما سألتك عن شيء فعليك أن تجيب".

"حسنًا، لن أنسى".

"هل فهمت؟"

"فهمت".

"ما اسمي؟"

"الرئيس كوبرا".

"هذا كل شيء، لن تنسى الأسماء".

"لن أنسى يا رئيسي".

"ما اسمك؟"

"أقدو".

"أقدو، أسألك مرة أخرى، من الذي جاء إلى هنا؟"

"يلقّب بالمفلس، يا رئيسي، لم يقل اسمه الحقيقي قط. على أية حال، فالجميع يعرَّفون بألقابهم، لو أعرف اسمه، لِمَ لا أخبرك".

"من هذا المفلس؟"

"أحد المشردين الذين يعيشون عند الأسوار".

"هل يتردد عليك كثيرًا؟"

"يتردد، والآخرون يترددون أيضًا، الجميع يعرفون بيتي"

"هل تسمي هذا الكوخ بيتًا؟"

"مأوى الفقراء..."

"هل أتى أحد غيره هذه الليلة؟"

استداروا حين صاح أحد الجنود من الباب.

"رئيسي! البطيء يتجه إلى الفناء الخلفي".

(البطيء) هو اسم كلبهم. بعد أن تشمّم البطيء كل شبر من البيت، أغطيته وكل أوانيه، خرج من البيت وأنفه يلامس الأرض ثم استدار نحو الشرفة. مثلما لم يبالِ بالضباب طوال الليل، فالآن أيضًا لا يبالي بالثلج الذي يهطل عليه.

"هيّا، تحرك أمامي" قال الرئيس ودفع أڤدو أمامه.

أخذ أڤدو معطفه وغادر.

البطيء في المقدمة، وتبعه الجنود، والذين يرتدون الملابس المدنية، بينما ظلّ الرئيس قابضًا على ذراع أڤدو بشدة. مروا بين الحجارة وشواهد القبور، حتى وصلوا إلى أحلك بقعة في المقبرة. حين توقّف البطيء توقفوا جميعهم، ووجّهوا ضوء مصابيحهم إلى الأمام.

انتصَب البطيء، وصوَّب نظره نحو توتيفي الرابض على بعد عدة أمتار بباب الجحر.

بدا توتيفي كأنّه صخرة منحوتة. راح يتفحص الرجال المتجمعين أمامه بنظرات ثابتة، ومحاولاً فهم نوايا البطيء أيضًا. كلا الكلبين كشّرا عن أنيابهما، وزمجرا في آن واحد، وانتظرا. لو طال الانتظار مع اشتداد هطول الثلج، لتغطى بالبياض كل من رأس توتيفي الرمادي وفراء البطيء. لم ينتظر البطيء، وتابع تشمم التراب حتى اقترب من الجحر، ووقف على بعد

خطوة من توتيفي.

"حيوان غبي!" صاح الرئيس، "أكنت تتعقب رائحة هذا الكلب الأجرب! أمن أجله أحضرتنا إلى هنا؟"

في برهة من الصمت الذي خيم، ارتفع صوت بوم من بعيد. التفت أقدو ورمى ببصره حيث الضريح، ها هو سيد الليل العظيم هناك، بصوته الضبابي وبجناحيه يغطي الليل. انقطعت مياه النبع، وتغطت القبور بالثلج. البيت الصغير الواقع شمال المقبرة تغلف بصمت مبهم، البوم الآن أصبح مالكًا لهذا البيت. ليال وفصول، وعصور طويلة كانت تحت جناحيه. البقع على ريشه من آثار الزمان، لم يقع زمانه تحت تأثير الأحياء أو الأموات. لقد كان هنا عندما لم يكن أحد هنا، وسيظل عندما يختفي الجميع. صوّت البوم بكل قوته، وعلّق صوته على غطاء السماء الأبيض.

مدّ البطيء رقبته، وزمجر بغضب. نبش بقائمته اليمنى الخلفية طبقة الثلج الرقيقة التي غطت الأرض. كان مترددًا ومستعدًا للهجوم في آن واحد. انتصب ذيله، وسال لعابه على الأرض. نبش الثلج مرة أخرى. حين شعر توتيفي بالخطر، لم ينتظر واستبقه بالمبادرة. هبّ على قائمتيه الأماميتين ونبح بشدة. بينما خرج من الجحر كاشفًا عن ضخامة جسده، كان فمه قد فتح وأغلق في لمح البصر. غرس أسنانه في أنف البطيء الذي فوجئ بهجوم توتيفي، ثم دار حوله، متحركًا بخطوات رشيقة غير متوقعة بالنسبة لعمره، غرز أسنانه في عنقه وأجبره على الابتعاد عن الجحر. تراجع البطيء خافضًا من صوته. أدار ظهره، أنزل ذيله وراح يئن من الألم، لعق الدم النازف من أنفه. أحنى رأسه، انتظر في مكانه، مواصلًا لعق أنفه.

ضحك أقدو، وضع يده على فمه كي يمنع نفسه من الضحك. تلفت

حوله بتردد، "أضحك أحيانًا دون سبب وجيه يا رئيسي، لا تلق بالًا لذلك".

لمعت عينا الرئيس في ضوء المصباح، ارتعشت زاوية فمه، استدار وصفع أقدو على وجهه بظهر يده. لم يتوقع أقدو ذلك، ترنح إلى الوراء وبالكاد حافظ على توازنه. أظلمت عيناه، رفع يده متوقعًا خطوة تالية، أمسك جبهته بيده الأخرى. بقي على هذه الحال حتى زالت الدوخة التي أخذت برأسه. تفقّد عينيه وأنفه بأصابعه. لاحظ نزيف من أنفه. مسح الدم النازف بكم معطفه. رفع رأسه.

"رئيسي" قال، "أضحك أحيانًا بلا سبب، الأمر ليس بيدي".

"حسنًا" قال الرئيس بينما يفتل شاربه، "دمك مقابل دم البطيء".

"ليكن" قال أقدو موافقًا على هدر دمه بدلاً من دم توتيفي.

لفّ الرئيس وشاحه الصوفي حول عنقه بإحكام ورفع ياقة معطفه. بدا واضحًا أنه يشعر بالبرد الشديد. وضع إحدى يديه في جيب معطفه، "سأسألك مرة أخرى" قال بضجر، "من جاء إلى هنا هذه الليلة؟"

"جاء الرجل الذي حدثتك عنه، الرجل الملقب بالمفلس. إذا أردت يمكنني الذهاب إلى تلك الأسوار المحاذية للشارع وإحضاره لك".

"لا حاجة لي به".

فقد الجنود الأمل من البطيء، وصار عليهم البحث بأنفسهم دون انتظار مساعدة منه. صاروا يوجهون مصابيحهم بين قطع الرخام التي تنتظر أن تُنحت، وقد تغطت بالثلج. بدا أنهم قد فقدوا الأمل وما يقومون به ليس سوى البحث الأخير لهم لهذه الليلة.

"أنا أبحث عن شخص آخر"، استأنف الرئيس كلامه.

"هل هو أحد أولئك المشردين؟" سأل أقدو. ردّ بارتياح لعلمه الأكيد أن

الرئيس لا يبحث عن شخص بلا مأوى.

"أبحث عن فتاة صغيرة هربت هذا المساء" قال الرئيس.

"أتبحث عن فتاة؟"

"ألم ترَ فتاة هنا؟"

"هنا يا رئيسي! ماذا ستفعل فتاة صغيرة في هذا الليل هنا؟"

"ربما اختبأت في مكان ما في المقبرة، أو ربما شاهدت ظلالًا في البعيد".

"الضباب كان مخيمًا طوال الليل، من المستحيل رؤية أي شيء".

"وكلبك؟ ألم يشتم رائحة غريبة، ألم ينبح دون أن يبرح مكانه؟"

"كلا يا رئيسي، على أية حال فأنا لم أر الكلب، ظل راقدًا في هذا الجحر طوال الليل".

"ماذا تفعل في هذه المقبرة؟ أنت لست حارسًا ليليًا فقد كنت نائمًا عند مجيئنا. هل أنت بستاني؟"

"أنا نحات شواهد للقبور، أنحت شواهد لقبور الأموات هنا، وهذه ورشتي".

التفتا مع سماعهما لزمجرة مفاجئة. توتيفي يهجم على الرئيس، ويحاول عضّ يده، سحب الرئيس يده بعيدًا في اللحظة الأخيرة. تدخل أقدو على الفور، وبسط ذراعيه وأوقف توتيفي. "تراجع!" قال بصوت عالٍ، كان في صوته نبرة خوف. قرفص على الأرض وعانق عنق توتيفي، وربت على رأسه برقة. انتظر حتى هدأت أنفاس توتيفي، ثم سحبه من عنقه وأعاده إلى الجحر، أجلسه عند باب الجحر، دندن بترانيم ناعمة أحبها توتيفي منذ صغره، داعب أنفه وعنقه، حكّ جبهته. ظلّ قربه حتى تأكد أنه لن يعاود الهجوم على الرئيس ثانية، ثم قام وتراجع بخطوات بطيئة، حاول إخفاء

القلق على وجهه بعتمة الليل.

"كلبي نشأ في الشوارع، يا رئيسي،" قال "عدواني قليلًا، لذلك آذى كلبك. كلبك أكثر ألفة ولا يجيد القتال".

"لا يجيد القتال؟" بانت المفاجأة والعداء بوضوح في صوت الرئيس.

"أقصد، حين تراجع، ما أردت قوله..." شعر أقدو بالندم، وراح يفكر في الكلمات المناسبة، على الرغم من خشيته بأن ما سيقوله قد لا يخفف من غلواء الرئيس، رعشة سرت في جسده حين رأى الرئيس يحدّق به دون أن يرمش له جفن.

"ماذا قلت؟"

"أقصد أن كلبي عدواني وسيء الطباع..."

"كلبي ليس بحاجة إلى إجادة القتال" قال الرئيس، "لا أطلب منه سوى إرشادي إلى من أبحث عنه، أنا من أقاتل دفاعًا عنه".

"بالطبع، هكذا هي الكلاب الأصيلة، تتبع الأثر، ترشد إلى الطريق الصحيح..." قال متلعثمًا.

قرّب الرئيس وجهه من وجه أقدو، "أنا من أقاتل دفاعًا عن كلبي" ردّد الكلمات نفسها ثانيةً واحدة واحدة.

"بالطبع، يا رئيسي".

قرّب الرئيس فمه من أنف أقدو، وكشر عن أنيابه مثل كلب.

بخار أنفاسه انبعثت في وجه أقدو، أطراف أسنانه بدت مدببة ولسانه ممدودًا، سحب المسدس من خصره وشهره ببطء.

"أترى هذا؟" قال.

"أجل،" قال أقدو محدقًا في المسدس بذهول.

"أتراه الآن؟" سأل الرئيس مرة أخرى مصوبًا مسدسه نحو توتيفي.

"بالتأكيد يا رئيسي، أرى، لكن..."

"انظر جيدًا إذن".

أسرع أقدو بالوقوف أمام مسدس الرئيس. نظر في عينيه متوسلًا، "أرجوك... أرجوك..." قال.

عاجله الرئيس بلكمة قوية رفعته عن الأرض ثم ألقته، فوقع متمددًا كجذع شجرة. غاب وعيه برهة، وحين عاد إليه وعيه، حار في تفسير ما حدث له. شعر أنه غير قادر على النهوض، لكنه دفن يديه في الثلج محاولًا النهوض ثانية. لم يسمح له الرئيس بالنهوض إذ داس بقدمه على رأسه، ثم زلّق جزمته ذات النعل المسنن حتى عنقه، وضغط بقوة حتى شلّ حركته واضيقّت أنفاسه.

استدار الرئيس نحو توتيفي، فرآه يستعد للانقضاض عليه ثانية، فأطلق عليه النار في الحال، ثم تابع الضغط على الزناد بلا توقف. شعلة من النيران خرجت من فوهة المسدس أنارت الظلام حولها، بدا كأن السماء ترعد. تناثر الثلج يمينًا ويسارًا. ظل الرئيس يعاود الضغط على الزناد بقوة أكبر مع كل جولة، بدا حاقدًا كأنه ينتقم من جيش من الأعداء له شرسين. صبَّ جام غضبه على جسد حيوان فارق الحياة منذ الطلقة الأولى، لقد أفرغ كامل مخزن المسدس من الطلقات في جسد الحيوان الميت.

تدفق دم توتيفي مثل مياه النبع، وسال حتى وصل إلى يدي أقدو. عندما شعر أقدو بدفء الدم بأصابعه الباردة، حاول أن يلتفت نحو توتيفي، لكنه لم يستطع تبينه، لقد تغطى بالثلج. حين تمدد دم توتيفي الدافئ من أصابع أقدو حتى رسغيه شعر بالموت في نبضه، الموت انتقل مع نبض عروقه

حتى وصل عينيه، فامتلأت عيناه بالدموع.

أخرج الرئيس المخزن الفارغ، وأدخل آخر محشوًا، وسحب أقسامه. ركع على ركبة واحدة ومال على أقدو، صرّ على أسنانه وقال شيئًا ما، كانت أذنا أقدو تطنان فلم يسمع شيئًا مما قاله. لم يكن في أذنيه سوى الصوت الذي أصدره توتيفي حين تلقى أول رصاصة في جبهته، حين وجده جلدًا على عظم من الجوع قبل اثنتي عشر سنة كان صغيرًا بحجم الكف، في ذلك الوقت كان يصدر صوتًا ناعمًا متوسلًا.

بدأت نُدَفُ الثلج تكبر بعد انسحاب الرئيس بكلبه ورجاله، وتحولت المقبرة إلى حديقة بيضاء. تثاقلت الأغصان، واتحدت الأرض والسماء مع اتحاد زمن الأحياء والأموات وتحوله إلى اللون الأبيض، اختفى دم توتيفي الأحمر تحت غطاء أبيض. طنت أذنا أقدو، وترددت أصوات طفولته قادمة من بعيد. أين هو الآن، كم عمره؟ في أي موسم هو؟ في أرض أي مدينة، وأي وحدة؟ لقد تسلل إليه زمن الماضي، وعانق جسده بهدوء. استسلم لصمت ذلك الزمان، إلى أن جاءه صوت البوم مرة أخرى من زاوية الليل الوحيدة التي تحمل بشائر الحياة. عندئذ رفع رأسه، مسح الثلج عن وجهه بيده، وتقدم بضع خطوات في عتمة المقبرة نحو كلبه الممدد هامدًا لا روح فيه. أطال النظر إليه، تلك كانت أطول ليلة في السنة. تذكر أقدو المكان والزمان حيث هو.

كازينو باريس

إسطنبول
1965

كان كازينو باريس ممتلئًا بالروّاد مساء السبت. مفارش بيضاء على الطاولات، مزهريات حمراء، وأزهار نضرة تتلألأ بألوان مختلفة تحت الثريات الكريستالية. اعتلى فريق عازفي الساز المسرح واتخذوا أماكنهم خلف الميكرفون بخطوتين بانتظار المطرب. ستقوم مطربة يليها مطرب بتقديم أغنيات مرحة للضيوف، ثم تعزف فرقة الساز موسيقى شعبية بمصاحبة فرقة رقص. يلي ذلك فرقة أخرى تقدم أغاني البوب والروك ويصاحب ذلك تقديم المشروب، ثم تطفئ الأنوار لتهزَّ راقصة الليل الصالة مع اهتزاز خصرها بينما تلاعب الفقّاشاتِ أصابعُها. مع اقتراب منتصف الليل، تكون الرؤوس قد أدارها المشروب وامتلأت نشوة، وباتت النفوس تميل إلى بعض الهدوء والحنان، فتظهر عندئذ نجمة الكازينو الفنانة بريهان سلطان، بلباسها المبهرج البرّاق، وتتقدم نحو المسرح بخطوات متأنية وبأناة كأنها تمشي على الماء. ستسحر بريهان سلطان الجميع من أغنيتها الأولى، وستُرصُّ أكاليل الزهور المقدمة لها على امتداد خشبة المسرح، وسترسِل

القبلات للحاضرين وتفوز بقلوب المعجبين.

لا يزال أمام بريهان سلطان متسع من الوقت ليأتي دورها، عندما كانت في صالة الطابق العلوي تأكل الشاورما، وتشرب اللبن العيران، وتروي ما مرَّ معها في ذلك اليوم لمساعدتها يوكسيل.

"قلت لسيراني أنت قوي وصلب، ولو تعصر الحجر، ستخرج منه ماء. أما أنا، فلا شيء من دونك، إذا لم أرك في الكازينو، ولم أرك تتنقل بين الطاولات، أشعر كأن نهاية العالم قد أزِفت. لقد أزِفت نهاية العالم لي وحدي، بينما سيتابع الجميع حياتهم، ستلمع الأضواء ولن تتوقف الضحكات. عالمي وحده سيُظلِم من دونك ويتلاشى. أتدرك ذلك؟ سأتلاشى مثل دخان السيجارة. أصدقاؤك كثر يا سيراني، لكن أعداءك أكثر. عالم أعدائك مليء بالوضيعين الذين لا يستهوونك، ويغارون منك، ويحيكون لك المكائد، عليك حماية نفسك، وأن تكون حذرًا. تصِلني أخبارك وكل ما تفعله، لكن عليك أن تفكر بحالي أيضًا. أنا في حالة يرثى لها من شدة شوقي إليك، أقارع الأقداح حتى الصباح بانتظارك، وعندما لا تأتي، يحترق قلبي كشمعة ويذوب. هل أحسنت الوصف يا يوكسيل؟ يذوب كشمعة. لم أرك منذ أسبوعين، أين اختفيت؟ يسعدني أنك تبعث برجالك لتسأل عن حالي، فأطمَئنُّ عند سماع اسمك وأعلم أنك بخير. علمت أنك قد داهمت أحد البارات في حي ينيكابي الأسبوع الماضي، وحطمت محتوياته. أنت جريء، لكنني أخشى أن تصاب بأذى. روحي فداكَ يا سيراني، ماذا سأفعل من دونك؟ يقال إن في أغاني بريهان سلطان لوعة. ماذا أفعل غير ذلك؟ تلك الأغاني أغنيها بدافع الشوق وحرقة القلب. لقد جاء تاجر المخدرات جانيب أمس إلى الكازينو، لم يسمح له

الحراس عند الباب بالدخول مع رجاله الخمسة، فصاحوا مهدّدين بالعثور على سيراني ومحاسبته. قالوا ستبقى بريهان سلطان بلا رجل، ثم حطموا اللوحة الزجاجية لبرج إيفل عند المدخل، وانصرفوا. قيل إنك حطمتَ لهم منصة المخدرات، وبارهم في ينيكابي، هل هذا الكلام صحيح؟ إذا كان صحيحًا، فحسنًا فعلت، وإذا لم يكن صحيحًا، فالخبر قد شاع على أية حال. كن حذرًا، ولا تتركني بعدك وحيدة يا سيراني، عليك أن تضاعف الحذر من الآن فصاعدًا. كنت أقول له ذلك بينما أحدق في عينيه بذهول، وحين رأى سيراني حالي هذه، نهض عن كرسيه، وألقى نظرة على رجاله المنتظرين عند الباب. كان الرجال يشيحون بوجههم عنا، أطفأ سيراني سيجارته في المنفضة، أمسك يدي وقال يا سلطانتي. آه يا يوكسيل، قلبي كاد أن يقفز من مكانه، لقد قال "سلطانتي أنا أعيش في هذه الدنيا من أجل حمايتك أنت، وليس من أجلي أنا. لن أسمح لأحد أن يؤذي شعرة واحدة من شعرك. بعد أن انصرف تاجر المخدرات جانيب تلك الليلة، تتبعته حتى دخل في أحد الأزقة، وأطلقت عليه النار فأرديت أحد رجاله". آه يا يوكسيل، هل كنت تعلمين بذلك؟ لقد قلت لسيراني ما من أحدٍ أخبرني بذلك. سالت الدموع من عيني، مسح سيراني الدموع عن خدي، وقال "لا تبالي يا سلطانتي، لا تقلقي، ستكون الأمور على أحسن حال قريبًا". فقلت له، أنا الآن بِتُّ أخاف عليك أكثر. كان صوتي يرتجف من البكاء، نظر سيراني في عيني وسأل إن كان عندي شيء آخر أخبره به، كدت أن أفقد وعيي وأقع على الأرض يا يوكسيل، استجمعت قواي وقلت أجل عندي، ثم أطلت في الصمت مثلما تفعل الممثلات في الأفلام. سبّلت عيني مثل الممثلة توركان شوراي في فيلم العيون السوداء، انفرجت

شفتا سيراني قليلًا عن ابتسامة تحت شاربه، عندئذ انطلق لساني. قلت، سيراني، أنا أحمل طفلك في بطني، أصابه الجمود برهة قصيرة بينما كنت أتساءل عن ماذا يفكر الرجال في مثل تلك اللحظة، أو هل سيصدقني... فإذا به يمسك يدي ويقربها من فمه ويقبلها. لم أتمالك نفسي، فعانقته بحرارة، وبلّلت سترته الكحلية بدموعي. سيرانى، قلت، إن غيابك يفجر ينبوع الدموع في داخلي، ويفيض في قلبي نهرًا حزينًا. هل جميل ما قلته يا يوكسيل؟ ينبوع الدموع ونهر حزين في قلبي، لقد تكلّمت مثل الأغاني، قلت ذلك بطريقة مؤثرة. ربَّت سيراني على شعري، وقبّل جبيني. قال من الآن، عليك الاهتمام بصحتك، لا ترهقي نفسك وخففي من صعودك على خشبة المسرح، سأكلم السيد كالندر بهذا الخصوص. قلت له كما تشاء، ثم قال إن على يوكسيل البقاء عندك باستمرار ولا داعي لذهابها إلى بيتها ليلًا، قلت كما تشاء. ثم قال: "إذا كان الطفل صبيًا، فسوف نطلق عليه اسم أبي". هذه المرة، لم أقل له كما تشاء، بل قلت أخبر السيد كالندر برغبتك هذه، رفع حاجبه الأيمن مندهشًا، تابعت كلامي وقلت إن يوكسيل حين علمت أنني حامل أسرعت وأخبرت السيد كالندر، مع أنني كنت أريد أن تكون أنت أول من يعرف بحملي، لقد أزعلتني يوكسيل لفعلتها هذه. هذا ما قلته يا يوكسيل ماذا أقول غير ذلك؟ ثم قلت، هرع السيد كالندر إلى غرفتي وسألني إذا ما كنت بحاجة إلى أي شيء. حين علم أنني ذاهبة لرؤيتك، حمّلني لك السلام وقال ضاحكًا، قولي لسيراني أن يسمي المولود باسمي إذا كان ذكرًا، كرّر ذلك مرتين. أخبرته أن سيراني يعلم بالجنين، وأن سيراني بطلي، ووالد طفلي. فابتسم وقال، لن نكسف السيد كالندر، لقد عاملنا كأب، وساعدنا كثيرًا. لقد أخرجني من

المستنقع أولاً ثم أخرجك أنت أيضًا. يوكسيل، أنا سعيدة جدًا، لكنني لم أسأل سيراني ماذا لو كانت الطفلة بنتًا؟ هل يمكنني تسميتها باسم أمي ريحان؟ ما رأيك يا يوكسيل، أليس هذا الاسم جميلًا؟"

"أجل جميل، لكن كُلي على مهلك يا بنت، ستختنقين" قالت يوكسيل.

"لا أشعر بالشبع يا يوكسيل، الطفل في معدتي يبتلع معظم الطعام، لا يبقي لي شيئًا، اطلبي لكل منا شطيرة أخرى".

"ستصعدين على المسرح بعد قليل، ستنتفخين إذا ما أكلت كثيرًا، انتظري حتى ينتهي العرض".

"ارحميني يا يوكسيل، أتريدين أن أقع على خشبة المسرح من الجوع ويغمى علي؟ والله إن عصافير بطني تزقزق".

"حسنًا، حسنًا، منذ أسبوع وأنت لا تتوقفين عن الأكل، إذا ما استمريت هكذا سيصبح وزنك مائة كيلو".

"كلا، لن يصبح، هذا الطفل يأكل معظمه".

قامت يوكسيل إلى الباب ونادت، "فاطمة! فاطمة، تعالي إلى هنا!"

ردَّت البنت بينما تصعد الدرج، "حاضر يا ست يوكسيل".

فاطمة فتاة في الثانية عشرة من عمرها تبيع الزهور للمارة في الشارع نهارًا، ولرواد الكازينو ليلًا. ترعى والدها المريض وشقيقها الصغير. اعتادت المجيء من حي طارلاباشي مع سلة من الزهور في الظهيرة، وتعمل حتى منتصف الليل. من يعلم من الزبائن بحالها، لا يبخل عليها بالمال ثمنًا للزهور. كل قصص جميع الفتيات اللواتي يقمن ببيع الزهور في شوارع بي أوغلو متشابهة، لا يبخل الزبائن عليهن رأفة بحالهن، بريهان سلطان أيضًا تحدثت عن شقاء تلك الفتيات وعن الزبائن ذوي القلوب الرحيمة في أغانيها.

"فاطمة، خذي هذه النقود، واحضري لنا شطيرتين. وخذي أخرى لك أيضًا".

"لقد أكلت للتو، يا ست يوكسيل".

"ليكن، خذيها إلى البيت".

"شكرًا يا ست يوكسيل".

"خذي لبن عيران أيضًا".

قبل أن تعود يوكسيل إلى مقعدها، وقفت أمام المرآة، تأملت نفسها، وقامت بتصفيف شعرها. مدت إحدى ساقيها جانبًا وكشفت تنورتها عن فخذها وقالت "يا بنت، هل ترين أن وزني قد ازداد؟"

"ما هذا الهراء يا يوكسيل، أنت مثل غصن البان يا بنت، لا توجد شبيهة لك بجمالك في البي أوغلو".

"لا أحد يرى ذلك سواك، العمر قد تجاوز الثلاثين".

"خير إن شاء الله، أجرى شيء جديد؟ هيّا قولي لي".

"ماذا سيجري يا عزيزتي، كنا نأمل أن يتجرأ الرجال الخجولون على المبادرة خلال أيام، لكن أسابيع وأشهر قد مضت دون نتيجة. بعد أن غادرت البيت اليوم، ذهبت إلى موقف سيارات الأجرة، احترت أي من السيارات أركب. تلفتّ حولي فإذا ابن قريتك مظفر في سيارته الصفراء في طابور الانتظار. فكرت بتجاهله، لكنك تعرفيني، لا يمكنني تجاهل اللون الأصفر، ولا سيارة صفراء سوى سيارته في هذا الموقف. حين رآني، جاءني على الفور، أخذ الكيس من يدي ووضعه في السيارة قبل أن أتفوه بكلمة واحدة. صعدت إلى جواره، حركة السير بطيئة جدًا في الصباح. انتظرنا طويلًا. يا لهذا الرجل الغريب، لديه الجرأة على حمل كيسي، لكن عندما

يتعلق الأمر بفتح حديث، فهو أصم أبكم! لو انتظرته حتى يتحدث، فلا جدوى. سألته عن حال أمه، تلك العجوز التي تقيم وحدها، فقال كيف سيكون حالها، تحاول أن تتعايش مع آلام الروماتيزما التي أصابتها. أعلم أن مظفرًا طيب القلب، لكن ذلك لا يكفي. هل عليّ أن أقول له تزوجني وسأعتني بأمك العجوز، هل ألقمه في فمه ما يجب عليه قوله؟ على أية حال، هو أيضًا، سألني عن حال البيت حيث أقيم، وتشعب الحديث حتى وصل إلى خلافي مع زوجي السابق ووصول الأمر إلى المحكمة بخصوص ملكية البيت. أترين استعداد الناس لنشر أخبار غيرهم؟ عندما حكمت لي المحكمة بملكية البيت، لم يستسلم طليقي، واستأنف القرار في المحكمة العليا. من هذه النقطة انطلقت بالكلام، وقلت الزمن لا يرحم يا مظفر، تجاوز عمري الثلاثين عامًا، وما زلت لم أحصل على قرار بشأن ملكية البيت. لم أقل إني في الثانية والثلاثين، لكنني ذكرته بعمره، إذ قلت له أنت أيضًا قد تجاوزت الثلاثين، فقال أنا في الرابعة والثلاثين. قلت في قرارة نفسي، أي أنه أكبر مني بسنتين. ثم أخبرني أنه أكبر منك بعشر سنوات لأنه يتذكر يوم ولادتك، كان ينقل الحليب من الحظيرة إلى البيت، حين علم بولادتك في البستان. لم يكن اسمك في القرية بريهان سلطان، بل إيبيك. أسكته وقلت له إنها الآن الفنانة بريهان سلطان المشهورة. أحسنً ما قلت؟ لقد شعر بالخجل، سكت على الفور واحمر وجهه، وبان التأثر في عينيه. أنتم أيها القرويون، كم تحبون الحديث عن قراكم! لحسن الحظ أن يكون لك قرية كأن الدنيا تدور حولها، هذا ما قلته لمظفر. ثم قلت إن ما يجدر عند الحديث عن قريتك، ذكر طهارة قلوب أهلها. وقلت أيضًا إن بريهان سلطان أخبرتني أن بعض الأمور لا يمكن الإفصاح عنها، وأظن

أنه أدرك ما أعنيه. لقد أيّدني بأن صوتك جميل لأنه ينبع من أعماق قلبك، وقال إنك عندما كنت تغنين في صغرك، كان الجميع يتحلقون حولك. عندما عدنا للحديث عن القرية، أخبرني أنه سيذهب إلى القرية الأسبوع المقبل. يملك قطعة أرض هناك، وقد وجد لها مشترٍ، سيبيعها ويعود. ثم رجاني أن أعتني بأمه أثناء غيابه. فأجبته سأفعل، ما دمت قد طلبت فلن أردّك يا مظفر. في ذلك الوقت، حان دورنا، فصعد بقية الركاب إلى السيارة وانطلقنا. توقف مظفر عن الكلام، كأن الركاب من أقاربنا وسينشرون حديثنا. طوال الطريق، كان يتمتم مشاركًا شريط الأغاني الذي وضعه في مسجل السيارة، وينظر إليّ من حين إلى آخر ويتبسم. أنا راضية بذلك يا بنت، هذا الرجل الذي ذهبت معه في طريق واحدة دون أن نتحدث واستمعنا لنفس الأغاني قد احتل مكانًا في قلبي. أقسم لك! لكن يبدو أنه في عالم آخر، عالمه ليس فيه سوى أمه وسيارته الصغيرة، وسيرحل إلى العالم الآخر على هذه الحال. هذا غير مقبول البتة، عندما أزور أمه الأسبوع المقبل، سأقنعها أنها لن تجد كنّة أفضل مني.

"من أين لها أن تجد أفضل منك؟" قالت بريهان سلطان، ثم تابعت: "يوكسيل، لِمَ لا تدعين مظفر للحضور إلى الكازينو؟ سيكون ضيفنا. أنا أيضًا، لم أره منذ مدة طويلة".

"كيف سيأتي إلى الكازينو، بينما يخجل حتى من الدخول إلى الشوارع الخلفية لحي بي أوغلو؟"

"لا تتحاملي عليه، هذه طباعه منذ كنا في القرية، كان يعيش وحده ولا يتدخل بشؤون الآخرين. لم يتزوج حتى الآن بسبب حيائه، اتصلي به وأخبريه أن بريهان سلطان تريد أن تكلمك".

"ماذا ستقولين له؟"

"أخبريه أن يأتي قبل ذهابه إلى القرية".

"هل ستكلمينه عني؟"

"سأفعل ذلك أيضًا إذا أنت أردت ذلك، لكنني أعرف تمامًا أنك لا تريدين، لقد سبق وألححت عليك لكنك رفضت".

"لا تقلقي من أجلي، سأحل الأمر بنفسي. على أية حال، فأنا ذاهبة إلى أمه وسأبقى عندها حتى يعود من القرية".

"هذا هو الأفضل" بعد أن أطلقت بريهان سلطان قهقهة، أطرقت ثم انحنت نحو الأرض وأصاخت السمع إلى الأصوات القادمة من الأسفل، ثم قالت: "ها قد بدأت فرقة المجانين، ماذا يحب الناس في موسيقى وأغاني البوب والروك؟"

"أنا أحبهم، إنهم طيبون، على الرغم من أنهم قليلو العقل لكنهم مسالمين. إنهم يحبونك، يقولون إنه بفضل بريهان سلطان، يتزاحم الناس على باب الكازينو، ونحن نكسب لقمة عيشنا بفضلها".

"أنا أحبهم أيضًا، لكن أغانيهم مختلفة. اسمعي، اسمعي، الكازينو يرتج من عزفهم".

"لم تكملي كلامك يا بنت، ماذا ستقولين لمظفر؟"

"خطر ببالي اليوم أن أطلب من أختي إليف أن تترك القرية وتأتي لتقيم معي. لا أدري إذا كانت ستجرؤ على فعل ذلك. على الأقل يجب أن تعرف مكاني، لتأتي متى تستطيع. ما دمت سأنجب طفلًا، فلتأتي لنعش جميعنا معًا".

"لا بأس بما فكرت، لكنني لا أدري كيف تفكر أختك".

"أنا أيضًا لا أدري، لكن لابد من وسيلة لإيصال رسالة إليها. أخبري مظفر أن بريهان سلطان تريد التحدث معك بخصوص إليف. سأكتب رسالة لها كي يعطيها لأختي دون علم أحد عند ذهابه إلى القرية".

قرية كوناك غورميز

سهل هايمانا
1958

بعد مرور أربعين يومًا على وفاة كارا آغا، وتشبّع تراب قبره من شدة الأمطار واستقراره جيدًا، استدعوا المعلم أقدو نحات شواهد القبور المتجول بين قرى السهل منذ العام الماضي. وضع ابنا كارا آغا قطعة ذهبية في كف المعلم أقدو، ووعداه بثلاث قطع ذهبية أخرى إذا ما نحت شاهد قبر لأبيهما أفخم من شاهد القبر الذي نحتته لعرّابها العائلة المناوئة لهم. اصطحبا أقدو إلى الجداول والتلال المحيطة بالقرية ليرى حجارة المنطقة ويختار المناسب منها. اختار أقدو كتلة رخامية كانت قد كشفتها الأمطار على سطح المنحدر الجنوبي، بعد أن أذهلته بلمعانها، وأكّد أنه لم يرَ قط أجمل منها. استخدم ستة أحصنة لجرِّ كتلة الرخام تلك، واحتاج وصولها إلى القرية إلى كثير من الوقت والصبر والتأني بعد أن قُطعت الحبال أكثر من مرة. اجتمع كبار السن والشباب والأطفال حول كتلة الرخام بفضول. قال كبار السن إن هذا النوع من الرخام المصقول كان شائعًا جدًا في الماضي، وكانت قرى العشائر تستخدمها لبناء بيوتها ومساجدها وسبل مائها. الصخور الحجرية متوفرة

في السهل، لكن الصخور الرخامية نادرة. الصخور المنحوتة هي من بقايا العهد العثماني، لكن الرخام أقدم، وقد أحضره البيزنطيون من أماكن بعيدة واستخدموه في المباني. ربما قام البيزنطيون أيضًا، بنحت قطعة الرخام هذه وصقلها على شكل عجلة دائرية، لكن الغريب في الأمر خلوها من أية كتابة. قد تكون هناك كتابة على سطحها الآخر، لذا قرروا رفعها واستعانوا على ذلك بالأحصنة مرة أخرى.

احتاج تنظيف السطح من الطين والطحالب والديدان إلى الكثير من الماء. عندئذ تكشَّفت إشارة الصليب المحفورة بعمق على ذلك السطح بعد أن كانت غير ظاهرة منذ أزمان بعيدة. نظر الجميع بحيرة وتردُّد. حول الصليب، كتابات لأبجدية غير معروفة، حيثما يتم العثور على مثل هذا الحجر الجميل، يؤمل في العثور على كنز دفين هناك. وما دام لا كنز هناك، فالبديل لعنة محققة. طلب كبار السن من ابني كارا آغا أن يعيدا قطعة الرخام إلى حيث كانت كي لا تتسبب في مصيبة للقرية. أيوضع صليب مسيحي على قبر مسلم؟

اعترض المعلم أفدو، وسأل القرويين إذا كان بينهم من أتيحت له الفرصة أثناء خدمته العسكرية بالذهاب بعيدًا ورؤية إسطنبول وغيرها من المدن الكبرى. هل خدم أحدكم في الجيش في طرابزون؟ تقدم أحدهم وقال إنه أدى خدمته العسكرية في طرابزون، وإنها أجمل مدينة في تركيا - لم يرَ أية مدينة أخرى-. وحين سأله أفدو عن جامع الفاتح الكبير، أجاب بأنه أدىَ صلاة الظهر هناك في أحد الأيام. عقَّب أفدو بقوله إن ذلك الجامع كان كنيسة، وأقيمت فيها مراسم تتويج الملوك المسيحيين، ودُفنت فيها جثامينهم. عندما فتح السلطان محمد الفاتح المدينة، حوّل تلك الكنيسة

إلى جامع، تمامًا مثل ما فعل في كنيسة آيا صوفيا في إسطنبول. وضرب أقدو أمثلة أخرى، فمحاريب الكثير من الجوامع قد شُيّدت من رخام الكنائس في كثير من المدن التي زارها. استمع القرويون بفضول لما قاله أقدو وغبطوه على أسفاره إلى مدن بعيدة جدًا، إلى أن قال إن قريتهم هي أيضًا قرية مسيحية؛ ذلك ظاهر من اسمها. جاءت عشيرة إلى هذه القرية من الشرق واستقرت في السهل قبل مئتي عام، مثلما فعل الكثير غيرها من العشائر، واستولوا على قرى السهل وغيروا أسماءها، لكنهم أفسدوا معانيها. أيعقل أن يكون كوناك غورميز اسمًا لقرية؟ إن أصل الكلمة من لغة البيزنطيين هي كوناك أورماس، وقد تغيرت مع الوقت. ثم قال أقدو إن جبلًا يدعى كوناك غورميز قد شاهده في أرضروم على قمم جبال بالاندوكين.

استاء كبار السن من كلام أقدو وحاولوا إسكاته مدعين أن كوناك غورميز هو الاسم التركي الرسمي للقرية، ويرجع إلى سجلات العهد العثماني، على الرغم من علم كل أهل السهل أن هذه القرية كانت تدعى شكسان نسبة إلى قبيلة شكسان الكردية. لكن أقدو لم يتوقف عن الكلام وتابع أن اسم السهل هايمانا، نسبة إلى قبيلة من المسيحيين الأرمن تُدعى هاي، عندئذ، نفد صبر أهل القرية، فوبخوه طالبينَ منه الكفَّ عن الاستخفاف بهم، وأنه بدلًا من أن يشكِّك في أصل قريتهم عليه معرفة أصله، إذ يقيم في هذا السهل منذ عام، لا أحد يعرف أين كان يقيم ولا من أين أتى، وكيف لمعلم حجارة، السفر إلى بلدان بعيدة والتحدث بعدة لغات؟ ردَّ عليهم أقدو أن لا بيت له، فقد عاش يتيمًا وسافر كثيرًا منذ صغره، واختلط بأقوام كثر وتعلم لغتهم، لذلك فهو يتحدث الكردية والتركية والعربية والأرمنية والسريانية واليونانية.

في الأيام التي تلت تلك الحادثة، وبينما كان أڤدو يصقل ويمسح قطعة الرخام في المقبرة، كان الأطفال يتجمهرون حوله من حين لآخر. الرخام يُصقل بالرخام، فيصبح كالمرآة. كان المعلمون القدامى ينصحون معاونيهم بصقل الرخام بأناة وصبر حتى يرون صورة وجوههم على سطحه! بينما كان الأطفال يتابعون يد أڤدو الصبورة، ويلهون بما يطرحه عليهم من أحاجي، كان كبار السن يتحاشونه، مشكّكين بإسلام هذا الغريب الذي لا يأتي لصلاة الجمعة، واحتمال حمله لدم أحد الكفرة، خاصة باعترافه عدم معرفته لأمه وأبيه. أبدوا قبولهم على قيامه بمسح الصليب المسيحي عن الرخام وإعادة تشكيله ليصبح شاهدًا لقبر كارا آغا، لكنهم ابتعدوا عن سماع قصص جديدة لا تسر البال من فمه المحشي بتلك القصص. أما نساء القرية، فقد تأملن من بعيد ذلك الشاب فارع القامة، ونِمْنَ طربًا على صوته يغني على السطح ليلًا قبل نومه.

حين تغرب الشمس، يذهب أڤدو إلى النبع ليغسل الغبار المتراكم على وجهه وشعره، فتتنحى الفتيات جانبًا وينتظرن ذهابه لملء جرارهن بالماء. حين تتابع الفتيات ابتعاده بخطوات بطيئة، يشعرن نحو هذا الغريب بسحر أقوى من أي سر من أسرار القرية. كل فتاة كانت ترسم طريقًا لنفسها من ذلك السحر، وتحلم أن يصطحبها هذا الشخص الغريب معه حين يغادر القرية.

على الرغم من النظرات العرَضية لكل الفتيات العازبات، فقد خفق قلبَ أڤدو لفتاة مخطوبة، وانتظر نزول الفتاة التي تدعى إليف إلى النبع كل يوم. تعرّف على بيتها المطلي بصباغ نيلي، وغنى لها في الليل بعد انطفاء الضوء في بيتها. بعد انطفاء الأنوار، يصبح الوقت ما بين الغفلة واليقظة هو زمن

الوحدة والأحلام. إليف أيضًا، كانت تنتظر حتى يستغرق والداها وأختها في النوم، لتجلس في سريرها، تلعب بشعرها المجدول بالخرز الأزرق، وتحلق عاليًا على أنغام أقدو التي تداعب أجواء الليل كالنسائم اللطيفة. منذ أن لاحظت أن أقدو يخصّها بنظرات الإعجاب، أدركت أن أغاني الليل كانت تناجيها /ليتني آتيك فجرًا / وأهديك وردة حمراء / يا حبيبتي / فالحياة بعمر وردة / لونها من لون الدم الأحمر يا حبيبتي / الحياة بعمر وردة.

كانت إليف ترى مع كل أغنية، أن الغريب حين يغادر القرية لن يأخذ ذهباته فحسب بل سيعانقها بظله السحري أيضًا، ويصطحبها على حصانه خلفه، ويبتعد بها خفية ذات ليلة حين يكون أهل القرية كلهم نيام، فتشعر برعشة تسري في أوصالها وتسارع بدقات قلبها.

قرية كوناك غورميز

سهل هايمانا
1958

كان كارا آغا يملك قصرًا من ثلاثة طوابق وثلاثة قطعان من المواشي وثلاثة رعيان. القصر يعتلي الفناء الواسع بمهابة، بينما بيوت الرعيان في الأسفل إلى جانب الحظائر. لرئيس الرعيان ابنًا يدعى باقي، يبلغ من العمر عشر سنوات. بعد أن ينهي باقي عمله في الحظيرة، يمضي بقية نهاره مع أقدو، الذي ينحت شاهد قبر لكارا آغا. يستمع إلى حديث أقدو عن الرخام وعن روح الرخام، يتعلم منه طريقة حمل الإزميل والعمل به، إضافة إلى تلقّيه دروسًا في القراءة والكتابة. في المقابل، كان باقي يجلب له مياهًا للشرب من النبع باردة، عند شروق الشمس وقطوف البرقوق من البستان القريب. بينما كان عمل أقدو في نحت شاهد القبر يطول يومًا بعد يوم، فيمتدح القرويون دقة صنعته وصبره، لم يكن سوى باقي من يعلم حقيقة هذا التأخير. لقد فرح حين أدرك أن معلمه أقدو يتعمد البقاء في هذه القرية إلى أجل طويل بعد أن حمّله رسالة إلى إليف.

في اليوم التالي، أحضر باقي رسالة من إليف إلى أقدو ردًا على رسالته،

وراقب بفضول تقلّب ملامح وجهه أثناء قراءته الرسالة. لم تكن الشمس قد أضحت بعد، ولم ترتفع حرارة الجو بعد أيضًا. لكن أقدو طلب من باقي ماءً باردًا من النبع. وبعد أن ارتوى، صبّ ما تبقى من الماء على رأسه، وشارك ما كُتب في الرسالة مع باقي؛ صديقه الوحيد في القرية. أنا مخطوبة، قالت إليف. لا تحبني، احبب فتاة غيري. إذا كنت تريد فتاة تشبهني، فأختي إيبيك في السادسة عشر من عمرها، عزباء. كثيرون من طلبوا يدها، لكنها لم توافق على أحدٍ وستوافق لو تطلب يدها. سأقنعها أن تهرب معك خفية حينما تغادر القرية. صوتها جميل مثل صوتك، ينعش القلب، ستكونان سعيدين معًا، لا تحبني بل احببها هي.

"باقي" قال أقدو، "من هو خطيب إليف؟"

"خطيبها الآغا الصغير".

"من هو الآغا الصغير؟"

"أنت تعرف اثنين من أبناء كارا آغا، لهما شقيق أصغر أيضًا، هو الآن في الجيش".

"إذن خطيبها في الجيش".

"إليف بانتظار عودته، اسمه ميخائيل. إنه مجنون، الجميع في القرية يخشونه، ثم إنه يضربنا".

"هل يضربك أيضًا؟"

"نعم، لقد ضرب أبي".

"أي رجل هذا!"

"لم يكن أبي مخطئًا. في إحدى الليالي، تسلل ذئب داخل الحظيرة وفتك بشاة فضرب أبي. لو لم يوقفه كارا آغا لآذى أبي من شدة الضرب".

بينما كان باقي يتكلم، ارتعش صوته من الحزن والخوف.

"أنت خائف منه، أليس كذلك؟" قال أقدو.

"أنا لا أخاف أن يضربني بل أخشى أن يضرب أبي".

ربَّت أقدو على كتفِ باقي. "لا تدع ذلك الأمر يقلقك" قال، "جميعنا نواجه مثل ذلك، لكن علينا التحلي بالصبر، وسيزول كل ذلك. خذني مثلًا، لقد عشت وحيدًا بلا سند، وتعرضت للضرب كثيرًا، لكن انظر إلي الآن، أجلس على قطعة الرخام هذه وأمضي وقتًا ممتعًا مع صديق جيِّد مثلك. إذن كل شيء في الحياة يمرُّ ويمضي".

"سيثور ميخائيل كثيرًا حين يعود من الجيش".

"لماذا؟"

"إنه لا يعرف حتى الآن أن أباه قد مات. لم يبلغه أحد كي لا يحزن في الغربة. لقد أحبه أبوه كثيرًا. هو أيضًا، كان يحب أباه كثيرًا ولا يعصي له كلمة. بعد الآن، لن يقدر أحد على كبح غضب ميخائيل".

"متى سيعود من الجيش؟"

"لا أدري".

انتظر أقدو بضعة أيام، ثم كتب رسالة أخرى. وضع باقي الرسالة داخل قميصه وانطلق إلى البيت المطلي بصباغ نيلي على الضفة الأخرى للجدول، فشاهد إليف تعد الفطائر مع أختها إيبيكِ في حجرة التنّور. استدار ليعود قبل أن يراه أحد، لكن إليف لمحته، فنادت عليه، وأدخلته كي يتناول بعض الفطَائر. أخذت إليف إحدى القطع الجاهزة ووضعت عليها قليلًا من الزبد، ثم قدمتها لباقي.

"أيها الولد الماكر، لقد التقطت رائحة الفطائر الطازجة"، قالت.

أجاب باقي بهز رأسه، إذ لم يستطع الكلام بعد أن امتلأ فمه من القضمة الأولى.

يعتقد باقي أن الكبار عصيّون على الفهم، ويتساءل إذا ما سيصبح مثلهم عندما يكبر؟ إليف جميلة، وإيبيك جميلة أيضًا ولا فرق بينهما في الجمال. لقد أحب المعلم أقدو إحداهما، ولِمَ لا يحب الأخرى أيضًا؟ سينال ما يصبو إليه مع إيبيك، ويعيش في سعادة دائمة. إيبيك فتاة صلبة، لقد ردَّت كل من طلب يدها بحجة أن أختها الكبيرة لم تتزوج بعد. لو كان هناك من تحبه لهربت معه منذ وقت طويل. ما دامت لم تهرب، فهي إذن تنتظر نصيبها، لذلك أوصت إليف أقدو بها. يبدو أن النساء أكثر حكمة من الرجال. ما الفرق بين إليف وإيبيك، يمكن لباقي أن يحب كلتيهما، لكنه يرى أن الرجال الكبار عصيّون على الفهم.

في تلك الأثناء، نادت عليهما أمهما ريحان.

"يا بنات" صاحت، "لتأتي إحداكما لتساعدني".

"إيبيك" قالت إليف، "اذهبي أنت لتساعدي أمي، وأنا سأنظف التنّور هنا".

عندما بقيا وحدهما في التنور، أخرج باقي الرسالة من قميصه وأعطاها إلى إليف. قرأت إليف الرسالة سريعًا بعين واحدة والعين الأخرى على الباب. ما إن انتهت من قراءتها حتى ألقتها في النار، ثم حركت النار بالملقط حتى احترقت تمامًا، حين التفتت إلى باقي كان قد التهم كامل فطيرته، فناولته فطيرة أخرى.

"بالهناء والشفاء".

"شكراً لك" قال باقي وتناول القضمة الأولى من الفطيرة الثانية.

"لا شك أن هذا الرجل مجنون" قالت إليف.

"معلمي رجل طيِّب" ردَّ باقي.

"معلمك! كيف أصبح هذا الرجل معلمك؟"

"إنه يعلمني نحت الحجارة، ويعلمني القراءة والكتابة. عندما سمع أن الآغا لم يبعثني إلى المدرسة، قال لي لا تقلق، أنا أعلمك. لذا أنا أساعده أيضًا".

"إذن أنتما تساعدان بعضكما بعضًا، بما في ذلك نقل الرسائل، على ما أظن" قالت إليف بينما تحرك النار وتبعثر رماد الرسالة.

"ماذا كتب لك معلمي؟" سأل باقي.

"لا داعي لأن تعرف مثل هذه الأمور" قالت إليف، "على أيِّ حال، لن يكون هناك مثل هذه الرسائل بعد الآن".

"لماذا؟"

"ما علاقتي برجل العوافي هذا، خطيبي سيأتي قريبًا، وسيعقد قراننا. قل للرجل الذي أصبح معلمك ألا يرسلك إلى هنا مرة أخرى".

"ألن تردي على رسالته؟"

"كلا، وكما قلت، لا تأتِ إلى هنا مرة أخرى".

"ألن آتي قطعيًّا؟"

"أهلًا بك في بيتنا متى شئت، لكن لا أريدك أن تحمل أية رسائل من هذا الرجل. اتفقنا؟"

لم يرد باقي، بل ظلَّ يتابع إليف وهي تضع ربطة عنقها المورّدة على الأرض، وتضع فيها بعض الفطائر.

"خذ هذه الفطائر" قالت إليف، "اعطها إلى معلمك، إنه رجل غريب

وبحاجة إلى طعام ساخن يسدُّ به رمقه".

فرح باقي. أخذ صرة الفطائر وتوجه إلى الباب، توقف عند العتبة دسَّ يده إلى جيبه وأخرج منديلًا معقودًا، "لقد كدت أن أنسى، لقد أرسل لك معلمي هذا" قال.

"ما هذا؟" سألت إليف.

"لا أعلم" قال باقي، "وضع معلمي شيئًا في المنديل وعقده دون أن يريه لي".

في تلك الأثناء، تعالت أصوات في الخارج.

أخذت إليف المنديل المعقود وخبأته في صدرها، وأشارت لباقي كي يذهب.

خرج باقي من حجرة التنور وانطلق راكضًا، من الجدول والنبع حتى المقبرة، وضع الفطائر أمام معلمه.

أخذ أقدو المنديل الساخن، "ما هذا؟" قال.

"طلبت إليف أن لا تكتب لها رسائل مرة أخرى، تنتظر خطيبها. لقد أرسلت لك الفطائر بدلًا من الرسالة".

وضع أقدو المنديل على الأرض وحلّ عقدته، تأمل فطائر الزبد الساخنة والبخار يتصاعد منها.

مقبرة مركز أفندي

إسطنبول

1985

بعد أن هدأت الموجة الأولى من البرد وانتهت ليلة رأس السنة الجديدة، بدأ جليد إسطنبول في الذوبان، وبدأ تشاؤم الناس يتضاءل على أمل أن تحمل السنة الجديدة معها خيرًا يعم على الجميع. على الرغم من أن الناس تدرك أن التفاؤل الذي يسمعون عنه في الراديو وفي الشارع لن يدوم طويلًا، لكنهم مقتنعون بأن فسحة الأمل تعينهم على ضيق العيش. الرئيس كوبرا أيضًا، حين غادر منزله عند منتصف النهار كان يحمل أملًا، يظن من خلاله أنه قد يخفف عنه تأنيب ضميره.

مع بداية كل سنة جديدة، كثيرون من يفكرون بزيارة موتاهم العزيزين إلى قلوبهم، فيأتون إلى المقبرة ويتنقلون بخطوات بطيئة وحذرة خَشية الانزلاق على الجليد حتى يصلوا إلى قبور موتاهم ليصبوا الماء على ترابها، على أمل قضاء السنة بأكملها مع أرواحهم.

لاحظ أقدو اقتراب أحد هؤلاء الزائرين من ورشة عمله، فظنه جاء

لطلب شاهد قبر لمتوفٍ جديد. حين أمعن النظر بالقادم، تأكد أنه الرئيس كوبرا، فتساءل بحيرة عن قدومه بمفرده، ولم يجرّ خلفه كلبه وجنوده.

"مرحبًا" قال الرئيس بحماس، "من لا يعرفك يجهلك يا معلم أقدو!"

ألقى أقدو نظرة إلى الأشجار البعيدة، لعل الجنود يتقدمون من هناك ويواصلون البحث والتدقيق. لكن السكون كان يخيم على المكان.

الرئيس يحمل كيسًا في يد، ويمرر يده الأخرى على شعره بأناة.

"شعرت أن من الواجب زيارة المعلم، بعد سوء التفاهم الذي حصل في أول لقاء لنا، لابد لي من زيارتك كي أطيب خاطرك".

وضع أقدو مطرقته وإزميله على الصخرة وتوقف عن النحت، منتظرًا أن يقترب الرئيس أكثر.

"تفضل يا رئيسي" قال.

"أظن أن المعلم أقدو جائع، ولا بأس لو نتناول الغداء معًا، لقد أحضرت هذا".

وضع الرئيس صرَّة مغلفة بجريدة قديمة على الطاولة الرخامية في وسط الورشة، فضَّ الصرَّة وأخرج منها زجاجتي لبن عيران وشطيرتي شاورما، ناول إحدى الشطيرتين إلى أقدو، واحتفظ بالأخرى لنفسه.

النار كانت متقدة في علبة صفيح كبيرة موضوعة في وسط الطاولة، لتقوم مقام مدفأة نهارية لأقدو، يلقي فيها عيدان الحطب ليزيد من سعيرها كلما شعر بالبرد وخدرت يداه. ألقم النار بعضًا من عيدان الحطب ونظر إلى الرئيس.

"عملك مضن، يا معلم" قال له الرئيس، "تمضي سحابة يومك بالطرق بالشاكوش والنحت بالإزميل".

"ندعوها مطرقة لا شاكوشًا" قال أقدو، موجهًا نظره إلى تلك الأداة المصنوعة من خشب التوت.

"مهما كان اسمها، فاستخدامها صعب ويتطلّب مهارة. لا يمكن للجميع إتقان هذا العمل، لله درك. لكن عملنا ليس سهلًا أيضًا ونواجه صعوبات مختلفة، وقد نرتكب أخطاء أحيانًا. نبذل قصارى جهدنا لحماية الدولة والشعب، لكن قد لا نتصرّف بشكل صحيح أحيانًا. قد نؤذي الأبرياء أحيانًا، لكن عن غير قصد. لقد ضربتك تلك الليلة، لكن لم يغب عن بالي ذلك التصرف قط. لقد شعرت بالذنب لضربي رجلًا بريئًا لا ذنب له. لي أخت مشلولة أكبر مني عمرًا، أعيش معها وأرعاها، أخبرتها بما اقترفته يدي التي ليتها كُسرت قبل أن أضربك، لعن الله وظيفتنا هذه".

قضم الرئيس قضمة من شطيرته ورشف رشفة من لبن العيران.

حين رأى أقدو يحدق فيه بشرود، "هيا" قال، "كلْ، عملك يحتاج إلى غذاء".

"شكرًا" قال أقدو بصوت خفيض قبل أن يقضم قضمة من شطيرته.

"ماذا كنت أقول؟ ها، قالت أختي، اذهب، بغض النظر عما فعلت، وطيّب خاطر ذلك الرجل. أختي امرأة متدينة، وجهها يشع نورًا مثل وجهك، وقد قالت ما دام ارتكاب الخطأ من أفعال البشر، فإصلاح الخطأ من أفعالهم أيضًا. لقد علمتني أختي منذ صغري، اهتمت بدروسي، وأوصلتني إلى ما أنا عليه اليوم. تعلم أختي صعوبة وظيفتي، فقد قالت وظيفتك ليست سهلة، لكن لا أحد يدرك ذلك، إنها مهمة صعبة ومقدسة. اذهب إلى ذلك الرجل في أقرب وقت، واشرح له الضغوط التي تتعرض لها أثناء أداء وظيفتك. إنه ابن هذا البلد وسيتفهمك، سيدرك أنك قد أفنيت شبابك ساهرًا الليالي كي

يعيش هو وغيره في هذا البلد في أمان".

لم يجب أقدو منتظرًا بفضول معرفة ما الذي يرمي إليه الرئيس بكلامه هذا.

"لا أثر لكدمة على وجهك" قال الرئيس، "أشعرني هذا ببعض الراحة، أريدك أن تتفهمني، ما إن دخلت إلى المقبرة حتى قُرأ الأذان، فأسرعت وتوضأت ودخلت المسجد. صليت، ودعوت لباني المسجد مركز أفندي، ودعوت أن تسامحني وألا تكون هذه الخطيئة مكتوبة في كتابي يوم الآخرة. عملي يشغلني كثيرًا، ولا وقت لدي للصلاة، بيتنا على بعد دقيقتين من جامع أورتاكوي. هل تصدق أنني لا أستطيع حتى الذهاب إلى ذلك الجامع الجميل، لكن بعدما شعرت بالندم مما فعلته بك، دخلت الجامع هناك وصليت، طلبت من الله أن يغفر لي ويغفر لك..."

"لا تقلق" قاطعه أقدو، "أنا بشر، أسامح، آمل أن يسامحك كلبي أيضًا".

"ما علاقة الكلب بما حدث؟"

"للكلب روح أيضًا، كان مسنًا، وربما كان سيموت قريبًا، لكنه عانى، لذلك آمل أن يسامحك، حقي شيء، وحقه شيء آخر".

"أللكلب حق!" قال الرئيس مبتسمًا بفتور "لقد انتهى الأمر الآن، أنا لا أفكر في الكلب، أنا أفكر فيك. سأخبر أختي عندما أعود إلى المنزل الليلة، أنني زرتك، وأنني حين رأيت وجهك في وضح النهار، أدركت كم أنك رجل طيب".

"أرجو الشفاء العاجل لأختك، يا رئيسي".

"من سوء حظها أنه لا علاج لمرضها. ترقد في الفراش منذ ثلاث

سنوات، أُدعُ لها عندما تذهب إلى المسجد".

تردد أڤدو مفكرًا بما يرد عليه ثم قال أول ما خطر بباله من كلام، "أنا لا أذهب إلى المسجد، لكنني سأدعو الله من أجل أختك".

وضع الرئيس زجاجة اللبن العيران على الطاولة، ومسح شاربه المبلل بظاهر يده، ثم قال بصوت مندهش، "أمر يدعو للحيرة أن لا تذهب إلى المسجد، في هذا العمر، وهذه اللحية، على الرغم من أن المسجد بقربك".

"أنا أيضًا لا أدري" قال أڤدو، "لقد اعتدت على ذلك دون تفكير".

"أنت لست علويًّا، فلِمَ لا تذهب إلى المسجد، حقًّا أنا لا أفهم سبب ذلك".

"أنا لست علويًا" وافقه أڤدو القول، ثم تساءل في قرارة نفسه من أين أتى الرئيس بذلك، "في الواقع، لا أعرف ما أنا عليه لأنني نشأت بدون أم وأب".

"لقد فهمت الآن" هزَّ الرئيس رأسه مبديًا تفهمه لحاله.

"على أي حال، لو كنت علويًّا، لما وافقوا على عملي في المقبرة".

"أنت محق، فمن غير المقبول أن ينحت علوي شواهد قبور للسنّة".

"هل تعتقد ذلك أيضًا؟"

"ربما، وكما تعلم يُقال حتى خبز العلويين لا يؤكل".

"وهل السنّي لا يأكل سوى خبز السني؟ ألا تعلم أن العديد من الجوامع في هذه المدينة قد بناها معماريون مسيحيون، بما في ذلك جامع أورَتاكوي الذي ذكرته؟ أتؤدى الصلاة في الجوامع التي بنوها، ولا يُقبل شاهد قبر نحته معلم علوي..."

"عقلي لا يتقبّل ذلك،" قال الرئيس بصوت ملؤه الثقة، "لا أريد أن

ينحت علوي شاهد قبري، إنهم على رأس قائمة الأعداء لهذا البلد. لو تعرف أنواع الناس الذين نواجههم في عملنا ومع من نتعامل... على أي حال، لو كنت علويًا، لكُتب ذلك في ملفك. لم أر شيئًا بهذا الخصوص".

"أي ملف؟"

تردد الرئيس قليلًا، إذ شعر أنه قد أفصح بكلام لم يأتِ أوانه بعد، ثم تابع كلامه. "قبل مجيئي إلى هنا، تساءلت عما تكون، وأي نوع من الرجال أنت، ذهبت إلى الدائرة، ودققت في ملفك. سأكون كاذبًا لو قلت إنني لم أتفاجأ، لقد عانيت كثيرًا في حياتك..."

تفحص أقدو وجه الرئيس، محاولًا إدراك مدى معرفته.

"رئيسي" قال، "لقد مررت بأحداث، مثل أي شخص عادي آخر".

"لا ، ليس مثل أي شخص عادي آخر، يا معلم أقدو. علمت ذلك بعد قراءة ملفك. البحث عن العائلة دون نتيجة، التعرض للموت أكثر من مرة، السجن لسنوات، تلك أحداث ليست عادية، وليست سهلة على الإطلاق".

لماذا كان هذا الرجل ينقب عن كل هذا، ولماذا أتى إلى هنا ليتحدث بها؟ أهو رجل أمن أم مخابرات؟ لم يستطع أقدو أن يسأله صراحة، لماذا جاء ليذكره بماضيه؟

"لقد أصبح كل شيء في الماضي" قال بصوت ضعيف.

"تساءلت عن اسمك، أقدو، اسم غريب لم أسمع به من قبل، ولا توجد معلومات في ملفك حوله".

"لا أعرف من أطلق عليّ هذا الاسم، ولماذا" تردد أقدو محاولًا إبعاد الموضوع عنه في أسرع وقت ممكن. "رئيسي، كنت تبحث عن شخص ما، تتبعت أثره حتى هنا، هل ألقيت القبض عليه؟"

قرّب الرئيس يديه من النار، انحنى برأسه نحو علبة الصفيح كأنه يبحث عن شيء في لهب نارها. "تنشر دفئًا جيدًا" قال "لولاها لا تستطيع المكوث هنا طوال اليوم".

"أجل، تدفئ الروح. لدي الكثير من الحطب، ما أجمعه من حطب من الأشجار الجافة يكفيني طوال أيام الشتاء".

أخرج الرئيس علبة السجائر، أخذ واحدة، وناول واحدة إلى أڤدو. "مارلبورو، سيجارة بفلتر" قال، "من المهربات التي نضبطها في المداهمات، سأترك العلبة لك، لدي في البيت مخزون منها مثل مخزونك من الحطب يكفيني طوال الشتاء".

ترك علبة المارلبورو على الطاولة.

"شكرًا" قال أڤدو.

"لقد استطاعت أن تهرب منا، لقد تبخرت تلك البنت التي كنا نبحث عنها، فقدنا أثرها" قال الرئيس.

"رئيسي، إسطنبول كبيرة، من يدخلها يختفي، كيف يمكنك العثور على شخص لا يريدك أن تجده؟"

"أحسنت القول، شخص لا يريد أن نجده، هذه هي وظيفتي، العثور على أولئك الذين لا يريدون أن نعثر عليهم، لإنقاذ دولتنا من القلاقل".

"ليكن الله في عونك، عملك صعب".

"كل صباح عندما أغادر المنزل، تدعو أختي الله لي كي أعود سالمًا، لقد عشت بفضل هذه الدعوات حتى اليوم، كم مرة عدت من الموت. مات العديد من أصدقائي كانوا معي، وأنقذني قدري".

"هل تلك البنت كذلك، أقصد هل هي خطيرة جدًا، أهي متورطة في

جرائم كبرى؟"

"حين يتعلق الأمر بأمن دولتنا فكل جريمة تعد كبيرة وخطيرة، لكن هذه البنت ليست مثل الآخرين. من يمتلك مثل هذا الدهاء حتى يتمكن من الهرب من أيد رجال الأمن؟"

"لابد أنها خطيرة فعلًا إذ نجحت في الهروب من قبضتك".

"تحرينا عن كل العناوين التي يمكنها الذهاب إليها، واستجوبنا كل معارفها، لكن لم نجد لها أثرًا. كأنها دفنت في أحد القبور هنا".

"رئيسي، هل كانت البنت جريحة، ربما فارقت الحياة في ركن غير مطروق..."

"لا قدَّر الله" قال الرئيس بردة فعل مفاجئة، وبدا صوته قلقًا، "أعني، نحن بحاجة إليها على قيد الحياة، ونريد الحصول منها على معلومات مهمة، هؤلاء لم تجتز جذورهم ولا بأيٍ شكل. على مرِّ السنين، تمكنت الإدارة العسكرية من مداهمة أوكارٍ لا تعد ولا تحصى، وتم القبض على عدد لا يحصى من الخونة، وتم إعدام العديد منهم، والآلاف منهم معتقلون في السجون الآن، وبطريقة أو بأخرى يستمر الجديد في الظهور. هذا عمل معقد، وهم أدوات للقوى الخارجية. إنهم يعلمون أنهم لا يمكنهم الفوز ولكن لا يعنيهم الفوز، ويكفيهم تعكير صفو أمن هذا البلد".

كان الرئيس يتكلم مشددًا على لفظ الكلمات بوضوح حتى بدا كأنه مذيع يقرأ نشرة الأخبار في الراديو.

ردَّ أقدو بصوت يؤكد فيه أفكار الرئيس. "رئيسي" قال، "نحن نعيش بأمان بفضل الشباب أمثالك".

نظر إليه الرئيس بابتسامة رضا، "ليت كل الشباب مثلي، نحن رهنّا

أنفسنا من أجل أمّتنا. انظر، لقد مرَّ سن الزواج ومضى، لا نجد وقتًا كي نبني حياتنا الخاصة من كثرة العمل".

"ما زلت صغير السن، ستفعل ذلك يومًا ما ويتحقق مرادك. ستجد بنتًا مثل تلك البنت التي هربت، أقصد فتاة صغيرة في السن".

" أفهم، بالطبع، مثل..." اكتأب الرئيس واقترب من النار. شخصت عيناه. ظل محدقًا لفترة من الوقت في النيران ولهبها الأزرق، تعابير الحزن التي بانت على وجهه تشي بما كان يدور في ذهنه.

"إنه القدر" قال أقدو، "أنت لا تعرف متى وأين سيظهر أمامك".

"ما تقوله صحيح، أنت رجل محنك".

"نصيبك في الدنيا ينتظرك في مكان ما، وقدرك المكتوب ينتظر حلول ساعته".

هزَّ الرئيس رأسه بالموافقة، لكن الحزن ظل ظاهرًا على خطوط وجهه وانتشر في نظراته وصوته كأنه لن يغادر أبدًا. "تلك البنت مختبئة في مكان ما، لكن أين؟ معلم أقدو، لم تأتِ تلك البنت إلى هنا بعد مغادرتنا، أليس كذلك؟ لو جاءت لأخبرتنا..." قال.

"بالتأكيد كنت سأخبركم، يا رئيسي، أفضل بقاءهم بعيدين عني".

" تلك الليلة، قال الرئيس بنبرة يسعى من خلالها الاسترضاء، "ظننت أنك قد حنقت علينا مما بدر منا من سوء تصرف، وربما شعرت بالخوف، لذلك تجنبت إخبارنا..."

"هذا شيء يا رئيسي، وحماية الهارب شيء آخر. أنا أملك من العقل ما يجعلني قادرًا على عدم الخلط بين تلك الأمور. لقد أمضيت سنوات في السجن، كما تعلم، ولست على استعداد لدخوله مرة أخرى بعد هذا العمر".

"هذا ما فكرت به أيضًا، بينما كنت أقرأ ملفك هذا الصباح، قلت في قرارة نفسي إن هذا الرجل حصيف، سيتفهمني".

ألقى أقدو عود حطب آخر في النار، وقرّب يديه إليها.

"أليس لهذه الفتاة عائلة؟ عائلة ترعاها، وتبعدها عن طريق الضلال؟" قال.

"مات أبوها وأمها عندما كانت صغيرة، أو بالأصح، قُتلا. بقيت الفتاة بلا أهل، ليس من المستغرب أن يضل شخص مثلها ويتورط في أعمال خاطئة".

"حزنت من أجلها" قال أقدو.

"نعم، إنه لأمر محزن، إذا وجدت الفتاة فسوف أساعدها على بدء حياة جديدة، أقصد نحن كدولة واجبنا أن نساعدها".

"رئيسي، أنا قد نشأت بدون أم وأب أيضًا. لو كان لدي عائلة، لانتظمت حياتي بشكل أفضل وابتعدت عن الكثير من المتاعب، الوحدة ليست سهلة".

"أتفهم ذلك، الأمر صعب، لا شك في ذلك، لكن هذه الفتاة لا يبدو أنها عانت كثيرًا من الوحدة. لقد انضمت إلى منظمة إرهابية، أصبحت بمقام عائلتها".

"يا للمسكينة" قال أقدو بصوت آسف، "غريبة هي الحياة. على أية حال، ما اسم تلك الفتاة؟ إذا لا تمانع..."

"أبدًا، فالخبر انتشر في الصحف، اسمها ريحان".

"ريحان!" قال أقدو متظاهرًا بالفضول.

"أيبدو هذا الاسم مألوفًا لك؟"

"كلا، لا أعرف أحدًا بهذا الاسم".

"أم الفتاة مغنية الأرابيسك بريهان سلطان، كانت تغني في الملاهي الليلية، وبعد أن نالت شهرة واسعة، انتقلت إلى الغناء على خشبات المسارح. عاشت أحداثًا صعبة للغاية، وقُتلت في هجوم مسلح. خالة البنت قُتلت قبل أمها بسنوات. رأيت ذلك في الأرشيف وقد تحدثت الصحف عن تلك الأحداث كثيرًا، ألا تذكر ذلك؟"

تحاشى أقدو النظر في عيني الرئيس.

"لا وقت لدي لقراءة الصحف في هذه المقبرة. عندي راديو، أستمع إليه، ولا علم لي إلا بما يقال في الإذاعة فقط. لا أتذكر الأحداث التي ذكرتها. رئيسي، لو علقت صور البنت في الشوارع، ألا يساعد ذلك في العثور عليها؟"

"لقد تغيرت البنت كثيرًا" قال الرئيس، "لا تشبه أي من صورها التي بين أيدينا، على الرغم من أنها في العشرين من عمرها، لكنها تبدو كطفلة في الخامسة عشر".

"إذن فهي تبدو أصغر من عمرها".

"فقدت من وزنها الكثير، وهزلت حتى صغر حجمها، فبدت كطفلة".

"حقًا؟" قال أقدو ملتفتًا إلى الرئيس.

"نعم، ماذا في ذلك؟"

"لا أدري، لقد خطرت ببالي فكرة" قال أقدو بصوت حيوي.

أنزل الرئيس يديه اللتين كانتا بالقرب من النار، "أهناك شيء يجب أن أعرفه؟" سأل.

"ربما أكون مخطئًا، لكنك تقول إن الفتاة تبدو كطفلة..."

اتسعت عينا الرئيس.

"أجل، ماذا في ذلك، أخبرني".

"عندما كنت تتحدث عن الفتاة الصغيرة في تلك الليلة، كخطيرة وخارجة عن القانون، وفرقة من الجنود تلاحقها. كلكم تلاحقون فتاة صغيرة، في ذلك الوقت ظننت أنها ضخمة الجثة، وقوية البنية. الشخص الخطير في ذهن الناس ضخم الجثة وقوي البنية، من تصفها لي الآن تبدو مختلفة".

يوشك الرئيس أن يفقد صبره.

"ماذا تقول؟ هل رأيتها؟"

"لا، لم أرها. لكن أبناء الشوارع المراهقين يعيشون في مجموعات وينامون عند الأسوار، إذا كانت الفتاة التي تتحدث عنها تبدو من مظهرها صغيرة، فربما ذهبت وانضمت إلى إحدى تلك المجموعات".

"معلم أڤدو" صاح الرئيس، "أنت محق، لقد ذهبنا وفتشنا الأسوار في تلك الليلة، لكننا لم نجد أحدًا، فقد اختفى المشردون لحظة رؤيتهم للجنود".

"رئيسي، علينا أن لا نترك مجالًا للخطأ مرة أخرى..."

"هذه المرة، إذا ذهبت إلى هناك بمفردي ودون جنود بزي عسكري، فلن يهربوا مني، وقد أحصل على معلومات من بعضهم، سأعرف إذا ما انضم إليهم أحد في الأيام الأخيرة".

"هل تريدني أن آتي معك؟" قال أڤدو بتردد، "هناك العديد من الأماكن يختبئون فيها ويحتمون بها في أنفاق ودهاليز الأسوار، أنا أعرف تلك الأماكن".

"لقد سبقتني بالكلام يا معلم أقدو، لو لم تقل لكنت قد عرضت عليك ذلك. أنت رجل حكيم، دولتنا بحاجة لأناس من أمثالك، أثناء قراءتي لملفك هذا الصباح، تعرفت عليك أكثر، واكتشفت رجاحة عقلك بين سطور تلك التقارير. شعور غريب راودني اليوم لا أدري كنهه، انظر إلى قدري، دعائي في الصلاة مقبول. أنا سعيد لأنني استمعت إلى أختي، وسعيد أيضًا لأنني أتيت لرؤيتك، هيا لنسرع".

حين تحرك الرئيس نحو الطريق الذي أتى منه أشار أقدو إلى الجانب الآخر "لنذهب من هذا الطريق" قال، "هناك فتحة في السور المتهدم، سنعبر منها إلى الطريق الأسفلتي ثم نعبر إلى الجهة المقابلة. لكن يجب أولًا إطفاء النار. قد تهب ريح فجأة، وتحملها نحو الأشجار، الحيطة والحذر واجبان".

"أسرع!" قال الرئيس.

أخذ أقدو حفنة من الثلج ووضعها فوق النار وأطفأها، شدّ رباط حذائه، لفّ وشاحه حول عنقه، ثم شد أزرار معطفه.

"هيا لنذهب يا رئيسي" قال.

ماردين

سهل ما بين النهرين
1939

صبي نحيف الوجه يغني في شارع البازار في ماردين، حيث اصطفت جنبًا إلى جنب حوانيت النحّاسين ومصنّعي القضامة ورسامي صورة شاه ميران على المرايا. كان صغير الحجم نحيلًا، لا يلفت الانتباه لولا صوته الجهوري مثل صوت مطرقة النحاسين. جاء ليومين متتالين وجلس في المكان نفسه، وفي اليوم الثالث أيضًا، حين اعتدلت برودة الصباح في سهل ما بين النهرين. يحمل رغيف خبز في حجره، كأنه خبز مقدس بمذاق أول حصاد قمح زرع هنا منذ آلاف السنين، ويتجدد كل يوم من تلقاء نفسه. وبينما يأخذ استراحة من الغناء، يقتطع قطعة صغيرة من الرغيف ويضعها في فمه، وينظر إلى الأحذية المطاطية للمارة والحوافر المغبرة للحمير.

يأتي القرويون ذوو الوجوه البرونزية من القرية في الصباح الباكر، ليعرضوا بضائعهم على جنبات شوارع أسواق المدينة. يسحرهم هذا الصبي بجمال صوته الملائكي حين يمرون من جواره، فيقسمون لأنفسهم أن ينفحوه صدقة جيدة في طريق العودة، إذا ما باعوا بضاعتهم بسعر جيد. تفيض

شوارع البازار نهارًا، وتصمّ المساومات بين البائعين والشارين الآذان، وبينما الشمس تعبر السهل الأزلي من ضفته الشرقية إلى ضفته الأخرى، وتغرق في مستنقع التاريخ، يسارع القرويون بالعودة إلى قراهم ناسين الصبي والقسم الذي أقسموه. يغني الصبي أغنيات حزينة بلغات مختلفة رافعًا رأسه نحو السماء التي تغير غطاءها من النهار إلى الليل، فينطلق صوته مثل طائر يبسط جناحيه محلقًا. يمر من حوله أقوام مختلفون منهم المسنون ومنهم الأطفال على امتداد الشارع. أحد هؤلاء المارة شاب يرتدي بنطالًا ممزقًا، يحمل كيسًا على كتفه ونايًا في إحدى يديه، وحبات من القضامة في يده الأخرى، جلس على الأرض قرب الصبي، وقدم له بعضاً منها.

"صوتك جميل يا فتى، تحصل على قوتك بفضل صوتك. لقد لاحظت أن التجار قد أغلقوا راديواتهم، وباتوا يستمعون إلى صوتك مذ بدأت الغناء قبل ثلاثة أيام. أعزف على الناي في الشارع الخلفي، لكن على الرغم من أنه أكثر ازدحامًا من هنا، لكنني لا أجمع من المال بقدر ما تجمع. هل أنت وحدك؟"

"أنا وحدي، لقد أتيت مؤخرًا إلى ماردين".

"أنت أصغر من أن تكون وحدك، كم عمرك؟"

"أنا في العاشرة، أو ربما الحادي عشر".

"أنت لا تعرف كم عمرك، لأنك منذ وعيت على الدنيا وأنت تهيم في الشوارع، أليس كذلك؟"

"لا أعرف متى ولدت".

"حسنًا، هل تعرف من أين أنت؟"

"لا أعرف ذلك أيضًا، كل ما أذكره من ماضيّ هو لحظة كنت فيها

تائهًا وسط جموع من الناس في مدينة أورفا، كنت أبكي بصمت".

"أنا مثلك، لا أعرف مكان أو تاريخ ولادتي، لابد أن كلينا قد سقطنا من السماء".

رفعا رأسهما إلى حيث كانت الشمس تعانق السماء. الصيف ودّع، لكن الخريف لم يكشف عن وجهه بعد، وسماء سهل ما بين النهرين تلمع بلون أزرق.

"لا يمكن أن نكون قد سقطنا من السماء، إنها مرتفعة جدًا، سنموت حتمًا لو سقطنا من هناك".

"ربما يا فتى، كان لدينا أجنحة، وسقطت عن ظهرنا بعد هبوطنا. انحنِ، دعني أرى ظهرك".

في حركة لا إرادية، أحنى الصبي رأسه إلى صدره وكشف عن ظهره، "أجل، أنا محق، لا تزال أثار الجناحين على ظهرك".

"هل أنت مجنون؟"

"ها، ها، هل أبدو لك ذلك أيضًا، لا تقلق، أنا عاقل".

"هل علي أن أصدقك؟"

"عليك أن تصدقني. اسمي عيسى، إنه اسم عيسى المبارك، صدقني. ما اسمك؟"

"أقدو".

"أقدو، يا له من اسم جميل".

"أيكون للاسم جمال؟ ألعيسى جمال أيضًا؟"

"إذا كان الاسم يسعدني، فأنا أعتبره اسمًا جميلًا. كان لي اسمان آخران من قبل، حيدر وعلي. طار عقلي بسبب هذه الأسماء، ونسيت ما كنت

أعرفه. اتخذت لنفسي الآن، اسم عيسى".

"إذن عيسى ليس اسمك الحقيقي؟ وتقول لي أن أصدقك..."

"صحيح أن عيسى ليس اسمي الأول، لقد اتخذته مؤخرًا، لكنه الآن أصبح اسمي الحقيقي".

"أنت مجنون أليس كذلك، قل الحقيقة".

"ها، ها، أقسم أنني عاقل، أنا أعقل من أولئك الذين يعملون في تلك المتاجر، ومن المعلمين الذين ينقشون على الصواني النحاسية. لقد زرت بلدانًا أكثر منهم، والتقيت بأقوام أكثر منهم. العالم أكبر مما يظنون، وسأسافر إلى بلدان أخرى بعيدة".

"لماذا، هل تبحث عن أمك أيضًا؟"

"أنا لا أبحث عن أحد، يبدو أنك تبحث عن أمك".

"أذكر أمي حين كنا في السوق، كانت تمسك بيدي. ثم وجدت نفسي وحيدًا بين الجموع، أعتقد أن أمي أضاعتني. منذ ذلك اليوم، أتنقل على أمل العثور عليها، وأذهب من مدينة إلى أخرى لقناعتي أن أمي تتنقل من مدينة إلى أخرى بحثًا عني أيضًا".

"ستؤمن بما أقوله يا فتى يومًا ما، ستؤمن بجمال الأسماء. حين تلتقي بأمك، سيبدو اسمها لك كأجمل كلمة في الدنيا. هل تفهمني؟ هذه كلمات رجل حكيم".

"أحاول أن أفهم".

"ستجد أن أمك أجمل كلمة في الدنيا".

"لكنني فعلًا، أعرف الكلمة الأجمل في الدنيا..."

حدق عيسى في وجه الصبي الذي تكلم بثقة.

"ما هي هذه الكلمة؟" سأل باستخفاف.

"الأم".

"ماذا؟ ظننت أنك ستقول شيئًا مثيرًا. هذا ليس اسمًا".

"لكنها جميلة، قلها وستفهم".

"هل أنا طفل؟"

"إذا لم تكن مجنونًا، فإنك ستقولها، هيا قل".

ابتسم عيسى ونظر إلى الصبي حافي القدمين، "الأم" قال.

"كرِّرها" قال الصبي وقد غطت السعادة وجهه، "قلها بكل اللغات: أنّى، دايى، إمو، أم، مايريج، ماما".

كرَّر عيسى ما قاله الطفل باللغات التركية والكردية والسريانية والعربية والأرمنية واليونانية.

"أنّى، دايى، إمو، أم، مايريج، ماما".

"أنت لست مجنونًا".

"أنا سعيد لأنك اقتنعت يا فتى، يمكننا الآن أن نصبح أصدقاء. كيف تعلمت كل هذه اللغات في هذا العمر؟"

"تنقلت كثيرًا وتحدثت مع الجميع".

"أقدو، أين تقيم، أعندك مكان تنام فيه ليلًا؟"

"لا مكان لي، أنكمش في ركن منزو. وأنت، هل عندك مكان تأوي إليه؟"

"أجل. هل تود المجيء معي؟ المكان ليس لي، أقيم مع حفّار القبور المعلم جوزيف، تعال وسوف نؤمّن لك مكانًا أيضًا".

"حسنًا، سوف آتي".

"خذ بعض القضامة".

"وأنت خذ خبزًا أيضًا، إنه طازج".

"أعطني قطعة".

بينما كان الصبي يقضم القضامة طازجة التحميص، وعيسى يأكل خبزًا خرج من الفرن هذا الصباح، سمعا من راديو أحد الحوانيت صوتًا أجشّ بدلًا من صوت ناعم يغني. الصوت الخشن كان لمذيع يقدم نشرة الأخبار، يقول فيها إن اشتباكات مسلحة قد وقعت بين ألمانيا وبولندا، وإن بريطانيا وفرنسا قد أعلنتا الحرب على ألمانيا ردًا على هجومها على بولندا. لم يسمع أقدو بهذه البلدان، ولم يلتقِ قط بأحد قادم منها.

"يبدو أن هذه البلدان بعيدة" قال.

ظل عيسى واجمًا، وقد ضغط بيده على قطعة الخبز، محدقًا في البعيد.

أدرك أقدو أن حدثًا مهمًا قد وقع، فالتفت نحو عيسى "ماذا جرى، أرأيت أحدًا؟" قال.

تكلم عيسى بانهيار مفاجئ، "اندلعت الحرب، يا فتى، علي أن أذهب".

"ما علاقة ذلك بك؟ يتشاجر الناس في كل يوم وفي كل مكان".

"تتشاجر مع أناس تعرفهم، أما في الحرب فتقتل أناسًا لا تعرفهم".

"لماذا يحدث ذلك؟"

"لا أدري لماذا. لو جاء أحد الآن، إلى هذا الشارع وفتح النار على هذه الجموع، ولم يكتفِ، بل تابع إلى الشارع الآخر، وقتل كل المارة في ذلك الشارع، ولم يتوقف، ثم تابع وقتل أهالي المدينة كلهم، ثم يدخل بيوت من قتلهم، ويأخذ ذهبهم وبناتهم، وإذا كان يسعده ما يفعل، سيكون ما جرى

يشبه الحرب... هل استطعت أن أوضح لك ما هي الحرب؟"

"يبدو أنها نوع من الجنون".

"بل أشد بلاء".

"هل سبق لك أن شاركت في الحرب؟"

"ذهبت مرة واحدة، وبقيت هناك. لا تنظر إليّ بغرابة لأنني أمامك الآن هنا، فمن ذهب إلى الحرب وبقي هناك هو أنا الآخر".

"أنت فعلًا مجنون" قال أقدو مترددًا، "لكنك لا تعترف بذلك".

"دعك من هذا الكلام" قال عيسى بقلق، "ألم تستمع إلى الراديو، لا أخبار أخرى سوى أخبار الحرب. يتحدثون عنها طوال الوقت. تلك مصيبة كبرى. عليّ أن أذهب، تعال إلى مقبرة الشيخ ضرار عند غروب الشمس، أتعرف أين تقع؟"

"أعرف مواقع العديد من المقابر، لكنني لا أعرف أسماءها".

"انزل في ذلك الشارع وتابع المسير أمامك حتى ترى جامعًا، المقبرة على الجانب الآخر من الجامع. لا تدخل المقبرة من بابها الرئيس، بل تابع المسير حتى تصل خلفها، سترى كوخ المعلم جوزيف هناك، إلى اللقاء مساء".

قام عيسى وابتعد بخطى سريعة، واختفى بين الجموع.

حل المساء مبكرًا، بينما تترك ماردين خلفها يومًا متعبًا آخر ببيوتها المصطفة جنبًا إلى جنب من سفح الجبل حتى قمته، وأسوار حدائقها من الحجر الجيري الأصفر، وأسقفها المستوية التي تجذب نجوم الليل، وأبراجها الشاهقة في القمة كتاج، سار أقدو في شوارعها الضيقة. كل شارع منها يحمل نقوشًا مختلفة عن غيره من الشوارع، ونجوم متوهجة تطل من نوافذها فتزيدها جمالًا على بهائها. على الرغم من ذلك فأقدو لم يلحَظ هذا

الجمال، فالعالم حوله بالنسبة له هو نفسه مهما اختلف المكان. وجد أقدو الجامع والمقبرة ثم كوخ المعلم جوزيف.

كان عيسى والمعلم جوزيف جالسين إلى طاولة حجرية أمام الكوخ يتجاذبان أطراف الحديث، أطباق متنوعة وزجاجة نبيذ على الطاولة تنتظر وصول أقدو. ما إن وصل أقدو حتى باشروا الأكل.

"أقدو" قال المعلم جوزيف، "لم يتوقف عيسى عن كيل المديح والإعجاب بصوتك، غنِّ لنا أغنية لتكون بدء لتعارفنا".

شرع أقدو بالغناء دون تردد، بحكم العادة، لكنه اختار أغنية قصيرة لشدة جوعه. الأغنية كانت مبهجة وتتحدث عن لمّ الشمل، لا عن الفراق واللوعة وأنهار من دموع الشوق.

بينما قال عيسى: "كنت أتمنى لو غنيت إحدى أغنياتك الحزينة التي غنيتها في السوق..."، قاطعه المعلم جوزيف.

"لِمَ هذا الغم؟" قال، "أسمعت، كم هو جميل غناء الفتى! أحسنت يا بني، صوتك مثل الجوهرة، أحسنت".

لاحظ أقدو أن لا أثر باقٍ من البهجة التي رآها على وجه عيسى هذا الصباح. ما إن سمع نشرة الأخبار، حتى اكتحل وجهه بالغم ولا يزال.

"معلم جوزيف" قال عيسى، "ستدهش لو ترى أقدو بينما يغني، وقد جذب جموع الناس في السوق نحوه، وأسر قلوب السامعين. صوت مخملي معجزة، أرجو أن لا يصيبه مكروه".

"لماذا؟" قال المعلم جوزيف.

"أعزف على الناي، لأجمع بعض المال، وأتنقل هنا وهناك، من سيعتني بهذا الفتى إذا ما بقي وحيدًا؟"

"يبدو أن الهموم قد ركبتك اليوم، يا عيسى".

سكت عيسى وأطرق برأسه، وأرخى عينيه إلى الأرض بين قدميه برهة قصيرة، ثم رفع رأسه.

"أنت محق، يا معلم جوزيف" قال عيسى، "أشعر بالحزن من أعماقي. حين سمعت الأخبار في الراديو، سوء حظ هذا الفتى خرق رأسي كمسمار".

"لا تقلق، ألا ترى، تعرّف الفتى إليك نهارًا، وتعرّف إليّ مساء. لكل يوم غده، ولننتظر ماذا سيجري..."

"لن أبقى هنا طويلًا" قال عيسى، "ما سمعته في الراديو، يوحي بأنها حرب شاملة، وستنتشر سريعًا في كل مكان، يجب أن أذهب قبل وصولها إلى هنا. كنت وحدك من سأقلق من أجله، والآن أصبح لدي اثنان سأقلق من أجلهما".

"لنشعل النار، وندفئ أيدينا أولًا، ثم نفكر في حال الصبي، وفي سفرك أيضًا".

"سأشعل الحطب" قال عيسى، ثم وضع قطعة راتنج بين عيدان الحطب وأشعلها من عود ثقاب.

"إلى أين أنت ذاهب؟" سأل أقدو باهتمام.

"سأذهب إلى القدس" قال عيسى.

"أي طريق ستسلك إليها، أهي بعيدة؟"

"إنها مدينة بعيدة، فيها كل ما تتمناه نفسك، يقال إنها مدينة النبي".

"إذا كنت تسعى إلى مدينة النبي، فاذهب إلى أورفة".

"أورفة قريبة، أريد الذهاب بعيدًا، إلى مكان لا تصله الحرب".

"هل ستذهب هذه الليلة؟"

"ليس بهذه العجلة يا فتى، لدي بعض الأشغال عليّ إنجازها، ثم أنطلق في طريقي نحو القدس في غضون أيام قليلة. يجب أن أجمع بعض النقود كي أشتري لنفسي ملابس ثقيلة، فالبرد والشتاء باتا على الأبواب ولا يمكنني السفر نصف عارٍ كحالي الآن".

"سأعطيك ما جمعته من نقود، سيسد جزءًا من احتياجاتك" قال أقدو بصوت خجول.

"أترى يا معلم جوزيف، هذا الفتى قلبه من ذهب".

صمت المعلم جوزيف ومدّ يديه نحو النار المستعرة، وحدق فيها طويلًا.

تابع عيسى الكلام: "خلال الأيام القادمة، عليّ كتابة رسالة قبل رحيلي. سأبعثها إلى إسطنبول من مكتب بريد ماردين".

"إلى إسطنبول؟" قال أقدو بدهشة.

"نعم، لقد أجلت كتابة هذه الرسالة منذ فترة، لكن مع بدء الحرب، عليّ الإسراع الآن، كي تصل إلى إسطنبول قبل نشوب الحرب هناك، يجب أن أحذرهم".

"إسطنبول مدينة الأحلام، يا لسعدك! لديك معارف هناك إذن".

"لا أعرف أحدًا في إسطنبول بعد، لكنني سأتعرف قريبًا".

"لمن ستكتب إذن؟"

"إلى شخص لا أعرفه".

اتسعت عينا أقدو من الدهشة.

"أنت مجنون" قال، "أنت تخفي عني ذلك".

ضحك المعلم جوزيف.

"أعجبني ذلك" قال، "أقدو، دعك من عيسى، واستمع إليّ الآن. أنا رجل مسن، وأحتاج إلى مساعد، أتوافق على العمل معي؟"

نظر أقدو إلى عيسى قبل أن يجيب على سؤال لم يكن يتوقعه. لاحظ أن البهجة التي رآها هذا الصباح على وجه عيسى قد عادت ثانية.

"مساعد لك؟ حقًا؟" قال بدهشة.

"لقد سمعت ما قلت، وأنا عند كلامي" قال المعلم جوزيف.

"حسنًا، ماذا سأعمل؟"

"تقيم للأموات قبورًا، وتنحت شواهد لقبورهم".

"أهذا العمل سهل؟ هل يمكنني تعلمه؟"

"كنت في عمرك وطولك عندما بدأت هذا العمل كمساعد. ما دمت أنا قد أفلحتُ، فيمكنك أن تفلح أنت أيضًا. سيكون في البداية صعبًا بعض الشيء، ثم ستعتاد عليه".

"سأبذل قصارى جهدي" قال أقدو بحماس.

"ستعتني بالأموات. لتحقيق ذلك عليك النظر إلى السماء، وتتبع الدلالات في السماء، وقراءة النجوم، ونقش صور النجوم على شواهد القبور".

"كيف سأقرأ النجوم؟"

"أنت فتى ذكي، تتعلم بسهولة. إنها مثل قراءة الأبجدية".

"لكنني لا أعرف الأبجدية".

"يمكنك تعلم ذلك أيضًا، سأساعدك".

"حسنًا، هل يمكنني تعلم بناء بيت بسهولة أيضًا؟"

"أي بيت؟"

"بيت لي..."

صمت المعلم جوزيف بعض الوقت، نظر إلى أڤدو وعيسى المتمددين على الأرض جنبًا إلى جنب.

"اسمعني جيدًا يا أڤدو" قال، "إن كنت تريد أن أعلمك الصنعة، فهناك شروط لذلك".

"تفضل يا معلمي، سأفعل كل ما تقوله".

نظر المعلم جوزيف في عيني الصبي المفعمة بالأمل.

"اسمعني" قال، "إذا كنت ستنحت شواهد للقبور، فستبقى بعيدًا عن بناء البيوت. هذا هو الشرط الأول، معلم القبور لا يبني بيوتًا".

"لماذا؟"

"كل ما نفعله هو للأموات فقط. إذا بنينا بيتًا فسيصبح قبرًا لأولئك الذين سيسكنونه. نحن لا نبني بيوتًا، ولا يبني معلمو البناء قبورًا، وإلا ستحل اللعنة على صنعتنا. أتفهم ما أقول؟"

"ألا يمكنني بناء بيت لي أيضًا؟"

"يمكنك بناء بيت لك إذا أردت، وبصفتي معلمك أسمح لك، لكنك ستقسم لي أنك ستبني بيتًا لك فقط، وليس لأي شخص آخر".

"إذا سمحت لي، معلمي، سأبني بيتًا لي، ولن أبنِ حجرًا واحدًا لبيت شخص آخر، أقسم لك على ذلك".

"اتفقنا على الشرط الأول إذن، وأنت شاهد على ذلك يا عيسى، أليس كذلك؟ لننتقل الآن إلى الشروط الأخرى..."

"أهناك شروط أخرى؟"

"بالطبع، تعلم الصنعة لا يتم من دون شروط. تأخذ أجرك ممن يملك مالًا، ومن لا يملك مالًا تهبه عملك، وعليك أن تقدم له عملًا متقنًا كغيره

من الناس".

"قل إن هذا العمل أشبه بالغناء، فالذين يملكون مالًا يتصدقون، ومن لا يملكون مالًا يستمعون دون تقديم أي شيء، وعلى الرغم من ذلك فأنا أمتعهم بغنائي".

"أحسنت، لقد فهمتَ جيدًا ما أقوله. شرط آخر هو أن يكون بيتك إما في المقبرة أو جوارها، وعليك أن تفتح بابك للمشردين الذين يأتون للنوم في المقبرة، وسوف تشاركهم مائدة طعامك".

"أفعل الآن الشيء نفسه، أشارك مالي وخبزي مع الشحاذين، وكل ما أكسبه".

"حسنًا، هذا يعني أنك ستتقن هذ العمل بسرعة وتصبح معلمًا ناجحًا، لنحتفل إذن باتفاقنا، بصحة المساعد أقدو".

"أيشرب الفتى الخمر أيضًا؟" قال عيسى معترضا.

"لِمَ لا يشرب؟ كل من يشرب الماء يستطيع أن يشرب من ماء زمزم، ويستطيع أن يشرب الخمر أيضًا" قال المعلم جوزيف.

لم يُجبْ عيسى، رفع قدحه مع المعلم جوزيف وأقدو.

"بصحة المساعد أقدو".

"بصحتنا جميعًا".

أكره أقدو نفسه على اجتراع النبيذ، فتغضَّن وجهه.

"في شبابي" قال المعلم جوزيف، "تنقلت إقامتي بين مقابر السريان والمسلمين. لكن بعد أن علمت عدم جواز ذلك، قمت بنقل كوخي خارج المقبرة. عندما كنت أقيم في مقبرة السريان ما كان المسلمون يطلبون مني نحت شواهد قبور لموتاهم، والسريان أيضًا ما كانوا يطلبون مني نحت شواهد

قبور لموتاهم، عندما كنت أقيم في مقبرة المسلمين. كوخي الآن ليس في أي من المقبرتين. انظرا، مسجد الشيخ ضرار في تلك المقبرة، وكنيسة القديس ميخائيل في المقبرة الأخرى. بعد أن وضعت كوخي بين المقبرتين، أصبح أصحاب كلا الديانتين يأتون إليّ، ثم لا أحد يتدخّل في نبيذي هنا، هذا مهم أيضًا".

"النبيذ مهم" قال عيسى.

"أقدو" قال المعلم جوزيف، "لقد سمعنا صوتك هذه الليلة، وسنسمعه دائمًا. أخبرنا، هل سمعت عزف عيسى على الناي قبل اليوم؟ أما سمعته في السوق؟"

"كلا، لم يعزف في الشارع حيث كنت أتسول، ولم أسمع عزفه على نايه".

"عيسى حزين بعض الشيء هذه الليلة، بعد أن سمع عن أخبار الحرب. سيعزف لنا بعضًا من ألحانه الجميلة".

دسَّ عيسى يده في كيسه وأخرج الناي، مسح شفتيه بإصبعه، ركز الناي في زاوية شفتيه، ثم أغمض عينيه وشرع بالعزف. اهتز حجاب السماء، وتراقصت النجوم. استعرَّت ألسنة اللهب وتحول لونها من الزرقة إلى الصفار. وبعد أن تذوق الناي النبيذ السرياني رجع بصوته إلى العصور القديمة، وامتزجت ألحانه بألحان إيزالا عندما كانت المدينة تحمل هذا الاسم، وبأغاني ماردين عندما كانت المدينة تدعى بهذا الاسم، وبألحان باقية من لغات أخرى ضاعت أسماؤها، لتنتشر جميعها على التراب الأحمر للمقَبرة. التفت أقدو نحو عيسى وتأمله مصغيًا إلى ما يصدره من نايه من أصوات سحرية مثل حوريات إسطنبول. حينئذ، تأكد له أن هذا الشاب ليس مجنونًا.

ماردين

سهل ما بين النهرين

1939

بعد أن أكمل أڤدو نحت الحجر بالإزميل ونعّم حوافه دون أن يكسره، شعر بسعادة بالغة، نفض الغبار عنه وتأمله. بدا الحجر كلوح من العصور القديمة خالٍ من الكتابة، ألقى نظرة أخيرة عليه ونادى على معلمه.

كان المعلم جوزيف يراقبه عن بعد، واقترب منه بعد أن ناداه. تلمس أطراف الحجر، ومرر يده على سطحه، ثم رفعه وغرزه في الأرض.

"أڤدو" قال، "لقد نجحت هذه المرة. لا تهتم بما كسرته من عشرات الأحجار التي كسرتها خلال أسبوع. انظر، لقد قمت بعمل جيد. في حين، أنا أمضيت شهرًا كاملًا حتى استطعت عمل حجر مستوٍ وناعم، هذا يكفي لهذا اليوم، غدًا ستبدأ في تعلّم النقش".

"معلم" قال أڤدو، "أيمكن أن لا أعمل غدًا، أريد الذهاب إلى السوق لأغني كي أجمع بعض النقود لأعطيها لعيسى. سيسافر قريبًا..."

"لا تقلق على عيسى، سأعطيه بعض النقود. أما إذا كنت ترغب أن تهبه بعض النقود، فلا مانع، ويمكنك الغناء في السوق".

"شكرًا لك يا معلم".

"اذهب الآن، واغسل يديك، وانفض الغبار عن شعرك. عندنا ضيف الليلة، سنقوم بإعداد المائدة".

"من سيأتي؟"

"المعلم ديكران سيأتي من أورفة، سيبقى عندنا بضعة أيام. أنا أفتخر بمهاراتي في نحت شواهد القبور، لكنك سترى أن الماهر الأصيل هو ديكران. هذا هو جمال صنعتنا، ستجد دائمًا شخصًا قديرًا تحترمه. يتحدد الأجر في عملنا، حسب حجم وصلابة الحجر، أي إذا كان الحجر ذكرًا أو أنثى، أما أجر المعلم ديكران فيُدفع حسب النقش ولا حسب نوع الحجر. يمكنه عمل أصعب النقوش بشكل جميل حتى أنه يحفر حراشف الثعبان والعينين والشفاه الوردية لشاه ميران بدقة كأنه يرسمها بفرشاة على المرآة لا على الحجر. أنت أيضًا موهوب يا أقدو، جمال صوتك ومعرفتك لعدد من اللغات أكثر مما أعرفه في هذا العمر تُعدّ ثروة، وإذا ما أصبحت معلم شواهد قبور، فلن يُشقّ لك غبار".

بينما كان البدر يرتفع فوق الأبراج في الشرق، وصل المعلم ديكران. أعدوا له شواء اللحم على النار، وقدموا مع اللحم أصنافاً متنوعة من الأطعمة، صبُّوا النبيذ الأحمر في الأقداح، واحتسوا أول جرعة على شرف المعلم ديكران.

"لقد عرفت المعلم ديكران منذ أربعين عامًا" قال المعلم جوزيف موجهًا نظره نحو أقدو وعيسى، "للمرء الكثير من المعارف في هذا العالم، ويتفاوت حبه لهم. أما الأصدقاء فيختلفون عن المعارف، صديقي الوحيد في هذه الحياة هو المعلم ديكران، كم أنا سعيد بهذه الصداقة!"

"وأنا سعيد أيضًا" قال المعلم ديكران.

"آمل أن يكون لي صديق في المستقبل أيضًا" قال عيسى.

"أنت ما زلت شابًا" قال المعلم ديكران، "وإذا ما أقمت في القدس، ستشكّل صداقات هناك. أنا مندهشٌ من قرارك المفاجئ بالرحيل. حين التقينا آخر مرة، كنت تتحدث كأنك لن ترحل من هنا أبدًا".

" كنت أنوي البقاء" قال عيسى، "لو لم تنشب الحرب لما فكرت بالرحيل أبدًا".

"عندي أقارب في القدس، زرهم عند وصولك إلى هناك، لن يتوانوا عن تقديم المساعدة لك".

"شكراً لك، سأنقل سلامك لهم. لكن كيف سأتفاهم معهم؟ أنا لا أعرف السريانية".

"هم يعرفون كل لغة منطوقة في هذه الديار، لقد استلمت رسالة من ابن عمي منذ أيام. بدأ رسالته باللغة السريانية، ثم أتبعها باللغة التركية، وأنهاها باللغة الكردية. يبدو أنهم يفتقدون هذه الديار كثيرًا. إنهم يفتقدون ماضيهم، لقد أسس أجدادنا مدينة نينوى قبل ثلاثة آلاف سنة. أرسل الله النبي يونس إلى نينوى وأمره أن ينذر الناس. كنا نظن أن النبي يونس كان يتحدث السريانية أو الآرامية أو الأكّادية، لكن يقول أوليا تشلَبي الرحالة المشهور في العهد العثماني، إن النبي يونس تحدث الكردية مع أهل نينوى، ربما ما قاله صحيح. على أية حال، يمكنك التحدث مع أقاربي باللغة الكردية".

"مثل النبي يونس!"

"نعم" قال المعلم ديكران بابتسامة خفيفة.

انضم أقدو إلى الحديث بحماس طفولي، "معلم ديكران" قال، "هل عشت في القدس أيضًا؟"

"لا، لم أرَ القدس قط، لكن قلة من أقاربي بقوا هناك بينما هرب الباقون، وتفرقوا في جهات الدنيا الأربع".

"لماذا هربوا؟"

"لم يكن الأمر بالغ الأهمية" قال المعلم ديكران ببرود كأنه يروي للفتى أمرًا عاديًا للغاية، "نشبت الحرب هنا، وفي الحروب تنقلب الدنيا رأسًا على عقب. تتشتت العائلات، وتُهدم المدن، وتنهار الدول. وعندما تضع الحرب أوزارها في أحد الأيام، لا شيء يعود إلى سابق عهده".

"إذا كانت الحرب قادمة، فلِمَ لا نهرب؟ طالما لا يزال لدينا الوقت فلنحزم أمتعتنا، ونذهب إلى القدس".

بدا أقدو كأنه يتحدث عن وحوش مجهولة قادمة، فالتفت الجميع إليه محدقين. أطفال الشوارع مستعدون دائمًا لمواجهة أي مفاجأة مهما كان هولها، لكن أقدو حبس أنفاسه منتظرًا الرد، كأنه يشعر بأن الحرب تختلف عما يعرفه من الأهوال.

"لقد أخطأنا" قال المعلم ديكران، "سبَّبنا لك الهلع بكلام لا لزوم له. لا تجزع، لن تصل الحرب إلى هنا. ما علاقتنا نحن بحرب على أطراف أوروبا؟ عيسى يبحث عن حجة للسفر، ونيّته من التنقل استعادة ذاكرته، أليس كذلك يا عيسى؟"

"معلم ديكران" قال عيسى متجاهلًا الإجابة على سؤاله، "أنا سعيد لأنك أتيت هذا الأسبوع، لو رحلت دون تقبيل يدك، لشعرت بحزن شديد".

"أرجو لك الكثيرين من مقبلي يدك. في طريقك إلى القدس، ستمر عبر

طريق دمشق مثل القديس بولس. كل من يسلك تلك الطريق، نورٌ سيرشده إلى الحقيقة كما القديس بولس، أرجو لك بلوغ الحقيقة كي يهدأ بالك".

رفعوا أقداحهم كأنهم يرفعون دعواتهم إلى السماء، ثم استمعوا إلى قصص المعلم ديكران عن القديس بولس ودمشق والقدس. بدا المعلم ديكران كأنه كاهن يوعظ الحاضرين بحماس في الهواء الطلق، لا نحّات حجر. يرفع من صوته تارة ويخفضه تارة أخرى، ويشير إلى النجوم بين حين وآخر، ويحمل صوته تجاعيد أقدم من تجاعيد وجهه. بدا صوته بعمر يتراوح من ألف إلى ألفي عام، أو ربما بعمر أول إنسان زرع القمح في سهل ما بين النهرين.

"معلم ديكران" قال عيسى منتهزًا فرصة سكوت المعلم ديكران، "نحت أقدو حجره الأول وأكمله اليوم، عندما يكبر سيكون مثلك تمامًا، يتحدث إلى النار والنجوم والحجارة".

نظر المعلم ديكران إلى ذلك الحجر المركون بعناية، وقد أضاءه لهيب النار المستعرة.

"أحسنت يا معلم أقدو" قال مشجعًا الفتى، "الحماس هو المفتاح الذي يفتح أصعب الأقفال. وأرى أنك تملك هذا المفتاح، وسوف تفتح الباب، وتدخل الفناء الذي أمضينا عمرنا حتى تمكنا من دخوله. هل أضيف بضع كلمات على أول حجر لك؟"

"تفضل يا معلم" قال أقدو وقد غمرته السعادة.

"لا علم لي بما ستنقشه على هذا الحجر غدًا، سيخبرك معلمك. المعلم جوزيف هو سيد النقوش والكتابة، سأخبرك عن شواهد القبور الخالية من النقوش أو الكتابة، هل سمعت بها؟"

"لا، لم يخبرني معلمي بعد".

"القبر حق لكل إنسان في هذا العالم، باستثناء الجلادين. لا تقام لهم مراسم جنازة، ويدفنون خفية في الليل، وشاهد قبرهم حجر مستطيل مطلي بطلاء أسود وخالٍ من أية نقوش أو كتابة كي لا يُعرف من يرقد في ذلك القبر، ويظل هذا الشاهد الأسود الخالي من النقوش والكتابة الدلالة الوحيدة على مسيرة حياة المدفون تحته".

"أيجب عليّ إذن، أن لا أترك حجري هذه الليلة بلا كتابة؟" سأل أقدو بقلق، ثم تابع: "لأحدث فيه ثلمة كي لا يظل خاليًا حتى الصباح".

"لا داعي للعجالة، لم يوضع حجرك على قبر بعد، لذا لا ضير في بقائه على حاله هذه".

فكّر أقدو للحظة، شاردًا في ألوان اللهب الصفراء والزرقاء والحمراء. على الرغم من أن المعلم ديكران قد أكد أن لا ضير في بقاء الحجر بلا نقوش أو كتابة، لكن عليه التصرّف بسرعة. يجب أن يستيقظ غدًا باكرًا مع توتيفي، ويشرع بالعمل. وبعد غد يذهب إلى السوق، ليغني ويكسب بعض النقود.

"معلم ديكران" قال مثل طالب مجتهد، "سأنقش على هذا الحجر غدًا، لن أنتظر. ثم أن حجري أبيض مثل الحليب، وليس أسود".

"أرى ذلك يا معلم أقدو، أرى أن حجرك أبيض. حتى لو بقي هذا الحجر الصلد في الشمس والمطر لآلاف السنين، فلن يسودّ لونه. لم أرد أن أَخبرك بهذا كي لا أسبب لك القلق، لكنها معلومة يجب أن تعرفها في حياتك العملية الطويلة. إذا ما واجهك حجر أسود، لا تخف منه، فأنت معلم، ما إن تضع نقوشًا على حجر أسود، سيصبح أجمل شاهد قبر في العالم".

بينما كانوا يتجاذبون أطراف الحديث ويقارعون الخمر، تابع البدر تقدمه ببطء كرجل مسن يحمل على ظهره حجرًا صلداً أبيض حتى اعتلى قبة السماء.

قرية كوناك غورميز

سهل هايمانا

1958

انطفأت مصابيح الكاز، وغرقت البيوت في النوم، وامتلأت السماء بأعداد من النجوم أكثر من عدد عيدان القش في البيدر. هل كان نجم الراعي ينتظر في السماء أيضًا، أم أنه تعقب الشمس وهبط منذ مدة إلى الظلام خلف القمم؟ كانت إليف جالسة على السرير تحل ضفائرها، وتفرد خصلات شعرها بمشط نقشت عليه صورة شاه ميران. تنقل نظرها من حين إلى آخر، إلى المرآة المستندة إلى الوسادة، وتحدق في المرآة كأنها ترى نفسها في غرفة بلا ضوء. ماذا تفعلين يا إليف، كانت المرآة تقول، لمن تحلين ضفائرك، وتعدين الخرز الأزرق؟ عندما تسمع إليف هذا الصوت، تلتفت وتنظر إلى أختها النائمة في الركن الآخر من الغرفة، وتستمع إلى أنفاس والديها النائمين في الغرفة المجاورة قادمة من الباب المنفرج.

أمام المرآة سكين وقطعة ذهب ورغيف متعفن. ستعيد إليف قطعة الذهب إلى صاحبها، وستأكل من هذا الرغيف المتعفن كل يوم، إذا لم يسممها الخبز المتعفن ويقتلها في غضون ثلاثة أيام، ستحزّ بالسكين

معصمها وتقطع عروقها. لم تجرؤ على قتل نفسها بالسكين، لذا فكرت في أكل خبز متعفن، وإذا تسبب في موتها، ستغادر الحياة من دون ألم.

عندما كانت طفلة صغيرة وجدت زوجة عمها ميتة في حجرة التنور وقد قطعت عروق معصمها. زوجة عمها كانت امرأة جميلة، في عمر إليف الآن. قال القرويون إن هذه العروس حين قدمت من القرية المجاورة، قد تبعها الجن وأقاموا هنا. ثم تلبّسوها لعام كامل، إلى أن دفعوها إلى قتل نفسها. كانت إليف قد رأت زوجة عمها تبكي خفية، ولاحظت على عنقها وذراعها كدمات حمراء وزرقاء، فاعتقدت أن عمها يضربها ولم يخطر ببالها أن هذا من عمل الجن. لكن عندما رأت زوجة عمها الجديدة تبكي أيضًا، أدركت أن الجن لم يغادروا القرية، واستقروا هنا وفي هذا البيت بالتحديد. أصبح الجن الآن، يزعجون إليف. يوسوسون لها، ويقلقون نومها، ويزينون لها الخلاص من الحياة على انتظار عودة خطيبها من الجيش.

قامت بترطيب المشط بزيت الخزامى ومررت أسنان المشط بين خصلات شعرها، شدّت شعرها ببطء، فشعرت بألم. كيف لها تحمّل نصل السكين الحاد وهي لا تحتمل أسنان المشط تمشط شعرها؟ دمعتان سالتا من عينيها، مسحتهما بأصابعها، عضت على شفتها كي لا يُسمع نشيجها في سكون الليل.

كانت الساعات المفضلة عند إليف تلك التي ينام فيها الجميع وحتى الكلاب ليلًا. تستيقظ عند الفجر، وتعمل طوال النهار في الحظيرة والتنور والبستان، في انتظار ساعات الوحدة في الليل. عندما تبقى وحيدة في الظلام، تغرق في الأحلام وفي عوالم ملونة كألوان ثوبها المزركش. تتجول في تلك العوالم راكضة، وتستلقي على العشب بعد تعرق، إلى أن تستيقظ

مع شروق شمس اليوم التالي، لتعاود العمل بهدوء. بعد أن كانت تنتظر قدوم ساعات الليل كأجمل أوقاتها، باتت تخشاها. في ذهنها تجول أفكار وأسئلة وعقد بلا حلول. ما عاد النوم يغزو عينيها، فتنهض من فراشها في الصباح، مرهقة. ثم أنها أهملت تمشيط شعر أختها إيبيك. من يدري أي حلم جميل تعيشه إيبيك الآن، أثناء نومها. تحلم بحياة مختلفة ومليئة بمشاعر الحب والحنان. ستعطيها مشطها المصنوع من قرن كبش، لعلها تنال مرادها بالعيش مع رجل تحبه، وتمشط شعرها بذلك المشط بينما ترى نفسها في مرآة اشتراها لها حبيبها.

تستمع إليف بشغف إلى قصص العشق التي تجري في قرى السهل وتتناقلها الألسن حتى تصل إلى قريتها. نهايات تلك القصص كانت حزينة في الغالب، وقد ظنت إليف أن تلك النهايات الحزينة لا تقع إلا مع فتيات القرى البعيدة، ولم يخطر ببالها أنها ستقع في مثل ذلك الحزن يومًا ما. تتأمل نجوم السماء على الرغم من جهلها لأسمائها، وتغرق في النوم حين ينام الكل. أيام السكينة تلك قد ولّت، لمن تفضفض عما في داخلها، ولمن تشكو همها؟ تناولت الرغيف، وتشمَّمته ثم قبّلته ورجت حلًا. الخبز، مهما كان متعفنًا، يظل مباركًا، ويمكن أن يصنع المعجزات. قبّلت الرغيف مرة أخرى، ثم أخذت قطعة. أمسكت بالقطعة بين أصابعها وتريثت ثم أغمضت عينيها ووضعتها في فمها. لم يكن مذاقها سيئًا، إذ بدا مثل مذاق جبن الضأن الطازج. مضغت لقمة أخرى، فانتشرت في حلقها رائحة العفن. فتحت عينيها ونظرت إلى الرغيف والسكين وقطعة الذهب. هل تلعن حظها، أم ما زال هناك بارقة أمل؟ وضعت قطعة الذهب في كفها وقبلتها تبركًا، وضغطت بها على صدرها، سالت دموعها برقة، لقد استنفدت ما تحفظه

من أدعية. عند منتصف الليل، بينما كانت بيوت القرية تغرق في الأحلام، بقيت وحدها مع سكين ومرآة. تصبب عنقها وظهرها عرقًا. حدقت في المرآة بعينين مغرورقتين بالدموع. في الظلمة الدامسة، لم ترَ في المرآة سوى هاوية سحيقة. خفق قلبها بشدة، وشعرت إذا ما انحنت قليلًا، فستهوي داخل المرآة. حلّقت في غياهب الضياع وتاه عقلها. الجن كانوا هنا، جن زوجة عمها في عمق المرآة يراقبونها. ظنَّت إليف أنها وقعت تحت سحرهم، وأنه لا جدوى من مناكفتهم. ثم أنها لم تجرؤ على إدارة ظهرها للمرآة، فالأثر الفضي لنجم الراعي كان خلفها. الجن ونجم الراعي يوقعون الخوف في قلب إليف ويحبسون أنفاسها في أشد لحظات الليل وحشة.

قرية كوناك غورميز

سهل هايمانا

1958

حين سمع باقي الخبر اندفع راكضًا حتى وصل عند أقدو حيث كان ينحت شاهد القبر، فوقف أمامه لاهثًا. "معلم" قال، "وصلت رسالة من الآغا الصغير إلى أبيه، ظنًا منه أنه لا يزال على قيد الحياة، يخبره بأن خدمته العسكرية قد شارفت على الانتهاء، ويعدّ الأيام الباقية حتى نهاية الشهر، كي يعود ويقبّل يده. أخواه الاثنان فرحا جدًا، وبدآ التحضير لعودة أخيهما الصغير، وأوعزا إلى الرعاة باختيار عدد من الحملان لذبحها، وأصدرا تعليماتهما للنساء، لإعداد القشطة الطازجة واللبن الرائب، إضافة إلى تنظيف وترتيب الطابق العلوي من القصر".

ما ترتيب اليوم من أيام الشهر؟ لم يتبقَ لنهاية الشهر سوى أسبوع واحد. هذا ما توصل أقدو إليه بصعوبة بالغة، فالأيام لا يُكترث بها في القرية. إذن، قد يظهر الآغا الصغير فجأة في أحد الأيام القليلة القادمة. أخواه الكبيران ينتظرانه، حصانه وخدمه ينتظرونه، فهل إليف تنتظره أيضًا يا ترى؟

ألقى أقدو بالإزميل والمطرقة جانبًا وجلس على الأرض، أخرج من جيبه وشاح إليف المورّد الذي لفّت به ما أرسلته له من فطائر، بعد أن كان قد غسله وجففه على شجيرة اللحلاح الأرجوانية، تشممه واحتواه بين كفيه. كان الأمر حتى تلك اللحظة لا يشغل باله، فلم يكن أمامه سوى الانتظار، ولا شيء آخر سوى الانتظار. كان يظن أنه باقٍ في القرية لبقية عمره، يعمل على شاهد القبر نفسه كل يوم، ويتابع بنظره الطريق التي تسلكها إليف من البيت إلى النبع، ويشعر بالسعادة بنظراتها الخفية، وهكذا سيجري النهر المدعو بالحياة إلى ما لانهاية.

رفع رأسه، "أنت طيب القلب يا باقي" قال، "كما تعلم، فاسم قريتكم (كوناك غورميز) أي قصرٌ لا يرى. يوم أخبرت كبار السن أن هذا الاسم لا علاقة له بالقصر والرؤية، وأن التسمية تعود إلى البيزنطيين، غضبوا. لم يعطوني الفرصة كي أخبرهم أن الأصل في التسمية يعود إلى ما قبل البيزنطيين. المعنى الأصلي للكلمة يعني شعب قمة بلاد الإلهة الأم. ما أجمله! أليس كذلك؟ تركت عشيرتك أراضٍ بعيدة وأتت إلى هنا بألف أمل، لكن اثنين منكم فقط تقمصا روح الإلهة الأم التي ظلت تنتظر هنا منذ قرون. شخصان فقط قد حققا مجدها، أحد الاثنين هو أنت والآخر هي إليف. الكبار الغاضبون لا يفهمون هذا، ولا يعرفون شيئًا سوى الإيمان بالقمح والدعاء. أريد أخذ إليف بعيدًا من هنا، هذا هو حلمي. لو لم تكن لك عائلة، لاصطحبتك معي وكنت أبًا لك. باقي، أنت محظوظ أن لك أبٌ وعندما أغادر غدًا، ستعتني بنفسك وبأبيك. لا تفقد الأمل في مواجهة الصعوبات، ولا تغمض عينيك عن المستقبل، هل تفهمني؟".

تشتت فكر باقي، لا يعرف ماذا يقول، هل يجب أن يكون سعيدًا لأن

له أبٌ أم يحزن على رحيل معلمه؟ "هل ستغادر قبل أن تنهي شاهد القبر؟" سأل.

"لقد انتهيت منه بالفعل" قال أقدو، " كنت أمضي الوقت في بعض النقوش الدقيقة فقط".

لقد حان الوقت للتوقف عن إطالة العمل عمدًا بتفاصيل ثانوية على نقوش شاهد القبر. شاهد القبر الذي بدا مهيبًا وساحرًا، كان جاهزًا منذ وقت طويل، والميت ينتظره بفارغ الصبر تحت التراب الرمادي. كان أقدو ينتظر لحظة القرار، لقد جاء ذلك اليوم. سيكلم ابني كارا آغا، ويغرز شاهد القبر على القبر غدًا، ويطلب منهما قطع الذهب الثلاث التي وعداه بها. أتى غريبًا، واشتغل غريبًا، وسيغادر غريبًا.

"باقي" قال أقدو، "لقد كنت طيبًا معي، هل ستفعل آخر شيء من أجلي؟"

"سأفعل كل ما تريد".

"ستذهب الآن إلى إليف وتبلغها بآخر رسائلي".

"هل ستكتب رسالة؟"

"لا ، لن أكتب شيئًا، عليك أن تنقل لها ما سأقوله لك فقط. غير ذلك فالأمر متروك لها، لا بأس إذا لم ترد، لا يهم، أوصل لها كلامي فقط، وعد إلى هنا".

"حسنًا يا معلم".

ردّد أقدو بضع جمل أمام باقي لينقلها إلى إليف. آثر أن لا يطيل، ثم طلب منه أن يسرع بالذهاب، ويعود من فوره. ابتسم حين رآه متوترًا مثله.

"سأقص عليك حكاية حين تعود، ما رأيك؟"

"حقًا؟ أية حكاية؟"

"حكاية الثعلب".

"سأذهب إلى إليف في الحال".

قرية كوناك غورميز

سهل هايمانا

1958

اليوم، ظهرًا.

ودّع أقدو ابني كارا آغا، وشكرهما على القطع الذهبية الثلاث الأخرى التي وعداه بها. بينما كان يحتضن باقي مودعًا، أسقط في جيبه قطعة ذهب خلسة كي لا يلحظ أحد ذلك، وهمس في أذنه" قطعة الذهب هذه من حقك فأنت مساعدي، لا تخبر أحدًا بذلك"، ثم ذهب إلى النبع للمرة الأخيرة، وشرب قليلًا من الماء البارد. بلّل شعره، واتجه بنظره نحو البيت المطلي بالصباغ النيلي على الضفة الأخرى من الجدول. لا أحد أمام البيت، لا إليف ولا أختها ولا حتى كلابهما. كانت السماء زرقاء صافية ولا سحب تحجبها. امتطى أقدو صهوة جواده وراح يتقدم الهوينى، متلفتًا حوله علّه يرى أحدًا بين الأشجار أو خلف الأسوار يتابع رحيله، لم يكن هناك أحد سوى باقي الذي اعتلى سطح الدار مثل صقر حزين يتابع معلمه حتى اختفى في الأفق.

أمس.

ذهب باقي إلى إليف ونقل ما قال له أقدو. "سيغادر المعلم أقدو القرية غدًا، لكنه لن يبتعد كثيرًا. عندما يحل الظلام، سيعود إلى بستان اللوز وينتظرك هناك حتى الفجر. لقد قال لا تخشي شيئًا، وائْتي إلى بستان اللوز، هذا ما أراد أن أُخبرك به". كانت إليف تنشر الغسيل في ذلك الوقت، فلم ترد على باقي، وتابعت نشر الغسيل المكوّم فوق الحجر الأبيض، على الحبل. راحت تنفض كل قطعة على حدة وتملّسها بأناة وترتبها جنبًا إلى جنب على الحبل. في تلك اللحظة، بدا الأمر لإليف كأنه لا يوجد شيء أكثر أهمية وجمالًا من الألوان النابضة بالحياة والروائح النظيفة للغسيل في القرية وفي العالم أيضًا، إذ لم تبالِ بكلام باقي ولم تلتفت إليه.

اليوم، بعد الظهر.

ترك أقدو القرية واتجه جنوبًا نحو غابة القصب على ضفاف النهر، ترك حصانه يرعى في المرج، خلع ملابسه ودخل في ماء النهر، اغتسل واستحم على أصوات الضفادع والقبرات. حين خرج من الماء، بدت له الشمس تعانق قمم التلال البعيدة، والسهول الخضراء تمتد خلف شجيرات القصب، ما يبشر بموسم حصاد جيد لقرى السهل. أقدو أيضًا، كان ينتظر حادثًا مفرحًا. ارتدى ملابسه بحماس، وانطلق على حصانه، بعد هبوط الظلام حتى وصل إلى بستان اللوز على مشارف القرية، ربط حصانه بإحدى الأشجار، وعلى وقع حفيفها، اتجه ببصره نحو السماء، وتابع النجوم المنتشرة مثل حبوب اللقاح.

اليوم، ليلًا.

اعتاد القرويون بعد صلاة العشاء، على الاستماع إلى أغاني أڤدو، طوال شهري أبريل ومايو/ نيسان وأيار. تلك الليلة، ذهبوا إلى بيوتهم وخلدوا إلى النوم في أجواء صامتة. أَلِف القرويون بسهولة سماع طرق أڤدو على الرخام نهارًا وأغانيه مساء، وعودتهم إلى سابق حالهم كان بالسهولة نفسها. انشغلوا برعاية أغنامهم وأبقارهم، وحلموا بحصاد وفير في الصيف. لكن هناك في القرية من لم يتمكن من العودة إلى حياته القديمة تلك الليلة. بعد أن توقفت الكلاب عن النباح وغرقت في سبات عميق، وانتشرت جنيات الليل في الحدائق، خرجت ظلال من البيت المطلي بصباغ نيلي. شال بلون الليل على كتفيها، ووشاح بلون الليل على رأسها. داست بهدوء على الأرض الرحيمة، وعبرت الجدول، تركت خلفها النبع والجامع والمقبرة. لو رآها أحد، لظن أنها إحدى جنيات الليل، كانت تتقدم بخطوات ثابتة ومتزنة.

اليوم، صباحًا.

استعان أڤدو بعدد من الأحصنة لجرِّ شاهد قبر كارا آغا، وثبّته على حافة قبره. تراجع بضع خطوات إلى الوراء، متأملًا شاهد القبر مع من أحاط به من رجالات القرية. "في هذا الحجر روح لرحالة كان، وفلاح الآن، يحمل في قلبه رياح الجبال وإن نزل إلى السهل، ملتمسًا بركات الأولياء والقديسين والإلهة الأم في كل صلاة وحلم" قال.

اليوم، ليلًا.

انتظر أڤدو في ظلمة الليل، قدوم إليف مرهفًا السمع لأقل حركة.

ما إن ميّز إليف في الظلمة من بعيد حتى أسرعٍ نحوها واحتضنها. لو ترك البنت لوقعت من شدة الاضطراب، فظل ممسكًا بها بين ذراعيه لفترة من الوقت. تمسكت إليف بذراعي أقدو أولًا، ثم عانقت خصره بهدوء، وأرخت رأسها على صدره، تلهث. حاول أقدو تهدئة أنفاسها المضطربة "لا تخافي" قال، "أنت في أمان، سنذهب بعيدًا، لا تخشي شيئًا". لم يدرك أقدو أن صوته كان متقطعًا، وأن يديه ترتعشان. قام بتدفئة يدي إليف بين يده. الليل كان باردًا فالصيف لم يحل بعد. أخرج أقدو بطانية من خُرج حصانه، وغطّى كتفي إليف. "تدفئي واهدئي، كي ننطلق من هنا بعد قليل"، تعانقا مرة أخرى حتى شعر كلاهما بنبضات قلب بعضهما. وبينما كانا يستعدان لامتطاء الحصان، سمعا صوت غصن ينكسر بين أشجار اللوز. سحب أقدو سلاحه من حزامه وشهره نحو مصدر الصوت، واستعد للضغط على الزناد فإذا بصوت من بين الأشجار يقول "معلم أقدو!".

ماردين

سهل ما بين النهرين

1939

عندما تتوارى الشمس خلف الأفق، تبدأ جموع الناس بمغادرة شوارع البازار، وتتشتت وتتفرق، بعد أن كانت تتجول بمرح وصخب. يخيم الهدوء على المدينة وتكتسي برداء من الخوف. لاحظ أقدو ذلك منذ اليوم الأول لقدومه إلى ماردين، فالناس يرشقونه ببصرهم نهارًا، ويتحاشون النظر إليه ليلًا. يضعون قناعًا غير مرئي، ويحثّون خطاهم، كأنّهم يستعدون لما يخبئه الليل من مجهول.

هُزم أهالي ماردين على مرِّ العصور من قبل عدة أقوام، من البيزنطيين إلى الساسانيين، ومن الأرتوقيين إلى المغول، وتحدثوا بلغات عدة، تعايشوا وتفاهموا فيما بينهم، لكنهم كانوا يتقاتلون فيما بينهم أحيانًا، فتسيل الدماء، وتتطاير الرؤوس، كأن الشيطان قد أوقع بينهم. بعد دفن الجثث، وانحسَار الكراهية كانحسار وباء بعد انتشاره، يعاودون العيش معًا، في محبة ووئام، لفترة أخرى من الزمن.

القادمون على ظهور خيولهم إلى ماردين من الصحاري الجنوبية، حين

يرون من بعيد، بيوتًا بلا كساء كالصناديق، تبدو لهم كأنها مقبرة كبيرة تضم رفات أموات تجاوزت أعمارها الألف عام. لكن بعد قضاء ليلة، خلف جدران موشاة بالزخارف والنقوش، وأبواب مهيبة، ونوافذ تناطع السماء كأنها مرايا من الفضة لامعة، حينئذ، يهيمون في جمال هذه المدينة ويتعلقون في سحرها.

يجلس المعلم جوزيف قرب النار، ويحدث أقدو بحماس، وكلما ينعش النبيذ في كأسه، ينتقل إلى موضوع آخر.

"أولئك الذين يعيشون في تلك البيوت أعلى الجبل، يخافون من الأموات؛ أنا لا أخاف من الأموات، ولكن من الذين يعيشون في تلك البيوت. أعرف ذلك مما يصل إلى هنا من نعوش، بعضها لشاب في ربيع عمره قُتل برصاص أخيه، أو عروس في مقتبل العمر لم يمضِ على زواجها سوى ثلاثة أشهر، قد ماتت ضربًا على يد زوجها، أو رضيع راح ضحية نزاع في قضية ثأر. أي قلب يحتمل ذلك، ثم يقولون لماذا لا نراك في البازار يا معلم جوزيف؟ ولماذا تبتعد عن الجميع؟ هذا المكان يكفيني، وأنت يا أقدو تعرف الاعتماد على النفس، هكذا أتيت إلى الدنيا. تأكد أن ذلك ليس سيئًا، وستدركه لاحقًا. في الأماسي، أشعل النار وأكلم اللهب، نبيذي حاضر دائمًا، كلبي توتيفي قربي، وأنت الآن معي، ما الذي أريده أكثر من ذلك. لا تقلق، نحن لن نُعدِم الضيف. بالأمس ودعنا عيسى إلى القدس، ومن قبله ودعنا المعلم ديكران إلى أورفة، وسيحلّ علينا ضيوف آخرون".

"أنا ممتن جدًا لك لقبولك بي مساعدًا لك..."

"الامتنان شيء لا يشرب، هذا ما يشرب، هيّا، ارفع قدحك".

استجاب أقدو لنشوة المعلم جوزيف برفع قدحه، وأخذ رشفة صغيرة،

متبعًا نصيحة معلمه. على الجميع أن يشربوا حسب حجمهم، لقد اتفقوا على ذلك.

"هل تعلم لماذا نشعل النار في المساء؟" تابع المعلم جوزيف.

"كي نتدفأ".

"بالتأكيد هذا أحد الأسباب، لقد بدأ الطقس يميل إلى البرودة فنحن في الخريف. أڤدو، عندما تتحدث إلى النار، لا يمكنك أن تكذب؛ النار بيت الحقيقة. لم أخبر عيسى بهذا، أتعلم أنه شعر بذلك من تلقاء نفسه؟ في إحدى الأمسيات، بينما كنا جالسين قرب النار، راح يحدث نفسه. تحدث عن إصابته في الحرب، وفقدانه لذاكرته، والتحاقه بالجيش، ثم هروبه منه. لا يتذكر حياته قبل ذلك، ولا يعرف اسمه الحقيقي، لو لم يتحدث بكل ذلك أمام النار، لما صدقته واعتقدت أنه مجنون".

"حسنًا، ما الذي يفترض بي فعله هنا؟" سأل أڤدو.

"أنا لا أحكي لك ذلك كي تفعل شيئًا، اعتد على الجلوس قرب النار فقط هذا يكفي. حتى لو لم تتحدث إلى النار، فإنها ستتحدث معك، سوف تتعلم ذلك كلما تقدمت في السن. أتذكر ليلة قدمت فيها إلى هنا وأشعلنا النار، ثم طلبت منك أن تكون مساعدي. لقد سألت النار عنك، فأخبرتني أنك فتى جيد. لم تخدعني النار يا أڤدو، أنت ولد طيب حقًا".

"هل تعتقد أن عيسى سيعود؟"

"عيسى المجنون؟"

"لا تقل عنه مجنونًا".

ضحك المعلم جوزيف ردًا على صوت أڤدو الحنون.

"ماذا جرى يا فتى، لقد كنت تتهمه بالجنون في الماضي، هل غيرت

رأيك؟"

"عيسى ليس مجنونًا، إنه طيب القلب".

"بالطبع هو كذلك، عيسى العظيم طيب القلب"، رسم المعلم جوزيف إشارة الصليب.

"لقد شعرت من كلام عيسى حين التقينا في الشارع أول مرة، أنه يمكنني الوثوق به".

"إنه غافسونو، كل من مثله يمكن الوثوق بهم".

"ما معنى غافسونو؟" قال أقدو.

"كلمة سريانية".

"لم أسمع بها".

"لعل من الأفضل ألا تسمع بها" قال المعلم جوزيف، "غافسونو تعني النازح، هو الشخص الذي نزح قسرًا عن أرضه، ويعيش على أرض غير موطنه الأصلي، مثل ورقة شجر في مهب الريح. فقدانك لأرضك هو فقدانك لذاكرتك، عيسى مرَّ في هذه الحال في الاتجاه المعاكس، لقد فقد ذاكرته أولًا، ثم أرضه تاليًا، فجرفته الريح، فهام على وجه الأرض".

"هل أنا غافسونو أيضًا، يا معلم؟"

"كنت كذلك حتى قبل أيام، وآمل أن تتغير، وترتبط بهذه الأرض".

"إذا كان بإمكان غافسونو التغيّر، فقد يتغير عيسى أيضًا، ويرتبط بأرض ما".

"أرجو له ذلك، مع أن المعلم ديكران قال إننا جميعًا قد ولدنا غافسونو، وسنجد موطننا عند موتنا، فقبرنا الصغير هو أرضنا الفعلية".

"قد لا يجد عيسى الأرض التي يبحث عنها، ويعود إلى هنا".

"لقد أحبك عيسى كثيرًا. سمعته ذات مرة يحدث نفسه قرب النار، يردد أسماء جميع الأنبياء، ويتوسل إلى موسى وعيسى ومحمد، قائلًا احموا هذا الفتى، ولا تتركوه يتحول إلى ظلال مثلي. عندما يكون الإنسان عاجزًا في حياته، يفقد وجوده ويتحول إلى ظلال، ويعتقد عيسى نفسه ظلالًا. تلك الظلال عبارة عن قلب فقط ولا شيء سواه. لقد عانى كثيرًا، وعاش على الأمل، وأخفق. لا يريدك أن تكون مثله. لقد توسل إلى النار، واستودعك كل الأنبياء ولابد أنهم لن يخيبوا ظنه".

"يا معلم بأي نبي أؤمن؟" قال أقدو بصوت ضعيف، "لكل امرئ نبي يؤمن به، منهم من نبيه عيسى، ومنهم من نبيه محمد، وأنا من هو نبييّ؟"

أبعد المعلم جوزيف نظره عن النار ونظر إلى أقدو ثم ربَّت على شعره بحنان أبوي.

"أترى؟" قال، "يمكنك رؤية أنوار كنيسة القديس ميخائيل هناك، ويمكنك سماع صوت الأذان من جامع الشيخ ضرار هنا، أنت الآن بينهما. خذ وقتك، ستتعلم كل شيء مع الوقت، وتختار لك نبيًا، وقد لا تختار أحدًا وتتابع حياتك".

"أهناك إنسان لا نبي له؟"

"بالتأكيد، لا تنظر إلى أقوال الناس بل انظر إلى أفعالهم؛ ما يقومون به لا يرضى عنه أنبياؤهم. أنت ما زلت صغير السن، وستتخذ قرارك حين تكبر. لكن أنا أريد منك شيئين اثنين فقط، أن تكون إنسانًا صالحًا وأن تعمَل بجد. هكذا الإنسان الحقيقي".

"أنت تؤمن بعيسى، لكنك تنحت شواهد قبور للمؤمنين بأنبياء آخرين، كيف ذلك؟"

"أقدو، ليس كل الأحياء صالحين، لكن كل الأموات صالحون، وأنا أنحت شواهد القبور من إيماني بذلك. سيأتيك في المستقبل من يتبع ديانة لم تسمع بها من قبل، ويطلب منك أن تنحت له شاهد قبر جميل، لن تصده من أجل خاطر الميت".

"لا أفهم شيئًا مما تقوله" قال أقدو، "هل لأني ما زلت صغيرًا؟"

"هذه طريقتي بالحديث، أخلط الأمور ببعضها، ستعتاد عليها مع مرور الوقت. أترى؟ تعتاد على النبيذ، وتعتاد على النار، وتعتاد على الأموات الذين يستمعون إلينا من قبورهم في الليل".

"عيسى كان يخلط في كلامه أيضًا، لكنني اعتدت عليه بيسر".

"إنه مجنون، لذا فقد اعتدت عليه بيسر، سوف يستغرق الأمر بعض الوقت حتى تعتاد علي".

جلجلت في الأجواء قهقهات أطلقها المعلم جوزيف حتى أن الأموات انتصبوا في قبورهم وأصغوا إلى أصوات العجوز والفتى الجالسين قرب النار، أصوات اختلطت بأجيج النار.

قرية كوناك غورميز

سهل هايمانا

1958

اليوم، صباحًا.

استيقظ باقي مبكرًا، جمع الشياه وصفّها الواحدة أمام الأخرى، أمام الفتيات اللواتي كنَّ ينتظرن مع دلاء نحاسية لحلبها. عندما انتهى الحلب، ثبّت باقي الرَّحْل على ظهر حمار أبيه ثم وضع فوق الرَّحْل خُرجاً عِدْليه مليئين بالمؤونة. ذهب إلى حجرة التنور وجلس هناك إلى جانب أبيه "سنبقى في السهل هذه الليلة" قال أبوه حيران، "دع القطيع يسرح ويرعى، سنعود غدًا صباحًا عند وقت الحلب. أنت تحب النوم في السهل يا باقي، هل تود المجيء معنا؟" بعد أن تناول باقي قطعة من الخبز المغموس بالزبد الذي أعدته له أمه قال لأبيه: "عليّ إنجاز الكثير من الأعمال هذا اليوم، تنظيف الحظيرة وإصلاح حوض العلف المكسور ثم أن المعلم أقدو سيغادر القرية اليوم، وَسأذهب لوداعه"، قال أبوه: "هذا هو أهم شيء، ما دام معلمك سيغادر اليوم، فانقل له سلامي وتمنياتي له بالتوفيق في سفره. إنه رجل طيب، لقد علمك القراءة والكتابة". حيران رئيس رعيان كارا آغا يذهب

إلى الجامع أحيانًا، فيسمع حديث الرجال عن المعلم أڤدو، فيغضب من الافتراء على الرجل الذي علّم ابنه القراءة والكتابة، فينسحب ويغادر دون أن ينبس ببنت شفة.

أمس.

كان أڤدو يصقل شاهد القبر ويردّد لباقي ما كان يقوله طوال الشهرين الماضيين.

"باقي، سأرحل غدًا. لا تنسَ ما علمتك إياه، يجب أن تدرس وتحسّن من قراءتك وكتابتك. خذ كتب أصدقائك الذين يذهبون إلى المدرسة، واقرأها. أما من أجل تطوير مهارتك في نحت الحجارة، فعليك المثابرة والاستمرار في تعويد يدك؛ ضع كل حجر تجده أمامك، وانحته وأعطه الشكل الذي يروق لك. صعب عليك مثل هذا الرخام، على أي حال فهو غير موجود هنا. إنه يدعى بالحجر الذكري، لأنه صلب. لقد رأيت كم واجهت من صعوبة طوال شهرين حتى أكملته. المشط الفولاذي ساعدني كي أعطيه الشكل الذي أريد، هناك حجارة سهلة التشكيل حول قريتك، فالسهل مليء بالصخور الرسوبية. تسمى هذه الصخور بالحجارة الأنثوية، وهي ألين من الرخام. يجب أن تعرف جيدًا الحجر الذي تختاره، إن كان مناسبًا لمعصمك بمجرد النظر إليه. عند تشكيل الحجارة الأنثوية بمشطك، عليك تمشيطها من الأعلى إلى الأسفل فقط، كما لو كنت تمشط شعرًا طويلًا؛ إياك أن تمشطها بشكل جانبي، وإلا ستتصدع من حيث لا تتوقع. هل ترى ذاك الحجر على القبر الدارس، إنه حجر طيني، اختر مثله، إنه متوفر هنا ويسهل العمل عليه. وذاك الحجر يسمى بالحجر

الرملي، وهو جيد أيضًا. أحببْ حجرك واعمل عليه بصبر، فكلما عملت أكثر، كلما تحسّن أداء يدك وازددت مهارة. الحرفيُّ الماهر يحتاج إلى ثلاثة أشياء: الصبر والرغبة وسعة الخيال. ولابد لك من أدوات وعُدد جيدة. معي منها كمية إضافية، سأتركها لك. عادة ما يكون المشط مصنوعًا من الحديد، لكن المشط الفولاذي أفضل، مثلّث قائم الزاوية، شاقول، دواية، ميزان مائي، إزميل، وبالتأكيد مطرقة. اعتاد معلمونا في الماضي على تسمية هذه المطرقة كولونغ، وتعني مهدّة لاختراق الجبال، وفي الأساطير فاسمها يأتي من مهدّة فرحات التي اخترق بها الجبل ليصل إلى حبيبته. ومع ذلك، فإن قوة مهدّتي التي تخترق الجبال، لم تكن كافية للوصول إلى قلب إليف. علمني هذه المهنة معلّمي المارديني جوزيف. هل كانت ماردين مدينته؟ وجوزيف اسم سرياني، هل كان سرياني المعتقد؟ على أية حال، فأقرب صديق لمعلمي جوزيف هو المعلم ديكران. حين يجتمع هذان الرجلان ينظران إلى الحجارة ويلمسانها بطريقة خاصة، ويتعاملان معها بغرابة أيضًا. هل تعلم ماذا كانا يفعلان؟ كانا يُحدثان ثلمة في صخرة كبيرة ويضعان بذور حور في الثلمة. ثم يقولان ما لنا سوى الوقت والصبر. تتجذّر بذور الحور وتخترق الصخرة، فتتشقّق وتتشظّى. يقول المعلم جوزيف إن هذا قانون الحياة، أصلب شيء على سطح الأرض يحطمه ألين شيء. لقد مكثت شهرين في قريتكم يا باقي، لو بقيت لفترة أطول، فربما استطعت زرع بذرة في قلب إليف، فيتاح لي رؤية هذا القلب المغلق قد تفتح على برعمٍ أخضر. لكن ذلك لم يحدث، فالقدر لم يسمح بذلك، وها قد حان وقت الرحيل".

اليوم، ظهرًا.

تابع باقي بعينين مغرورقتين أقدو المبتعد ببطء عن القرية على صهوة حصانه العربي الذي يتمنى الجميع اقتناء حصان مثله، يلتفت من حين لآخر، وينظر إلى الوراء، بينما يحمل عالمًا سحريًا في خرج حصانه. وقف باقي على رؤوس أصابعه حتى غاب معلمه عن ناظره، فارتخت ركبتاه وسالت الدموع من عينيه. شعر بالوحدة؛ القرية والعالم الواسع حوله خاليان. ملأت الفتيات جرارهن وغادرن النبع في حر الظهيرة، ودخل الرجال المسجد للصلاة. لم يكن هناك أحد في وداع معلمه، أو ملوح بيده بود. لماذا هذه القرية هكذا، وأي نوع من الناس هم؟ ألا يعرفون ما الخير؟ لم يبعثوا بباقي إلى المدرسة؛ وضربوا أباه أمام عينيه. أشاعوا أخبارًا كاذبة عن معلمه دون علمه. دسَّ باقي يده في جيبه، وأخرج قطعة الذهب الملساء. بلَّلها بلعابه، ووضعها تحت أشعة الشمس. فركها في راحة يده، فأحس بحرارتها. فركها مرة أخرى، وظل يفركها على أمل أن يخرج من وهجها جني مارد كجني المصباح السحري في الحكايات، وأن يفعل هذا الجني كل ما يطلبه منه، وأن يخلِّصه من هذه القرية.

اليوم، ليلًا.

كيف يمكن للقرية، التي اعتادت على أحلام اليقظة والنوم مع أغاني أقدو المفتحة للجروح طوال شهرين، نسيان هذه الأجواء والعودة إلى نومها القديم كأن شيئًا لم يحدث؟ كبار السن عصيون على الفهم، والآغاوات عصيون على الفهم، والنساء عصيات على الفهم. لم يستطع باقي النوم فخرج إلى الباب، يراقب بيوت القرية الشبيهة بالقبور. عاد بتفكيره فتوصل

إلى أن النساء هنَّ الأصعب على الفهم. لماذا لم تحب إليف المعلم أقدو؟ ربما سيفهم ذلك عندما يكبر، لكن لا علاقة ذلك بالعمر فالمعلم أقدو لم يفهم إليف أيضًا. أنسيتْ إليف الأغاني التي غُنيت من أجلها في الليل، وهل نامت مثل كل القرية يا ترى؟ شعر باقي بالفضول لمعرفة ذلك وعلى الفور، لبس حذائه المطاطي، وغادر الفناء. مرَّ بين البيوت حتى وصل إلى حديقة بيت إليف. اقترب من الكلب الراقد في الحديقة وربت على عنقه كي لا ينبح. اختبأ بين الأشجار وراقب النافذة. قد يرى نورًا أو ظلالًا من النافذة، لعل إليف لم تنم، فيعلم أنها تفكر في المعلم أقدو.

اليوم، صباحًا.

جو من الفرح سادَ المقبرة بينما كان أقدو يغرز شاهد قبر كارا آغا في مكانه، وسط همهمة القرويين المعبرة عن الإعجاب. لم تكن سعادة القرويين بسبب روعة شاهد القبر، بل لأن هذا الغريب قد أنهى عمله، وسيغادر القرية أخيرًا. لم يُبْدوا أي اهتمام بكلام أقدو عند القبر، ولم يعلِّقوا على تطرقه إلى الحديث عن النزوح والهجرة، ولا عن أمور أخرى غامضة مثل الإلهة الأم. هذا الغريب على وشك الرحيل الآن، بعد أن عاشوا حالة تناقض بين عدم قبوله بينهم وبين اعتيادهم على وجوده.

اليوم، ليلًا.

رأى باقي ظلالًا تلوح أمام النافذة. بعد قليل فُتح الباب الخارجي، وعبرت تلك الظلال الحديقة بهدوء متجهة جنوبًا. أدرك باقي أن تلك الظلال المتحركة بدثار يغطيها من الرأس إلى أخمص القدمين، ليست سوى

إليف. يعرف جيدًا أين وجهتها، فتعقبها بسعادة. حتى كلاب القرية كانت نائمة، ولا أحد سوى إليف وباقي يقظان ويغادران القرية دون أن تلاحظهما جنيات الليل. بعد وقت قصير، شعر باقي أنهما ليسا وحدهما. لقد شاهد ظلين آخرين يتعقبان إليف أيضًا عن بعد، وقد تلفّحا بالسواد ويحملان بنادق ما ينذر بسوء. حثّ باقيٰ خطاه بحذر كي يتابع كلا الطرفين ولا يغيب أحد عن ناظره في تلك الظلمة. في تلك اللحظة، شعر أن دقات قلبه باتت أسرع من خطاه. عندما وصل إلى بستان اللوز، حدّق في الظلام بين الأشجار، وتلفّت يمنة ويسارًا حتى سمع همسًا، فاقترب نحوه بهدوء. كان يرتجف من البرد والخوف. لو رأى معلمه وإليف معًا، في زمان ومكان غير هذا الزمان والمكان، لأعلن عن فرحته بصوت عالٍ، لكنه في تلك اللحظة، اقترب بحذر وهمس "معلم أفدو، رجلان يتعقبان إليف. أظن أنهما فقدا أثرها من شدة الظلمة، لا يزالان يحاولان العثور عليها، وقد يصلان إلى هنا في أيِّ لحظة".

مقبرة مركز أفندي

إسطنبول

1965

كانت المقبرة موطناً للأشجار. أشجار السرو والتنوب والصنوبر تنمو جنبًا إلى جنب، ما يجعل المسافة ما بين الحياة والموت حديقة خضراء. يميز الأموات سطح الأرض من خلال تلك الأشجار، ويشعرون بالشمس والريح والثلج. الكل يغادر المقبرة ليلاً سواء كان من أقارب الأموات أو أصدقائهم وحتى الطيور أيضاً، ولا يبقى سوى الأشجار والنجوم المطلة من السماء.

أراد أقدو أن يكون قبره جوار شجرة من بين أشجار السرو أو التنوب أو الصنوبر، ليجد راحته الأبدية. لكنه عندما وجد شجرة يهوذا شعر بسعادة، إذ تذكر ما قيل له إن قبر إليف يقع على الجانب الشمالي من المقبرة، تحت شجرة يهوذا. اعتاد أقدو أن لا يرى سوى أشجار حور باسقة في السجن لسنوات، وحين رأى من بعيد، شجرة يهوذا وسط شواهد القبور الدوارس، اتجهَ نحوها.

لم يكن هناك شجرة يهوذا أخرى، كانت الوحيدة في المقبرة. وبقدر ما كان هذا القبر بسيطًا بين المئات من القبور القديمة، كانت شجرة يهوذا

بسيطة وسط المئات من أشجار السرو. مثلما كان بإمكان الإمبراطور وحده ارتداء عباءة أرجوانية في إسطنبول القديمة، لأن اللون الأرجواني كان يُعتبر لونًا نبيلًا في الفترة البيزنطية، لم يكن في هذه المقبرة سوى شجرة يهوذا وحيدة لإليف وحدها. غطت القبرَ زهور شجرة يهوذا وظلالها الخافتة. دخل أقدو إلى الظلال ووقف عند القبر. لقد وجد إليف أخيرًا. لا أحد ولا أي شيء يتوسطهما. شجرة وظلال وتراب، هذا كل شيء. لم يكن تراب القبر قد همد بعد على الرغم من مرور شهر على الدفن، ولا يزال رخوًا، ما يعني أن المطر كان مقلًا في الربيع. لا يزال التراب ينتظر الاستقرار والتماسك. انحنى أقدو وأخذ حفنة من تراب القبر. مشى ببطء حول القبر. دار سبع مرات، وعند كل دورة كان يتوقف ويلتقط أنفاسه، بينما تتابع الدنيا دورانها حوله. التراب يذكره بالموت، في حين شجرة يهوذا تنسيه الموت. جلس القرفصاء على التراب. انتبه بعد حين، أنه يجلس على أرض ترابية لأول مرة منذ دخوله السجن.

"لِمَ تقع المصائب على رؤوسنا؟" اعتاد الناس على هذا التساؤل عندما يقعون في أية مصيبة مهما صغرت، في حين يجب أن يتساءلوا "لِمَ لا تقع المصائب على رؤوسنا؟". كان أقدو يتساءل بحيرة لماذا هو لا يزال على قيد الحياة ولم يمت في بستان اللوز، ولماذا يجلس على التراب الآن، ولم يُعدم، ولماذا إليف ترقد الآن تحت التراب ولا تجلس قربه؟ كان يعرف حق المعرفة أنه لن يجد إجابة على تساؤلاته، لا لأنه من الذين يؤمنون أن لكل حدث في الحياة مسبب، بل لأن الحياة هي هكذا بلا سبب.

التفت أقدو فرأى على مسافة غير بعيدة، بيتاً أشبه بالكوخ، مهجورًا ومتهدم السقف. قام واتجه نحوه، ودار حوله متفحصاً. عندما رأى صخورًا

وأحجارًا أُعدّت للنحت وقد غطّاها العشب، توقع أن معلمًا مثله قد كان يقيم هنا. اختار حجرًا منبسطًا متوسط الحجم والوزن من بين الحجارة، ووضعه تحت شجرة يهوذا جوار قبر إليف. شكّل من التراب قبرًا ومن الحجر شاهدًا له كي لا يستخدم أحد هذا المكان، وليكون قبرًا له عند وفاته.

استلقى أقدو على التراب وأغمض عينيه. اليوم كان طويلًا، والربيع كان حارًا. وبينما كان زوّار المقبرة كلٌ يقف عند أحد القبور يبكي، هبطت عليه سكينة من حيث لا يدري، وغرق في نوم عميق، كأنه كان ينتظر طوال عمره هذا المكان لينام فيه. هدأت أنفاسه وتراخى جسده، وما كان يشعر به من ألم في صدره منذ شهر، تلاشى وغاب، كأنه رشح من جسمه ونفذ إلى التراب تحته. حين استيقظ وفتح عينيه كانت الشمس قد غابت، والتراب تحته قد مال إلى البرودة، والعتمة قد هبطت، والنجوم تملأ السماء مثل فوانيس الليل. مع هبوب نسيم الربيع من البحر، أدرك أقدو سبب السكينة التي هبطت عليه. لقد وجد مكانًا ليموت فيه. أدرك أنه حين كان يتنقل في البلاد بحثًا عن مكان ليعيش فيه طوال حياته، إنما كان يبحث عن مكان ليموت فيه. لم يفكر في هذا الأمر من قبل، أما الآن، عندما نام إلى جوار هذا القبر، واستيقظ بسعادة، بات على يقين من ذلك. كان هذا هو المكان حيث يريد أن يموت، وفيه سيقضي بقية حياته. انحلت العقد التي سيطرت على تفكيره. شعر براحة في عقله، كالشعور نفسه في جسمه، وراح يضحك. ضحك مقهقهًا، حتى سالت الدموع من عينيه. على أية حال، كان الليل قد حلّ، والكل قد ودعوا موتاهم وغادروا، ولم يبقَ سواه في المقبرة. لم يسمع سوى صوت بوم، وبعد حين، سمع وقع خطوات. دقق أقدو النظر في ظلال تتحرك نحوه من بين القبور.

"السلام عليكم" قال الرجل القادم.

"وعليكم السلام" أجاب أقدو.

"أنا إمام المسجد هنا. يقولون لي الشيخ أشرف. أتجول في المقبرة مساء، بعد الصلاة. حين سمعت صوتك، أو بالأصح، قهقهاتك، أتيت لألقي عليك السلام".

"مرّت بذهني حادثة قديمة، أضحكتني..."

"ألهذه الحادثة علاقة بمن في هذين القبرين؟ عظم الله أجرك، قبران جديدان جنبًا إلى جنب..."

"شكر الله سعيك. أحد هذين القبرين للمرأة التي أحببت، والآخر أعددته من أجلي".

"لِمَ هذه العجلة، أنت أصغر مني سنًا، يجب أن لا يفكر الإنسان بالموت في عمرك هذا".

"أردت أن أحدّد مكاني من الآن. ممن يجب عليّ شراء هذا القبر، هل مسجدك يتولى مثل هذه الأمور؟ يحدث هذا في بعض الأماكن، أم أن هذه الأمور عائدة إلى البلدية؟"

"مع أن مسجدنا هو مسجد المقبرة، لكن لا علاقة لنا بالدفن والقبور. عليك مراجعة البلدية" قال الشيخ أشرف بينما هم بالجلوس على الأرض، ثم تابع: "هيّا أخبرني، لماذا أنت في عجلة من أمرك؟"

تحدث أقدو بما يكفي ليعرّف بنفسه. قال إنه لم يستطع حضور جنازة المرأة التي أحب، وإنه قد خرج مؤخرًا من السجن، ووصل إلى هنا قبل يومين من أنقرة. حين قال إن أول عمل سيقوم به هو نحت شاهد قبر جميل لهذا القبر، "أتجيد نحت شواهد للقبور؟" سأل الشيخ أشرف.

"منذ العاشرة من عمري، كل ما فعلته في حياتي هو نحت شواهد للقبور، ما عدا ما قضيته من سنوات عمري في السجن. تنقلت في كل أرجاء البلاد، ونحتّ شواهد قبور في كل المقابر. لقد شاهدت في هذه المقبرة شواهد قبور جميلة أثناء تجوالي هنا".

"إذن سأدعوك بالمعلم، هل من مانع يا معلم أقدو..."

"قطعيًّا يا شيخ أشرف".

"أين تقيم؟ هل تعرف أحدًا في إسطنبول؟"

"لا أعرف أحدًا. أقيم في الفندق. لدي ما يكفي من المال لتمضية فترة من الوقت. ثم عليّ السعي لأعود إلى ممارسة عملي القديم. لا يمكنني مواصلة العيش بدون نحت شواهد للقبور".

"هناك العديد من الورش التي تنحت شواهد القبور لهذه المقبرة، في الجهة الأخرى من الحي. يمكنك العمل مع إحداها".

"يا شيخي، لقد شاهدت خلف البيت المهجور حجارة قد أعدت لنحت شواهد للقبور، كأنه كان يقيم هنا من كان يقوم بهذا العمل..."

"لقد سمعت عن رجل عجوز، كان يقيم في هذا البيت قبل مجيئي إلى هذا المسجد. كان ينحت شواهد للقبور هنا. بعد وفاته، تصدع البيت وتهدّم سقفه".

"ما قولك يا شيخ أشرف، أيمكنني البقاء هنا إذا ما أعدت إعماره؟" وحين لم يتلقَ أقدو ردًا، تابع كلامه، "معلمي في هذه المهنة في ماردين، اشترط عليّ الإقامة إما في المقبرة أو بالقرب منها".

"هل أنت من ماردين؟"

"لقد نشأت هناك".

"لقد سمعت الكثير عن جمالها وجمال كنائسها. آمل بزيارتها قبل موتي، بمشيئة الله".

"شيخي، ليست كنائسها الجميلة فحسب، بل بيوتها وأسواقها وسهولها أيضًا. ينبغي لكل الناس زيارتها. لو لم تدفن المرأة التي أحب هنا، لعدت إليها لأموت فيها".

"إذا كنت تريد العيش هنا وأن تدفن في القبر الذي أعددته لنفسك، سأستفسر لك عن موضوع البيت".

"كيف؟"

"سأسأل مديرية الأوقاف أولًا، عن الوضع القانوني للبيت، وإذا لم يكن عائدًا لها، سأذهب إلى البلدية. آمل أن أحل هذا الموضوع، وتتمكن من الإقامة فيه".

"أشكرك جزيل الشكر يا شيخ أشرف. هل تعلم كم كنت أشعر بالحزن على المرأة التي أحببت، لكن بعد مجيئي إلى هذه المقبرة، بتّ بفضلك، أشعر بالسعادة بالإقامة هنا".

"لا تستبق الأمور. سأهتم الموضوع غدًا..."

"إذا كان ينبغي لي دفع مال مقابل هذا..."

"لا تشغل بالك بما ينبغي دفعه من مال! لقد خرجت حديثًا من السجن ولا تملك ما يكفيك من نقود، احتفظ بها لنفسك الآن. ربما لابد من دفع بعض النقود لاحقاً. عندما يتحسن وضعك المالي، سأطلب منك ذلك".

"أفضلت عليّ يا شيخ أشرف".

قال الشيخ أشرف مشيرًا بيده في الظلام إلى الغرب. "لا تنظر إلى صغر

حجم مسجدنا، فقد كان زاوية صوفية مهمة. وكما تعلم، فمن شروط العزلة عند الصوفية الاعتكاف في أماكن ضيقة مغلقة تسمى خلوة. هناك حجرة خلوة أيضًا، لكن بابها مغلق منذ سنوات، وداخلها خراب وبحاجة إلى صيانة وترميم".

توترت خطوط وجه أقدو، "شيخي" قال، "لا أحد يمكنه العيش في تلك الخلوة، أقصد لا يمكن لأحد أن يسكن هناك، أليس كذلك؟"

"لا أحد يمكنه العيش في ذلك المكان الضيق. الصوفيون لا يدخلونها من أجل العيش فيها بل من أجل أن يموتوا فيها، أن يطهروا أرواحهم، ويسائلوا أنفسهم، وعندما تنتهي عزلتهم، يعودون إلى الحياة ثانية. لقد أُغلقت الحجرة منذ أن حُظرت الصوفية بموجب القانون منذ سنوات. أطلبت منك شيئاً صعب التحقيق؟"

"الصيانة والترميم لا يصعبان عليّ. لقد طلب مني معلمي المارديني، الالتزام بشروط مهنتنا، ومن هذه الشروط عدم جواز بناء المساكن. فالبيت الذي يبنيه حفار قبور أو نحات شواهد يصبح قبرًا لساكنيه".

"فهمت. لكن حجرة الخلوة ليست منزلًا، لا أحد يسكن هناك، لا تقلق. المكان ضيق، من يدخله لا يمكنه البقاء أكثر من أربعين يومًا، وكان ذلك في الماضي. لكن قل لي، إذا كان بناء البيوت غير مسموح لكم، فكيف ستعمر البيت؟"

"قال معلمي إنه يُسمح لي ببناء بيتي الخاص بي فقط".

مقبرة مركز أفندي

إسطنبول

1965

اليوم، صباحًا.

بعد أن أعاد أقدو إعمار البيت المقام في الجهة الشمالية من المقبرة، جهز لنفسه ركنًا للعمل في الفناء الخلفي للبيت. اختار حجرًا كبيرًا ليستخدمه كمقعد، وأقام مظلّة للوقاية من المطر والشمس، وسقفها بأغصان نضرة من الأشجار، إذ لم يجد قصبًا في كل أنحاء إسطنبول. عمال بناء الحجر في ماردين يفضلون النوم خلال النهار اتقاء من حرارته، ويعملون في ساعات الصباح الباكرة، وفي المساء بينما يفضل أقدو العمل أثناء النهار مهما كانت درجات حرارة الجو أو الطقس، ويكرس وقته في المساء للراحة والتأمل. الجو كان ربيعًا.

اليوم، ظهرًا.

الشيخ أشرف إمام مسجد مركز أفندي، فتح باب حجرة الخلوة المغلق بالسلاسل، وأضاء الغرفة المعتمة بمصباح يدوي، ليرى أقدو حال

الغرفة. نظر بحزن إلى العفن المنتشر على الجدران، وأنسجة العنكبوت في الزوايا، وحجارة الأرضية المتكسرة. سأل أقدو عما يجب فعله. إنّ استبدال الحجارة المتكسرة للأرضية، وإصلاح الجدران والسقف، أعمال لا تصعب على أقدو، ويمكنه إصلاح كل شيء في أيام قليلة. هذا العمل أسعد أقدو كثيرًا، فذلك سيكون سدادًا لمعروف الشيخ أشرف على ما قدم له من مساعدة للإقامة في البيت والبقاء في المقبرة، لقد كانا يمضيان الأماسي معًا، يتسامران.

قبل أربعمئة وسبعين عامًا.

عندما جاء مركز أفندي إلى إسطنبول بعد أن نهل من العلم والمعرفة لخمسة عشر عامًا في بورصة، العاصمة القديمة للدولة العثمانية، زار معلمين كبارًا ذائعي الصيت بعلمهم ومعرفتهم وحضر حلقاتهم النقاشية. على الرغم من سمعة سنبول أفندي ونفوذه في كلية مصطفى باشا الكبير، لكنه ابتعد عنه لاختلافهما حول الأفكار الصوفية في وحدة الوجود، وعادة مناجاة الخالق بالحركات الدورانية. التحق بتكية ميرزا بابا في منطقة الفاتح وتزوج من ابنته. في ذلك الوقت، رأى منامًا، لكن لا أحد من علماء الدين استطاع تفسيره، فاعتزل الناس وانقطع عن الأكل والشرب حتى جاءته رؤيا في منامه، رأى فيها سنبول أفندي يقتحم خلوته ويفسر له حلمه الغامض. استيقظ مذهولًا، وأسرع إلى كلية مصطفى باشا الكبير بعد أن كانت ديرًا قبلَ تسعمئة عام.

رحّب سنبول أفندي بالقادم أجمل ترحيب، وأجلس ذلك الشاب اللامع الذي يعرفه بالاسم إلى جانبه، وطلب منه المشاركة في حلقته الدراسية

لذلك اليوم. أوضح سنبول أفندي في محاضرته أن طواف الحجاج حول الكعبة مشابه لدوران جميع النجوم حول النجم القطبي وجميع الملائكة حول الأرض. الوجود هو الدائرة ويدور حول مركز الدائرة، فالحقيقة إذن هي الدائرة وهي المركز في آن واحد، أي أن الكل في الواحد. دوران الإنسان حول ذاته وصولاً إلى الارتقاء لملاقاة الذات الإلهية، أي أن المركز والدائرة يلتقيان، ثم قال: ذات يوم، أثناء مرور حضرة مولانا من سوق الصاغة، التقطت أذنه موسيقى في طرْق الصيّاغ للمصاغ، فتوقف حيث هو وفتح ذراعيه وراح يدور حول نفسه. لم يرَ المتعصبون في ذلك ما يدعو إلى إدانته أو اعتباره مذنبًا. وهكذا أظهر لنا مولانا، أن الحقيقة يمكن العثور عليها في أي زمان وأي مكان.

بعد أن ختم سنبول أفندي حديثه، التفت إلى الشاب الجالس إلى جانبه، وأثنى عليه أمام الجميع، وقال: "أنت مركز دائرتنا هنا". منذ ذلك الحين، اشتهر هذا الشاب باسم مركز أفندي بعد أن كان اسمه موسى أفندي.

اليوم، بعد الظهر.

تفقَّد أفدو المقبرة والأسوار في الجهة المقابلة للمقبرة، وعاين أكوام الحجارة الملقاة هنا وهناك، ثم فرز الحجارة التي يمكنه استخدامها لبناء شواهد القبور أو لإصلاح حجرة الخلوة. بعد ذلك، عاد إلى منزله الجديد، وجلس إلى الطاولة أمام الباب. دوّن أنواع الحجارة التي يحتاجها وألوانها وأحجامها وأعدادها على ورقة بيضاء. وكتب قائمة بأدوات نحت الحجارة، ليباشر عمله الذي حنّ إليه بجنون خلال سنواته السبع التي قضاها في

السجن. في نهاية القائمة، كتب مطرقة، وأضاف إلى جانبها: كولونغ فرحات خارق الجبال.

اليوم، مساء.

أقام الشيخ أشرف صلاة العشاء بركعاتها الأربع بسرعة، وانطلق إلى بيت أڤدو. وضع ما يحمله من الطعام على الطاولة في الشرفة أمام المدخل، وقال: "لقد اعتدنا على تسمية هذا بالكوخ، لكنه أصبح الآن بيتًا حقيقيًّا". تذوّق بعضًا من الخبز والجبن والطماطم والحلاوة الطحينية، وبعد أن شرب الشاي مع الكثير من السكر مثلما يفعل أڤدو انطلق لسانه.

"أخي أڤدو، لقد مضى شهر مذ أتيت إلى هنا. خرجت من السجن، ودخلت حياتك الجديدة في هذه المقبرة. لم يكن هدف الصوفيين في الماضي، من دخول حجرة الخلوة هو المعاناة، على الرغم من أنهم كانوا يطلقون عليها غرفة المعاناة أحيانًا، بل كان هدفهم التخلص من متاعب الدنيا. فالوجود بحد ذاته محنة ومعاناة في عرف الصوفيين، والغرفة والمدينة خارجها والسجن كلها متماثلة. العالم واحد، لكن بمسافات. يستغرق المكوث في غرفة المعاناة أربعين يومًا، وتستغرق أربعينية الشتاء أربعين يومًا. اليوم الحادي والأربعون هو يوم الخروج من غرفة المعاناة ومن أربعينية الشتاء أيضًا. لذلك يحكى في الحكايات عن أربعين بابًا، فبينما يُفتح كل باب بالأمل ويُغلق بخيبة الأمل، يكون الوصول إلى الحقيقة أخيرًا عند الباب الحَادي والأربعين. الطريقة لفهم العالم هي بمغادرة العالم ودخول غرفة المعاناة، مثلما أن الطريقة لفهم المعاناة هي مغادرة تلك الغرفة والعودة إلى العالم. الاختلاف الوحيد هو المسافة بينهما. لقد أخبرتني أنه يمكنك إنهاء

إصلاح تلك الغرفة في وقت قصير، أرى أن لا داعي للعجلة. ضع لنفسك برنامج عمل، واعمل لأربعين يومًا، لتعش العالم اللامتناهي الذي يتسع في تلك الغرفة الصغيرة. لقد اعتاد مركز أفندي التحدث إلى مريديه عن أنواع الموت الأربعة التي تمجد الإنسان. الموت الأخضر هو الاكتفاء بالموجود، والموت الأحمر هو مخالفة النفس في هواها، والموت الأبيض هو الجوع. ما أنت بحاجة إليه الآن هو الموت الأسود، أي التحلي بالصبر واحتمال الأذى، وعدم فقدان الأمل في مواجهة المصائب. أخي العزيز، الموت الأسود هو امتحانك؛ لقد عشت صابرًا في هذا العالم وستواصل الصبر في مشوار حياتك. روحك قريبة منا، تعال وانضم إلينا، وشاركنا الدوران. لم أرك تأتي للصلاة من قبل، لكن سواء كان إيمانك ضعيفًا أو معدومًا، لا يهم، يمكنك القدوم والانضمام إلى دوراننا وقتما تشاء".

قرية كوناك غورميز

سهل هايمانا

1958

حين علم أقدو بتعقب رجلين لإليف، دسَّ يده في حقيبة سرج حصانه، وأخرج رصاصات ملء كفّه، ووضعها في جيبه. وعلى الرغم من أنه طلب من باقي التسلل والعودة إلى بيته في الحال، لكن الأوان كان قد فات. لقد أصبح الرجلان على مقربة منهم، بينما كانوا يتهامسون في سكون الليل. اتخذ الرجلان مواقعهما بين أشجار اللوز، ووجَّها بنادقهما نحو الظلال المتهامسة، ثم ضغطا على الزناد دون انتظار. الرصاصة الأولى التي شقَّت الظلام مثل البرق، لم تخترِ الجثة الضخمة للحصان العربي، ولا أقدو عريض المنكبين، ولا إليف طويلة القامة، بل باقي ابن العاشرة، فاخترقت عنقه، وطرحته أرضًا. تمدد باقي على الأرض الباردة، مثل غصن رقيق، دون حراك ولا صوت، وأفاض دمه ساخنًا على الأرض.

مدّد أقدو إليف على الأرض وانبطح إلى جانبها، ثم زحف نحو باقي، أمسك يده ولامس وجهه، لا شيء يمكن فعله. في تلك اللحظة، راوده شعور غريب بحفر الأرض بأظافره ودفن كل القرية تحت التراب. لقد

اعتراه غضب شديد على مصيره ومصير باقي في هذه الحياة. تراجع إلى جانب إليف، وطلب منها عدم إصدار أية حركة وأن تنتظره، أن تحبس أنفاسها، ولا ترفع رأسها بأية حال من الأحوال، الطلقات النارية كانت تؤز دون توقف. بدا عشوائية إطلاق الرجلين للنار واضحًا، فبعض الرصاصات تلامس الأغصان هنا، وأخرى تصطدم بجذوع الأشجار هناك، ما يدل على أنهما لم يتمكنا من تحديد موقعهم بدقة، أما الطلقة الأولى، فقد وجدت باقي بالمصادفة. عندما كان أقدو في عمر باقي، كان في الشوارع يتوه، جائعًا وعاريًا، وبلا أم. لماذا كتب القدر الموت لباقي مع أنه لا جائع ولا عارٍ، وله أم تنتظره؟

ما عاد أقدو يعرف بماذا يفكر، وما عاد يفهم إلى أين سيأخذه قدره، لماذا الرصاصة اختارت باقي ولم تختره؟ توقف عن التفكير حين شدّت إليف على يده، فالتفت إليها وقال: "انتظري يا إليف، لا تخافي". ثم انتفض واقفًا شاهرًا سلاحه، وراح يركض بين الأشجار، ويلهث مثل كلب مسعور.

لم يكن القمر حاضرًا في السماء تلك الليلة. بعض النجوم ظهرت في السماء بين بعض السحب والكثير من أوراق أشجار اللوز. الرؤية كانت معدومة في هذا الظلام، ما دفع أقدو لتتبع وميض فوهات البنادق لتحديد موقع عدويه. اختار شجرة ضخمة وقف خلفها، وراح يطلق النار بأمان. ضغط على الزناد بلا توقف، ولم يهتز معصمه القوي. حين نفد الرصاص من مسدسه، أخذ نفسًا عميقًا، وأعاد تعبئة مخزنه. الطرف الآخر توقف قليلًا، وأعاد شحن أسلحته. عندما انطلق الرصاص ثانية، متطايرًا هنا وهناك، بدا أن لا أحد من الطرفين يملك فرصة الحياة تلك الليلة. الأغصان تتكسر، وأوراق الشجر تتطاير. السحب تتكاثر، والنجوم تتوارى خلفها.

أصبح الرصاص يتساقط بالقرب من أقدو، إذ استطاع الرجال تحديد موقعه. توقف أقدو قليلًا منتظرًا أن تفرغ بنادق الآخرين، ثم خرج وأطلق آخر رصاصتين في مخزن مسدسه. وصل إلى مسمعه صوت أنّة. لكن صوت الرصاص عاد وطغى على الموقف. أعاد تعبئة مسدسه. لكنه حين أدرك أن ذخيرته على وشك النفاد، خرج ثانية من خلف الشجرة وصوب بدقة مطلقًا النار، رد عليه صوت بندقية واحدة، فأيقن أنه أصاب أحد خصميه والأنين الذي سبق وسمعه كان له. أصبح الآن يواجه خصمًا واحدًا، ولم يعد يفكر سوى بالانتقام لباقي. اندفع متنقلًا بين الأشجار مقتربًا من خصمه. في تلك اللحظة، شعر بوخزة في صدره وحرارة، فترنح قليلًا. تماسك ووضع يده على صدره، فشعر بحرارة دمه النازف. توارى خلف شجرة وأخذ نفسًا عميقًا. بدا أن الجرح بليغ، ولكن كي يوقفه القدر، يجب أن يسبب له جروحًا أكبر. تحرّك أقدو وغيّر اتجاهه. مشى بحذر وهدوء دون أن يطلق النار، على أمل مباغتة خصمه من الخلف. ظلَّ خصمه يطلق النار إلى حيث كان قبل قليل، وحين نفدت ذخيرة بندقيته التقط مسدسه وتابع إطلاق النار. ما إن أصبح أقدو على يمين الرجل وتبين طيفه أمامه، حتى شعر الرجل به فالتفت نحوه. أطلقا النار على بعضيهما في آن واحد. رصاصة أقدو أصابت الرجل بمقتل، بينما أصيب أقدو في كتفه المصاب نفسه، فوقع على ظهره. الألم هذه المرة، كان شديدًا، شعر بضيق في نفسه كأن شاهد قبر ثقيل يجثم على صدره.

تراءى لأقدو في مخيلته، أن الجسد الذي بلا روح والممدَّد تحت أشجار اللوز على مسافة غير بعيدة عنه، جسده هو لا جسد باقي. لقد ترك الحياة قبل أن يشبع منها، ويحقق حتى أصغر أحلامه. كم ستحزن

أمه لفقدانه، ولن تنساه طوال عمرها. قد تراه في أحلامها، وإذا ما صادفت متسولًا في طريقها ستتصدق عليه وتقول: "خذ هذا عن روح ابني ذي الوجه الوردي". أما أڤدو، هل هناك من سيتذكره؟ ربما هناك امرأة قد طعنت في السن لا تزال تبحث عنه في الأسواق المزدحمة. ربما لا تزال تراه في أحلامها طفلًا صغيرًا مثل يوم ضاع منها. ربما تسمع صوته في أحلامها أحيانًا، فتهرع ناحية الصوت على أمل لقياه. تمد يدها وتصيح: "ابني أڤدو حبيبي، أنا هنا يا أڤدو".

عندما فتح أڤدو عينيه، رأى إليف قربه، تقول باكية، "أڤدو، هل أنت بخير؟ أرجوك لا تمت! احمه يا الله! هل جرحك يؤلمك كثيرًا؟ هل تسمع أصوات الكلاب؟ القرية كلها قد قامت وخرجت متجهة نحونا. انهض يا أڤدو، لنهرب من هنا سريعًا". تمتم أڤدو ليقول إن جرحه بليغ، ولا يمكنه الحراك، كان يتنفس بصعوبة. أصغى لأصوات الكلاب ثم أمسك يد إليف، وقال، "اذهبي من هنا في الحال، قبل وصول أهالي القرية، يجب أن لا يراك أحد هنا، هيّا، عودي إلى البيت". قالت إليف معترضة بصوت مرتعش، إنها لن تتركه. وبينما جمع أڤدو كل قواه ليقول: "أنا أموت يا إليف، هيّا اذهبي"، مال رأسه إلى الخلف. لم يعد يسمع لا صوت إليف ولا أصوات الكلاب ولا أصوات أهالي القرية الذين يندفعون نحو بستان اللوز ويطلقون النار في الهواء.

قرية كوناك غورميز

سهل هايمانا

1958

حين وصل القرويون والكلاب إلى بستان اللوز، كان السكون قد أصبح سيِّد الموقف، والأموات قد غادروا ديار الدنيا إلى ديار الآخرة. تلفت الأهالي يمينًا ويسارًا، وقد أعيتهم الحيرة محاولين فهم ما جرى. تقدَّموا بين الأشجار وسلطوا أضواء مصابيحهم في كل اتجاه. محاولاتهم للعثور على شيء يوضح لهم ما جرى قد باءت بالفشل. ما الذي جرى بين المعلم أقدو وأبناء وكارا آغا، بعد أن أتم عمله اليوم؟ لقد قام بعمله على أكمل وجه، وحصل مقابل ذلك على ذهب وفير. لقد تصافحوا وافترقوا بود، ماذا جرى حتى تواجهوا هنا في منتصف الليل؟

ماذا كان يفعل باقي ابن رئيس الرعيان هنا في منتصف الليل؟ هل أتى مع رجال أبناء الآغا، أم مع معلمه نحات شواهد القبور؟ لابد أن هؤلاء الرجال قد فقدوا صوابهم حتى قتلوا طفلًا بريئًا. الحصان العربي، الذي كان محط إعجاب الجميع منذ دخوله القرية، قد سقط أيضًا ضحية إطلاق الرصاص. بدت دماؤه بلونها الأحمر القاني بعد أن سالت حوله على الأرض

كأنها لوحة لسجادة نُسجت لتعلق على الحائط.

سؤال واحد كان يحوم بين الكثير من أشجار اللوز المشرفة على مكان إطلاق النار. تنقَّل أهالي القرية بلا هدف محدد بين الأشجار، باحثين عن إجابة على هذا السؤال. نظروا إلى جذوع الأشجار التي شقَّها الرصاص، وخلف الحجارة التي تحركت من مكانها، وإلى وجوه الأموات، لكنهم لم يعثروا على شيء. قدَّموا السجائر بعضهم إلى بعض، وأبعدوا الكلاب التي حامت حول الدم المراق. لقد عاشوا الكثير من نزاعات الثأر في قرى السهول، لكنهم لم يواجهوا مثل هذا الغموض في العداوة. لم يصلوا إلى تفسير مقنع بين هذه الجثث. كان أهالي القرية ماهرون بإخفاء العداوة بصبر إلى أن يحين الوقت المناسب لإشعال نارها. على الرغم من ذلك، فقد اعترفوا لبعضهم بعضًا، أنهم لم يسمعوا أو يروا مثل تلك العداوة التي تم التستر عليها والتي دفع هذا الطفل وهذان الشابان أرواحهم بسببها.

ما إن صاح أحد الرجال، حتى هرعوا نحوه، فرأوا أقدو ممدَّدًا على الأرض. بعد أن سلطوا ضوء مصابيحهم على وجهه مقتربين منه، تأكدوا أنه لا يزال حيًّا من أنفاسه. جراحه خطيرة فالدم يغطي جسده. دار نقاش بينهم عن ضرورة الإسراع بنقله في عربة خيل إلى المركز الصحي في قرية دفجي بيناري أعلى التل. هناك المركز الصحي ومخفر الدرك الوحيدان في السهل. إذا ما أسرعوا، فسيصلون في غضون ساعة، يوقظون الطبيب وينقذون حياة أقدو، ثم يبلغون مخفر الدرك، بذلك يكونون قد قاموا بما يجب عليهم فعله، وتركوا الأمر إلى الطبيب والدرك.

البعض كان يتكلم بحشرجة، حين ظلَّ الآخرين صامتين. لكنهم لم يحركوا ساكنًا إلى أن قال رجل مسن إن هذا الرجل قد يكون بريئًا،

وربما المذنبون هم أبناء كارا آغا، فالله وحده علام الغيوب. أحضروا عربة بحصانين إلى بستان اللوز، ومددوا أقدو بحذر على مرتبة كانت في العربة. عشرات الفرسان المسلحين، صاحبوا العربة حتى المنحدر الشرقي. وبينما كان عواء رياح الليل الباردة يصم آذانهم، كانوا يرددون أن معلم شواهد القبور لم يجلب معه سوى النحس للقرية، وأنه قد يفارق الحياة في الطريق قبل وصولهم إلى المركز الصحي. على الرغم من أن موته لن يسبب لهم الحزن بحد ذاته، لكن بقاءه على قيد الحياة هو السبيل الوحيد لكشف الملابسات الغامضة لما جرى تلك الليلة. حثُّوا خيولهم على الإسراع في قلب الظلام على أمل أن يشفي ويروي فضولهم.

قرية كوناك غورميز

سهل هايمانا

1958

أصوات عصفت في رأس إليف، أصوات تنقَّل صداها من أذن إلى أخرى تخيفها وتشوش ذهنها. أصوات تدعوها لخوض الجدول والعودة إلى البيت، وأخرى تدعوها إلى الهروب عبر السهول والاختباء في الوادي الذي تراه أكثر أمان لها، حيث لن يجدها أحد وأرحم لها من العودة إلى البيت بعد أن واجهت الموت في هذه الليلة الملعونة. الإسراع في الهرب من هنا أفضل لها من البكاء وشدّ الشعر والجنون. يمكنها أكل جذور النباتات، والاختباء بين أشجار القصب، دون أن يعرف أحد لها مكانًا.

نباح الكلاب وصيحات الأهالي المألوفة القادمة من أعلى الجدول قد أصبحت بعيدة عند وصول القرويين والكلاب إلى أشجار اللوز. ذهل القرويون حين شاهدوا الجثث ملقاة بين الأشجار. المعلم أقدو قد غادر أثناء النهار، لماذا عاد ليلًا إلى هنا؟ ماذا صدر من أبناء كارا آغا تجاهه؟ والطفل ماذا عنه؟ ظل الأهالي يحدق بعضهم في بعض بحيرة.

كانت إليف تركض، بينما كان رأسها يمور بالأسئلة. لكن أسئلتها

ظلَّت بلا جواب. لماذا تتبع أبناء كارا آغا إليف؟ كيف عرفوا بنيتها الهروب مع أڤدو؟ كيف عرفوا بما لم يعرفه أحد سواها؟ وماذا عن أڤدو؟ هل فارق الحياة حين مال رأسه إلى الخلف بينما كان يكلمها، أم أنه فقد وعيه في تلك اللحظة؟ لقد انحنت إليف على صدره لسماع دقات قلبه، لكنها لم تسمع سوى دقات قلبها، وأصوات الأهالي، ونباح الكلاب. في تلك اللحظة، أصوات عصفت في رأسها تحثها على الهرب والابتعاد عن البستان بأسرع ما يمكنها.

انطلقت إليف تمشي في الظلام جوار الجدول، فتعثرت قدمها بحجر فجأة، ووقعت على وجهها على الأرض. هبَّت واقفة على قدميها في الحال، وانطلقت تعدو مسرعة خوفًا أن يراها أحد خارج البيت في مثل هذه الساعة. على الرغم من الهاجس الذي راودها بأنها تسلك الاتجاه الخاطئ، لكن لم يكن أمامها سوى اتباع حدسها للوصول إلى بيتها مثلما تفعل بقرتاها البيضاويتان حين تعودان من المرعى كل يوم. تابعت شق طريقها في الظلام، مسترشدة بأصوات النساء اللواتي خرجن إلى النوافذ ليستطلعن ما يجري. غطَّت وجهها بغطاء رأسها حتى وصلت حديقة بيتها واختبأت بين أشجارها، لتستطلع من في البيت، فلم ترَ سوى أمها ريحان وأختها إيبيك بالباب ترتجفان من الخوف، ولما تأكدت أن أباها ليس في البيت، كان ذلك الشيء الوحيد المفرح في هذه الليلة الملعونة. عندئذ تسلَّلت إليف في الظلام حتى وصلت قرب أمها وأختها. ألقت بنفسها بين ذراعي أمها منهارة، بعد أن أدرَكت أن ركبتيها ما عادتا تحملانها.

أدخلتاها إلى المنزل دون أن يراها الجيران. بللتا وجهها بالماء، ودلكتا معصميها. أخبراها أن أباها لا يعلم بغيابها كي يهدأ روعها. لقد هرع أبوها

عندما سمع صوت الرصاص مثل الآخرين. حمل بندقيته ورافق الجيران على طريق بستان اللوز. لكن إيبيك قد أخبرت أمها أن إليف ليست في سريرها، بعد أن غادر أبوها البيت.

بعد أن شربت إليف كأسًا كاملة من الماء روت لأمها وأختها بعينين دامعتين كل ما جرى وما كان يجري معها. عن زوجة عمها وعن الجن الذين دفعوها للجنون حتى انتحرت في حجرة التنور، وأن هؤلاء الجن يلاحقونها الآن، وينزلون الرعب في قلبها، ويحاولون دفعها للجنون. لم تكن هي نفسها منذ أيام، ولا تعي ما تفعله، بعد أن ينام الجميع في الليل، تجلس في سريرها محدقة في الظلام، تحدث نفسها حتى طلوع الشمس. مشاعر غريبة تدور في صدرها، وأفكار غامضة تدور في ذهنها، لم تعرفها من قبل. تشعر الآن، كأنها تعيش حلمًا، لا تعلم كيف تقاوم الجن. تشعر بتعب شديد، ورغبة في النوم. إذا نامت الآن واستيقظت في الصباح لتجد نفسها لا تزال في هذا الحلم الرهيب، فلا خيار أمامها للخلاص من الجن سوى الانتحار مثلما فعلت زوجة عمها.

صفعتها أمها بشدة على وجهها، ثم ناولتها كأسا آخر من الماء، وطلبت من إبنتيها أن تفتحا آذانهما جيدًا وتصغيا إليها. هذا السر سيبقى بين الأم وبنتاها، لن يعرف أحد عن علاقة إليف بمن مات هذه الليلة. هذا السرُّ مات مع الجثث الهامدة الآن، على أرض بستان اللوز. الصمت هو الشيء الوحيد الواجب الالتزام به، وعليهما متابعة حياتهما كما من قبل. يجب أن لا يلاحظ الأب أو الجيران أي تغيير. أما عن التخلص من الجن، فسيصطحبان إليف إلى العرّافات في قرى ثلاث تعرفهن، يقرأن لها الأدعية، ويكتبن لها الأحجبة.

مقبرة مركز أفندي

إسطنبول

1985

كان يومًا مشمسًا عند الظهيرة، أخذ أڤدو استراحة من العمل، واشترى خبزًا وجبنًا ولبنًا رائبًا، وجلس إلى الطاولة في الشرفة. بينما كان يتناول طعامه، شاهد رجلين بنظارات شمسية، يدخلان المقبرة. الحزن البادي على وجهيهما جعله يظن أنهما من أقارب أحد الأموات. كان الإمام محي الدين يرافقهما وقد بدت مظاهر الحزن المصطنع على وجهه، مروا من جانب النبع حتى وصلوا إلى الشرفة فألقوا السلام.

"معلم أڤدو" قال الإمام محي الدين، "السادة الموظفون يسألون عنك، يريدون التحدث معك في موضوع خاص"، بدا صوته جديًّا مثل وجهي الموظفين.

وضع أڤدو الخبز من يده على الطاولة، ووقف.

"تفضلوا" قال، "أي موضوع، أشاهد قبر عاجل؟"

كان كلا الموظفين حليقي الذقن وقصيري الشعر ويبدوان كالعملاء السريين في الأفلام، قبعة فوتر على رأسهما. أحدهما يرتدي معطفًا أسود

والآخر يرتدي معطفًا رماديًا.

"كلا" قال الضابط ذو المعطف الأسود، "نحن نبحث عن صديق لنا، هذه صورته. هل تعرفه؟"

أخذ أقدو الصورة ودقَّق النظر فيها.

"إنه الرئيس كوبرا" قال، "لا أعرف اسمه الحقيقي، لقد جاء إلى هنا أثناء تعقبه لخارج عن القانون. لقد مرَّ أسبوعان على هذه الحادثة، كان معه أكثر من عشرة رجال".

"أجل هو الرئيس كوبرا. قلت من أسبوعين، هل رأيته مرة أخرى بعد ذلك؟"

"أجل" قال أقدو بهدوء، "رأيته مرة أخرى قبل ثلاثة أيام".

تبادل الموظفان النظرات.

تابع أقدو: "عندما أتى إلى هنا قبل أسبوعين، وقعت أحداث مزعجة. عندما عاد قبل ثلاثة أيام كان بمفرده، لقد قال إنه حزين لما جرى وعاد ليكلمني".

"أتذكر كم كانت الساعة؟"

"بعد صلاة الظهر، لأنه أخبرني أنه صلى في مسجدنا".

"رئيسنا" قال الموظف مدهوشًا، "ذهب إلى الصلاة وقال ذلك بنفسه؟"

"أجل، كان ذلك قبل ثلاثة أيام فقط. أتذكر كلامه جيدًا. هل تخبروني بما يجري؟"

"سيد أقدو" قال الموظف ذو المعطف الأسود ثم تردَّد.

لم يكن أقدو معتادًا على مخاطبته بكلمة سيد، خاصة إذا صدرت من رجال الأمن أو المخابرات. بدا ذلك غريبًا جدًا.

"أرجو المعذرة" قال أقدو، "تركتكم واقفين، هلّا جلستم هنا، أم تفضلون الجلوس في الداخل؟"

"لا داعي للدخول، نجلس هنا".

جلس الموظفان على كرسيين جوار الطاولة، وجلس الإمام محي الدين وأقدو على الأريكة.

"أترغبون في شرب الشاي، سأضعه على المدفأة، سيجهز أثناء حديثنا".

"شكرًا لك، لا داعي للشاي، سننهي عملنا ونغادر. أمامنا أعمال أخرى، لا نريد إزعاجك".

رجال يخاطبونه بالسيد، ويقولون له شكرًا، ويتحاشون إزعاجه، ويضعون نظارات شمسية على عيونهم، وقبعة فوتر على رؤوسهم، ويتحدثون مثل رجال العصابات في الأفلام.

"تفضلوا" قال أقدو متبعًا أسلوبهم الراقي في الحديث، "أستمع إليكم يا سادة".

"سيد أقدو، إنه رئيسنا، أنت تعرفه بلقبه كوبرا. إنه في عداد المفقودين منذ ثلاثة أيام. لا نعرف أين هو. لقد غادر الدائرة ليمرَّ على عدة أماكن يوم رأس السنة، ولم يره أحد منذ ذلك الحين. بعد أن استفسرنا عنه حيث كان من المفترض أن يمر، علمنا أنه لم يمر على أي منها، لا تفسير لذهابه إلى العمل بينما الجميع كانوا في عطلة رأس السنة".

"لأنه شعر بغصَّة في قلبه" قال أقدو.

"غصَّة في قلبه؟"

"أقصد أنه كان يشعر بالضيق، وبحاجة إلى الفضفضة والتنفيس عن همومه".

"هل كان بحاجة إلى الفضفضة إليك؟"

"الأحداث السيئة تقرّب بين الناس أحيانًا".

"ماذا تقصد بالأحداث السيِّئة؟"

في تلك الأثناء، بينما كانت بنان الإمام محي الدين تداعب خرزات مسبحته، كانت عيناه مصوبة نحو الصورة التي تركت على الطاولة، "أيمكنني إلقاء نظرة على الصورة، إذا لا مانع لديكم؟" سأل.

وافق أحد الموظفين بإيماءة من رأسه.

أخذ الإمام الصورة، ولم ينتظر طويلًا، إذ سرعان ما قال.

"أنا أيضًا رأيت هذا الرجل، رأيته في الصلاة. في الشتاء لا يأتي لأداء الصلاة سوى بضعة أشخاص من كبار السن فقط. لذا فقد جلب وجود هذا الرجل انتباهي، خاصة لتميزه بقامة طويلة وشارب كث. لقد ظننت في حينه، أنه أتى لزيارة قبر أحد أقاربه".

"أمتأكد أنت من أنه هو صاحب هذه الصورة؟"

"أنا متأكد" قال الإمام، "لأنني رأيته يضع بعض القطع النقدية في صندوق التبرعات عند الباب. مسجدنا صغير، وعدد المتبرعين قليل، لذلك يجلب كل من يتبرع انتباهي".

لقد أمضى أقدو عشرين عامًا هنا لكنه لم يرَ خلالها صندوقًا للتبرعات في مسجد مركز أفندي، إلا منذ ستة أشهر، أي عندما تم تعيين الشيخ محي الدين إمامًا لهذا الجامع.

"وهل تحدثت معه؟"

"كلا" قال الإمام، "بدا على عجلة من أمره، بمجردِ انتهاء الصلاة وضع النقود في الصندوق، ولبس حذاءه وغادر. كان يحمل كيسًا في يده،

أجل أتذكر ذلك الآن، كان يحمل كيسًا".

"كان على عجلة من أمره، لأنه أتى كي يكلمني." قال أقدو وغرق في الضحك. حين لم يستطع التوقف عن الضحك، رفع يده إلى فمه.

قطب الموظفان حاجبيهما، بينما قلبا نظرهما بين أقدو والإمام.

شعر أقدو بالخجل، ولم يدرِ ماذا يقول، فآثر تجنب النظر إليهما، وتدخل الإمام بالحديث بدلاً منه.

"لا تفهموه خطأ يا السادة الموظفين، المعلم أقدو يعاني من هذه المشكلة، تنتابه حالة من الضحك فجأة، ولا يستطيع كبته. لا علاقة لذلك بما نتحدث عنه الآن".

"لا بأس، نتفهم الأمر" قال الموظف ذو المعطف الأسود، وأومأ الموظف الآخر برأسه مؤيداً قول زميله.

حاول أقدو أن يوضح قائلًا، "أدرك ذلك، لكنني لا أعرف ماذا أفعل. أعاني من هذه الحال منذ عشرين عامًا. أرجو قبول اعتذاري. الرئيس كوبرا غضب مني بسبب ذلك حين أتى قبل أسبوعين".

"هل تخبرنا بما حدث؟"

"لقد أتوا إلى هنا في منتصف الليل، ومعهم كلب أثر اسمه البطيء. كانوا يبحثون عن خارجٍ عن القانون. الضباب كان يغطي الأرجاء في تلك الليلة. العين لا ترى العين المجاورة لها، ثم هطل الثلج بعد الضباب. على الرغم من ذلك فقد فتشوا المنطقة بدقة، وبحثوا خلف كل قبر وشجرة. في تلك الأثناء، اشتبك الكلب البطيء مع كلبي. عندئذ، انتابتني حالة الضحك اللعينة. لم أستطع السيطرة على نفسي. غضب الرئيس لأنني ضحكت، فسحب مسدسه وأفرغه في كلبي، لقد دفّع كلبي ثمن ضحكي".

أنهى أقدو كلامه، بينما ظل الآخرون واجمين، وقد حولوا أبصارهم نحو القبور والأشجار المكسوة بالثلج. انعكست أشعة الشمس على بياض الثلج بلمعان أبهر العيون. الموظفان بنظاراتهما السوداء لم تتأثر عيونهم من اللمعان، لكن أقدو والإمام محي الدين اضطرا لقصر عيونهم.

"أسفي على كلبك" قال الموظف ذو المعطف الأسود، "لابد أن الرئيس قد شعر بالأسف الشديد من أجل كلبك، لذلك عاد إليك".

"من أجل كلبي!" قال أقدو مستنكرًا، "كنت أتمنى لو شعر بالأسف على كلبي، لكنه، أسف على ما فعله لي. لقد عاد إلى هنا ليطيب خاطري أنا".

"على ما فعله بك أي أنه قتل كلبك..."

"كلا" قال أقدو، "كان الرئيس غاضبًا جدًا تلك الليلة، وعندما ضحكت بشدة، لم يتمالك نفسه فلكمني، لقد نزف أنفي. لقد تركوني على هذه الحال، وذهبوا. لم ينسَ الرئيس ذلك، وظلّت الحادثة عالقة في ذهنه طوال الأيام التي تلت. شعر بالندم، لذلك قرَّر زيارتي".

"نحن آسفون للغاية" قال الموظف، "ونعتذر نيابة عنه. مهنتنا صعبة جدًا، سيد أقدو، بينما تضحي بحياتك من أجل القيام بعمل صحيح، تجد نفسك قد وقعت في الخطأ دون قصد".

"لستم بحاجة إلى الاعتذار، فقد أنَّبه ضميره على ما فعل، وقضى ليالٍ بيضاء بسبب ذلك. جاءني حاملًا خبزًا وشاورما ولبن عيران كي نأكل معًا. نطوي صفحة الماضي، ونفتح صفحة جديدة ونصبح أصدقاء. أظن أن الكيس الذي رآه الإمام في يده، كان كيس الطعام الذي أحضره لي".

"ماذا دار بينكما من حديث، هل يمكنك إخبارنا، ربما يساعدنا ذلك في العثور عليه".

"كان مستاءً للغاية حتى أنني قد حاولت مواساته. قلت له إن ما جرى أمرٌ تافهٌ لا يستحق كل هذا الاهتمام. كان الحديث بيننا أقرب إلى حديث بين أب وابنه، ثم تحدثنا حول عدم زواجه حتى الآن..."

"حقًا!" قال الموظف، "هل صارحك الرئيس بسبب عدم زواجه؟"

"بالتأكيد، وإلا كيف عرفت أنه غير متزوج! صعوبة عمله لم تسمح له بتكوين أسرة، وقد اشتكى من ذلك".

"الرئيس لا يتحدث إلى أي شخص عن حياته الخاصة وعن مشاعره، ذلك يعني أنه يكن لك الاحترام والتقدير".

"السيد الموظف، لقد قلت إن الأحداث السيئة تقرّب بين الناس أحيانًا، وهذا ما حدث. لقد قرأتم ملفي وتعرفتم على ماضيّ. لقد فقدت عائلتي صغيرًا ونشأت وحدي، ودخلت السجن. بعد سنوات، لو علمت أن لي ابنًا والتقيت به، أما كنت سأحتضنه؟ هذا ما شعرت به تجاه الرئيس. لقد شعرت أنه قريب مني كأنه ابني، حدث ذلك قبل ثلاثة أيام. مكث هنا أكثر من ساعتين، وبدت لي هاتان الساعتان كأنهما عامان سعيدان".

ساد الصمت على الحضور، أطرق الإمام محي الدين برأسه وشرد ذهنه بعيدًا فيما يقال. بينما كان يرى وراء هذا الأمر يكمن سر خطير، أعطاه كلام أقدو العفوي الشعور بالاطمئنان. كان يدعو كي ينتهي هذا التحقيق سريعًا، ويتمتم باسم الله مع كل حركة لخرزات مسبحته السوداء.

"آمل أن يعود الرئيس قريبًا" تابع أقدو كلامه، "ربما ذهب عند أحد معارفَه كي يريح ذهنه لبضعة أيام، ألم أقل إنه كان يشعر بالضيق".

"نأمل ذلك، نرجو أن يعود قريبًا. لكن بينما ننتظر على أمل عودته، فلن نجلس مكتوفي الأيدي، علينا أخذ كل الاحتمالات بعين الاعتبار،

حتى احتمال اختطافه".

"اختطافه؟ من سيختطفه؟"

"الفوضويون والإرهابيون والانفصاليون، أعداد أعدائنا لا حصر لها. لو اختطفوا الرئيس وقتلوه، لأعلنوا ذلك، من باب إشهار قدرة تنظيمهم. ولو أرادوا مبادلته بإرهابي في السجن لاتصلوا بنا، وعرفنا أنه لا يزال حيًّا يرزق".

"ألم يتصل بكم أحد؟"

"لسوء الحظ لم يتصل أحد. نقول لسوء الحظ، لأننا قلقون للغاية، سنكون سعداء حتى لو علمنا باختطافه".

"أشعر بالأسف لأخته أيضًا" قال أقدو بأسف، " كان قلقًا من أجل أخته المريضة".

"هل قلت أخته!" قال الموظف ونبرة دهشة في صوته لا سؤال.

"هل قلت أخته!" كرَّر الموظف الآخر بالدهشة نفسها.

"ماذا حدث، هل أسات القول؟" قال أقدو، وقد بدا عليه الارتباك.

"قلت أخته ..." تلعثم الموظف ذو المعطف الأسود كأنه يبحث عن كلمات مناسبة، ثم استعاد تماسكه وقال، "أرجوك تابع الكلام، ماذا قال لك الرئيس، ماذا قال عن أخته؟"

تحدث أقدو بأناة وتروي.

"أخبرني الرئيس عما دار من حديث بينه وأخته. لقد أخبر أخته بما حدث هنا، أي عن قيامه بلكمي. عندما بدا لأخته مدى شعوره بالأسف من فعلته تلك، طلبت منه أن يزورني ويطيّب خاطري. لذلك جاءني الرئيس لمراضاتي ومن أجل خاطرها أيضًا"

"هل أنت متأكد أنه قال أختي؟"

"بالتأكيد. الرئيس يحب أخته كثيرًا، ويقوم برعايتها لأنها مريضة، لا أحد لها سواه".

تبادل الموظفان النظرات بصمت ودون أية تعابير واضحة على وجهيهما.

"سيد أقدو" قال الموظف ذو المعطف الأسود، "هناك لبس بالأمر، ولا أدري ماذا أقول. صحيح أن للرئيس أخت، لكنها توفيت في العام الماضي. منذ ذلك الوقت، والرئيس يعيش وحيدًا".

هذه المرة تبادل أقدو والإمام النظرات بصمت لكن باندهاش.

"يا الله!" قال الإمام وقد شحب وجهه، "الخير والشر منك يا إلهي، أنت وحدك عليم بذات الصدور".

حاول أقدو التوضيح.

"قال الرئيس إن أخته متدينة. في الصباح تدعو الله له كي يعود في المساء إلى البيت سالمًا، وأن يحفظه من كل مكروه. وقال إن أخته ترقد في السرير منذ ثلاث سنوات".

"هذا صحيح" قال الموظف، "مرض أخت الرئيس دام ثلاث سنوات، وصحيح أيضًا أنها كانت متدينة، لكنها ماتت بنوبة قلبية، لقد شاركنا في مراسم دفنها في مقبرة أيوب".

"ما عدت أفهم شيئًا" قال أقدو.

"يا الله، يا عظيم، نحن عبيدك فاغفر لنا، أنت الخالق والقادر" كان صوت الإمام باكيًا.

"لا أدري" قال الموظف، "هل بدأ الرئيس يعاني من الوهم والتخيلات يا ترى؟ هل يظن أن أخته لا تزال على قيد الحياة، وأنها تتحدث معه، ويظن ما يقوله لنفسه هو من قولها هي؟ كانت أخته عائلته الوحيدة في الحياة،

ونعلم أنه أصيب بصدمة شديدة عندما فقدها، لكن أن يصل الأمر إلى هذا الحد..."

"أشعر بالحزن" قال أقدو بصوت مرتجف، فرك عينيه ثم التفت إلى الإمام. "أترى، أي حال يؤول إليها الإنسان حين يفقد عزيزًا له في هذه الحياة؟ ادعُ من أجلنا جميعًا، ادعُ الله أن يغفر لنا ذنوبنا".

بدوا كأنهم جالسين أمام المحراب في المسجد ورائحة ماء الورد تعطر الأجواء لا في الشرفة أمام البيت.

"يا الله" قال الإمام متنهدًا.

"من كان يتوقع أن يتخيل الرئيس أنه يتكلم مع أخته، لم نلحظ عليه ذلك قط" قال الموظف.

"هل ذهب إلى مكان ظن أن أخته قد طلبت منه ذلك، يا ترى؟" سأل أقدو.

"سننظر في هذا الاحتمال أيضًا".

"إذا كان الأمر كذلك، فسوف يعود".

"لعل ذلك".

"ماذا قد يكون غير ذلك؟ سيعود ما دام الإرهابيون لم يختطفوه".

"نأمل ذلك. سيد أقدو، ماذا قال لك الرئيس قبيل مغادرته؟"

"قال إنه سيعود إلى البيت مبكرًا في ذلك اليوم كي يخبر أخته عما دار بيننا من حديث، وسيعاود زيارتي في قادم الأيام. هل ذهب لزيارة قبر أخته ليفضفض وينفّس عن همومه مع روحها؟"

"ينبغي لنا زيارة مقبرة أيوب أيضًا. على أي حال علينا الذهاب الآن. سيد أقدو، هذا رقم هاتفنا، إذا ما استجد أي شيء، نرجو أن تتصل بنا في

الحال. ذلك رجاء".

"بالتأكيد" قال أقدو، بينما ينظر إلى رقم الهاتف على البطاقة التي ناولها الموظف له.

قام الموظفان وسلكا الطريق التي أتيا منها. سارا بحذر على الأرض الزلقة، وبينما كانا يمران من جوار النبع بخطوات حذرة، أخرج كل منهما سيجارة من جيبه وأشعلاها. لم يدخنا خلال الحديث، لاعتبارات رسمية الجلسة. يندر وجود مثل هؤلاء الموظفين في أيامنا الحالية هذه.

صاح الإمام محي الدين خلفهما.

"سيدي، أردت السؤال عن الخارج عن القانون الذي كان الرئيس يتعقبه تلك الليلة. هل ألقيتم القبض عليه؟"

ردَّ الموظف ذو المعطف الأسود بعد أن أخذ سيجارته من فمه.

"لا، لم نلق القبض على الهارب بعد".

مقبرة مركز أفندي

إسطنبول

1984

اليوم، ليلًا.

أظهر ثلاثة رجال مسنين عزيمة قوية في القدوم إلى المسجد لأداء صلاة العشاء، على الرغم من أربعينية الشتاء ببردها القارص، ثم غادروا المسجد بخطوات حذرة متجهين كلٌّ إلى بيته. بعد حين، أطفأت أنوار المسجد وأضيئت أنوار البيت الملاصق له. كان أقدو بانتظار هذه اللحظة، فأسرع وأطل برأسه عبر الباب المنفرج للبيت. حين رأى الإمام محي الدين أقدو، دعاه إلى الدخول، بتحريك شفتيه بصمت ومشيرًا بيده ذات البنان الطويلة.

اليوم، صباحًا.

أظهر الإمام محي الدين أنه إمام مختلف عن الأئمة الذين سبقوه، فمنذ اللحظة الأولى لتعيينه في مسجد مركز أفندي، أصبح يكتب الحجب للنساء المسنات والشابات اللواتي أتين للدعاء والنذر مقابل تبرعهن للمسجد، ووعد من يبحث عن مكان للدفن، بمراجعة البلدية نيابة عنه،

مقابل التبرع للمقبرة. أصبحت هذه المقبرة واحدة من المقابر المنشودة في الفترة الأخيرة، لاحتوائها على مساحات واسعة، وموقعها، وتبركًا بمؤسسها حضرة الشيخ مركز أفندي، ما رفع من أسعار قبورها. أقارب المتوفين المفجوعين، الذين أرادوا دفن موتاهم بالقرب من قبر الملحن الكبير سعد الدين كايناك أو الكاتبة الشهيرة خالدة أديب أضيفار، أبدوا استعدادًا لدفع المبالغ المطلوبة. ذات يوم، طلب الإمام محي الدين من أقدو عمل شاهد قبر متميز وعاجل. لبى أقدو طلب الإمام ظنًّا منه أنه يسعى لتقديم خدمة لشخص عزيز على قلبه، ليكتشف لاحقًا أن وراء الأكمة ما وراءها. احتفظ أقدو بهذه المعلومة على أمل أن يأتيه شاهد القبر هذا بنفع يومًا ما.

انطلق أقدو في الصباح الباكر، إلى بيت الإمام، وأبلغه أنه يبحث عن مكان يخبئ فيه ابنته لفترة من الزمن، وعن استعداده للتبرع للمسجد مقابل ذلك. حصل ما توقعه أقدو من أن خمسمئة دولار أمريكي ستساعد الإمام على تجاوز الخوف من الدولة. أظهر الإمام ليونة أشد عندما وعده أقدو بخمسمئة دولار أخرى في الأسبوع المقبل، مؤكدًا أن ما يفعله ليس سوى من أجل مساعدة هذه البنت، لكنه يحتاج إلى الوقت لاختيار مكان مناسب.

لم يكن أمام أقدو وقت طويل للتفكير، فاقترح فتح حجرة الخلوة في الطابق السفلي من التكية وتنظيفها واستخدامها لهذا الغرض. سأل الإمام أقدو بفضول كيف عرف عنها، فذكّره أنه تولى الإمامة في مركز أفندي منذ ستة أشهر فقط، بينما هو يقيم هنا منذ عشرين عامًا، وأنه كان يفتح حجرة الخلوة وينظفها مرة كل عام بإشراف الأئمة السابقين.

قبل أربعمئة وإحدى وسبعين سنة.

بعد مرور ستين عامًا على فتح مدينة إسطنبول، عندما فكَّر مركز أفندي بإنشاء تكيَّة، وجد أن من الأنسب بناؤها خارج أسوار المدينة بعد ازدياد ازدحامها العمراني، فاختار مكانًا جوار نبعٍ ماء اندثر منذ أيام البيزنطيين. بعد أن كان المسيحيون يعتبرون ماءه مباركًا في العصور الماضية، ويترددون عليه لشفاء الكثير من العلل والأمراض وفك السحر والخوف والانفصال، ما عاد يزوره إلا قلة في هذا العصر.

فكَّر مركز أفندي في بناء غرفة للخلوة وغرف للدراويش، ومقام للسلطان، وحوض وضوءٍ بنافورة ماء، وحمّام. وعلى الرغم من أنه قد تجاوز الخمسين من عمره، إلا أنه عمل في البناء مع العمال والمريدين. لقد بذل جهدًا خاصًا في بناء حجرة الخلوة، ونزل إلى عمق سبعة أمتار لتغذية النبع المبارك، وحفر بئرًا في الحديقة لاستيعاب المياه الفائضة عن النبع المبارك. آمن أن النبع المبارك وظلام حجرة الخلوة، سيقربه من الله. كان على استعداد للبقاء في الخلوة أربعين عامًا لا أربعين يومًا فقط، إذا ما أذن له الشيخ سنبول أفندي بذلك. كان يرغب في مناجاة ربه في عزلة وسكون وظلام، ويشعر بالذات الإلهية قريبة منه.

اليوم، ليلًا.

بعد أن دفن الظلام السماء المكسوة بالغيوم الكثيفة، غادر أقدو المقبرة وتوجه إلى الأسوار، وعبر دهاليز وسراديب حتى وصل إلى حيث ريحان بانتظاره وقد تدثرت ببطانيتين من شدة البرد، ورغيف وسكين إلى جانبها. الضباب بدأ يعم الأرجاء ثانية، وخلت المنطقة من المارة. أحاط أقدو ريحان

بذراعه وعبر بها الطريق الأسفلتي حتى وصلا إلى المقبرة التي ارتدت حلة بيضاء ناصعة.

قبل أربعمئة وسبعة وأربعين عامًا.

كان مركز أفندي طبيبًا ماهرًا إضافة إلى أنه كان شيخًا صوفيًّا فاضلًا. ذات مرة، أعدّ لوالدة السلطان سليمان القانوني، عائشة حفصة سلطان، معجونًا من أعشاب وتوابل مختلفة لعلاجها من مرض مستعصٍ، فعرفه الناس من هذا الدواء الذي أطلقوا عليه اسم معجون المسير، واستعملوه دواء لكل داء. لكن حين أعدَّ سليمان القانوني العدة لحملة جديدة، اصطحب معه مركز أفندي بصفته شيخًا للجيش لا رئيسًا للأطباء. في ذلك الوقت، كان قد تجاوز السبعين من عمره وابيضَّت لحيته، وكان الجيش بحاجة إلى مثل هؤلاء الأولياء الصالحين.

كان سليمان القانوني يسعى إلى فتح كل إيطاليا عن طريق الدخول من مدينة أوترانتو على البحر الأدرياتيكي. لم تنطفئ جذوة الحلم العثماني بالعودة إلى تلك الأراضي منذ انسحاب جيش جده الأكبر محمد الفاتح من أوترانتو قبل خمسين عامًا. بعد أن استولى جيش سليمان القانوني على بغداد شرقًا والمملكة المجرية غربًا، أعدَّ العدة لحملة جديدة. بعد أن استبقت السفن الحربية القوات البرية بالتقدم، وقعت اشتباكات بحرية غير متوقعة مع البنادقة على الرغم من ادعائهم بالحياد، ما أدت إلى قلب كل الحسابات، وَتحويل مسار الحملة إلى جزيرة كورفو للاستيلاء عليها من أيدي البنادقة.

بعد ستة أشهر، عاد القانوني إلى إسطنبول منهكًا وخائب الأمل. في حين كانت الدول المسيحية في أوروبا تخشى سليمان القانوني باعتباره السلطان

العظيم، كان يريد مواجهتهم بقوة القيصر. بعد استيلاء جده الفاتح على إسطنبول معلنًا نهاية الإمبراطورية البيزنطية، نال لقب قيصر روما الذي حمله تاريخ تلك المدينة. لكن لقب القيصر هذا قد غاب طي النسيان في القصر العثماني، بعد أن نال والده السلطان سليم الأول لقب خليفة المسلمين بعد هيمنته على القاهرة والكعبة، ولو استطاع سليمان القانوني فتح إيطاليا، لأصبح القيصر العظيم لأوروبا.

حاول مركز أفندي أن يخفِّف من حزن القانوني، إذ كان يعرفه منذ صغره وسنواته حين كان أميرًا، ومكث معه في قصر توب كابي، بعد عودته من حملته، ليستأذنه بعد مضي شهر ويعود إلى حياته المتواضعة المعتادة. عاد إلى تكية الدراويش خارج أسوار المدينة، وأدار الحلقات الدراسية مع مريديه، وحلقات الدوران الصوفي، ثم قرر الاعتزال، تحت شعور ثقل الضيق الذي تراكم داخله في حجرة الخلوة. لا يخرج منها أربعين يومًا، ولا يرى سوى الجدران الأربعة لهذه الغرفة الضيقة، ولا يسمع ولا يشعر بشيء سوى صوت الظلام.

اليوم، ليلًا.

نزلت ريحان الدرجات، حتى وصلت حجرة الخلوة. بدا الباب ضيقًا على الرغم من صغر جسمها الهزيل، وواطئًا ما أرغمها على طأطأة رأسها كي تتمكن من الدخول. بعد إعلان الجمهورية تم إغلاق جميع تكايا الدراويش، بما فيها حجرة الخلوة لتكية مركز أفندي قبل ستين عامًا. فاحت من الغرفة رائحة ورطوبة من القرون الماضية تزكم الأنوف، ولم يجد نفعًا تنظيف ريحان للغرفة بمبيض الغسيل. قشعريرة سرت في أوصال ريحان حين طاف

في مخيلتها صوفي في هذه الغرفة أغلق على نفسه بابها، كزنزانة انقطع فيها عن العالم الخارجي لأربعين يومًا. التفتت إلى أقدو وقالت "بابا!". حاول أقدو أن يهدئ من روعها، ووضح لها أن هذه الغرفة أقيمت لتساعد الصوفي على الخلاص من هموم الدنيا ومشاكلها، وتمنى أن تكون لها عونًا ومغيثًا.

كان قد ادعى للإمام أنها ابنته كي يتعاضد الإمام معه، وقد التقاها بعد فراق دام سنوات. قبل أن يغلق الباب على ريحان عانقها وقال: "يا ابنتي!"

قرية كوناك غورميز

سهل هايمانا

1959

بعد أن فقد ميخائيل آغا والده وشقيقيه في العام الماضي، قرر تأجيل حفل زفافه حتى موسم الحصاد لهذا العام. استمر الحداد طويلًا. مصير معلم شواهد القبور الذي قتل أخويه كان متوقعًا. مرّ موسمان. حُكم على معلم شواهد القبور بالإعدام بجناية القتل. رفع القرويون البيادر، وأعدّ الجميع كل ما يلزم للحفل. في نهاية آب/ أغسطس، توافد أهالي السهل كلهم على العرس. استقبلت قرية كوناك غورميز، جموعًا أكبر عددًا مما حضر للمشاركة في جنازتي العام الماضي، استجابة لدعوة ميخائيل آغا كي ينسى ألمه، ويشاركونه سعادته. ثلاثة طبول وثلاثة مزامير من قرية عبدل، ومغنون من أنقرة، وأصدقاء من الحزب في أنقرة، وفرسان يركّضون خيولهم في الأرجاء، وأطفال ينشرون الفرح في القرية، وفتيات وفتيان يشكلون حلقات الدبكة للمشاركة في حفل الزفاف الذي سيستمر سبعة أيام وسبع ليال.

اليوم الأول.

بعد تناول طعام الغداء، تلا الإمام دعاءه، وعقد الشباب حلقات الدبكة على وقع الطبول وعزف المزامير. أخذ رفاق الآغا الشاب الصف الأول، ليعلنوا فرحتهم بالحياة الجديدة لصديقهم. كانت الشمس في أشد ساعاتها حرارة، فدار الصبيان يحملون الصواني ويوزعون اللبن العيران على الشباب المشاركين في حلقات الدبكة.

احتفالات اليوم الأول للعرس بدأت متأخرة، وحلّ المساء سريعًا. مع هبوط الظلام، راح بعض الشباب يقومون بألعاب الخفّة، فدخلوا بين شباب حلقات الدبكة كي يشاركوهم بلعبة خطف القبّعة. شاب من إحدى القرى المجاورة يخطف قبعة أحد الدبّيكة، وينطلق بها بأقصى سرعته. أصبحت القرية بأكملها ساحة للعبة خطف القبعة، ودارت مطاردة في الظلام بين شباب قرية من خطف القبعة من جهة، وشباب قرية صاحب القبعة من جهة أخرى.

اليوم الثاني.

في الليلة التالية خُطفت قبعة أحد عازفي الساز القادمين من أنقرة. وبينما كان شباب القرية يتناقلون القبعة، قبل عازفو الساز التحدي ولاحقوا خاطفي قبعة زميلهم كوتلو، وفقًا للعادة المتبعة في القرية. كان لابد لهم أن يتفرقوا في حارات القرية المظلمة، بينما استمر عزف الطبول والمزامير وحلقات الدبكة في موقع الحفل. تتبع كوتلو ظلالًا في الظلام، ظنًّا منه أنها لخاطَف قبعته حتى وصل إلى حديقة على سورها تجلس فتاة، وتتابع الحفل من بعيد. اقترب منها كوتلو وسألها إذا ما رأت شابًا مرَّ من هنا، فردَّت الفتاة بالنفي. دفع الفضول كوتلو، ليواصل الكلام مع الفتاة ويسألها عن سبب

عدم انضمامها إلى قريناتها في الحفل. على أية حال، الأنوار المطفأة في جميع المنازل، عنت له أن الجميع قد ذهبوا إلى حفل زفاف الآغا. لم تجبه الفتاة على سؤاله، بل سألته من أيِّ قرية أتى، فأجابها كوتلو أنه أنقراوي من أنقرة. عندئذ واصلت الفتاة الحديث مع الشاب، وقالت "هذا بيت العروس، ومن عاداتنا أن لا يحضر أهل العروس حفل الزفاف في بيت العريس. أليس هو العرف نفسه في أنقرة؟" ابتسم كوتلو، وقال: "بلى". تابعت الفتاة الكلام: "هل أنقرة مدينة كبيرة؟"، وقال كوتلو: "بل كبيرة جدًا، وجميلة بأنوارها المتوهجة ليلًا". وبعد طويل حديث، لاحظ كوتلو أن الفتاة تميل إليه، فقال ما يتمناه قلبه: "أتمنى ألا تكوني أنت العروس في هذا البيت"، فقالت، "كلا، أنا أخت العروس".

اليوم الثالث.

مشطت إيبيك شعر إليف ودهنته بزيت الخزامى، ثم ضفرته جدائل رفيعة وشبكت في كل منها خرزات صفراء وحمراء وخضراء. عندما أكملت ضفائر أختها، جلست أمامها، وناولتها شعرها. مشطت إليف بدورها شعر أختها إيبيك، ودهنته بزيت الخزامى، ثم قالت، "إيبيك، لا تترددي بالمجيء إلى زيارتي دائمًا. أحب سماع غنائك بصوتك الجميل". رفعت إيبيك رأسها ونظرت إلى أختها، متوقعة رؤية دموع ونظرة حزن. لم ترَ دمعًا في عيني إليف، إذ ذرفت إليف دموع عمرها كلها في العام الماضي، فدمعت عينا إيبيك بدلًا منها، مع أنه من المألوف بكاء العروس طوال أيام عرسها. واصلت إليف الكلام، وانطلق لسانها بعد صمت أظهرته في الأيام السابقة، "سأترك لك مشطي عندما أغادر هذا البيت. إنه أعز أشيائي إلى قلبي، فقد

شاركني كل ما كان يختلج في صدري، وتحدثت معه بينما كنت أنظر في المرآة أبني أحلى أحلامي. كنت أشعر بالسعادة بتأمل ابتسامة شاه ميران على المشط. أدركت بعد فوات الأوان أنها لم تكن تبتسم لي، لقد خدعني قدري، أتمنى أن تكون ابتسامة شاه ميران صادقة معك".

اليوم الرابع.

إضافة إلى عائلة العروس، كانت هناك عائلة أخرى في القرية لم تحضر حفل الزفاف. كان رئيس الرعيان السابق حيران وزوجته يشاهدان من بيتهما على ظهر التل حفل العرس كالبدر متألقًا وسط القرية المظلمة. لم يتهم حيران المعلم أقدو بقتل ابنه باقي، وقال إن أقدو قد أحب باقي، ولا يمكن أن يؤذيه، بالمقابل فقد جاهر بأن أبناء الآغا أساءوا معاملة الصبي الصغير. انتقل هذا الكلام في القرية همسًا من أذن إلى أذن، حتى وصل إلى أذن ميخائيل آغا. في النهاية، كان أن صُفع الراعي حيران على وجهه، وطُرد من عمله، ومن المنزل الذي كان يسكن فيه.

اضطر حيران أن يغادر وزوجته ميهريناز القرية، بعد أن بنى بيتًا من غرفة واحدة على ظهر التل المقابل للقرية. يوم محاكمة أقدو، حضر جلسة المحاكمة، وشهد بأن معلم شواهد القبور رجل صالح وغير مسؤول عن وفاة ابنه، على عكس أهالي القرية الذين لفقوا آلاف الحكايات عن أقدو. ما كان أهالي القرية معنيين بكلام حيران بقدر ما كانوا يتشوقون بفضول لسماع دفاع أقدو. تحدث أقدو بحزن وأفاد أنه بعد أن غادر القرية استراح ونام في بستان اللوز، واستيقظ ليلًا على جلبة، ولا يعرف سببًا لمحاولة أبناء كارا أغا قتله، ولا يعرف سببًا لوجود الصغير باقي هناك أيضًا، ما ترك الأسئلة التي تدور في أذهان

أهالي القرية بلا جواب. وحين قام القاضي بإعلان الحكم عليه بالإعدام ومن ثم كسر قلمه، كان حيران الوحيد الذي صاح في القاعة مستنكرًا الحكم.

بعد أن فقد حيران عمله في القرية، انتقل للعمل في قرية دفجي بيناری، ليأتي مرة في الشهر، إلى القرية لرؤية زوجته. دام على هذه الحال حتى تساقط الثلج وحُبست الحيوانات في الحظائر. عاد ذلك اليوم، إلى بيته مع حماره المحمّل بالجبن والزبد والشاي والسكر، ويجرّ وراءه بقرة. فرحت زوجته بالبقرة، بعد أن أحضر لها خمس دجاجات في الشهر الماضي أيضًا. ماذا يريد الإنسان في الحياة أكثر من امتلاك بقرة وعدد من الدجاجات، سوى الدعاء بولادة أطفال بصحة جيدة!

بعد مرور عام على وفاة باقي، حملت زوجة حيران مرة أخرى. في قرى السهل، يُربط الأطفال بماضٍ لم يعيشوه قط، بدءًا من أسمائهم، ويشركون في ثأر قديم، ويصبحون جزءًا من ماضٍ لم يعرفوه. أخبر حيران زوجته إذا ما كان المولود بنتًا، فلن يتدخل في اسمها، أما إذا كان صبيًّا، فسيطلق عليها اسم عصمت. هذا الاسم حُفر في ذهنه منذ ستة أشهر، تيمنًا بعصمت باشا، الذي أسس الجمهورية مع أتاتورك، وتزعم المعارضة ضد الحكومة الحالية.

قبل ستة أشهر.

عندما غطت ثلوج شباط/فبراير كل شيء، كان صوت مذيع نشرة أخبار المساء باردًا كالثلج أيضًا، "تحطَّمت طائرة رئيس الوزراء عدنان مندريس في لندن عاصمة إنجلترا، وفقد معظم ركاب الطائرة حياتهم، ثم أضاف إلى تعذر الحصول على معلومات دقيقة عن حالة رئيس الوزراء".

دبَّ القلق بين أهالي القرية عند سماعهم هذا الخبر، وقضوا ليلة بيضاء

واجمين وجلين. لكنهم تنفسوا الصعداء حين أفادت أنباء صباح اليوم التالي أن رئيس الوزراء من بين الناجين العشرة من ركاب الطائرة بعد تحطمها. حيران الوحيد كان غير سعيد بهذا الخبر حتى أنه قال جهارًا ليت رئيس الوزراء من مات ونجا الركاب الآخرون. لقد قال ذلك عنادًا بعائلة الآغا، إذ دعمت عائلة الآغا حزب عدنان مندريس، وشجعت أهالي القرية للتصويت لحزبه في الانتخابات.

لم يكن أهالي القرية بحاجة إلى تشجيع من عائلة الآغا، لأنهم سيصوتون لعدنان مندريس من تلقاء أنفسهم. كانوا يرددون فيما بينهم أن الدولة قد ابتعدت عن الدين في عهد عصمت باشا، علمًا أنهم في السنوات الماضية كانوا يطلقون اسم عصمت على أبنائهم، وأصبحوا يطلقون عليهم اسم عدنان بعد وصول عدنان مندريس إلى سدة الحكم. اشتدت عداوة حيران لميخائيل آغا بعد مقتل ابنه، وطرده من عمله، ولرجال السياسة الذي يؤيدهم، وصار يجاهر بأفكار غير مألوفة بين القرويين بعد أن انتقل للعمل في دفجي بيناري، تلك القرية الحديثة التي لم يمضِ على إنشائها سوى عشر سنوات.

بعد الحرب العالمية الثانية، وعندما وصل الشيوعيون إلى السلطة في بلغاريا، نزح إلى تركيا ما يقرب من ثلاثمئة ألف نسمة من ذوي الأصول التركية، كانوا يعيشون هناك منذ قرون. قررت الحكومة التركية نشر المهاجرين في أنحاء مختلفة من البلاد، وأنشأت قرية من سبعين منزلاً على مقربةَ من قرية كوناك غورميز، جوار نبع دفجي بيناري حيث كانت قوافل الإبل تمضي وقتًا للراحة.

أزمات دبلوماسية وقعت بين تركيا وبلغاريا أثناء تدفق اللاجئين دامت

عامين، أغلقت تركيا خلالها، الحدود بين البلدين أكثر من مرة، بعد قيام الحكومة البلغارية بدفع الغجر إلى الهجرة مع ذوي الأصول التركية. على الرغم من محاولات منع الغجر من الاختلاط بالمهاجرين قدر الإمكان، لكن شائعات قد انتشرت عن وجود عائلة غجرية في القافلة التي استقرت في قرية دفجي بيناري، لكن الحداد محمد نفى ذلك وقال إن الجميع ينحدرون من أصول تركية ويتحدثون التركية مثل الآخرين. مع أن الحداد محمد قد فرَّ من بلد شيوعي، وجاء إلى تركيا، إلا أن أفكاره لم تختلف عن أفكار الشيوعيين. كان يردِّد أن لا عدالة ومساواة في تركيا، الحكومة تخدع الناس، الظلم وغلاء المعيشة يسحقان المواطن البسيط، وقوات الدرك تحابي الملاكين وتظلم الفلاحين الفقراء.

اشتغل حيران عند محمد الحداد برعي الأغنام، فعامله بالحسنى، وأجزل له العطاء، وصار يحدثه عن واجب الدولة تجاه الرعيان بتأمين راتب ثابت لهم لعيشوا بكرامة، وأن ما لم تفعله الدولة كان يفعله معه، إذ قدم له دجاجًا وبقرات وكلبًا أيضًا. تعامل الحداد محمد الحسن مع حيران، زاد من كره وحقد حيران على الآغاوات، وصار يحدث أهالي قريته بأفكار غريبة عليهم أدهشتهم، ويردد ما يسمعه من الحداد محمد عن أن البلاد تدار من حكومة فاسدة، يحركها أغنياء البلد وأعوان أمريكا، وأن أهالي القرية لا يملكون سوى الدعاء.

اليوم الخامس.

تسلل عازف الساز كوتلو إلى حديقة البيت المطلي بصباغ نيلي ليلًا، فرأى إيبيك تنتظره على السور. جلس إلى جوارها وأمسك يدها، وقال إنه

أحبها من النظرة الأولى، ويريدها أن تأتي معه حين يعود ثانية إلى القرية، إذ ينبغي له مشاركة أصدقائه في إحياء حفل زفاف في قرية أخرى أولًا، ثم يعود ويصطحبها معه. وافقت إيبيك دون تردد، واتفقا على الالتقاء في بستان اللوز عند مشارف القرية ليلة الجمعة من الأسبوع التالي. عند الوداع، تأملت إيبيك كوتلو طويلًا، ثم قالت، "ارجع، ولا تتركني هنا".

اليوم السادس.

راحت "إليف" تحدق في السقف منذ بدء حفل الزفاف، وتتمنى ألا يحلّ المساء إذا كان الوقت نهارًا، وألا تشرق الشمس إذا كان الوقت مساء. رؤية الدم كانت تخيفها، لذا ما عادت تراودها فكرة قطع عروق معصمها بسكين. لقد اكتفت بحماية حجب العرافات لها، ورضخت لقدرها مثل فتيات القرية الأخريات. قبلت بالأمر الواقع بلا أمل، لأنها لا تجرؤ على قتل نفسها.

الأسبوع التالي، يوم الجمعة.

نجحت إيبيك في ما لم تستطع أختها إليف تحقيقه. التقت بعازف الساز كوتلو في بستان اللوز عند منتصف الليل، وهربت من القرية بعد أن أمضت فيها سبعة عشر عامًا من عمرها، في سيارة تفوح منها رائحة البنزين والسجائر والكحول. حملت معها عند هروبها، صرة ثيابها، والمشط الذي يحملَ نقشًا لشاه ميران تنظر بعينين تائهتين نحو المستقبل.

مقبرة مركز أفندي

إسطنبول

1985

جلس أقدو والإمام محي الدين وحدهما في الشرفة، بعد ذهاب مدير دائرة الأحوال المدنية السيد سليم.

أصيبت ابنة مدير الأحوال المدنية السيد سليم ذات الاثنتي ربيعًا بالسرطان، فهزل جسدها الضعيف ولم تستطع مقاومة هذا المرض الخبيث، فودَّعت الدنيا الأسبوع الماضي. شيّع جنازتها جمع كبير، شارك الرجال فيها النساء بذرف الدموع حزنًا على الطفلة الوحيدة للسيد سليم وزوجته. ازداد المشيعون حزنًا عندما لاحظوا من تواريخ ميلاد الأموات وموتهم على شواهد القبور حولهم، أنه لا يوجد من هو أصغر سنًا من هذه الطفلة في المقبرة، وأنها أصغر برعم فيها.

جاء السيد سليم بصحبة الإمام محي الدين إلى أقدو في وقت مبكر من هذا الصباح، وطلب منه عمل شاهد قبر متميز لابنته. كان في صوته نبرة رجل إسطنبولي وقور وأب مفجوع. شاركه أقدو ألمه، ووعده بنحت شاهد قبر لا لأب فقد طفلته فحسب، بل ليعكس براءة طفلة أجبرت على مغادرة

هذه الدنيا قبل الآخرين، ويُري كل من ينظر إلى شاهد القبر هذا نقاء الروح الطفولية. أخذ السيد سليم يدي أقدو بين يديه وشكره، معربًا بلطف عن استعداده لدفع ثمن جهده في الحال. تدخّل الإمام وأغلق موضوع الأجر، مؤكدًا للسيد سليم أن المال ليس موضوع بحث الآن، وسيناقش هذا الأمر مع المعلم أقدو بنفسه. أعرب مدير الأحوال المدنية السيد سليم عن امتنانه لكلا الرجلين وانصرف.

كان على الإمام أن يوضّح تصرّفه هذا، فقال "معلم أقدو، لقد ارتأيت تأجيل بحث الأمور المالية مع مثل هذا الرجل المهم في الوقت الحالي. كما تعلم، والده أيضًا صاحب نفوذ، ونائب لرئيس البلدية. باشر في نحت شاهد القبر، وحين أزور السيد سليم في مكتبه في الأيام المقبلة، سأتطرق إلى الحديث عن أتعابك".

"حسنًا"، قال أقدو بينما يمرر يده على شعره، وغارقًا في التفكير، ثم كرَّر في قرارة نفسه، "حسنًا، ربما ذلك أفضل".

"أتمنى ألا تكون قد أسأت فهمي..."

"أيعقل ذلك، يا شيخي!"

"هذا الرجل مهم، دائرته واسعة، وقد نحتاج إلى دعمه في قادم الأيام. علينا كسب وده".

"أنت محق، أنت بحاجة إلى دعم، وأنا أيضًا بحاجة إلى عون. قد يكون له دور إيجابي في مساعدتنا".

"بماذا؟"

"شيخي الإمام، أنت بعمر ابني، تعاوننا مصلحة لكلينا، فلنتحدث بصراحة على بساط أحمدي".

"ما الذي تتحدث عنه بالضبط؟"

"أنا أتحدث عن ابنتي، إنها مختبئة في تلك الحجرة منذ ثلاثة أسابيع، وأفكر بما يجب علي فعله".

"سأعيد عليك ما سألتك إياه في حينه، ولم تجبني بصراحة. هل ابنتك هي الخارجة عن القانون التي يبحث عنها رجال الشرطة في ذلك اليوم، أم لا؟"

أجبر أقدو نفسه على الابتسام، "هل عقلك يقبل ذلك يا شيخي الإمام" قال، "أهذه الفتاة خارجة عن القانون؟ تلك الفتاة الصغيرة الهزيلة، أهذا ممكن؟"

"لقد شككت في ذلك حين رأيت الفتاة، لكنني أتساءل عن تفسير لهذه المصادفة الغريبة في الأحداث".

"أنت محق في التساؤل، لكن من تبحث عنه الشرطة هو إرهابي شرس. شخص جابه الدولة بأكملها بمفرده، ولابد أنه الآن في أحد معسكرات الإرهابيين".

"أنت محق، إنهم أناس غريبون. يبدو ذلك من صورهم على ملصقات المطلوبين، يبدون أقرب إلى إنسان الغابة من البشر العاديين. على الرغم من الأحكام العسكرية، لكن لم يتم اجتثاث جذورهم. ليكن الله في عوننا، لا أحد يدري متى سيحل السلام على هذا البلد!"

"علم ذلك عند ربي..."

"معلم أقدو، لا أعرف ما هي مشكلة ابنتك. آمل ألا يُقبض عليها يومًا كي لا أقع بسببها في ورطة أنا في غنى عنها".

"لا تقلق يا حضرة الإمام، لقد تحدثنا بهذا الخصوص من قبل. إذا ما

حدث أي شيء، فأنت تعرف ماذا تقول. أنت لا تعرف الفتاة ولم ترها من قبل، ولا تعلم أنها في حجرة الخلوة، والحجرة مغلقة منذ ستين عامًا. المفتاح معي، ولا علم لك بذلك، فالإمام السابق قد أعطاني المفتاح لتنظيف الغرفة من حين إلى آخر، أليس هذا ما اتفقنا عليه؟"

"نعم صحيح. إذا كنت لا تريد التحدث عن ابنتك، فليس عندي ما أقوله".

"الأمر ليس كما تظن. قصة قديمة كدت أنساها. إذا كنت ترغب بمعرفتها، سأقصّها عليك".

لم يخفِ الإمام محي الدين فضوله، عدّل من جلسته وتهيأ للاستماع.

"حسنًا، لك ذلك" قال أقدو وأخذ نفسًا عميقًا، "أنت تعرف المتشردين والمتسولين الذين يعيشون عند أسوار المدينة. غالبًا ما يأتون إلى المقبرة والمسجد طلبًا للمساعدة. عندما استقريت في هذه المقبرة منذ عشرين عامًا، فتاة صغيرة متسولة أتت إلى هنا، كانت جميلة وجذابة. على أية حال، لا أريد الإطالة في الحديث، كنت قد خرجت لتوي من السجن، ولم أستطع كبح رغبتي، فقضيت معها إحدى الأمسيات. هذا كل شيء، ثم ذهبت، ولم أرها مرة أخرى. كيف لي معرفة أنها قد حملت وذهبت إلى منطقة أخرى من إسطنبول، وأنجبت طفلة وربتها حيث لا أدري أين؟ لكن حين علمت أنها قد حملت وأنجبت طفلة، حاولت البحث عنها وسألت كل من أعرفهم من المتسولين، لكنني للأسف، لم أتمكن من العثور عليها. أخيرًا، سفينة الحظ ألقت مراسيها هنا، الشهر الماضي، لكن العواصف قد جعلتها خرابًا. حين أخبرني أحد المتسولين عن مكان وجودها، ذهبت للقاء ابنتي، لكن لسوء حظ المسكينة وجدتها فقيرة هزيلة بحالة يرثى لها، وقد توفيت أمها.

قبل وفاة الأم أخبرت ابنتها أن أباها هو الرجل المقيم في المقبرة. لا بأس في ذلك، لكن هناك الأسوأ. فقد تبين لي أن أمها قد دفعتها إلى احتراف السرقة. للفتاة سجل عند الشرطة، وهي مطلوبة الآن لارتكابها العديد من السرقات. بعد أن توفيت أمها، مرضت وبقيت دون رعاية. عندئذ أرسلت من يخبرني عن مكان وجودها في منطقة مهجورة على شاطئ جانكورتران، فذهبت وأحضرتها لتقيم معي. ماذا كنت ستفعل لو كنت مكاني، يا شيخي الإمام، لو أن ابنتك التي كنت تبحث عنها من سنوات قد ظهرت أمامك فجأة، قل لي، ماذا كنت ستفعل؟"

"لا أحد يعلم ما يخبئ له القدر، يا معلم أقدو!"

"بالمناسبة، علمت أن هناك بين المتسولين من يلاحقها، بعد أن ماتت أمها، لذلك كان عليّ إحضارها إلى هنا في الحال. أفعل ما يفعله كل أب لحماية ابنته وإنقاذها من المستنقع الذي غرقت فيه دون إرادتها. وها أنا أبذل قصارى جهدي كي تستعيد عافيتها. وقوفك إلى جانبي كان من حسن حظ هذه المسكينة. لن أنسى لك معروفك هذا ما دمت حيًّا".

"لم أقم سوى بواجبي الإنساني" قال الإمام محي الدين وقد علت وجهه ابتسامة خيلاء. ثم أردف: " لكن إلى متى يمكن للفتاة البقاء في تلك الغرفة الضيقة، هل فكرت في ذلك؟ إذا ما رآها أحدهم وأبلغ الشرطة، فسيتم القبض عليها وسنقع جميعنا في ورطة، بالأحرى أنت من ستقع في ورطة لا يعرف عقباها".

"أنا أفكر في ذلك، وأبحث عن مخرج منذ أيام. على أي حال فلدى الفتاة مشاكل أخرى".

"مشاكل أخرى أيضًا، مثل ماذا؟"

"البنت حامل يا شيخي!"

"ماذا! أيمكن أن تكون هذه البنت الهزيلة حامل؟ يا حي يا قيوم، ما كل هذا؟"

"أنا أيضًا لم أصدق ذلك".

"وأين هذا الرجل، أقصد أب الجنين؟"

توتر حاجبا أڤدو، وجحظت عيناه. "تعلم أن الأوغاد والأنذال في كل مكان، لابد أن أحدهم قد رآها في ركن منزو..."

أطرق أڤدو ولم يعد يرغب في مواصلة كلامه، أدرك الإمام محي الدين أنه ينبغي له مواساته.

"الغضب لن يؤدي إلى نتيجة، ما وقع قد وقع، لله سبحانه وتعالى حكمة نجهلها فيما قدره لنا، وهذا هو قدر هذه المسكينة. دعك مما مضى، ولا تفكر إلا بما يجب عمله".

شعر أڤدو بالرضى على نجاحه بإقناع الإمام بصحة ما اختلقه، وأنه جاء الوقت المناسب لاستكمال ما خطط له.

"أنت محق يا حضرة الإمام، علينا أن نفكر بما يجب عمله بعد ذلك. هل تعرف ما يدور في ذهني؟"

"بماذا تفكر يا معلم أڤدو؟"

ألم تقل إنك تنوي زيارة مدير الأحوال المدنية السيد سليم؟ أرى أن لا تؤخر زيارتك حتى الأسبوع القادم. زره غدًا، وخذ بخاطره".

"لم أفهم، أهذا ضروري من أجل أتعاب شاهد القبر؟"

"أعرف ما تنوي إليه" قال أڤدو، "تريد التقرب من مدير الأحوال المدنية ليساعدك في الانتقال من هذا المسجد الصغير إلى آخر أكبر منه. وإذا

تطلب الأمر، ستلجأ إلى والد المدير بصفته نائبًا لرئيس البلدية".

"صحيح، لقد فكرت في ذلك، لكن نواياي ليست سيئة. في هذا الزمن، لا يمكنك فعل أي شيء بدون دعم من صاحب نفوذ".

"سأقترح عليك شيئًا آخر. أجِّل حديثك مع السيد سليم عن مطلبك حتى يحلّ مشكلة ابنتي أولًا، ما رأيك؟"

"قضية ابنتك في ملفات الشرطة، هي مطلوبة بتهمة السرقة. ما الذي يمكن أن يفعله مدير الأحوال المدينة حيال ذلك؟ تذكر أن اثنين من رجال المخابرات قد أتيا إلى هنا الأسبوع الماضي. حاول الوصول إليها، ربما يمكنهما تقديم المساعدة".

"كلا" قال أقدو، "لا أريد هذا النوع من المساعدة. ملفات الشرطة أمر صعب للغاية. ثم أن ملف ابنتي حافل بعدد كبير من السرقات، ولا يمكن حلّ ذلك بسهولة".

"ماذا سنفعل إذن؟"

"اعتقد لو أسجل ابنتي على اسمي في دفتر العائلة، ستُحل كافة الأمور تلقائيًا. إذا ما رفعت دعوى أبوة في المحكمة كأنني أدفع بالبنت إلى السجن. لكن بإضافتها إلى دفتر العائلة، لن يكون هناك أية مشكلة".

"أنت تتحدث عن شيء مستحيل".

"الأمر ليس بالصعوبة التي تظنها".

"كيف سيتم ذلك؟ عقلي لا يستوعب ذلك".

"كن على ثقة أن الأمر أسهل مما يبدو. ما زلت أذكر كيف حصلت على دفتر عائلة. كنت في العاشرة من عمري، عندما أخذوني إلى مدير دائرة الأحوال المدنية في ماردين، ورجوه. كان رجلًا طيبًا، لقد أصدر لي دفتر

عائلة خلال يوم واحد. يكفي النية في عمل أي شيء، ويُحل كل شيء على الفور".

"هل نشأت في ماردين؟"

"نعم."

"من رباك؟ مسلمون أم غير مسلمين؟"

"أتقصد السريان؟"

"هناك الكثير من المسيحيين".

"حضرة الإمام" قال أقدو بصوت منفعل، "ماردين هي أجمل مدينة في العالم، وصدقني، شعبها طيب القلب جدًا".

"لم أقصد أن أغضبك. نحن نتبادل الحديث فقط، كيف انتقلنا إلى هذا الموضوع؟"

"لا عليك يا عزيزي، لنعد إلى موضوعنا".

"أجل، ماذا كنا نقول؟"

"كنت أقول إنه عليك زيارة المدير غدًا. أنت عذب اللسان، إذا تحدثت معه بصراحة، أو رويت له قصة حياتي، أو بالأحرى حياة ابنتي، فسوف يتفهم الأمر".

"لماذا لا تذهب أنت وتحدثه بنفسك، سوف يتفهم الأمر أيضًا".

"كلا، من الأفضل أن تذهب أنت، وتبلغه سلامي وتسلمه مغلفًا".

"أي مغلف تتحدث عنه؟"

"مغلف بداخله دولارات أمريكية".

عدّل الإمام محي الدين من جلسته، وأسند يده الممسكة بالمسبحة على الطاولة.

"معلم أقدو" قال، "هل تظن أن مثل هذا العمل يمكن أن يتم مقابل مئة أو مئتي دولار؟"

"أنت محق" رد أقدو بكل ثقة، "بالتأكيد، لا يمكن تسوية هذا الأمر بهذا المبلغ. سأعطيك مغلفًا بألفي دولار، كي تسلمه له."

"ألفين؟ أتملك هذا المبلغ من الدولارات؟"

" أعمل هنا منذ سنوات. أين يمكنني إنفاق كل المال الذي أكسبه؟ على الأكثر، أساعد المشردين عند الأسوار. دعك مني الآن، عندما تذهب إلى مدير الأحوال المدنية، أخبره أن مغلفًا آخر بانتظاره".

"مغلف آخر؟"

"خذ المغلف غدًا، وأخبره أنك ستأتي عندما يجهز دفتر العائلة، وقل له إنك ستهديه مغلفًا آخر مثله".

"حقًا؟ يعني أربعة آلاف دولار؟ معلم أقدو، بهذا المبلغ من المال، يمكنك إصدار دفاتر عائلة لا لمتسول واحد فحسب بل لعشرة متسولين أيضًا".

"إذن أنت توافقني الرأي، أليس كذلك؟"

"جهّز النقود الآن".

"لكنني أريد منك شيئًا آخر. قد يبدو غريبًا بعض الشيء".

"ما هو؟"

"أخبر المدير أن شاهد القبر الذي سأنحته لابنته لا علاقة له بهذه الصفقة".

"ماذا يعني ذلك؟ من جهة، تقدم أربعة آلاف دولار، ومن جهة أخرى، تسعى وراء ثلاثة ملاليم بدل حجر أصم، ماذا تقول؟"

"لا تهمني الملاليم الثلاثة، المهم أن يدفع شيئًا مقابل ذلك الحجر حتى لو كان مليمًا واحدًا".

"كيف سأوضح ذلك للرجل، لا أفهم".

"لقد رأيت جنازة تلك الفتاة، لا تشبه ما نشهده هنا من جنازات، كل يوم. لا يمكنني نسيان وجه أمها، وألمها، وحزنها. لم يغب ذلك عن عيني قط. عندما جاء مدير الأحوال المدنية هذا الصباح، وطلب شاهد قبر لابنته، فرحت جدًا وحمدت الله، فنحت شاهد لقبر الفتاة سينعش روحي أنا. أجل، وضّح له ذلك، لا أريد المقابل المادي لشاهد قبر الطفلة التي رحلت قبل أن ترتوي من الدنيا أن يتلوث بهذه الدولارات الموجودة في المغلف".

مقبرة مركز أفندي

إسطنبول

1985

فتح أقدو باب حجرة الخلوة، عند منتصف الليل. ظلمة الغرفة كانت أشد من الظلمة في الخارج، لا نجوم ولا قمر. قامت ريحان واقتربت من الباب لتنظر إلى السماء الصافية كحديقة غناء في أحلامها. غيوم الشتاء قد انحسرت هذا اليوم، والليل قد أرخى سدولًا زرقاء كحلية. أخذت ريحان نفسًا عميقًا كأنها تستنشق ظلامًا غيّر لون الضوء في عينيها؛ ظلام يختلف عمّا ألفته لأربعين يومًا في حجرة الخلوة، إضافة إلى شهرين آخرين في الزنزانة. وضعت يدها على بطنها الذي يزداد حجمه يومًا بعد يوم حتى أصبح يفيض عن كفها. حين لاحظت أن أقدو يلملم ما يوجد في الغرفة من أشياء، تراجعت والتفتت إليه. لقد اعتادت أن يأتي أقدو عند منتصف كل ليلة، يفتح الباب ويهوّي الغرفة، يترك أوعية الطعام الذي أعده لها، ويأخذ أواني اليوم السابق الفارغة. يملأ وعاء الماء وينظف القصرية؛ لكنه اليوم لا يحمل ماء ولا طعامًا، وقد وضع كل شيء في كيس كبير "حان وقت العودة إلى البيت، انتهت الآن خلوتك" قال أقدو.

رضخت ريحان على الرغم من شعورها بخوف شديد. دخلت تحت ذراع أقدو، وسارت على الثلج المتجمد بين السروات والقبور. عبرت باب البيت الصغير، شعرت بحرارة دافئة تبثها المدفأة تملأ أجواء الغرفة، وقد اعتلاها قِدرا طهي يتصاعد البخار منهما. أدخل أقدو ريحان إلى الحمام، وأراها مرجل الماء الساخن والصابون الأخضر والثياب النظيفة، ثم أغلق الباب. شرعت ريحان بالاستحمام، سالت الدموع من عينيها بغزارة بينما كانت تزيل أوساخًا ورائحة تراكمت أشهرًا على شعرها وجلدها الذي بات كجلد الثعبان الأسود. اعتقدت أن الصابون والماء الساخن يعيد خلق الإنسان من جديد. بعد أن أنهت حمامها، وقفت بباب الحمام وقد بدت كأنها شخص مختلف تمامًا حين خرجت بوجه منتعش وملابس موشاة بالورود اشتراها لها أقدو. أجبرت نفسها على الابتسام، مع أنها لم تفلح بشكل جيد. وضع أقدو إبريق الشاي على المدفأة، وأجلس ريحان على السرير. "لديَّ الكثير لأخبرك به" قال.

حدَّقت ريحان في وجه أقدو بعينين بدتا أكثر سوادًا بعد أن أصبحت بشرتها وردية، وأصغت باهتمام لما يقوله، محاولة الفهم أولًا ثم التصديق ثانية. أدرك أقدو ذلك، فصار يكرِّر كل جملة مرتين. "ابنتي، ما عاد هناك ما تخشينه أو تخفيه بعد الآن. لقد فعلت شيئًا دون أخذ رأيك. لا أم ولا أب لك وأنا أيضًا لا أحد لي، لذلك قمت بتسجيلك ابنة لي على دفتر عائلتي. قلت إنك ابنتي، وقد أضعتك عندما كنت صغيرة، ولم أتوقف عن البحثَ عنك حتى وجدتك. لقد أعطيتك اسم عائلتي. لن يتمكن رجال الشرطة والجنود من العثور عليك بعد الآن. ريحان التي يبحثون عنها اسم عائلتها وأبيها وأمها مختلفين، لقد تمكنت من فعل ذلك بمساعدة

من الإمام وأحد موظفي دائرة الأحوال المدنية. في الواقع، لقد تمت المعاملة قبل ثلاثة أيام، لكن الإمام احتفظ بدفتر العائلة حتى اليوم. لقد فكّر بطريقته الخاصة، إذ اعتقد أن عليك أن تكملي الأربعين يومًا في عزلة تامة في حجرة الخلوة حتى تعودي إلى الدنيا خالصة النفس من المعاصي والآثام، ويعتقد أنه سينال ثوابًا على ما فعله أيضًا. كنت قد أخبرته عن حجرة الخلوة وقصتها، إذ لم يكن يعلم عنها شيئًا. عندما قدمت إلى هنا قبل عشرين عامًا، رجل فاضل اسمه الشيخ أشرف، طيب الله ثراه، حدَّثني عن حجرة الخلوة والعبادة هذه. لقد طوى النسيان ذلك العالم القديم، المفعم بالهدى والطهارة والخوف من الشر. كانت الحياة تقاس بذلك. بالأمس انتهت أربعينية الشتاء، واليوم قد أكملت أربعين يومًا في الخلوة. اليوم الحادي والأربعون هو يوم البداية لحياتك الجديدة، كل الأيام التي سبقت ذلك قد ماتت. أنت ابنتي الحقيقية الآن، لا أحد يستطيع أن ينكر ذلك، ودفتر العائلة هذا دليل على ذلك. الصورة في الدفتر قد رتَّب الإمام أمرها، إذ استخدم صورة ابنة أخيه للشبه بينكما في نحافة الوجه وسعة العينين. انظري، ألا ترين الشبه بينكما؟"

نظرت ريحان إلى دفتر عائلتها الجديد. الاسم: ريحان. العائلة: ديمير. الصورة مختومة. بدت الصورة وكأنها مرآة، لفتاة نحيلة الوجه، وعيناها الكبيرتان تحدقان فيها. تسيل الدموع من عينيها على وجنتيها حتى تبلل عنقها، لم تستطع ريحان تمالك نفسها أكثر من ذلك، فقامت وعانقت أقدو. اختلطت تنهداتهما بعضها ببعض، وبقيا على هذه الحال دون أن يحاول أحد منهما تهدئة الآخر، ولو سمعهما أحد من بعيد لظن أنهما فقدا عزيزًا عليهما. لم يخرجهما عن حالهما هذه سوى صوت غطاء

إبريق الشاي الذي راح يتراقص مع غليان الماء وتصاعد بخاره، تباعدا وتنفسا بعمق. تركت ريحان أصابعها المرتعشة في كف أقدو وقالت بتلعثم: "ألن يعاود الموظفان المجيء إلى هنا ويسألان عني؟ ألن يواصل المدعو بالرئيس البحث عني؟"

افترّ ثغر أقدو عن ابتسامة عريضة ليؤكد أنه ما عاد هناك من داع للخوف، وقال: "لن نرى ذينك الموظفين مرة أخرى. والرئيس كوبرا قد اختفى، وما عاد يزعجك أبدًا، أنت في أمان تام، أنا على يقين من ذلك. لقد غيرت في دفتر العائلة كل ما يتعلق بماضيك، ما عدا اسمك. اسمك ذكرى من أمك، ولم يهن عليّ تغييره".

"ما زلت أشعر بالخوف. هذا الشعور كامن في داخلي ولا يبدو أني سأستطيع التخلص منه" قالت ريحان.

"أعرف هذا الشعور، لكنه سيختفي مع الوقت، صدقيني" قال أقدو.

في لحظة، لمحت ريحان أقدو يرمقها بنظرات كلها محبة خالصة. يقال إن المحبة كالروح تسري من جسد إلى آخر وتنتشر فيه بالنظرات. تلك النظرات تنتقل من جيل إلى جيل لا لتمنح مستقبلًا جديدًا فحسب، بل لتفتح باب الماضي على مصراعيه. ليؤمن بعضهم ببعض، ليجدوا بعضهم بعضًا في الماضي، ليروا من مات من أقرانهم بعيون مختلفة، ويعيشون على خطى شوق ينتقل من قلب إلى قلب.

مقبرة مركز أفندي

إسطنبول

1985

في ليلة صيف حارة، استلقى أقدو على الأريكة كجذع شجرة مقطوعة، وأغلق جفنيه بهدوء عندما جاءته جنية النوم ونثرت عليه غبار النجوم. هدأت الأصوات في أذنيه، وتلاشت الأفكار في ذهنه، وغرق في حلم ضبابي. أضاع طريقه في الحلم، ولم يعرف في أي اتجاه يذهب. وبينما كان صوت النبع يختتم مطافه السابع في أرجاء المقبرة، عطشٌ شديد أيقظه من نومه. رفع رأسه عن الوسادة. نظر من الشرفة إلى النبع والأشجار وشواهد القبور كأنه يراها أول مرة. وضع يده على عنقه المبلل بالعرق، مسد عنقه، لم يتذكر أين هو. أهو في حلم أم في يقظة؟

قام ومشى الهوينى. ذهب إلى النبعِ، ووضع فمه على الماء البارد الجاري، وعبّ الماء عبًّا. غسل وجهه وعنقه، بلّل شعره، ثم انصاع لهاتف في داخله، واتجه نحو ورشة العمل. شعر بالعشب الذي لم يلاحظه أثناء النهار يلامس كاحليه. ذلك يعني أن العشب ينمو بسرعة كبيرة في المنام. أيقاس الزمن بالعشب هنا؟ أيقاس بطول العشب، ولونه المتغير مع كل موسم، ومن إيراقه

حتى ذبوله؟ من الصعب تحديد الزمن وفهمه في هذه الحياة، ومن المستحيل تحديد الزمن وفهمه في الأحلام. وصل أقدو إلى الورشة وتوقف أمام الحجارة عند المدخل. تأمل حجرًا صلدًا أزرق اللون بحجمه، طاف حوله، ثم تناول المطرقة والإزميل، سدَّد الضربة الأولى إلى أعلى الحجر عند مستوى كتفه. ما زال منذ أشهر في حيرة باختيار شكل شاهد القبر الذي سينحته للرجل ذي السبعة أسماء. إذا كان حلمًا ما يراه، فسوف يستمع إلى الصوت الذي في داخله ويعطي الحجر الصلد الأزرق شكل ورقة شجر طويلة ورفيعة. كيف وصل هذا الحجر الصلد الأزرق من ماردين إلى هنا؟ لا يأتي إلا في الأحلام. لون الحجر الأزرق كورقة شجر زرقاء تنقلها الرياح من مكان إلى آخر مثل صاحبه. أين تُرى ورقة شجر زرقاء؟ لا تُرى إلا في الأحلام. لونها الأزرق فاتح، يمتزج بسلاسة في الظلام، ويحمل عبء العصور الطويلة. سقطت المطرقة مرة أخرى على الإزميل مدبب الرأس. كيف للصوت أن يرن في الأحلام؟

"هل تسمع الرنين؟" قال أقدو كأنه يخاطب الرجل ذا السبعة أسماء أمامه لا الحجر الصلد الأزرق. قال إن هذا الصوت يتردَّد في داخلي. لم أدرك وجه الشبه بيني وبينك عندما كنت صغيرًا. أخبرني المعلم جوزيف أنك لا تعتبر نفسك أكثر من ظلال، وأنك لست سوى قلبًا، لا جسدًا، لذلك كنت تعاني. أنا أيضًا كنت ظلالًا، وأدركت ذلك مع تقدمي في السن. أنا مجرد ظلال لقلب عالق في دوامة الألم والشوق. ضوء القمر يضيء الحجر أمامي الآنَ، وقعت ظلالي على الحجر. إنه مجرد حلم، فلا وجود لحجر، لا وجود لي، ولا يوجد سوى الظلال. أحمل في يدي ظلال المطرقة، وأنزلها على ظلال الإزميل، تتداخل الظلال في الظلام وترن.

لم يعتد سكان المقابر على سماع صوت المطرقة في الليل. استفاقت العصافير، والقنافذ والنمل والأرواح. نظروا إلى بعضهم بعضًا. اعتادوا على أقدو ينحت شواهد القبور في النهار، ما معنى هذه الأصوات في الظلام؟ تتبعوا الأصوات لا النجوم، حتى اجتمعوا حول الورشة. كان أقدو واقفًا منتصبًا مثل صخرة أمام صخرة أخرى كبيرة. يحرك إزميله لأعلى وأسفل، ويضرب بمطرقته بطراوة الماء أحيانًا، وبسرعة البرق أحيانًا أخرى. لم يتضح إذا ما كان يعرف ما يفعله. معصمه متوتر، ووجهه مبلَّل بالعرق. في إحدى اللحظات، رفع رأسه إلى السماء وتأمَّل البدر. تمنى لو يهبه البدر مزيدًا من النور. استرخى قليلًا. مسح جبينه بظهر كفِّه، بحث عن ثلمة مناسبة في الحجر لإزميله. مرَّر أصابعه على الحجر وتأمّله بأناة. وجد الثلمة المناسبة بعد طول بحث، وأدخل إزميله فيها. شدَّ على الإزميل بإحكام، رفع المطرقة كأنَّها كولونغ فرحات خارق الجبال وأنزلها بقوة. انفلق الحجر إلى نصفين وسط نظرات الحيرة للعصافير والقنافذ والنمل والأرواح. أخفق أقدو في الحلم أيضًا بعمل شاهد قبر للرجل ذي السبعة أسماء. أسقط المطرقة من يده على الأرض.

موقف سيركجي للحافلات

إسطنبول

1965

صعدت إليف بصحبة مظفر الحافلة المتجهة من أنقرة إلى إسطنبول في الصباح الباكر. جلست على المقعد إلى جوار النافذة وراحت تتابع الخارج بقلب ينبض بالخوف ويخالطه الشعور بشوق شديد لرؤية أختها إيبيك. تنظر حولها في بعض الأوقات بخجل، بشعور غريب يراودها بأن جميع ركاب الحافلة يراقبونها. وحين تتوقف الحافلة، كانت شهيتها حين تأكل الجبن مع الخبز بنهم مؤشر خير يضحكها بسعادة. وعندما تتحدث عن أختها مع مظفر، يكرر عليها أن اسم أختها المتعارف عليه في إسطنبول قد أصبح بريهان سلطان، فيغرقا في الضحك معًا.

لم يكن مظفر ذلك الرجل الذي يقدم ببساطة على اصطحاب زوجة ميخائيل آغا معه إلى إسطنبول. ما قام بذلك من أجل بريهان سلطان، بل من أجل يوكسيل، على الرغم من عدم جرأته على البوح بحبه لها، لكنه قرر بعد طول تردد، أن يصارحها بحبه بعد وصوله إلى إسطنبول، ويسمعها كلامًا مثل عزوفه عن الزواج لأنها ملكت قلبه، وأنه ظل ينتظرها كل هذه

السنوات. سيحدثها عن الجبال والأنهار التي مروا بها طوال الطريق، فكان يراها في ظل كل جبل، ويسمع صوتها في خرير ماء كل نهر. قد يجد كلامًا أجمل من ذلك في الكتب والأغاني، وسيحفظها عن ظهر قلب.

حمّلت إيبيك مظفر رسالة إلى إليف عندما سافر إلى القرية، واحتفظت إليف بها في الحافلة طوال الصباح. حين نامت إليف بعضًا من الوقت، وقعت تلك الرسالة من يدها على المقعد. وحين تناولها مظفر عن المقعد، وقعت عينه على الأسطر الأولى. إيبيك تطلب من أختها ترك حياتها التعيسة في القرية والمجيء إلى إسطنبول لتعيش معها. أعاد مظفر الرسالة إلى يد إليف وتركها نائمة حتى وصلا إلى إسطنبول.

عندما فتحت إليف عينيها، كانت الحافلة قد وصلت إلى إسطنبول وتعبر مضيق البوسفور على سطح العبّارة. ظنت إليف أنها لا تزال نائمة وما تراه ليس سوى حلمًا. لم يلفت نظرها برج الفتاة أو المباني الشاهقة المصطفة على الضفة المقابلة للبوسفور، بل شدَّ انتباهها البحر المتلألئ في شمس الأصيل. كان البحر واسعًا مثل السهل، وأزرق مثل السماء، ومائجًا كأنه يرتجف. رأت في البحر جمالًا منقطع النظير، ومع انعكاس صورته على الزجاج، غمر وجهها فرحٌ كان قد غاب عنه سنين طويلة.

وصلت العبّارة إلى الشاطئ المقابل. بعد خمس دقائق، توقفت الحافلة إلى جانب حافلات أخرى تتبع لشركات نقل ركاب أخرى اصطفت في الشارع المجاور لمحطة قطارات سيركجي. بدا الشارع ضيقًا بنظر مظفر وواسعًا بنظر إليف. حملا حقائبهما ونزلا. سارا حتى نهاية الشارع لركوب سيارة أجرة. كانت السماء صافية لكن الأرض كانت مبللة، زخة مطرية من أمطار نيسان/أبريل المفاجئة قد زارت إسطنبول نهارًا. على امتداد جانبي

الشارع أصوات الموسيقى تنطلق من محلات بيع الأسطوانات الموسيقية، والأرصفة الضيقة امتلأت بباعة عطور المسك ومرايا الجيب واللحم بالعجين المتجولين. اعتقدت إليف أن الخاصية الثانية لإسطنبول بعد بحرها الجميل هي ضجيجها. ضجيج تعلو فيه أصوات الباعة المتجولين وأبواق السيارات والقطارات القادمة من المحطة المجاورة. وسط كل هذه الضوضاء، كان صوت الطلقات النارية لا يكاد يُسمع. ارتفعت صرخات، فتراكضت الجموع يمينًا ويسارًا، وتسارعت السيارات، فبات الشارع شبه خالٍ فجأة، في حين سقطت إليف ومظفر غارقين بدمائهما وتكوما على الرصيف. سقط وشاح إليف في مياه الأمطار على جانب الطريق. تقدم ميخائيل آغا شامخ الأنف من بين الجموع حتى وقف عند رأسي إليف ومظفر. تأمل الجسدين الهامدين برهة قصيرة. انحنى وبصق في وجهيهما. وضع مسدسه في جيبه، ثم ابتعد بخطوات ثابتة غير مبالٍ بأحد، كأنه يتنزه في السهول الواسعة.

كازينو باريس

إسطنبول

1965

جلست بريهان سلطان في غرفتها في الطابق العلوي من كازينو باريس، تبكي أختها بدمع سخين. ناولها رئيسها السيد كالندر زجاجة كولونيا لتدلك جبينها وعنقها.

"يا لسوء حظ أختي! المسكينة، لقد ماتت دون أن تعيش لحظة واحدة من السعادة في حياتها. لعن الله هذا الحقير ميخائيل آغا، وأصابه بالعمى. من يظن نفسه؟ بعد أن يخرج سيراني من السجن، لن يتركه على قيد الحياة. وا حسرتي عليك يا أختي العزيزة!"

"لقد طلبتُ من المحامي زيارة سيراني في السجن هذا الصباح" قال السيد كالندر، "لقد سقطت الدعوى ضده بعد تراجع الشهود عن أقوالهم، لكنه سيقضي في السجن شهرين لحمله سلاحًا غير مرخص".

"سيخرج هذا المقدام سيراني من السجن، وينتقم لنا".

صب السيد كالندر الماء في كوب وناوله إلى بريهان سلطان. لقد صعدت بريهان سلطان في حياتها الفنية من البارات السفلية لتصل إلى

كازينو باريس الشهير وتضيء باسمها لافتته، لقد رآها السيد كالندر تبكي أكثر من مرة، لكن بكاءها هذه المرة كان فيه حرقة ولوعة.

"أشعر بأسف شديد لاضطراري نقل هذا الخبر المؤلم إليك يا بريهان سلطان".

الليلة الماضية، اتصلت الشرطة بالسيد كالندر، وأبلغته بورود اسم كازينو باريس في رسالة كانت تحملها امرأة قُتلت في سيركجي.

"عندما أبلغتني الشرطة بالحادثة، ذهبت من فوري، على الرغم من قناعتي أن لا علاقة لنا بذلك الأمر. لكن حين رأيت الرسالة التي تحمل توقيعًا باسمك القديم في القرية، ومن ثم شاهدت المرأة المغدورة، عرفت في الحال أنها أختك لوجود شبه شديد بينكما في الحاجبين والأنف والشفتين. ليت قدرها كان مثل قدرك".

"أي قدر يا سيد كالندر، أتسمي هذا قدرًا؟"

لم يرد السيد كالندر. لقد أمضى يومًا شاقًا في إعداد مكان للدفن في مقبرة مركز أفندي في وقت مبكر من الصباح، وتوزيع للأموال ليكون القبر لائقًا بأخت الفنانة، ثم أبلغ رجاله لدعوة الصحفيين، ولم يفارق بريهان سلطان للحظة واحدة أثناء التقاط الصور في المسجد والمقبرة. لقد توقع أن تظهر الأخبار في صحف اليوم التالي. بريهان سلطان بعد أن بدأت حياتها الفنية في البارات المغمورة ثم انتقلت إلى الكازينوهات المشهورة في حي بي أوغلو ستحقق شهرة حقيقية الآن في حياتها الفنية.

"تمددي وارتاحي قليلًا، يا بريهان سلطان..."

"كيف سيأتيني النوم..."

"سأنزل وألقي نظرة، فالبرنامج على وشك البدء. سأرسل لك بعض

المأكولات الخفيفة".

"لا شهية لي للأكل".

"إياك أن تشربي الكحول، فكّري في الطفل الذي في بطنك".

"لا رغبة لي في الطعام ولا الشراب".

"حاولي تناول بعض الشيء، ثم نامي. لن يزعجك أحد، لينتظر الصحفيون في الطابق الأرضي، ولن أسمح لهم بالصعود إلى هنا".

"لا قدرة لي على التحدث معهم، لقد رأوا ما يريدون رؤيته في المقبرة، وعلموا ما يريدون معرفته".

"سأقول لهم أنك لن تصعدي على خشبة المسرح طوال فترة الحداد".

"شكرًا لك سيد كالندر".

"هيا، ارتاحي قليلًا. لقد تعب طفلك معك طوال اليوم أيضًا".

تريثت بريهان سلطان بعضًا من الوقت بعد مغادرة السيد كالندر للغرفة، ثم تناولت زجاجة ويسكي من الخزانة الزجاجية. فتحت الغطاء، وراحت تجرع من الزجاجة مباشرة. طافت في مخيلتها ذكريات مضت من سنوات طفولتها ومراهقتها وأيام قضتها في القرية مع أختها. بدت لها هذه الخيالات كأنها تعود لشخص غيرها، بعد أن انسلخت عن حياتها الماضية منذ سنوات، وحرقت كل ذكرياتها وحولتها إلى رماد. تناولت جرعة أخرى من الويسكي، تمتمت بأغنية من أغانيها، فأسالت لها دموعها، بعد أن أسالت على خشبة المسرح، دموع العشاق الملتاعين.

مستشفى تشابا الحكومي

إسطنبول

1965

غمرت السعادة قلب مظفر عندما زارته يوكسيل في المستشفى للاطمئنان على صحته. جلست على مقعد إلى جوار سريره، وقد بدت عيناها محمرتين من شدة البكاء.

"سلامتك يا مظفر" قالت، "كيف صحتك؟"

"أشعر ببعض الألم" قال مظفر محركًا شفتيه الجافتين بوهن، "قال الأطباء إن هذا المصل يخفف من ألمي، ولولاه فشعوري بالألم سيكون أشد".

أخرجت يوكسيل منديلًا من حقيبتها، وجففت جبين مظفر المتعرق.

"لقد تحدثت للتو مع الطبيب الذي أجرى لك العملية. قال إن العملية قد تكللت بالنجاح، وأخرجوا الرصاصات من رئتك وساقك، لكن لابد لك من الراحة والرعاية الجيدة. ولما رآني أبكي، قال لي لا تقلقي، سيعيش السيد مظفَر، بإذن الله. فقلت، ليحمه الله من كل مكروه".

مسحت يوكسيل عينيها الدامعتين بمنديلها.

"لقد نجوت أنا" قال مظفر بحزن، "لكن إليف لم تنجُ".

"يا لسوء حظ المسكينة!"

"كانت سعيدة جدًا لمغادرتها القرية أول مرة في حياتها. فرحت برؤية أنقرة والجبال والغابات، وكان رؤيتها للبحر أكثر ما أدهشها وأثار إعجابها. بعدما نزلنا من الحافلة، لمحتُ وجهًا مألوفًا بين الجموع، لكنني لم أعر الأمر اهتمامي، وقد تبين لي لاحقًا أنه ميخائيل آغا. لقد تعقبنا، وإن ما زلت لا أدري كيف فعل ذلك. لابد أنه قد استخدم سيارة ليلاحقنا. لقد أطلق النار على إليف أولًا، وحين التفت على صوت إطلاق النار، تواجهنا وجهًا لوجه، فوجه مسدسه نحوي بحقد وضغط على الزناد. شعور غريب انتابني، حين وقعت على الأرض وفقدت الوعي. لقد شعرت كأن إليف قد لفظت أنفاسها لحظة وقوعها على الأرض، أهذا ما يدعى بالحدس؟"

"سيدفع هذا اللعين ثمن فعلته، لينتظر حتى يخرج سيراني من السجن..."

"لقد سمعت عن سيراني كثيرًا".

"إنه رجل شجاع، ثم أنه والد الطفل الذي في بطن بريهان سلطان".

"أهي حامل؟"

"لا تسأل، أي فرحة بالحمل لهذه المسكينة، ورجلها في السجن وأختها قتلت! هذه هي الحياة، لا نعلم ماذا سيحدث في الغد. مظفر، نعيش يومنا ونمضي دون تفكير".

"أتحبين أحدًا؟" شعر مظفر بالارتباك من جرأته على طرح مثل هذا السؤال، فحاول الاستدراك، "أرجوك، لا أقصد... لا تخطئي بفهمي..."

استعادت يوكسيل تمالك نفسها بعد ارتباك، وأدارت دفة الحديث: "ما الجدوى من هذا السؤال يا مظفر، لا أحد. لقد سألتني أمك السؤال

نفسه، وأجبتها الجواب نفسه..."

حاول مظفر النهوض من السرير لكنه لم يستطع. أمسكته يوكسيل من كتفه ورفعته، ووضعت وسادة خلف ظهره.

"أشكرك، هكذا أكثر راحة. أفكر بنفسي فقط، ونسيت أمي. كيف حالها، إذن فقد زرتها".

"ليس مجرد زيارة، يا مظفر! لم أتركها لحظة واحدة قط. منذ أن سافرت، وأمرّ عليها كل صباح، أشتري لها احتياجاتها، وأُعدّ لها الطعام، ثم أذهب إلى عملي".

"هل مررت على أمي هذا الصباح، هل أخبرتها عني؟"

"لقد مررت، لكنني لم أخبرها عن حالتك، وقلت لها إنك ستبقى في القرية لبضعة أيام أخرى. لم تسألني كيف علمت بذلك. ثم قلت لها إني على عجالة من أمري. حين لم أعد لها الطعام هذا الصباح، تساءلت في قرارة نفسها وحدقت في وجهي، لكنها لم تقل شيئًا".

"بيتنا قريب من هنا. لو أتت معك، سترى أني لست في حالة سيئة..."

"أتظن أن حالتك ليست سيئة؟"

"لا أدري. يوكسيل، أنت امرأة ذكية، وتعرفين أكثر مني. أنا سعيد لأنني على قيد الحياة الآن. كيف عرفتِ، أقصد كيف علمت وبريهان سلطان بالحادث؟"

تنفست يوكسيل بعمق ثم جففت جبين مظفر ووجهه بمنديلها، وراحَت تروي ما حدث بأدق التفاصيل.

"حين اتصلت الشرطة بمدير الكازينو الليلة الماضية، وأبلغته بالحادث، كنا وبريهان سلطان في الكازينو في تلك الأثناء. لم تخطرا على

بالنا قط، وظننا أن الأمر متعلق بسيراني، على الرغم من أنه في السجن، فهو رجل عنيد لا يهاب من شيء، وقد يكون وراء ذلك. لكن المفاجأة كانت محزنة ومهولة، حين رأينا أخت بريهان سلطان جثة هامدة مسجّاة على الطاولة، في حجرة صغيرة وباردة. لم تتمالك بريهان سلطان أعصابها فأجهشت بالبكاء، ثم ازدادت حالتها سوءًا وفقدت رشدها وراحت تضرب رأسها بالحائط. أمسكنا بها وحاولنا تهدئتها. في تلك اللحظة، خشيت أن تكون قد مت أنت أيضًا، ووضعوك في غرفة أخرى، فرحت أصرخ وأسأل عنك، فأكدوا لي أنك على قيد الحياة لكنك جريح وتعالج في مستشفى تشابا. حِرت في أمري، لا يهون عليّ ترك بريهان سلطان في حالتها السيئة هذه، وفي الوقت نفسه، أريد الذهاب إلى المستشفى لأُطمئن عليك. لكن بريهان سلطان أدركت الدوامة التي تهت فيها، فأصرت عليّ بالذهاب لرؤيتك. لقد كانت حزينة من أجلك وتريد الاطمئنان عليك أيضًا. وصلت ليلًا إلى المستشفى، لكنني لم أستطع رؤيتك فقد كنت لا تزال في غرفة العمليات. انتظرت حتى خرجت، لكن الأطباء منعوني من رؤيتك، وإن طمأنوني بنجاح العملية، وأنك لا تزال تحت تأثير المخدر، ويمكنني رؤيتك غدًا. ذهبت إلى بريهان سلطان، وبقينا نذرف الدموع حتى الصباح. أتيت لرؤيتك ثانية في الصباح الباكر، فكنت لا تزال نائمًا. عندما تأملت وجهك، بدا لي أنك ستشبه أمك عندما تشيخ. خرجت وقمت بشراء بعض الضروريات لأمك. لو لم أذهب لرؤيتها لأوقعتها في الشك. عندما رأت احمرار عيني، لم تكف عن الاستفسار على الرغم من ادعائي عدم النوم ليلة الأمس لكثرة العمل في الكازينو. بعد ذلك، ذهبنا وبريهان سلطان إلى المقبرة. لله درّ المدير! لقد أشرف على كل شيء بنفسه، وأعد مكانًا للدفن تحت ظلال الأشجار. لقد

شاركت جموع غفيرة جدًا في تشييع الجنازة يا مظفر، حتى بريهان سلطان أيضًا، تفاجأت من كثرة المعجبين بها. كأن حي بي أوغلو قد فرغ من قاطنيه وجاؤوا كلهم للمشاركة في مراسم الدفن. أما الصحفيون، فقد كان هناك من عشرين إلى ثلاثين صحفيًّا ومصورًا يلتقطون الصور تارة من اليمين وتارة من اليسار، ويطرحون الأسئلة ويستفسرون. سأُحضر صحف الغد، لابد أنهم سينشرون الخبر مع عدد كبير من الصور. سيضعون عناوين لجذب القراء، مثل أخت بريهان سلطان هربت من القرية وعناوين أخرى. ينتابني الفضول، ماذا سيكتبون عنك، يا ترى؟"

"لماذا سيكتبون عني؟"

"أقصد، مظفر..."

مدَّ مظفر يده المتعبة وأمسك بيد يوكسيل. هذه المرة، تأمل عينيها دون تردد وخجل.

"يوكسيل" قال، "أشعر بالسعادة كثيرًا حين تتحدثين وتطيلين، وأتمنى دائمًا، أن تبقي إلى جانبي وتكلميني طوال حياتي. أقصد إنك تسعدينني، وأنا سأبذل قصارى جهدي لإسعادك، وسأحقق كل أمنياتك. أحدث نفسي عنك دائمًا، ولكن عندما أواجهك، أفقد جرأتي وأنسى كل ما نويت قوله لك. بينما كانت إليف غارقة في أحلامها تتابع الطريق من نافذة الحافلة أمس، أنا أيضًا كنت غارقًا في أحلامي. أحلامي التي لا أرى فيها سوى طيفك. لا شيء آخر في أحلامي سوى طيفك، سواء كنت أحلم في اليقظة أو في المنام. بينما كنت أتابع السهول في الحافلة، سيول من الكلام طافت في ذهني لأقولها لك. لكن لو تسأليني الآن لأقولها لك، لا أستطيع. عندما أقف أمامك أنسى كل شيء حتى نفسي، لكنني أقسم لك أنه كلام لا

أجمل منه".

ضمت يوكسيل يد مظفر بين كفيها، وتأملته بعينين مغرورقتين بدموع السعادة هذه المرة.

"مظفر" قالت، "سواء أطلت الحديث معي أو اختصرت، سأظل سعيدة معك دائمًا".

السجن المركزي المغلق

أنقرة

1965

"حادثة أفجعت النجمة المحبوبة، شحرورة كازينوهات إسطنبول!" صحيفة البرق.

"جريمة في إسطنبول! مقتل أخت مطربة العصر!" مورنينج بوست.

"أغمي على المطربة الشابة عند قبر أختها من شدة حزنها!" الخبر الحر.

لفت نظر أقدو صورة لوجه مألوف في الصفحة الثالثة من الصحيفة عندما كان يتصفحها في الصباح، فأسرع بقراءة خبر جريمة القتل، ثم جمع كل الصحف على الطاولة، وتفحص كل الصور التي التقطت في المقبرة. بعد أن انتهى من تفحص كل الصحف، بدا عليه الغم والتعرق، ورفع رأسه بوهن. تحول تنفسه إلى حشرجة، ثم إلى سعال شديد. مسح عينيه الدامعتين من شدة السعال وتلفت حوله بشرود، كأنه استيقظ في مكان غير مألوف. تجمع حوله أصدقاؤه يستخبرونه عن حاله، لكنه قام عن كرسيه وما أجاب،

وصعد إلى سريره. تعلقت عيناه في السقف. أدرك أصدقاؤه في العنبر أن شيئًا خطيرًا قد وقع، فتركوه في صمته، وراحوا يتحدثون همسًا كي لا يزعجوه، بينما ظل يشعل سيجارة من عقب سابقتها، ويخنق ذكرياته في دخان سجائره.

كان أقدو السجين الوحيد المحكوم بالإعدام في العنبر، يحترمه الجميع ويستشيرونه في أدق أمورهم لثقتهم برجاحة عقله وسعة معرفته لكثرة ترحاله وإجادته للعديد من اللغات. تلك هي سنته السابعة والأخيرة في السجن.

بعد أن صدر بحقه حكم الإعدام، رُفع القرار إلى المحكمة العليا للمصادقة عليه. في تلك الأثناء، وقع انقلاب عسكري أطاح بالحكومة، وصدر عفو عام عن المحكومين بالإعدام، واستبدل بالمؤبد. عفو آخر صدر فخفف مؤبد أقدو إلى سبع سنوات. عادت إليه ضحكته، وصار يخطط لما بعد الخروج من السجن. كيف يعود إلى القرية ويرى إليف ثانية، كيف سيصطحبها بعيدًا عن القرية، ويكونا أسرة سعيدة وينجبا الأطفال. سيغني لها أجمل أغانيه التي توقف عن غنائها منذ سنوات. لقد كان مثل كل سجين يعيش في الأحلام ويعيش على الأمل بتحقيقها يوم خروجه من السجن. بعد أن بقي شهر واحد على انتهاء محكوميته، اسودت كل أحلامه في غمضة عين، وتحطمت كل آماله وبات من المستحيل تحقيق أي من أحلامه التي عاش من أجلها سبع سنوات في السجن. على أية حال، فقد اعتاد على الحياة في السجن، وعلى البقاء فيه، وما عاد في خارج السجن ما يسعى إليه. لا يهمه لو قضى بقية عمره في السجن ومات فيه. خلال أربعين عامًا من تاريخ هذا السجن، قد تم إعدام تسعة أشخاص، ليته يكون العاشر. ليتهم يأخذونه هذه الليلة، من العنبر ويقتادونه إلى الساحة، يقرأون

عليه قرار الحكم بإعدامه مع نسيم الفجر الطل، وبعد أن يسمعوا كلماته الأخيرة، يلفون حبل المشنقة حول عنقه.

قبل تسعة وثلاثين عامًا.

كارل كريستوف لورشر، المهندس المعماري الألماني واضع أول مخطط لمدينة أنقرة، وصاحب فكرة تحويل أحد مبانيها القديمة من مستودع للأسلحة وإسطبل للخيول إلى سجن صار يدعى بسجن أنقرة المركزي المغلق. بعد أن انتهت الحرب التركية اليونانية، وانهارت الإمبراطورية العثمانية، أنشئت جمهورية تركيا. أتاتورك مؤسس هذه الجمهورية، سعى إلى قطع كل ما يربط البلاد بالماضي، فأعلن أنقرة عاصمة جديدة لهذه الجمهورية الفتية بدلًا من العاصمة القديمة إسطنبول.

أنقرة مدينة صغيرة تقع وسط السهوب الوسطى للأناضول، ووقعت عبر التاريخ تحت حكم ملك فريجيا ميداس، ثم ملك مقدونيا الإسكندر الأكبر ثم الإمبراطور الروماني أغسطس، ويأمل أتاتورك الآن، أن يعيد أمجادها كما سالف أيامها. وُجهت دعوة للمهندس المعماري لورشر من ألمانيا لإحياء هذا الأمل في محاولة لإنشاء مدينة حديثة من بلدة يبلغ تعداد سكانها عشرين ألف نسمة، ووضع مخطط لمدينة حديثة. أثناء تصميمه للطرق والساحات والمستشفيات والمدارس والمباني الحكومية، لم يغب السجن عن ذهنه، فاقترح تحويل مستودع يقع وسط الحقول شرقي المدينة إلى سجن، وأشار في تقريره إلى أن عمل السجناء في الحقول المحيطة بالسجن، سيساعد على إصلاحهم. افتُتح السجن في وقت قصير، ونُقل بعض السجناء إلى الحقول، ونُفِّذ فيه أول حكم بالإعدام.

لم يتوقع رجل الدين الشيخ عاطف الإسكيليبي أن يحكم عليه بالإعدام. على الرغم من أنه وزع منشورات وألقى خُطبًا نارية ضد جيش أتاتورك خلال الحرب التركية اليونانية، لكن هذا لم يكن موضوع المحاكمة بل اعتراضه على ثورة الزي. حثت الجمهورية الفتية الخطى نحو التغيير السريع لكل ما كان قائمًا والتوجه نحو كل ما هو قائم في الغرب. ابتدأ التغيير من إلغاء الخلافة إلى إعلان الجمهورية، ثم الاعتراف بحق المرأة في الانتخاب، ثم إعلان قانون القبعة، الذي ينص على حظر أغطية الرأس مثل الطربوش والعمامة، والتي كانت من عادات المجتمع في العهد العثماني السابق، واستبدالها بقبعة تشبه القبعات الأوروبية. قبل عام من إصدار قانون القبعة، كتب الشيخ عاطف الإسكيليبي يقول إن تقليد الملابس الغربية يعد مخالفة للشرع. ينبغي للمسلمين تبني تقنيات واختراعات الغرب الكافر، لكن عليهم الابتعاد عن قيمه الاجتماعية والثقافية مثل الكحول والرقص والمسرح، بما في ذلك الملابس. كان الشيخ عاطف هو المرآة التي تعكس الانقسام الذي دام قرنًا من الزمان في المجتمع. لقد شارك أتاتورك عندما كان ضابطًا عثمانيًا شابًا، في مناظرات دعا فيها إلى تغيير البناء المجتمعي من القمة إلى القاعدة، وأن يتم الارتقاء بذلك بشكل قسري سريع ولا يترك لعامل الزمن الطويل. لم يتردد في إحياء الأفكار التي دافع عنها في شبابه، وأظهرت المعارضة لقانون القبعة في أرجاء مختلفة من البلاد أهمية التغيير، وأُعدم ثلاثة عشر معارضًا في أرضروم، وثمانية معارضين في ريزه، وخمسة آخرين في مرعش. كان من الممكن أن يكتب للشيخ عاطف الإسكيليبي النجاة من الموت، بعد أن اكتفى المدعي العام بالمطالبة بسجنه ثلاث سنوات في الجلسة الأولى لمحاكمته في أنقرة؛ لكن في الجلسة التالية،

بعدما أعلن الشيخ عاطف تخليه عن حقه في الدفاع لسبب مجهول، أصدر القاضي بقسوة سببها مجهول أيضًا، حكمه عليه بعقوبة الإعدام. نُقل الشيخ عاطف من السجن إلى الساحة الصغيرة لأنقرة الصغيرة، وسُمح له بالنطق بكلماته الأخيرة قبل شنقه أمام الجموع المحتشدة. فقال الشيخ عاطف: "ليعلم الظالمون والقتلة أنهم لن ينجوا من العقاب، وسينالونه يوم الآخرة".

اليوم، مساء.

لم يغادر أقدو سريره ولم يأكل، ولم يكلم أصدقاءه مع أنهم لم يتركوه وحده طوال الوقت. اكتفى بما يقدمونه له من السجائر والشاي مع الكثير من السكر. كان الشخص الوحيد الذي أمضى عدة سنوات في السجن دون أن يزوره أحد، فنال تعاطف نزلاء العنبر السابع من كبار رجالات عصابات أنقرة، ولم ينقطعوا عن إرسال الهدايا والسلام إليه من وقت إلى آخر. وصل إلى العنبر السابع، خبر حالة الغم والكرب التي يمر فيها أقدو، فأظهروا تعاطفًا معه وخيَّم على العنبر صمت حزين. استلقى الجميع على الأسرَّة ذات الطابقين. حتى ضجيج الحي، الذي كان يسمع من خلال النوافذ مساء انقطع أيضًا، كأن محكومًا قد أُعدم في الساحة للتو. مع تعاقب السنين، انتشرت بيوت الصفيح العشوائية في الحقول المحيطة للسجن، وتشكل حي جديد للفقراء. ما كانت الأصوات تتوقف من ضجيج لعوادم السيارات المخرومة، ورنين لألعاب الأطفال المصنوعة من علب القصدير، ونباح للكلاب. لا تنقطع أصوات الحي تلك إلا عند إعدام محكوم هنا، حتى الكلاب تحبس في مخازن الفحم، ويخيم على الحي كله حزن كالحداد.

قبل ثمانية أشهر.

آخر معتقل أعدم في سجن أنقرة المركزي المغلق كان ضابطًا لا يهاب أحدًا، يدعوه كل السجناء والحراس بالعقيد. كان العقيد طلعت آيديمير مرآة للاضطرابات التي تشهدها البلاد في ذلك الوقت. شارك الضباط الشباب بتأييد الانقلاب العسكري الذي أطاح بحكومة عدنان مندريس قبل خمس سنوات، وطالبوا بالضرب بيد من حديد على كل محاولة تعيق الإصلاحات الكمالية، ورأوا في إعدام عدنان مندريس عملًا صائبًا. عدنان مندريس الذي نجا من الموت بأعجوبة في حادث تحطم الطائرة في لندن، لم ينجُ من قواته العسكرية. ثم سارت الأمور باتجاه معاكس مع تشكيل حكومة جديدة. بُدِئَ باستبعاد الضباط الشباب المشاركين بالانقلاب، فكان أول رد فعل لهذا الاستبعاد يصدر عن العقيد طلعت آيدمير المعروف بشخصيته الطموحة والحازمة، في محاولته الفاشلة بانقلاب جديد يهدف من خلاله إلى تعزيز الإصلاحات الكمالية. أحيل على التقاعد إثر ذلك، لكنه لم يتوقف، فقام بمحاولة انقلاب أخرى فاشلة، خلال عام واحد. على إثرها، حُكم عليه بالإعدام، خلال محاكمة سريعة. لم يشمله قانون العفو الأخير، لتجاوزه ثلاثة أشهر.

طبقت إجراءات جديدة بعد الانقلاب، فلم تعد عمليات الإعدام تُنفّذ في ساحات المدينة بل في باحات السجون. أحد الذين قاموا بشنق رئيس الوزراء عدنان مندريس في باحة السجن طبقًا للإجراءات الجديدة بالإعدام المغلق، حكم عليه بالإعدام في فناء مغلق. لقد أُوقظ العقيد من نومه ليلًا، واقتيد إلى باحة السجن عند شجرة الحور الباسقة. تلك الشجرة العظيمة بجذعها الغليظ وارتفاعها الذي يناطح السحاب، كانت موجودة على هذه الأرض قبل التاريخ، حتى جاءها الإنسان وحرث الحقول حولها،

ثم بنى جدرانًا، ومستودعًا، وإسطبلًا، ثم سجنًا حولها، وأقام منصة للشنق قربها. عندما صعد العقيد إلى منصة الشنق، لم ينظر إلى الجلاد، بل إلى الحور العظيمة إلى جوار منصة الإعدام. كتب في إحدى رسائله إلى زوجته، ما كان يردده دائمًا "لا وجود لشيء لا نهاية له!"

اليوم، منتصف الليل.

أمضى أقدو سنوات يرى في أحلامه شجرة الحور تلك. لم تكن تقام له منصة للشنق، بل كان يعلق حبل مشنقته على غصن شجرة الحور تلك، بينما كان يتقدم نحو حبل المشنقة في الحلم، يأتيه معلمه جوزيف المارديني، مذكرًا بتشظي الصخور، ويقول له: "اسمع يا فتى، تحدث ثلمة في الصخرة الصلبة ثم تضع بذور حور في الثلمة، تتجذر البذور مخترقة الصخرة الصلبة. لا تخف، فقد حان دورك الآن، سوف تستقر داخل الحور العظيمة وتتجذر. هل تظن أنك لن تكون سوى صخرة فقط لأنك تنحت في الصخر؟ لا تخف، ستعيش من الآن فصاعدًا ستعيش داخل شجرة الحور". حلم أقدو لم يتوقف، بل استمر حتى بعد نجاته من الإعدام، وظل يستيقظ كل ليلة خائفًا، لكنه هذه الليلة لم يخف، بل تمنى أن يعيش الحلم نفسه ولا يغادره. كان يقول ليتني أكون السجين العاشر الذي يُشنق في هذا السجن. لكن كل من يُعدم يترك رسالة، فيتساءل لمن أكتب كلمة وداع، وماذا سأترك لمن؟ لا أمَّ لي، والمعلم جوزيف قد مات، وإليف قُتلت. ما دام لا أحد لي، سأقول وداعًا لنفسي، ثم سأضحك على نفسي. ألا أهمية لضحكي؟ بلى، ليحدق في وجهي في حيرة كل من يشاهد إعدامي. سأطلق قهقهات توقظ نزلاء العنابر من نومهم. ليتساءل الجميع عن سبب ضحكي، وأنا سوف أتساءل أيضًا!

كازينو باريس

إسطنبول

1965

أضاءت الثريات بأنوارها المتلألئة صالة كازينو باريس، وامتلأت بروداه المنتشين بما يقدمه لهم من غناء ورقص ومشروب. جلس أقدو إلى طاولة خلفية، متأملًا قدحًا أمامه على الطاولة. نقل نظره نحو المسرح بعد أن خفتت الأضواء في الصالة، ولم يبقَ سوى ضوء أزرق موجه إلى خشبة المسرح. حين ظهرت بريهان سلطان في ذلك الضوء بقامتها الممشوقة وصوتها الشجي، تموّج المكان كمياه بحر وقعت تحت تأثير رياح عاتية، ثم توقف. لا أحد يصدر صوتًا، ولا صوت سوى صوتها. تنقلت بريهان سلطان على خشبة المسرح بخطوات رشيقة، الميكروفون في يدها والضوء يلاحقها، تتقلب ألوانه ويتراقص شعاعه مع أنغام أغانيها. جمهورها الغفير في الصالة ينصت بإعجاب إلى هذا الصوت الذي انقطع عن المسرح أربعين يومًا، يعود ليضفي البهجة على قلوب المعجبين الذين وضعوا أكاليل الزهور عند قدميها. غنت بريهان سلطان هذه الليلة، بصوت أشدّ حزنًا من المعتاد، أو ربما هكذا بدا للحضور. لم يشعر جمهورها الذي حلّق في الأحلام مع صوتها متى بدأت

أولى وصلاتها الغنائية، ومتى قدمت آخر وصلة غنائية لها إلا حين حيّتهم تحيتها المعتادة برأسها، فضجت الصالة بعاصفة من التصفيق.

رأى أڤدو الفتاة نفسها التي التقاها منذ سنوات، في قرية كوناك غورميز على الرغم من الثياب التي ارتدتها ومساحيق التجميل التي طَلَت بها وجهها، والصباغ الذي صبغت به شعرها. لقد سبق له أن تعرّف عليها من صورتها في الصحف. لكنه فوجئ بدفء صوتها الذي لم تسمع أذنه بمثل جماله من قبل. لقد كان يظن أن إليف تبالغ بمدح صوت أختها. لقد أدرك الآن سبب هذا الحضور الكبير الذي جاء ليستمع إلى صوتها، والصعوبة التي واجهها لحجز هذه الطاولة التي كلفته الكثير حتى حصل عليها. لقد تيقن أنها جديرة بهذه الشهرة التي نالتها بصوتها الفريد وجمالها وذكائها. لقد عزا أڤدو ذكائها لا لهروبها من القرية والنجاح الذي حققته على المستوى الفني فحسب بل لتغيير اسمها أيضًا، كانت خطوة حكيمة أن تقطع كل صلة لها مع الماضي، وكل ما يذكرها بذلك المكان اللعين.

لم يأتِ أڤدو ليستمع إلى بريهان سلطان هذه الليلة، بل ليكلمها، فلم يتجاوز حده في الشرب. يحمل الماضي معه أينما يذهب، حتى في كل أغنية من أغاني بريهان سلطان حلّق في الماضي، بل حتى أحلامه تدور حول الماضي أيضًا، لأنه يشعر أن لا مستقبل له، لذا لا مكان للمستقبل في صحوه ومنامه. عندما أنهت بريهان سلطان وصلتها الغنائية، وغادرت الحفل وسط الزهور التي غطت خشبة المسرح والتصفيق والهتافات الحماسية، دفع أڤدو الحساب وخرج من الكازينو في الحال كي يذهب إلى حيث تقيم بريهان سلطان جوار الكازينو، كما وصفه له النادل بعد أن أكرمه بمبلغ جيد من المال. عدد من الصحفيين كانوا يتمشون بعصبية أمام الباب الرمادي، وفتاة

تبيع الزهور. ضغط على جرس الباب، وانتظر.

"ماذا تريد؟" سألته الفتاة.

"أريد رؤية بريهان سلطان" قال أقدو.

"لا تريد أن تكلم أحدًا، ألا ترى؟ الصحفيين ينتظرون هنا منذ الصباح".

"هل تعرفين بريهان سلطان، أقصد أيمكنك أن تكلميها نيابة عني؟"

"أتكلم معها دائمًا، بريهان سلطان تحبني" قالت الفتاة.

"حسنًا" قال أقدو، "هل يمكنك مساعدتي؟"

"لماذا أساعدك؟"

دسَّ أقدو يده في جيب سترته، وأخرج محفظته.

"قولي لي" قال للفتاة، "كم ثمن كل هذه الزهور التي في السلة؟ سأشتريها كلها. اذهبي إلى بريهان سلطان وأخبريها أن شخصًا تعرفه يريد رؤيتها".

هبّت الفتاة على قدميها خلف السلة، "حسنًا يا أخي" قالت، "سأذهب إلى بريهان سلطان وأسالها إذا ما ترغب برؤيتك".

"قولي لها إن أقدو قد جاء..." تردد قليلًا ثم تابع "لا تقولي أقدو بل قولي المعلم أقدو، حينئذ ستعرف من أكون".

"المعلم أقدو، أليس كذلك؟"

"أجل، هيا اذهبي، سأنتظر عند زهورك".

"تقصد زهورك أنت، ألم تشترها كلها..." قالت الفتاة وقد علت وجهها ابتسامة ذات معنى.

"ماذا أفعل بكل هذه الزهور؟ سأعطيك ثمنها، واحتفظي بها أنت".

أضاء الفرح وجه الفتاة عند سماعها هذا الكلام، وبدلًا من الضغط على جرس الباب الرمادي، توجهت نحو الكازينو، ودخلت بحرية دون مساءلة من الحراس.

شاهد أقدو الحياة في الشارع أثناء انتظاره عند سلة الزهور. على الرغم من أن الوقت قد تجاوز منتصف الليل، إلا أن الحركة في الشارع كانت أشد ازدحامًا من النهار. لقد زار أقدو العديد من المدن، لكن إسطنبول لا مثيل لها، ليلها مثل نهارها. فكر قليلًا، هل هذه ميزة جيدة؟ ثم قال في قرارة نفسه، لا أدري. تراجع قليلًا مع سماعه حركة خلف الباب الرمادي.

خرجت الفتاة بائعة الزهور من الباب الرمادي، ثم ظهرت خلفها امرأة.

تأملت المرأة وجه أقدو، "أنت أقدو، أذلك ما قلته؟" قالت بصوت مرتاب.

"نعم، أريد مقابلة بريهان سلطان".

"أنا مساعدة بريهان سلطان" قالت المرأة، "أخبرتني أنها تعرف رجلًا اسمه المعلم أقدو، لكنه في السجن في الوقت الحالي".

"صحيح، ولكن أُفرج عني، لقد خرجت من السجن مؤخرًا".

"طلبت مني بريهان سلطان أن أسألك سؤالين، إذا كانت إجابتك صحيحة ستسمح لك بالدخول".

"سؤالان؟"

"أجل، قالت إن أسألك كم قطعة ذهب حصل عليها المعلم أقدو لقاء شاهد القبر الذي نحته في قريتنا؟"

"أربعة" قال أقدو دون تردد.

"حسنًا، وكم قطعة ترك في تلك القرية؟"

"قطعتين".

ظهر الارتياب على وجه المرأة، "غير صحيح" قالت، "الصحيح أن المعلم أقدو ترك قطعة ذهب واحدة في تلك القرية وهو الآن في السجن. من أنت؟"

"اسمعي" قال أقدو، "لقد أعطيت إحدى القطع إلى شخص تعرفه، وأعطيت الثانية إلى صبي كان يعمل معي. لا يعلم ذلك سواه وقد قُتل".

"انتظرني، سأعود" قالت المرأة.

"قولي لها أن اسم مساعدي كان باقي".

بعد أن دخلت المرأة، أخرج أقدو محفظته، وقال للفتاة الصغيرة، "أشكرك، لقد ساعدتني كثيرًا".

"تريَّث" قالت الفتاة، "أنت لم تدخل بعد، ربما لن يسمحوا لك بالدخول".

"لا تقلقي، سيدخلونني. اسمعي يا صغيرتي، ألا أهل لك؟ تعملين في الشارع في هذه الساعة".

"لي أب وأخ، وبيتنا قريب من هنا".

"أليس من الأفضل أن تعملي في النهار؟"

"أعمل أثناء النهار أحيانًا، لكنني أجني مالًا أكثر في المساء".

"لا يبدو أنه جيد، انظري، سلتك لا تزال ممتلئة".

"تلك سلتي الثالثة لهذه الليلة، هذه هي الليلة الأولى لبريهان سلطان بعد حداد طويل، لقد جنيت مالًا وفيرًا".

"حسنًا، خذي هذا، واكسبي المزيد".

أخذت الفتاة النقود بفرح، وقالت "شكرًا يا أخي".

"أنت عرفتي اسمي، وأنت ما اسمك؟"

"اسمي فاطمة".

"فاطمة، ماذا يعمل أبوك، لماذا يسمح لك بالعمل؟"

"أبي كان عامل بناء، سقط وكسر ظهره، أنا أعتني به وبأخي".

"هل أخوك صغير؟"

"لقد دخل أخي لطيف المدرسة الابتدائية مؤخرًا، وهو يحب المدرسة كثيرًا".

"هل تذهبين إلى المدرسة؟"

"أجل، أنا في السنة الأولى من المرحلة الإعدادية، أداوم في الفترة الصباحية. أذهب إلى المدرسة حتى الظهر، ثم أعود إلى البيت وأعد الطعام لأبي ثم آتي إلى هنا".

"أحسنت، أنت فتاة ذكية".

أخرج أقدو علبة تبغ من جيبه، وأخرج منها سيجارة ملفوفة وأشعلها.

اقتربت فاطمة منه "أنت" قالت، "تختلف عن الآخرين..."

"بماذا أختلف؟" قال أقدو.

"لم تسألني عن أمي، الكل يسألني عن أمي عندما أحكي قصتي".

"لماذا أسأل؟" قال أقدو بتلعثم، "أظن أنها ماتت، ولا أرغب بإحياء مواجعك بالسؤال عنها".

"كلا أمي لم تمت، لقد اختفت منذ عامين، ربما لم ترغب في رعاية أبي المريض وطفلين صغيرين. لقد غادرت البيت ذات يوم، ولم تعد قط. هناك من رآها في الضفة الأخرى في حي كاديكوي".

"هل تفكرين فيها كثيرًا؟"

"أحقد عليها لمعرفتي أنها تعيش غير بعيدة عنا. لو ماتت لكان ذلك أرحم لنا".

"لا تقولي ذلك، ربَّما مرَّت بظروف لا نعرفها، لا تقولي هذا عن أمك".

"أنت غريب الأطوار".

"هل أبدو هكذا حقًا؟"

في تلك اللحظة، فُتح الباب الرمادي. ظهرت المرأة وقد بدت على وجهها تعابير أكثر لطفًا من ذي قبل. نادت أقدو.

"تعال، لنصعد إلى الطابق العلوي".

"وداعًا يا فاطمة"، قال أقدو.

"وداعًا يا أخي، أنا هنا دائمًا، لا تنسَ".

"لن أنسى".

صعدا إلى الطابق العلوي. كان باب الغرفة منفرجًا.

دخل أقدو بتمهل، وتوقف عندما رأى الألم يغطي وجه بريهان سلطان التي كانت بانتظاره. وقفا متواجهين مثل المرايا، يشاهدان الألم الذي يغطي وجهيهما، أشارت بريهان سلطان إلى أريكة قريبة.

"أهلًا وسهلًا" قالت، "تفضل واجلس هنا"، وجلست على الأريكة المقابلة له.

"لقد أزعجتك" قال أقدو، "لقد تأخر الوقت."

"لم تزعجني، هذا وقت عملنا. يوكسيل، هلا قدَّمت لنا عصير الليمون، أشعر بالعطش الشديد مذ كنت على المسرح، لقد جفَّ حلقي".

قدمت يوكسيل لأقدو كأسًا من عصير الليمون، فشربه في جرعة واحدة. تردَّد بعض الوقت، لا يعرف كيف يدخل بالحديث، تلفَّت حوله،

نقَّل بصره في أرجاء الغرفة. زجاجات خمر وأكواب في خزانة زجاجية، رفوفها مغطاة بالدانتيل المطرز.

"أخي أفدو" قالت بريهان سلطان،" لم أسمع عن خروجك من السجن، الحمد لله على سلامتك".

"لتسلمي يا بريهان..."، وجد أفدو صعوبة بمخاطبتها باسمها الفني، ثم استأنف: "بريهان سلطان، لقد خرجت من سجن أنقرة قبل ثلاثة أيام، قدمت إلى إسطنبول مباشرة، وذهبت إلى المقبرة. بحثت عن قبر إليف، ولكنني لم أجده. أتيت لأسألك عنه، وأقدم تعازي في الوقت نفسه. لا تؤاخذيني إذ أتيتك إلى الكازينو، فأنا لا أعرف عنوان منزلك. عظم الله أجرك".

"شكر الله سعيك. أقيم هنا، في هذه الشقة، في الطابق العلوي من الكازينو، ذلك مريح لي، أظن أنك علمت بالخبر من الصحف".

"الشهر الماضي، بينما كنت أعد الأيام بانتظار يوم إخلاء سبيلي، كنت أطالع الصحف في السجن، فرأيت صورتك. تعرفت عليك في الحال على الرغم من اختلاف الاسم، وحين قرأت اسم إليف في الخبر، وقع عليّ الخبر وقوع الصاعقة..."

"يا لأختي المسكينة، لم نكن نعرف عنك أي شيء. بعد أن حكم عليك بالإعدام، ما عدنا نعلم إن كنت ستشنق أو ستمضي بقية حياتك في السجن".

"أظن أن إليف أخبرتك ما حدث في القرية في تلك الليلة".

"أخبرتني وأمي. لم يكن هناك ما تستطيع أختي فعله بعد تلك الحادثة، وكان لزامًا عليها التزام الصمت، ثم تزوجت من ميخائيل آغا، وعندما لم تنجب، تعرضت للتعنيف الشديد والإهانة. قررت دعوتها

للإقامة عندي، ما كنا نعلم عنك شيئًا. ربما لو علمنا بقرب الإفراج عنك، لانتظرتك المسكينة".

"إذن لم تنجب..." بدت نظرات أقدو ضبابية.

وضعت بريهان سلطان يدها على بطنها دون قصد، عندما رأت أقدو يحدق في يدها، رغبت في التوضيح.

"أنا حامل في شهري الرابع، لقد ارتديت ملابس فضفاضة هذه الليلة كي لا يلاحظ حملي أثناء وقوفي على خشبة المسرح".

"ليربَ في عز أبيه وأمه".

"سيربى في كنف أمه، وليقدر الله له أن يكبر في كنف أبيه أيضًا، هذا إذا تمكن أبوه من الخروج من السجن..."

"هل هو في السجن؟ هل عقوبته كبيرة؟"

"خطيبي" قالت بريهان سلطان محاولة أن تزن كلامها، "ننتظر خروج خطيبي من السجن. يقول محاميه إنه قد يفرج عنه قريبًا، وها نحن ننتظر. على أية حال، ليس هناك ما يضمن عدم دخوله السجن مرة أخرى إذا ما أفرج عنه هذه المرة".

تدخلت يوكسيل وقالت باعتزاز: "سِيراني من أكثر الرجال جسارة في إسطنبول، مثلما له الكثير من الأصدقاء فله الكثير من الأعداء أيضًا".

"إفراج قريب لأخي سيراني" تفوه أقدو بتعبير يقال في السجون.

"أخي أقدو" قالت بريهان سلطان، "لو علمت أنك على قيد الحياة، لحاولت الوصول إليك، أو مراسلتك".

"بريهان سلطان، لقد ترددت في المجيء لرؤيتك. خشيت أن تكوني حانقة عليّ، لأنني السبب في ما حصل لأختك".

"كلاكما أحببتما بعضكما، وكلاكما قد خسرتما".

"غدنا جميعًا بظهر الغيب. بينما كنت بانتظار هذه الأيام طيلة سبع سنوات، غيّر القدر لبوسه في اللحظة الأخيرة، واستقبلني بوجه مختلف تمامًا".

"قد مضى من مضى، وذهب من ذهب، وستصحو الآن على غد جديد" حين أدركت بريهان سلطان أنها تردد كلمات لأغنية شهيرة لها، توقفت وفكرت في كلام أخر: "ما الذي تنوي فعله؟" سألت أقدو.

"لقد توقفت عجلة الزمن عندي منذ وفاة إليف، كل ما أريده هو أن أرى قبرها. عرفت اسم المقبرة من الصحف. ذهبت أمس، وتنقلت بين القبور لساعات، لكنني لم أعثر على قبرها، لذلك جئتك لأزعجك".

"المكان سهل الوصول إليه، توجد شجرة يهوذا وحيدة في الجهة الشمالية من المقبرة. لقد دفنت تحت تلك الشجرة. إذا شئت، فيمكننا الذهاب معًا، غدًا، لنريك مكانها".

"لتسلمي، سأجد مكانها بنفسي، لا أريد إزعاجك".

"لم أكمل قبرها بعد، قيل لي إنه يجب الانتظار من شهر إلى شهرين حتى تستقرَّ التربة".

"يبدو أنها تنتظرني" قال أقدو بينما شردت عيناه، محاولًا استعادة صورة المقبرة كشريط سينمائي في ذهنه، لتحديد موقع شجرة يهوذا بين أشجارها. "لا تقلقي، سأجده وأعمل قبرًا جميلًا لها".

ما عادت بريهان سلطان تملك السيطرة على دموعها التي كانت تكبحها قبل قليل، فاختلطت الدموع بمساحيق التجميل التي تزين وجهها.

"ماذا حدث لذلك الرجل؟" قال أقدو محاولًا تغيير الحديث، "لقد

ذكرت الصحف أن رجلًا كان مع إليف وأصيب بجروح بليغة. ماذا حدث له؟"

"لقد نجا مظفر، أخرجت الرصاصات من جسمه، ولا يزال في المستشفى، سيخرج هذا الأسبوع، إنه خطيب يوكسيل".

"بالسلامة" قال أقدو موجهًا كلامه إلى يوكسل.

"لتسلم يا أخي" أجابت يوكسيل.

"أهو من قريتكم؟" سأل أقدو،" أذكر رجلًا بهذا الاسم في قريتكم".

"أجل" قالت بريهان سلطان بينما تمسح دموعها بمنديلها، "إنه من قريتنا، يقيم في إسطنبول منذ فترة. حين قرر الذهاب إلى القرية لبيع قطعة أرض هناك، طلبت منه أن يصحب أختي معه عند عودته، كيف لي التكهن بما جرى؟"

خطر ببال أقدو سؤال أخير كان يدور في ذهنه، "ماذا حدث لذلك الآغا" قال، "لقد قرأت في الصحف عن هروبه من مكان الحادث. ألم يُقبض عليه؟"

"لم يُقبض عليه. لقد سمعنا مؤخرًا عن سفره إلى ألمانيا. لقد انتحل شخصية أحد العمال وسافر باسمه خارج البلاد. لكن يد سيراني ستطاله أينما كان. سيجده حتى لو اختبأ في ألمانيا. لقد أرسل لي سيراني رسالة من السجن يقول فيها، دعي هذا الرجل لي، لن يتمكن من النجاة من قبضتي".

ضحك أقدو، لكنه شعر بالحرج بعد أن ضحك طويلًا، "أضحك على الآغا، قدره أصبح معروفًا الآن. يظن أنه قادر على الهرب من قدره إذا ما ذهب بعيدًا".

بعد أن زاغت نظرات بريهان سلطان لبعض الوقت، قامت وذهبت إلى

الغرفة المجاورة. عادت حاملة منديلًا مطويًّا في يدها.

قالت بينما تجلس في مكانها، "لقد أخذت أختي معها بعض أغراضها عند مغادرتها القرية. لقد سلمني رجال الشرطة ما كان معها من أغراض، فوجدت هذا المنديل بينها. لقد أرتني أختي إياه قبل سنوات. خذه، إنه لك".

عرف أقدو المنديل فأخذه ووضعه في كفه متأملًا. عندما فتح بأناة، الحواف المطوية للمنديل ووجد داخله قطعة الذهب، تلعثم بالكلام.

"لقد أرسلت قطعة الذهب هذه إلى إليف مع مساعدي. أردتها أن تعرف مدى محبتي لها. ما كنت أملك شيئًا آخر كي أقدمه لها. غضبت إليف وانتظرت عودة مساعدي لتعيدها لي. قبل يوم من مغادرتي القرية، بعثت مساعدي إليها، وطلبت منها المجيء إلى بستان اللوز عند منتصف الليل، لتهرب معي. عاد مساعدي حزينًا، لأن إليف لم تعره اهتمامًا، لم تحدثه وانشغلت عنه بنشر الغسيل على الحبل. عندئذ، أدركت أنها قد قرَّرت الهرب معي، وإلا لكانت أعادت قطعة الذهب معه. لذلك كنت كلي أملًا بمجيئها حين انتظرتها في بستان اللوز تلك الليلة".

قرية كوناك غورميز

سهل هايمانا

1965

اليوم، ظهرًا.

الجموع التي حضرت جنازة ميخائيل آغا كانت أكثر بكثير من التي حضرت حفل زفافه قبل ست سنوات. كان قد بدأ موسم البذار في قرى السهول حديثًا، على الرغم من ذلك فقد ترك الجميع عملهم، وتُركت حبوب القمح مكدسة في الحقل، حتى العجول حديثة الولادة قد تركت مع أمهاتها في الحظائر، وتوافدت جميع عشائر السهل إلى قرية كوناك غورميز، إما على عربات الخيول أو الجرارات والسيارات والبعض وصل مشيًا على الأقدام. وفاة ميخائيل آغا أسدلت الستار على هذه الأسرة الكبيرة. تناقل الشيوخ والنساء بشيء من الحزن، الأحداث التي أدت إلى انقطاع نسل هذه العائلة. توفي والده أولًا، ثم قُتل شقيقاه الأكبر منه سنًا، وبعد أن هربت زوجته إلى إسطنبول، غسل العار الذي لحقه بقتلها، وبيّض شرف العائلة. الأعراف في السهل هي القدر، لكنها جريمة بعرف القضاء.

ظلَّ ميخائيل آغا يعيش متخفيًا في أنقرة، إلى أن اصطاده قدره في

ليلة خريفية، بعد قضائه ليلة صاخبة بصحبة أصدقائه في الحزب في أحد الملاهي. بعد أن أكثر من شرب العرق مشروبه المفضل، خرج في ساعة متأخرة من الليل، يتمشى في شوارع تخلو من المارة. لم يمضِ وقت طويل حتى خرّ على الأرض إثر تعرضه لإطلاق نار أصابه بمقتل في كمين نصبه له رجلان مجهولان. لم يعرف من وراء قتله، أشجار حصل في الملهى، أم ثأر لزوجته إليف؟ الحديث عن إليف وشقيقتها المغنية ذائعة الصيت في إسطنبول، يستذكر الحديث عن والديهما. والداهما عجوزان انقطعا عن العالم، في انتظار أن يطرق عزرائيل بابهما. أما عائلة ميخائيل آغا، فلم يبق بعده من ينتظر زيارة عزرائيل، لذا فقد آلت جميع ممتلكاته لابني خاله، الذين يعيشان في قرية جنوب السهل. أثناء مراسم دفن ميخائيل آغا، أخذ ابنا خاله على نفسهما عهدًا بالانتقام لقتله، وأقسما على اكتشاف القاتل عاجلًا أم آجلًا والثأر له.

اليوم، مساء.

عائلتان في القرية لم تحضرا الجنازة ولم تشيِّعا الميت إلى المقبرة. والدا إليف كانا إحدى العائلتين، والراعي السابق حيران وزوجته كانت العائلة الأخرى. في السنوات الأخيرة، لم يعد حيران يعمل راعيًا عند أحد، فقد أصبح لديه قطيع من الأغنام قوامه خمسين رأسًا. اعتاد حيران الخروج إلى السهل خلال النهار، وفي المساء، بعد أن يؤوي الحيوانات في الحظيرة، يقضي بعض الوقت مع زوجته ميهريناز وابنه عصمت ذي الست سنوات. شبّه حيران وميهريناز عصمت بابنهما الأكبر باقي، ربما توهما هذا الشبه، وينادونه باقي أحيانًا. حملت مهريناز مرة أخرى، وولادتها باتت قريبة. لن يطلقا

على المولود الذكر اسم أحد السياسيين السابقين، إذ منذ انضمام حيران إلى حزب العمال المشكل حديثًا، راح ينتقد النظام الجمهوري، ويدعو إلى تغيير جذري للنظام. تعاون مع الحداد محمد وعدد آخر من الشباب في السهل للتحضير للانتخابات العامة بعد شهر. اهتمام حيران بالسياسة كان وليد حنقه على عائلة الآغا، التي يلقي باللوم عليها في وفاة ابنه. أما وقد مات ميخائيل آغا الآن، فعلى من يحمل الضغينة؟ كانت مهريناز تفكر بهدوء، وتبحث عن وسيلة لتجاوز هذا العداء، في انتظار أن تحين الفرصة. حان الوقت الآن، هذا ما قالته لزوجها، لنذهب إلى منزل ميخائيل آغا ونقدم تعازينا. إذا لم يتصالح الإنسان مع الآخرين في حالة الوفاة فمتى يتصالح؟ ثم أن لا معنى من استمرار العداوة إذا لم يكن هناك من نعاديه.

اليوم التالي.

في بيت العزاء، رحب ابنا خال ميخائيل آغا بحيران بحرارة. بدا أنهما يريدان دفن العداء الذي تعيشه القرية مع الميت أيضًا. أجلسا حيران بينهما في صدر المقام، جميع القرويين استقبلوا حيران بالاحترام نفسه أيضًا، وحيّوه بوضع أيديهم على صدورهم، ليطووا صفحة من الماضي قاطعهم خلالها.

مستشفى تشابا الحكومي

إسطنبول

1965

حين حملت بريهان سلطان ابنتها بين ذراعيها بعد عملية ولادة عسيرة امتدت لساعات، شرعت بالبكاء فرحًا وحزنًا في آن واحد. لم تر نفسها في وجه طفلتها بل رأت أمها وأختها. كانت قد عقدت النية على تسمية المولودة على اسم أمها إذا كانت بنتاً. في ذلك الوقت كانت أختها الكبرى حية ترزق، أما الآن، فلا تعرف أي الاسمين تختار.

"يوكسيل، ماذا أسمي هذه الطفلة، ماذا تقترحين؟"

"الأفضل ما نوِيت عليه سابقاً، سمّها ريحان على اسم أمك".

"ألا ترين أن أُسمّها إليف؟"

لم تشأ يوكسيل القول إن اسم أختها المغدورة قد يفتح الطريق أمام لعنة قد ترتبط بقدر الطفلة. حتى بريهان سلطان كانت تؤمن بذلك، لكن حزنها على أختها قد شوش تفكيرها.

"كنتِ قد اخترت اسم أمك إذا كانت المولودة بنتًا. لا تنسي أن ريحان أنجبتك وأختك، اسم ريحان سيضمكن أنتن الأربع، أمك وأختك وأنت

وطفلتك".

وافقت بريهان سلطان دون تردد. قبلت عيني ابنتها المغمضتين وقالت: "ريحانتي!"

كانت الغرفة لستة نزلاء. الأسرّة الخمسة الأخرى اضجع عليها نساء ولدن حديثًا أيضًا. الأحاديث الدائرة كانت أشبه بحوار الطرشان من بكاء الأطفال وضجيج الزوار. جلست يوكسيل على حافة السرير واحتضنت الطفلة بين ذراعيها. تأملت وجه الطفلة ورأت فيه جمالًا سيفوق جمال أمها وخالتها إليف، فتمتمت "ليكن حظك بجمال وجهك!". هزّت الطفلة بين ذراعيها يمينًا ويسارًا، داعبت شعرها، وتشممت عنقها ثم رفعت بصرها نحو بريهان سلطان.

"لحسن الحظ أنك أنجبت هذه الطفلة الجميلة".

"يوكسيل" قالت بريهان سلطان محاولة الابتسام وقد أرهقها التعب، "أنجبي ومظفر طفلًا في أسرع وقت حتى يكبر طفلانا معًا".

نظرت يوكسيل حولها بطرف عينها خشية أن يسمعها أحد.

"ماذا تقولين يا بنت؟ لم يمضِ على زواجنا سوى شهرين، أيأتي الأطفال بالبريد المستعجل؟"

"المهم النية، لكن السرعة مطلوبة".

أرقدت يوكسيل الطفلة على الوسادة، "لقد رضعت الطفلة كفايتها من الحليب، وستغط في نوم عميق. نامي أنت أيضًا، فأنت متعبة وبحاجة إلى الراحة أيضًا".

"النعاس يغالب أجفاني، لكنني لا أريد النوم".

"أعرف لماذا لا تريدين النوم. لا تقلقي، أنا باقية عندك هذه الليلة،

سأوقظك عند سماعي أي خبر".

"أيقظيني يا يوكسيل، أريد سماع أي خبر عن سيراني".

"لا تقلقي، لن يحصل له أي شيء. تعلمين أن مظفرًا ينتظر في الخارج، وسيبلغنا في الحال ما يصله من أخبار".

"ليتني أكون سعيدة مثلك، يا يوكسيل. لا أتمكن من رؤية وجه سيراني حتى بعد خروجه من السجن. إنه ملاحق ثانية، بعد أن داهم أحد الملاهي، وأصاب أحدهم بجروح".

"اخفضي من صوتك يا بنت" قالت يوكسيل، "ألا ترين أن في الغرفة غرباء قد يسمعون ما تقولين؟"

"سيراني لا يفكر فيّ ولا في ابنته. كأنه جاء إلى هذه الدنيا كي يلاحق أعداءه. لا يخطر الزواج وتكوين أسرة في باله. هل ستكبر هذه الطفلة دون أن ترى أمها وأباها تحت سقف واحد؟"

قالت يوكسيل همسًا: "لا تدعي الأفكار السوداء تسيطر على تفكيرك، إذا نوى سيراني على أي شيء فلن يتراجع عنه حتى ينجزه. هل تذكرين ما فعله لرجلك القديم عازف الساز، هل كان اسمه موتلو أم كوتلو، لا أدري، لكنه أوقفه عند حده، عندما تمادى معك. دعي سيراني ليرتب أموره، وتنتظم حياته. على أية حال، فهو يتحرك في أرض مليئة بالأشواك".

"يوكسيل! أنت تتكلمين مثل السيد كالندر. إما أنك تعتقدين بصدق ما تقولين، أو أنك تحاولين تهدئة مخاوفي. أنسيتي أن سيرانى لم يتمكن من حضور حفل زفافك؟"

"كيف سيحضر الرجل، وهو محاط بالأعداء؟ لكنه أرسل هدية كاعتذار عن عدم تمكنه من الحضور. أطلب منك التحلي بالصبر، وأن لا

ترهقي نفسك بالتفكير. كيف لسيراني أن يعرف أنك ستلدين اليوم؟ بينما كنا في طريقنا إلى المستشفى، حاول السيد كالندر أن يخبره، لكن لا أحدًا يعرف عن مكان تواجده. لقد قيل إنه يلاحق بعض الأشخاص خارج المدينة".

"إن للصبر حدود يا يوكسيل. بينما كنت أتلوى من الألم أثناء ولادتي اليوم، سمعت هاتفًا في داخلي يقول إن سيراني لم يكن قط جزءًا من حياتي. كنت وحدي دائمًا. في حياة أختي وفي مماتها كنت وحدي دائمًا. حتى طفلتي قد تمنعت في الخروج إلى هذه الدنيا. ربما لم تكن واثقة مني ولا بمستقبلها. حتى الصوت في داخلي دعاني إلى عدم الثقة بأحد بعد الآن".

"ما هذا الكلام يا بنت! أنت بريهان سلطان العظيمة، حولك من يحبك كثيرًا، وحتى لو لم يبق أحد، فأنا موجودة إلى جانبك دائمًا".

"يوكسيل، أنا لا أثق إلا بك وحدك. عندما كنت أتألم اليوم، ورد إلى ذهني أن لا أحد لي في هذه الدنيا سوى طفلتي وأنت، لا تقولي لي إن سيراني موجود. إنه الآن في بيت آخر، في حي آخر، أو ربما في مدينة أخرى، مختبئًا أحيانًا، وفي السجن أحيانًا أخرى، لم أره إلى جانبي ليومين متتاليين قط. لا قدر الله، من سيرعى طفلتي من بعدي إذا ما أصابني شيء ما؟ أتعلمين أنه حين كانت الدموع تسيل من عيني أثناء الولادة، ظن الأطباء أني أبكي من شدة الألم، في حين كنت أبكي لشعوري بالوحدة".

"اخفضي من صوتك، أرجوك".

"آه يا يوكسيل..." توقف صوت بريهان سلطان الحزين عند سماعها بكاء الطفلة، "هل استيقظت يا ريحان، ماذا جرى؟" قالت ثم احتضنت الطفلة بين ذراعيها وأسندت رأسها على صدرها الأيسر. هزتها بلطف كي تنام ثانية. علت وجهها ابتسامة سعادة، وغمرتها بنظرات من عينيها مليئة بالحنان.

مقبرة مركز أفندي

إسطنبول

1968

كان يومًا عاديًا عندما دخل بحّارٌ أشقر المقبرة وركع جوار أحد القبور. طيوره المغردة وأشجاره الباسقة وأشعة شمسه المتسللة بين أغصانه الخضراء كمثل الأيام الأخرى. ليس السجناء وحدهم من لا يتمكنون من حضور جنازات أحبائهم في حينها، فالبحارة أيضًا، ما إن يطؤون اليابسة حتى يهرعوا إلى المقابر وشعرهم لا يزال عابقًا برائحة الرياح المالحة، وعلى الرغم من مرور وقت طويل على حفر القبر وردمه واختلاط جثة الميت بالتراب. بدا أن البحار الأشقر ليس مجرد زائر عابر، إذ ظل يأتي كل يوم، ويتنقل بين المقابر لأسبوع من الصباح حتى المساء.

في نهاية الأسبوع، اصطحب البحار الأشقر أقدو إلى قبر أبيه البحار، وطلب منه أن ينحت له شاهد قبر يليق به. بينما كان يصف لأقدو شاهد القبرَ الذي يريد اغرورقت عيناه بالدموع، فمسحها بوشاح عنقه. إن الرجال الذين تدمع عيونهم قلة، لذا حاول أقدو مواساته، وإعادة نصف النقود التي قدمها البحار لقاء شاهد قبر أبيه. رفض البحار استعادة نصف

نقوده، وأصر على أقدو أن يأخذها كلها.

"سأبحر قريبًا، عند عودتي بعد ثلاثة أشهر، أودُّ رؤية أبي يرقد تحت شاهد قبر جميل. هذا المبلغ قليل جدًا على أبي، أرجوك أن تقبله" قال، ثم أضاف: "أرجو أن تكتب اسمه البحار العجوز على الشاهد، فهذا ما اعتاد أصدقاؤه مناداته به".

ليست الولادة على الأرض والموت في البحر اختيارًا للبحارة بل قدرًا لهم. إنهم فئة من الناس وقعوا في حب قدرهم بدلًا من الهروب منه أو لعنه. موتهم مختلف، وحبهم مختلف، وأغنيتهم مختلفة. لازمة هيلا يا هيلا في أغانيهم تؤجج الحماس في نفوسهم وتذهب أحزانهم. لم يعد والد البحار الأشقر قادرًا على ركوب البحر، فظل حزينًا طوال سنواته الأخيرة. أدرك البحار الأشقر أن أباه حزين لأنه لن يموت في البحر مثل بقية البحارة، لكنه أقنع نفسه بأن من لم يمت من البحارة في البحر قد يدفن في مكان مطل على البحر، مثل مقبرة أشيان أو مقبرة أيوب. يرغب الآباء أن يكون أبناؤهم مثلهم، مع أنهم لا يعرفونهم تمام المعرفة. ما مدى معرفة الأبناء بآبائهم يا ترى؟ لقد أدرك البحار الأشقر مؤخرًا أنه يحب أباه كثيرًا، على الرغم من أنه لا يعرفه عن قرب.

لكل بحار كنزه الخفي، وكنز والده الخفي في هذه المقبرة. يرقد حبه الأول فيها، حبه في بداية شبابه، لكن المرض فرّق بينهما. فقد البحار الأشقر أمه في سن مبكرة، ويعلم أن قبرها في مسقط رأسها في قبرص، لكنه لم يكن يعلم أن أباه كان يحب امرأة أخرى قبلها. تلك المرأة كانت خطيبة أبيه في أول شبابه، وعندما تحالفت الإمبراطورية العثمانية مع الألمان وشاركت في الحرب العالمية الأولى، استدعاه الجيش، وأرسل إلى الجبهة. بعد عام، بينما

كان يقاتل على جبهة تشانا كاله، أصيبت خطيبته بالسل وتوفيت. بعد انتهاء الحرب، عاد إلى إسطنبول ليبحث عن قبر خطيبته حتى وجده. ظلَّ يزور قبرها بانتظام، وقبيل وفاته، أوصى أصدقاءه أن يدفنوه في المقبرة نفسها. عندما علم البحار الأشقر بقصة أبيه من أصدقائه، جاء ليبحث عن قبر تلك الفتاة.

أقدو والبحار الأشقر كانا متقاربين في العمر، جلسا كصديقين قديمين في شرفة البيت، وشرعا يفكران ويخططان معًا بكيفية العثور على قبر تلك الفتاة. سأل أقدو البحار عن اسم الفتاة، فأجابه أنه عرف من أبيه أن اسمها مادلين. بما أن الفتاة قد توفيت خلال حرب تشانا كاله، فسنة وفاتها يجب أن تكون عام 1915. في ذلك الوقت، كانت الأبجدية العثمانية هي المستخدمة، لذا لابد من البحث عن شواهد قبور تحمل الأبجدية القديمة. الفتاة تحمل اسمًا أرمنيًا. خلال حرب تشانا كاله، طُرد الأرمن من أراضيهم وهُجّروا قسرًا إلى بلاد الشام. ربَّما ما قيل لأبيه عن وفاة الفتاة بمرض السل ليس صحيحًا بل لمواساته، إذ ربما قد هُجّرت مع عائلتها وماتت هناك، لكن هذا الاحتمال غير دقيق، فقد وجد أبوه قبرها، وهذا يعني أنها دفنت في هذه المقبرة. مسألة أخرى واجهتهما، الاسم أرمني والمقبرة إسلامية، لماذا لم تدفن الفتاة في مقبرة الأرمن؟ فكّرا باحتمالات مختلفة. ربما كانت أم الفتاة أرمنية وأبوها تركي، لذلك فقد دفنت هنا كمسلمة بغض النظر عن اسمها، أو ربما عائلتها الأرمنية قد هُجّرت مع من هُجّروا، وأخذتها عائلة مسلمة من مَعارف عائلتها وربتها، ولما توفيت دفنت في المقبرة الإسلامية. الاحتمال الثالث، أنها من أبوين مسلمين، لكن القابلة التي ولّدتها أرمنية اسمها مادلين، فأسمياها على اسم من ولّدتها. هكذا جلسا يتناقشان ويحللان كل

الاحتمالات وتعقيداتها.

وعد أقدو البحارَ الأشقر عند عودته من البحر بعد ثلاثة أشهر، سيكون قد نحت لأبيه شاهد قبر متميز ووجد قبر خطيبة أبيه. أكّد له أن العثور على قبر الفتاة لن يكون صعبًا عليه لمعرفته بالأبجدية القديمة. بالمقابل فقد وعد البحار الأشقر أقدو أن يجالسه عند عودته على الشراب ذات مساء. وحين قال أقدو إن البحارة عندما يكونون في وسط البحر يشربون كثيرًا ويحنّون إلى الأرض والأشجار، رد البحار الأشقر أنه لا الأرض ولا الأشجار ما يحن إليه عندما يكون في وسط البحر بل المياه الصافية الجارية إلى ما لا نهاية. في وسط البحر الأمواج العاتية مالحة، والأسماك مالحة، وحتى الموت مالح. لذا ما يتوق إليه دائمًا هو ماء النبع الصافي، ليعبّ منه عبًّا ويبلل شعره. "أعتقد أن الأموات في قبورهم يفتقدون وجود نبع ماء قربهم، ويتوقون إلى سماع خرير مائه في منامهم، ويستمتعون بمائه حين تروي ترابهم" قال البحار الأشقر.

مرت الأشهر الثلاثة سريعًا، وما إن عاد البحار الأشقر من سفره، حتى جاء إلى المقبرة وحلّ ضيفًا على مائدة أقدو.

كانت ليلة على الرغم من شدَّة برودتها، لكن سماءها كانت صافية ونجومها تقطر متلألئة مثل قطرات الماء من جميع الجهات. جلس أقدو والبحار الأشقر إلى الطاولة على الشرفة، يشربان العرق ويتناولان المقبلات ويستمعان إلى الأغاني من الراديو. في تلك الأثناء، تسلل في الظلام، ماء النبع غير البعيد عنهما، ليصاحب خريره موسيقى الأغاني كأنه أحد أفراد الفرقة الموسيقية.

"إذن هذا ما حصل، يا معلم أقدو، كيف خطر ببالك عمل نبع ماء،

بعد حديثنا السابق؟"

"سأروي لك ما حصل، لكن قل لي أولاً، كيف ينبغي مخاطبتك؟"

"أنت تدعوني بالبحار الأشقر، لا مشكلة عندي، أم ترغب مخاطبتي باسمي ليفانت؟"

"لقد نشأت في هذا الحي، والجميع يعرفك، لكنني لم أسمع أحدًا يناديك باسمك".

"أنت محق، يناديني أصدقائي في الحي بالأشقر، ويخاطبني كبار السن بالبحار، وأدعى بالكابتن على ظهر سفينتي، ولا يوجد أية مشكلة".

"لم يكن سوى عدد محدود من الأصدقاء في ما مضى من حياتي. ولم يكن بينهم لا أشقر ولا بحار، لذا سأظل أناديك بالبحار الأشقر".

قرعا قدحيهما. تذوقا طعم العرق الحاد في فمهما ثم رشفا رشفة من الماء.

"معلم أقدو، ألا يمانعون الشرب بين هذه القبور؟"

" أشرب وحدي هنا دائمًا في المساء، بعد خلو المقبرة من الزوار. لا يمانع الشيخ أشرف أن أشرب وحدي، على أن لا يكون علانية. أنا هنا منذ ثلاث سنوات، هذه أول مرة أستضيف فيها أحدًا على مائدتي. أنت أول ضيف لي في العرق في هذه المقبرة".

"أشكرك، هذا شرف كبير لي. اعتبارًا من اليوم، سأكون ضيفك في كل مرة آتي فيها إلى إسطنبول. الويسكي الأجنبي الذي أحضرته لك اشربه وحدك، أما الآن لنشرب العرق معًا على هذه المائدة. سأكون ممتنًا لك إذا ما قدمت إحدى علب الشوكولاتة أيضًا إلى الشيخ أشرف، كي يعطها لأطفاله".

"لا عليك، الشيخ أشرف ساعدني كثيرًا. سعى لي كي أقيم في هذه

المقبرة، وأن أعود إلى عملي السابق، وساعدك أيضًا".

"جنازة أبي..."

"كلا، لا أقصد ذلك بل ساعدني في العثور على قبر مادلين. تنقّل بين القبور عدة أيام، يقرأ شواهد القبور. لقد فرح كثيرًا عندما وجدناه".

"أنا مندهش حقًا لعثوركم على ذلك القبر".

"لقد قرأنا جميع شواهد القبور التي تحمل السنة 1915، كان بعضها بأسماء وبعضها بلا أسماء. على شاهد أحد القبور تلك، نُقش الحرف ميم فقط، ونُقش عليه وردة ذابلة أيضًا. الحرف ميم في الأبجدية القديمة، هو الحرف الأول من مادلين. لقد اكتُفي بكتابة الحرف الأول فقط ربما لأن الاسم كان أرمنيًا. في ذلك الوقت، كان ينقش وردة ذابلة على شاهد قبر المتوفية غير المتزوجة، يعني تعبيرًا عن سوء حظها. بعد أن شاهدنا كل القبور تأكد لنا أن هذا القبر هو قبر الفتاة الذي نبحث عنه".

"اعتقد ذلك أيضًا. هذا الشعور يماثل الشعور بالعاصفة عند البحارة القدامى. إحساس خفي يُشعر البحارة القدامى بقدوم عاصفة عاتية في المحيط دون سماعهم لصوت الرياح أو رؤية السحب في الأفق. يقال إنهم يستشعرون بالعاصفة من قاع المحيط لا من السماء. حتى هم أنفسهم لا يستطيعون تفسير شعورهم به حتى عندما تكون الأمواج هادئة، والمحيط يتموج بحنان، وبينما يظن الجميع أن الأجواء بأفضل حالاتها. عندما وقفت عند ذلك القبر اليوم، شعرت أن الفتاة التي زارها والدي، وتكلم معها في قبرها وحنّ إليها، ترقد هناك. لقد تحررت الروح من تحت التراب، ربما لأنها وجدت قطعة من روح أبي فيّ، وشعرت كأنني أبي، فأحست بشجنه".

يختبئ البدر خلف الأشجار، والليل يغير لونه مع كل قدح.

بدت المقبرة كأنها محيط بارد تعصف به الرياح، ولا يُعرف ما وراء أفقه اللامتناهي. زرقة السماء تتأرجح مع النسيم الشمالي الشرقي البارد، وتعتم شيئًا فشيئًا مع انطفاء نجومها.

"عندما كنت أبحث عن قبر تلك الفتاة" قال أقدو، "فكرت فيما قلته عن افتقاد البحارة وحنينهم لمياه الينابيع الصافية المتدفقة، لا للأرض أو الأشجار. لم أنسَ أنك قلت إن الأموات في قبورهم يفتقدون وجود نبع ماء بقربهم، ويتوقون إلى سماع خرير مائه في منامهم، ويستمتعون بمائه حين تروي ترابهم. ربطت الأمور بعضها ببعض عندما تذكرت فيما بعد، أن المرأة التي أحب قد خفق قلبي لها حين رأيتها عند النبع أول مرة. لقد انتابني شعور قوي بأن إليف ستكون سعيدة وتنام براحة لو بنيت على مقربة منها نبع ماء. لذلك، فقد استخدمت ما عثرت عليه من الحجارة القديمة لبناء هذا النبع. هنا في المقبرة، الكثير من الحجارة العثمانية وأخرى بيزنطية. لقد تحاشيت استخدام الحجارة ذات الكتابة العثمانية، كي لا يظن الناس أني قد انتهكت حرمة حجارتهم المباركة، ثم مددت أنبوب ماء يغذي النبع وشبكته بخط مياه البلدية الذي يغذي بيتي. عندما كنت أعمل في قرية إليف، كان نبع القرية بين البيت الذي أقمت فيه وبيت إليف. هنا أيضًا بنيت النبع بين بيتي وقبرها. عندما كان الجميع ينامون ليلًا، في تلك القرية ويكون الجو هادئًا، كنت أسمع خرير ماء النبع الجاري فوق الحجارة. هنا أيضًا، أنام مع سماع خرير ماء النبع الذي أقمته. وعندما أستيقظ في منتصف الليل أحيانًا، أدرك أن إليف ترقد قريبة مني وتسمع الصوت نفسه، فأغرق في أحلام سعيدة".

كازينو باريس

إسطنبول

1972

"سيد كالندر" قالت بريهان سلطان، "هل أكون قد اقترفت ذنبًا عندما يأتي المعجبون إلى الكازينو من أجل سماع غنائي، ويقدمون الزهور تعبيرًا عن مودتهم، أو يبعثون برسائل إعجاب، أو يركنون سياراتهم الفاخرة أمام بابي ويصعدون إلى غرفتي ليهنئوني شخصيًا؟ هل أنا مخطئة؟ يوكسيل لا تفارقني ليل نهار، لتقل إن كنت قد شجعت أحدًا من هؤلاء الرجال على التمادي. إن نشر صوري في الصحف، والادعاء بوجود علاقة بيني وأحد رجال الأعمال ليس سوى افتراء عارٍ من الصحة. لم أرَ هذا الرجل سوى مرتين، الأولى عندما حضر إلى الكازينو لسماع غنائي، والأخرى حين دعاني للغناء في حفل عيد ميلاده في منزله. ذهبنا ويوكسيل مع فرقة عازفي الساز، وأديت وصلتي بمصاحبة فرقة الساز ثم غادرنا الحفل فورًا. كان هناك مطربون آخرون من مغني الفلكلور والبوب وحتى مطربون أجانب أيضًا. أي افتراء هذا ما أشيع عن وضع الرجل لصوري في غرفة نومه! ما الذي يدفع مالك أهم المصانع في تركيا ليلاحقني، وأي صحفي دخل غرفة نومه ورأى

صوري؟ الافتراء بيّن. الصحف تبحث عن الإثارة بنشر الأخبار الكاذبة، وقد أصبحت أحد هذه الأخبار ليلفقوا قصصًا حولي. كيف يصدق سيراني هذا الكذب بينما لا يصدق ذلك أحد؟ لقد أرسل من يبلغني أنه ينبغي لي أن أكون حذرة في تصرفاتي. ما قولك يا سيد كالندر؟ لقد دخلت ابنتنا المدرسة الابتدائية هذا العام، ولم ترَ أباها منذ دخولها المدرسة. ألا يقلق سيراني من أجلها؟ أريد أن يكون والد ابنتي إلى جانبي، هذا حقي. أحبه، وسأظل بانتظاره، لكن إما أنه يمضي أيامه بالاختباء أو في السجن، وينسى أن له طفلة صغيرة، ثم يبعث لي مهددًا. أنا راضية بذلك، صدقني، إذا أراد تهديدي، فليقف أمامي ويهددني، على الأقل سأتمكن من رؤية وجهه. إنه لا يعلم إلى أية مدرسة تذهب ريحان. تستيقظ الفتاة الصغيرة في الليل، تبكي وتقول إنها تريد أباها. ألا قلب لنا ولا مشاعر؟ السبيل الوحيد كي نمضي حياة هادئة بعيدة عن المشاكل، أن يدخل سيراني السجن ويقضي عقوبته ثم يخرج ويكفّ عن التورط في المزيد من المشاكل. لماذا لا يتخذ منك قدوة يا سيد كالندر، ويفتح صفحة جديدة في حياته؟ سيد كالندر، لو تتكلم معه، فسوف يستمع إليك. لقد ساعدتنا في الماضي، ويحفظ سيراني لك هذا الجميل، ولن يرفض لك طلبًا".

بدا السيد كالندر قلقًا، فلم يبقَ على صعود بريهان سلطان على المسرح سوى ساعة واحدة، بينما لا تزال تذرع الغرفة جيئة وذهابًا بعينين دامعتين وأصابع مرتعشة. يعلم أنها ستغني معظم أغانيها باكية على المسرح هذهَ الليلة، وستنال إعجاب الزبائن. لكن قلقه كان خوفًا من تورط سيراني في المزيد من المشاكل، مما سيبعده أكثر عن بريهان سلطان. لقد التقى به قبل ثلاثة أشهر وحذره ونصحه بضرورة أن يعيد ترتيب أوراقه، إذا ما

استمر على حاله هذه سيفقد احترام من حوله. صحيح أن الجميع يهابونه، لكن الخوف في العالم السفلي شيء والاحترام شيء آخر. كان سيراني يتمتع بكليهما في الماضي، لكن حين بلغ الخوف الذي نشره ذروته فقد احترام من حوله. لقد أصغى بجدية ووعده أن يرتب أموره في أقرب فرصة، لكن السيد كالندر شك في التزامه بما وعده، لذا لم يخبر بريهان سلطان بما دار بينهما من حديث.

"اهدئي يا بريهان سلطان" قال، "سأتكلم معه، لا تبالي بما يرسل لك من كلام فارغ، لابد أنه كان ثملًا ومنزعجًا من أمر ما. أنا أعرفه منذ سنوات، وأعلم أنه يحبك ويثق بك. إن المحبة التي تربط بينكما لا تشبه تلك العلاقات التي تطير مع أول هبة ريح في هذا العالم. أنتما معًا منذ عشر سنوات، وما زال سيرانى قلق من أجلك، ويفكر فيك، ولا يهون عليه أن تذكرين بسوء. لو كان لا يحبك أكان سيقلق عليك بهذا الشكل؟ ألمه مختلف، لقد أوصلته الحادثة الأخيرة إلى المحاكم، ويمر الآن في حالة من الضياع، لا هو قادر على لملمة نفسه، ولا على العيش معك حياة هادئة. كما قلت، ينبغي له أن ينسى حياته الماضية، ويبدأ حياة جديدة من الصفر. هذا العالم ظالم. لا أحد يمد يد العون لأحد. أنا أيضًا، كدت أفقد كل شيء. أنا أحب سيراني لأنه يشبهني، إنه الآن يعيش في حالة صراع، يعرف الميناء الذي سيذهب إليه، لكن العاصفة لا تسمح له بذلك، ويبحث في وسط البحار عن وسيلة للوصول إلى الميناء. فكري في الأمر بهذه الطريقة، فأنت ميناؤه، ولا ملجأ آخر سواك، صدقيني".

"سيد كالندر، أقسم أنك تتحدث مثل فيلم تركي. قلبي يطمئن عندما أستمع إليك. أنا أثق بك، وأعلم أنك ستجد حلًا لذلك. نحن بحاجة إليك

من أجل ابنتنا الصغيرة، لا من أجلي أو لسيراني، أعطني يدك كي أقبلها".

خبأ السيد كالندر يديه خلف ظهره مبتسمًا.

"ماذا تقولين يا بريهان سلطان! هيًّا فالمعجبون بك يجلسون إلى الطاولات في الطابق الأرضي ينتظرون تقبيل يدك. هيا، اجهزي سريعًا، أنا ذاهب".

بعد أن غادر السيد كالندر الغرفة، ألقت بريهان سلطان بنفسها بين ذراعي يوكسيل، وترددت في محاجرها عبرات الهم والحزن.

"ابكي يا بريهان سلطان، فالبكاء يزيل الغم الجاثم على صدرك. لو كان أحد غير سيراني من يسبب لك كل هذا الغم لكان لي قول آخر. كلمة الحب لا تكفي، إنه متيم بك إلى حد الجنون، لا تشكّي في ذلك أبدًا".

رفعت بريهان سلطان رأسها بأناة ومسحت عينيها بمنديلها. أحضرت يوكسيل لها كأس ماء، فشعرت بالسكينة بعد أن شربت الماء.

"يوكسيل" قالت، "تقفين دائمًا إلى جانب ذلك الضلالي. سيراني طيب، سيراني شهم. وأنا، ألا تشفقين على حالي هذه؟"

بدت يوكسيل كأنها أم لا صديقة.

"أتظنين أنك تهونين عليّ؟" قالت، "يا بنت، أنت أقرب الناس إلى قلبي في هذه الحياة. أحبك أكثر من مظفر، لكنني لا أبوح لمظفر بذلك".

نظرتا إلى بعضهما بعضًا وضحكتا.

بناية مصر

إسطنبول

1972

جلس رجل الأعمال وحيد كوتشسانلي أمام النافذة المواجهة للبحر في الطابق العلوي من بناية مصر في حي بي أوغلو، يستمع إلى أسطوانة لأغاني شارل أزنافور كان قد اشتراها من باريس في رحلته الأخيرة، ويحتسي نبيذه الأحمر بهدوء. لقد جاء إلى شقته هذه بعد عمل مجهد استمر حتى ساعة متأخرة في الشركة. يلجأ إلى هذه الشقة من حين إلى آخر طلبًا للهدوء بعيدًا عن صخب قصره على الشاطئ الآخر لمضيق البوسفور. طلب من سائقه الذي يؤدي دور الحارس له أيضًا، أن يتركه وحده، وأن يتأخر في المجيء في اليوم التالي، لأنه يميل إلى النوم حتى ساعة متأخرة من أصباح أيام السبت. جهاز الحاكي كان بقربه، وحين توقفت الأسطوانة، مد يده دون أن ينهض وأعاد إبرة الحاكي إلى بداية الأسطوانة. لقد رأى شارل أزنافور على خشبة المسرح في باريس وتعرف عليه من خلال أصدقاء له. إن لأزنافور صوتًا يليق بأبهة باريس. بينما كان رجل الأعمال كوتشسانلي يشاهد أضواء السفن والعبّارات تمر عبر مضيق البوسفور، رأى أن صوت أزنافور يليق بجمال

إسطنبول أيضًا، فجزء منه من طرف والدته موجود على هذه الأرض.

عندما أنهى قدحه الثاني، رنَّ جرس الباب. من القادم يا ترى؟ لم يكن كوتشسانلي ينتظر أحدًا الليلة، قد تكون إحدى النساء اللواتي يعرفن هذا المكان، أو السائق قد نسي شيئًا ما. وضع قدحه على الطرابيزة، ومشى الهوينى حتى الباب. فتح الباب فاندفع أربعة رجال لا يعرفهم إلى الداخل، ويحملون في أيديهم مسدسات صوبوها نحوه. أجلسوا كوتشسانلي على الأريكة، وبينما وقف أحد الرجال إلى جواره، انطلق الآخرون لتفقد الغرف. سرعان ما عادوا ليعرضوا ما شاهدوه.

"سيراني، البيت خالٍ، لا أحد هنا".

جلس سيراني على مقعد إلى جوار كوتشسانلي.

"بيتك جميل يا سيد وحيد كونشسانلي".

"لا أحد يعرف هذا المكان، كيف عرفته؟"

"بفضل هؤلاء الرجال، كانوا يراقبونك".

"من أنت؟ وماذا تريد؟"

"عليك أن تعرف أولًا، أن لا مطمع لنا بمالك".

بدا اقتحام المسلحين لشقته لم يدهشه بقدر ما أدهشه هذا الكلام.

"لا أفهم ما ترمي إليه. إذا كنت لا تريد مالًا، فماذا تريد مني إذن؟ يبدو أنك قد أخطأت وتسعى وراء شخص آخر، أليس كذلك؟"

"كن على يقين أننا لم نخطئ. أنت من أغنى الناس في هذا البلد. تتحرَك في شركتك وخلفك عشرة حراس، ويحرس عشرة حراس قصرك الأبيض على البوسفور. لا يمكننا الاقتراب منك هناك. أما هنا، فيقوم رجل واحد بحراستك عند مدخل الشقة. لا ندري لِمَ هو ليس هنا اليوم. أين

أرسلته، لإحضار إحدى صديقاتك لهذه الليلة؟"

"عن أي صديقة تتحدث؟ أخبرني أولًا ، من أنت".

"لا تكن عجولًا. لدينا متسع من الوقت".

"هل أنت أحد رفاق دنيز غزميش؟ هل ستأخذني رهينة كي توقف إعدامه؟"

"دنيز غزميش؟ عمليات ومحاولات تجري لإنقاذه، هل تظن أننا منهم؟ أنا أحبه، إنه شاب جسور، لكنني لا أفهم بالعمل الثوري، هم يتحدَّون العالم كله. هذا ليس من اختصاصي، إسطنبول وحدها تكفيني".

"أنا آسف، لكنني لم أفهم شيئًا".

ضحك سيراني.

"تبدو لطيفًا جدًا، هل تحب النساء طريقة كلامك هذه أم تعجبهن أموالك؟"

"لم تقل بعد من أنت وماذا تريد مني".

"حسنًا، لندخل الموضوع في الحال، عالمنا غير عالمك ويقال عنه العالم السفلي. الكل يعرفني بالرجل رقم واحد في ذلك العالم".

"الرقم واحد في العالم السفلي، هل تقصد مثل آل كابوني؟"

"لقد شاهدت فيلم آل كابوني في سينما أطلس. لقد حالف الحظ آل كابوني في البداية، ثم انقلب عليه، لكن أتعلم أنني لم أعجب به؟ أنا لست شريرًا مثله، لا أمد يدي على أموال المساكين. قوّتي بمعصمي، لست كالآخرين الذين يتشبهون بآل كابوني، أنا أواجه أعدائي برجولة".

"كلامك يوحي بأنك رجل شهم. لا تريد مني مالًا ، ولست من الثوار، إذن ما الموضوع الذي جئت لتكلمني من أجله؟"

"ابتعد عن امرأتي، هذا هو موضوعنا".

رفع سيراني المسدس في الهواء ثم ضغط بفوهته على خد كوتشسانلي. بينما حاول كوتشانلي إبعاد رأسه خوفًا، حاول أيضاً، معرفة المرأة التي من أجلها جاءه هذا الرجل. يعرف الكثير من النساء، لكن ليس لأي منهن هذا النوع من الرجال.

"أيمكن أن تكون أكثر وضوحًا في كلامك..."

"ماذا تريد أكثر وضوحًا، لقد سمعت ما قلته."

"أقصد لو تخبرني عن من تتحدث..."

بعد أن حدق سيراني فيه بعض الوقت، أنزل مسدسه وضعه على خصره خلف ظهره، عقد ذراعيه.

"سيد كوتشسانلي، أنت رجل معروف، ومن عائلة أصيلة. ولدت في باريس وكبرت هناك، لذا فأنت لا تناسب عالمنا. ولا عالمنا يناسبك أيضًا، أتفهم ذلك؟"

"أحاول أن أفهم".

"أشيع عن اسمك مع امرأتي، لم أصدق ذلك، لأنني أثق بامرأتي، لكن يقال إنك تلاحقها. لم أصدق ما قيل لي عنك في بداية الأمر أيضًا، حتى نُشر الخبر في الجريدة، فقررت عندئذ أن أراك. أطلقت الرجال كي يلاحقوا الثعلب، وعندما دخل الثعلب جحره السري اليوم، حان وقت اللقاء".

ظل كوتشسانلي يحاول التقاط طرف خيط لمعرفة المرأة موضوع كلامه، لكنه لم يفلح وظل يحدق فيه بانشداه.

"قلت إن اسمك سيراني، أليس كذلك؟ سيد سيراني، في الحقيقة، أنا لا أفهم شيئًا مما تقوله، أظن أن هناك سوء تفاهم".

"ما دمت تتكلم دون وجل كأنك لم تفعل شيئًا، لنرى إذن، ماذا سيكون ردك. ماذا تريد من بريهان سلطان، ولماذا تلاحقها؟"

حبس كوتشسانلي أنفاسه. قام بمسح الأسماء والصور في أرشيف ذهنه، وأعاد عرض بعض الصور أكثر من مرة، ثم أطلق ضحكة ساخرة بعد أن تأكد من سلامة سجلّه. لقد كانت ضحكة أظهرت عبثية ما سمعه، وأن لا مبرر للخوف الذي سيطر عليه طوال الوقت. استعاد رباطة جأشه، متنفسًا الصعداء، وشرع بالكلام.

"سيد سيراني، أعتذر عن ضحكي، أنا حقًا لا أصدق ما سمعته. هل تجشمت كل هذا العناء بسبب افتراء باطل؟ لقد شعرت بالخوف إذ ظننت أنك هنا لأمر خطير".

"سيد كوتشسانلي، أنت ترى أن لا أهمية لهذا الأمر؟ هل تسخر مني؟"

"لا سخرية في الموضوع. لقد قامت صحيفة إشيلتي بنشر خبر كاذب، وقد رفعت عليهم دعوى في المحكمة، وسيدفعون ثمن افترائهم ذلك".

"هل تحول الأمر إلى المحكمة؟ لماذا لم أسمع بذلك؟"

"لم تسمع به لأن الصحافة لا تعرفه أيضًا، سأعلنه عندما تنتهي القضية وتنال الصحيفة جزاءها".

"أنا لا تعنيني ما سيدور في المحاكم، عليك أن تجيب على أسئلتي. ما دمت تنكر هذه الأخبار، فمن أين يأتي هذا الدخان إذا لم يكن هناك نار؟"

"هذا من هراء الصحفيين الذين ينتجون أخبارًا وهم جالسون في مكاتبهم، لا يوجد تفسير آخر".

"فلنتحدث بوضوح أكثر. ماذا كانت تفعل بريهان سلطان في منزلك؟"

"لا أذكر إذا كان هذا قد حصل".

"ما الذي تقصده بأنك لا تذكر، ألم تحضر حفل عيد ميلادك وغنت لك؟"

"هل هذا ما تتحدث عنه؟ لقد ظننت أنك تتحدث عن مجيئها إلى بيتي بمفردها. عندما قلت إنها جاء إلى منزلي، ظننت أنها جاءت وحدها. في عيد ميلادي الأربعين، أقمت حفلًا كبيرًا في منزلي، ودعوت العديد من الفنانات والفنانين. كانت بريهان سلطان واحدة منهن. عندما جاءت، كنت أرحب بضيوفي، ولم تتح لي الفرصة حتى لاستقبالها. كان استقبال الفنانين من مهام مُساعِدِيّ. كانت حفلة كبيرة حتى أن أزنافور كان سيحضر، لكنه اعتذر في اللحظة الأخيرة لمرض أصابه".

"من هو أزنافور هذا؟"

"لا أظن أنك تعرفه، الفنان الذي يغني في هذه الأسطوانة، إنه باريسي، تعرفت عليه هناك".

"أي باريس هذه؟"

"ماذا تقصد يا سيد سيراني، أنا أتحدث عن عاصمة فرنسا".

نظر كوتشسانلي بشفقة إلى جهل الرجل الجالس مقابله، وقد بدا أصغر منه بعشر سنوات.

"أجل، فهمت" قال سيراني قاصرًا عينيه الحادتين.

"سيد سيراني، حتى أزنافور كان سيأتي من باريس لحضور عيد ميلادي. بعد هذا الاحتفال الكبير، اختلق صحفي نكرة قصة حولي. بعد ذلك، جاءني مدير الصحيفة مرتين، وقدم اعتذاره وأكد أنه قد طرد المراسل الذي نشر الخبر، لكنني لم أتراجع، ولن أسحب الدعوى".

"إذا كان الأمر كذلك، قل لي لماذا صورة بريهان سلطان معلقة في منزلك؟"

"أصل الافتراء بدأ من هنا. سيد سيراني، أدعوك غدا إلى منزلي لتكن ضيفي. تعال وانظر بعينيك. حيطان بيتي مليئة بصور لكبار عائلتي، ولوحات لمشاهير الرسامين جمعتها على مرِّ السنين. أنا أعني ما أقول، أدعوك ورفاقك غدًا مساء، على أية حال، فأنتم تعرفون العنوان".

"ما دمت تستمع إلى المغنين الباريسيين، وتجمع لوحات لرسامين مشهورين، ماذا كانت تفعل مغنية كازينو مثل بريهان سلطان في حفلك؟"

"مشاركتها لم تكن فكرتي. عندما كان المساعدون ينظمون برنامج الاحتفال ارتأوا أنه من المناسب دعوة أنماط مختلفة من الفنانين، وقالوا إنه من الضروري دعوة فنان مشهور من الكازينوهات. فاقترحت عليهم بريهان سلطان".

"ها، ها قد وصلنا إلى صلب الموضوع" قال سيراني منتصبًا في مقعده، "كيف تعرفها، ولماذا اخترتها من بين عشرات الفنانات؟"

"سيد سيرانى، ولهذا عندي تفسير أيضًا. أنا لست من ذلك النوع من الرجال الذين يذهبون إلى الكازينوهات والنوادي الليلية، لا سيما أنني لست مهتمًا بموسيقى الأرابيسك الوليدة حديثًا. منذ مدة ليست بالبعيدة، استضفت عددًا من المعارف من خارج البلد، ورغبوا في زيارة جوانب مختلفة من إسطنبول والذهاب أيضًا إلى أحد الكازينوهات. أحضر لي مساعدي قائمة بالكازينوهات. تلك القائمة كانت مليئة بكازينوهات تحمل أسماء غريبة، لكن الكازينو الذي يحمل اسم باريس، أثار فضولي فاخترته. اصطحبت ضيوفي إلى كازينو باريس، أحب الضيوف صوت

بريهان سلطان كثيرًا، ونظرًا لشدة إعجابهم بصوتها، ارتأيت أن مشاركتها في الاحتفال في عيد ميلادي سيسعد ضيوفي. لتعلم أن مشاركتها بالحفل لا علاقة له بمعرفة شخصية بها".

"هل تريد القول إن ذهابك إلى كازينو باريس ليس له علاقة ببريهان سلطان أيضا؟"

"لم أسمع بهذا الكازينو قط، وقد اخترته من القائمة فقط لأنه يحمل اسم باريس المدينة التي أحبها".

هذه المرة، جاء دور سيراني ليضحك. ضحك كثيرًا حتى انزلق المسدس من حزامه وسقط على الأرض. أسقاط السلاح لا يليق بالرجال، لذا سرعان ما ستعاد جدّيته، وأعاد مسدسه إلى وسطه.

"سيد كوتشسانلي" قال، "قد تأسف لجهالتي. صحيح أنني لم أذهب إلى مدارس ما بعد الابتدائية، وربما يصعب عليّ تلفظ اسم المدارس التي ذهبت إليها، لكن هناك شيء لا تعرفه. هذا الكازينو لا يحمل اسم باريسك أنت، بل اسم باريسي أنا".

"لقد عدت إلى الحديث الغامض مرة أخرى، يا سيد سيراني".

اتكأ كوتشسانلي إلى الخلف مسترخيًا، ودس إحدى يديه في جيب صداره كأنه يتحدث إلى أحد مساعديه في مكتبه. بينما خلص سيرانى من حاله المتوترة، وأحنى كتفيه مسترخيًا أيضًا، وبدا كأنه يتجاذب أطراف الحديث في جلسة حوار شيق مع صديق مقرّب.

"باريس هو اسم قريتي" قال، "لا أحد يصدق هذا. عندما أخبرت رفاقي ذلك، ظنوا أنني أمزح أيضًا. هل سمعت ببلدة إروه في إقليم سيرت، إن قريتنا مرتبطة بمقاطعة إروه في إقليم سيرت".

رفّت عينا كوتشسانلي انشداهًا كأنّه لم يفهم ما قيل. أدرك سيراني ذلك.

"أقول قريتي، قرية باريس تقع في حدود مقاطعة إروه".

حاول كوتشسانلي أن يبتسم.

"سيد سيرانى" قال، "كأنك جاد في كلامك، أصحيح ما تقوله؟"

"بالطبع أنا جاد. انظر هنا".

أخرج سيراني هويته من جيبه وأشار إلى اسم قريته بإصبعه.

أخذ كوتشسانلي هويته ودقق النظر إليها.

"ليست مزيفة" قال.

"بالتأكيد ليست مزيفة" قال سيراني ثم وضع البطاقة في جيبه وواصل كلامه، "مالك كازينو باريس، السيد كالندر، من أبناء قريتنا، وصديق طفولة لوالدي الراحل. أطلق السيد كالندر اسم باريس على هذا الكازينو تيمنًا بقريتنا، وبما أنه يملك عقلا تجاريًا، فقد وضع صورة لبرج إيفل على لافتة الكازينو حتى يظن أمثالك أنها باريس عاصمة فرنسا".

"لقد تعلمت منك شيئًا جديدًا يا سيد سيرانى، أشعر بالفضول وأود زيارة باريسك يومًا ما".

"لا تتعب نفسك بلا جدوى، إنها مجرد قرية صغيرة من خمسين زريبة. وبلا كهرباء".

"باريس بلا كهرباء، هذا أكثر إثارة".

"إذا كنت حقًا تتوق لرؤيتها، فاذهب لتراها بعينك" قال سيراني ثم قام واستأنف القول، "لقد حان وقت الذهاب، سنغادر الآن".

قام كوتشسانلي أيضًا. "سيد سيراني" قال "لا مشكلة لي معك قطعيًا،

وأظن أنه لم يعد لك مشكلة معي، لننه هذه الليلة وديًّا".

"أنت محق يا سيد كوتشساني، لا مشكلة لي معك بعد الآن، لقد فهمت مشكلتي على أية حال. سنغادر الآن، ولا علاقة لأحد بحياة الآخر أو أسرته بعد الآن".

"أنا سعيد لتفاهمنا" قال كوتشساني.

شدَّ كوتشساني على يدي سيراني ورجاله واحدًا واحدًا. بعد أن غادروا، أقفل الباب بالمفتاح وسحب المزلاج العلوي. فكّر في استدعاء مساعديه ثم تراجع. كان على يقين من أن سيراني لن يعود. ذهب وصب لنفسه قدحًا آخر. رفع صوت الحاكي. أخذ رشفة من نبيذه وجلس على كرسيه يتابع أضواء السفن من النافذة المواجهة للبحر. غنى مع أزنافور مرنمًا أغنيته: أحب باريس في شهر مايو / عندما تولد البراعم من جديد / شباب جديد / يهيمن على المدينة القديمة.

مقبرة مركز أفندي

إسطنبول

1972

قال المعلم جوزيف إن سيد الحياة الحقيقي لا النور والظلام، ولا الهواء والتراب، ولا الماء والخبز على الإطلاق، إنما هو النار. وقال إنه لو لم يؤمن بالمسيح على الصليب، لعبد النار كي يظهر لأقدو جمال النار. عندما حدق أقدو في النار، رأى أشكالًا ظهرت واختفت في اللهب كأنها تعكس قَدَره. حاول معرفة مستقبله فيها، لكنه أدرك في نهاية الأمر أن لغة النار من أصعب اللغات. مع تقدمه في السن، آمن بعدم قدرته على بلوغ السر الذي يدعى بالغد، وقنع بالغرق في الأحلام إلى جوار النار.

في السجن، عندما كان أقدو يتجاذب أطراف الحديث مع زملائه النزلاء الآخرين، ويدور الحديث عن أماني الحاضرين، كانت أمنيته هي إشعال نار كبيرة والجلوس إلى جوارها ليمعن النظر في لهبها كي يسمع صوت مطرقته وهي تهبط على الرخام، وكي يرى المرأة التي يحبها تتقدم نحوه من بعيد.

عندما كان ينتظر تنفيذ الحكم بإعدامه، كان يفكر بطلب إشعال نار هادرة في فناء السجن كمطلب أخير له كي يحقق حلمه. - أليس من حقه

طلب أخير قبل إعدامه؟- وحين يتأمل النار، ستتجسد أيامه الضائعة أمام عينيه، فيلتقط منها بعضًا من السعادة، فيمد عنقه إلى الحبل. حديث أقدو هذا، كان قد أحزن زملاءه في العنبر، فتهامسوا بينهم بأن الرجل العاشر يعاني من الاكتئاب. لقد أطلق على نفسه اسم الرجل العاشر إذ تم إعدام تسعة أشخاص على مدى تاريخ سجن أنقرة المركزي المغلق، وعندما تحين ساعة إعدامه سيكون الرجل العاشر. بعد صدور قانون العفو، لم يغب الإعدام عن ذهنه، وظل يتوقع أنه سيوقظ من نومه العميق ذات ليلة، ويقتاد إلى فناء السجن ليعلق على حبل المشنقة.

اعتادت الأرواح في مقبرة مركز أفندي على نار أقدو التي يشعلها مرة كل شهر. يتحدث إلى الأرواح من خلال النظر إلى النار، ويستمع إلى أسرارهم، ويبوح لهم بأسراره. عندما استقبل أقدو الربيع بإشعال نار عيد الخضر وإلياس، على مدى ليلتين متتاليتين، تجمعت الأرواح بدافع الفضول، وانتظروا سماع ما سيقوله أقدو، بعد أن أضاءت وجهَه ألسنةُ اللهب. ألقى أقدو بعضًا من عيدان الحطب في النار، وحين غرق في نشوة اللهب الذي تجاوز ارتفاعه طول قامته، صاح تعالوا يا أرواح، تعالوا! الأموات لا همَّ لهم، تعالوا لتستمعوا إلى هموم الأحياء! حاول أقدو أن يلملم ما في عقله من أفكار، وحين شاهد النيران تتخذ أشكالًا غريبة، ضاعت منه الكلمات، فكل ما يعرفه في هذه الحياة لا شيء سوى الحنين. عاد وصاح، تعالوا جميعكم، سنتحدث عني الليلة، لتخرجن كل الأرواح من قبورهَا لا يتخلفن أحد منكم عن المجيء، ولنجتمع حول النار!

أثار ذلك اهتمام النجوم فهبطت، ومدت أشجار السرو والصنوبر والتنوب وشجرة يهوذا الوحيدة في المقبرة أغصانها نحو المجتمعين حول النار،

وأصاخت السمع إلى حديثهم. كان ماء النبع يتدفق بهدوء، ويجري في الأقنية بصمت. الثعابين والفئران والديدان تحت الأرض تعقبت الأرواح وخرجت فوق الأرض واقتربت من النار. لم يكسر صمت الليل سوى صوت البوم. لقد ضبح البوم طويلًا، ونشر غطاء ليليًا كئيبًا على ألسنة اللهب بصوته المبحوح.

قال أقدو، أيتها النار، لم أعد الرجل العاشر. كنت أنتظر دوري لسنوات. لقد أطلقت أسماء الكواكب على الذين أُعدموا قبلي، تخليدًا لذكراهم. كان أول رجل تم إعدامه عطارد، الكوكب الأقرب إلى الشمس، وآخر رجل تم إعدامه كان بلوتو، الكوكب الأكثر بعدًا. أخبرني أصدقائي في السجن أن لا وجود لكوكب عاشر. لقد قالوا إن الكواكب التسعة قد اكتملت، لذا ستنجو وتعود إلى بيتك. لم أصدقهم، وانتظرت دوري بصبر. عندما كنت أنظر إلى السماء من نافذة العنبر ليلًا، كنت أبحث عن الكوكب العاشر بين النجوم. لم يكتف المعلم جوزيف بتعليمي نجوم الأبراج الاثني عشر ومسارات النجوم التي ترشد القوافل إلى الطريق، بل علمني أيضًا خرائط العلماء الأوائل التي تشير إلى ثمانية وأربعين مجموعة نجمية، وعلمني الكواكب التسعة، لكنه لم يرِني ما بعد الكواكب التسعة. ماذا يأتي بعد التسعة كواكب؟ ربما الموت!

أيتها النار، اسمعيني! لقد كنت الرجل العاشر في الماضي. كانوا سيوقظونني من أحلامي في إحدى الليالي، ويقتادوني إلى فناء السجن في الظلام، ويعلقوني إلى جوار شجرة الحور العظيمة. الموت كان سيأتي بعد الكوكب التاسع، كنت سأجد السلام هناك وألتقي بروح حبيبتي. هذا ما كنت أفكر فيه دائماً جوار النار، وما فكرت فيه الليلة الماضية أيضًا. لكن

كيف لي أن أعرف أنه بينما كنت جالسًا بالقرب من النار الليلة الماضية، أنهم قد أيقظوا شابًا في السجن نفسه حيث كنت، وقالوا له إنه الرجل العاشر ثم اقتادوه إلى فناء السجن ولفّوا حبل المشنقة حول رقبته. لقد علقوا الرجل العاشر الليلة الماضية، بينما كنت هنا غارقًا في تأمل ألسنة اللهب، وتركوني هنا معك كمعلم حجر. يا أيتها النار! يا للنار العظيمة!

أمس، ليلًا.

تصدّر سجن أنقرة المركزي المغلق التاريخ بإعداماته. اقتادوا دنيز غزميش من زنزانته عند منتصف الليل، لتنفيذ حكم الإعدام العاشر. قبل أربع سنوات، عندما بدأ شباب 68 حراكهم الذي انطلق من باريس ليعم أوروبا بأكملها، كان الشباب في إسطنبول في حالة استعداد تحت قيادة دنيز غزميش. اعتصم الشباب في الجامعات، فتصدت لهم الشرطة والجماعات اليمينية وحاولوا فك اعتصامهم بالقوة.

حين وصل الأسطول الأمريكي السادس إلى إسطنبول، استقبله الطلاب اليمينيون بالصلاة على الشاطئ، بينما قام دنيز غزميش ورفاقه بإلقاء الجنود الأميركيين في البحر. أصبح دنيز غزميش أسطورة في أعين الناس، وذاع صيته في طول البلاد وعرضها حتى وصل إلى القرى النائية في مجاهل البلاد، وشاع بينهم ظهوره ورؤيته في كل مكان، كأنه أحد الأولياء. أطلق اسمه على المواليد الجدد، الذكور منهم والإناث، وأصبح يمثل خطرًا في عين السلَطة فتعرض للسجن مرارًا.

ظل دنيز يواصل تقدمه في الأهداف التي رهن روحه من أجلها، فعبر الحدود والتحق بالمنظمات الفلسطينية خلال مقاومتهم لقوات الاحتلال

الإسرائيلي، وشارك في كثير من المعارك وعمليات المقاومة المسلحة. اعتبرته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية مصدر تهديد للسياسة الأمريكية في دول العالم الثالث، وصارت تلاحقه أيضًا. بعد تعيين ألدريتش أيمس، أحد أشهر عملاء وكالة المخابرات المركزية في تاريخها، في تركيا، توصل إلى زميل دنيز غزميش في السكن وتمكن من تجنيده كي يتتبع أنشطته وتحركاته.

صار اسم دنيز غزميش محور الأجندة السياسية في البلاد، بعد إعلانه بضرورة انتقال الجمهورية التي تأسست قبل خمسين عامًا إلى مرحلة أخرى، تحقق للفقراء المزيد من الحقوق والمساواة في ظل نظام اشتراكي. لم يكن من المستغرب أن يوضع دنيز غزميش على رأس قائمة أهداف الانقلاب العسكري الجديد عام 1971. عُلّقت ملصقات تحمل صورته في جميع أنحاء البلاد، ورُصدت جائزة نقدية لرأسه. على الرغم من أنه ورفاقه لم يرتكبوا جريمة قتل في حياتهم، إلا أنه حُكم عليهم بالإعدام بمجرد القبض عليهم. إجراءات المحاكمة نفسها لم تثبت أن هؤلاء الشباب قد ارتكبوا جرائم قتل، تستحق الإعدام، لكن النظام الانقلابي الجديد أراد أن يحاكم من خلالهم كل حركات التمرد الشبابية بعد أن أصبحت تنذر بالتحول إلى تمرد أوسع يشمل قطاعات أخرى من المجتمع.

كان دنيز غزميش يقول لرفاقه إن مصيره حبل المشنقة. وعندما يقتاد إلى حبل المشنقة سيكون آخر طلب له هو شرب الشاي والاستماع إلى كونشيرتو دي أرانخويز أو الجيتار لخواكين رودريغو. كان دائمًا ينتظر تلك اللحظة، عندما أيقظوه في منتصف الليل، واقتادوه من زنزانته إلى حجرة رئيس الحرس، طلب ورقة وقلم. بينما كان دنيز غزميش يكتب رسالة إلى والده، كان يلتفت من حين لآخر وينظر إلى فناء السجن من نافذة الغرفة.

في الفناء، كانت شجرة الحور العظيمة إلى جانب المشنقة، شاهدة على كل شيء. لقد قال دنيز غزميش في خطاب الوداع: "أبي، مواساة والدتي واجب يقع على عاتقك"، وأضاف: "ليس المهم أن نعيش طويلًا، بل أن نستطيع تحقيق أمور في حياتنا عظيمة. لذلك أنا أتقبل ذهابي المبكر وأراه أمرًا عاديًا".

كان دنيز غزميش حين إعدامه، يبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا.

مقبرة مركز أفندي

إسطنبول

1972

سيطرت الرياح الجنوبية الغربية المصحوبة بالأمطار الشديدة على المدينة في نهاية الأسبوع. اقتلعت الأشجار، وتطايرت أسطح المنازل، وغمرت المياه البيوت في الأحياء الفقيرة. بعد أن اضطر أقدو للبقاء في البيت ليومين متتاليين، وقف في الشرفة بعد توقف المطر، وأدار نظره في أرجاء المقبرة الموحلة والمليئة بالأغصان المكسورة، بينما الغيوم لا تزال تحجب السماء، والظلمة تغلف أرجاء المقبرة فتخفي مجاهلها.

في تلك الأثناء، سمع أقدو آنّات واهنة بين فوضى الأصوات القادمة من بعيد. لم يتمكن من تحديد إن كان الصوت لكلب أو لجرو صغير. خاض في ماء المطر وداس في الوحل حتى مصدر الصوت الآتي من خلف البيت. نقّل ضوء المصباح متفحصًا أرجاء الورشة. كان صوت الكلب متألمًا، ربّما غصن شجرة قد وقع فوقه، وما عاد قادرًا على الحركة. حين سلّط الضوء على بقعة سوداء جوار قبر قديم، رأى كلبة وثمانية جراء. لقد ماتت الأم وستة من جرائها جراء المطر الشديد الذي هطل طوال اليوم، ولم يبقَ على قيد

الحياة سوى اثنان منها. كان هذان الجروان يصارعان للبقاء على قيد الحياة وقد لثما ثديي أمهما غير مدركين موتها. حمل أقدو الكلبين بين ذراعيه إلى البيت، وغطاهما ببطانية، ثم أعد لهما طعامًا من مزيج الطحين والماء، وراح يلقمهما المزيج بالملعقة. على الرغم من أن ذلك المزيج لم يكن بلذة حليب أمهما، إلا أن الجروين الجائعين أكلاه واستغرقا في نوم دافئ.

في صباح اليوم التالي، غابت الغيوم فلمعت السماء، ودفّأت الشمس الجو بحرارتها بسخاء، كأنها تنتقم من العاصفة الهوجاء التي حجبتها ليومين. عثر أقدو على قبر قديم ما عاد يزوره أحد، فدفن فيه الكلبة الأم وجراءها الستة. منذ أن أفل نجم الحضارة الفرعونية في مصر، نسي الناس أهمية مشاركة القبر مع الكلاب. حمل أقدو الجروين بين ذراعيه وذهب بهما إلى النبع حيث قام بتنظيفهما وغسلهما بالماء، وغنى لهما.

وقفت امرأة وابنتها جانبًا حتى ابتعد أقدو عن النبع، ثم انتظرتا جريان الماء لبعض الوقت، كي يزيل أوساخ الكلاب. ملأتا كفيهما بالماء، وقرأتا على الماء بعض الأدعية، ثم استدارتا نحو القبلة وعبّتا الماء من كفيهما. وقف أقدو حاملًا الجروين بين ذراعيه يراقبهما. تلك هي أول مرة يرى فيها أناسًا يتبركون من ماء نبعه. سأل المرأة عن تفسير لما رآه، فأسهبت المرأة بالحديث عن قداسة هذا النبع الذي يتغذى من دموع ذوي القلوب الطاهرة منذ قديم الزمان، وأن قوة الأرواح تحت الأرض تجعل منها ماء طهورًا، وأن لا شك في ذلك إذ لا ماء في كل إسطنبول أطيب مذاقًا من مذاق مائه، وأن هذا النبع قد فجّره حواريو عيسى عليه السلام قرب شجرة يهوذا هذه، ثم أمر السلطان محمد الفاتح بعد فتحه لإسطنبول بإعادة ترميمه وإصلاحه. مع مرور الزمان، واختلاف الأقوام التي تعاقبت على المنطقة، نسي الناس

قداسة ماء نبع يهوذا هذا، لكنها سمعت عنه بطريق الصدفة من جارة لها كانت تقيم في هذا الحي، وأن هذه المياه المباركة تغسل حزن الحزانى، وتشفي المرضى، وتفك نحس العوانس.

ارتفع صوت أفدو غضبًا لأول مرة، إذ لم يسبق له أن اختلف مع أحد في هذه المقبرة. نهرهما وطلب منهما ألا يعودا ثانية إلى هذا النبع، وإذا ما كان لهما حاجة أو طلبًا للمدد فعليهما زيارة قبر مركز أفندي والدعاء عنده. ردّت المرأة وابنتها عليه بصوت أعلى من صوته، عيّرتاه برث ملبسه، ووبختاه لغسله الكلاب النجسة في النبع ما يلوث ماءه المبارك. ضحك أفدو ملء شدقيه. خافت المرأتان من غرابة ضحكه فابتعدا مهرولتين. ربما لن تزورا نبع يهوذا مرة أخرى، خوفًا من الالتقاء بهذا الرجل المجنون مرة أخرى.

جاء البحار الأشقر ذات مساء، بعد غياب امتد شهورًا. فرح أفدو برؤية صديق حياته الوحيد واحتضنه طويلًا، ثم أعدّ له مائدة سمر تحفل بأطايب الطعام. أربع سنوات مضت مذ تعارفا، يلتقيان كلما ألقى البحار الأشقر مراسيه على شواطئ إسطنبول. لقد أمضى أفدو سبع سنوات بنُهُرها ولياليها في السجن مع أناس لم يستطع تشكيل صداقة مع أحد منهم، لكنه لا يعرف لماذا أحب هذا البحار من أول لقاء جمع بينهما.

"كيف يختار المرء صديقه؟ يلمع هذا السؤال في رأسي بين الفينة والأخرى، لكن لا أجد له جوابًا".

"قد نعيش بعض الأمور دون أن نعرف لها سببًا. مثل حب البحر، واحتساء العرق، والوقوع في العشق" قال البحار الأشقر.

"هل عشت كل ذلك؟"

"ماذا تقول؟"

"لقد ذكرت ثلاثة أشياء، حب البحر والعرق والعشق، حسنًا، أواقع أنت في عشق امرأة؟"

"لا أظن ذلك. أعجب بنساء في كل ميناء حيث يتواجدن، وأفتقدهن أحيانًا، لكنني لم ألتقِ بعد بامرأة سأقضي معها حياتي كلها. لا أعرف ما إذا سألتقي بها بعد هذا العمر. أنت وحيد مثلي، يا معلم أقدو، لكن لديك من تحب، وقد تعلقت حياتك بها حتى بعد وفاتها. هذه طريقة للعيش بسعادة. أراد والدي أن يُدفن في المقبرة نفسها التي تضم رفات خطيبته، وأنت تشبهه. لو حالفني الحظ لفعلت مثلكما".

"ما هذا الكلام! تتكلم مثل رجل عجوز فاقد الأمل؟ تريَّث، كم من البحار التي ستخوضها، وكم من النساء اللواتي ستخطف قلوبهن، وبالتأكيد واحدة منهن ستخطف قلبك بالمقابل. لا تكثر من شرب العرق، اشرب من هذا الماء بدلًا منه، وقد ملأته للتو من رأس النبع، سوف يفك حظك".

"أي ماء، وأي حظ تتحدث عنه؟"

"هذه مياه مباركة فيها شفاء".

"معلم، ماذا تقول؟"

قال أقدو وابتسامة عريضة تملأ وجهه، "لقد أتت اليوم امرأة وابنتها إلى النبع وقرأتا على مائهِ أدعية. تعتقدان أن هذه المياه مباركة، تشفي المرضى، وتفك ثقاف العوانس. لقد وجد حواريو عيسى عليه السلام مصدر هذا النبع. تعلم أن الغضب ليس من شيمي، لكن عندما سمعت هذا الهراء، غضبت وصحت، وعلت أصواتنا. يبدو أن لهذا النبع اسمًا هو نبع يهوذا، هل تصدق ذلك؟"

"لماذا لم تخبرهما أنك أنت من بنيت هذا النبع؟"

"هل ستصدقان ذلك؟"

"أنت محق، حتى لو صدقتا أنك أنت من بنيته، ستؤمنان بعد فترة، أنك من حواري عيسى عليه السلام، وأنك تأتي إلى هنا من وقت لآخر لتحادث الأموات والأحياء، ومن ثم تنتشر الشائعات عن بركاتك".

"حواري يدفع فاتورة مياه النبع، أليس كذلك؟ إن أنبوب ماء النبع متصل بمحبس ماء بيتي، وأدفع ثمن الماء إلى البلدية. لكن البلدية لا تقدم خصمًا للحواريين".

ضحكا حتى سالت الدموع من عيونهما، ثم رفعا كأسيهما المملوءة من مياه النبع وشربا الماء بدلًا من العرق.

" أقدو الحواري!" قال البحار الأشقر، "في الواقع، اسم جميل، ويليق بك".

"في الواقع، لقد غضبت من المرأتين لتحقيرهما الكلاب. لقد نظرتا إليّ باشمئزاز لأنني لوثت مياه النبع حين غسلت جروين صغيرين لا يبلغا من العمر أكثر من يوم واحد. كيف تتلوث المياه التي لا تتوقف عن التدفق؟ من لا يحب الحيوانات هو المثير للاشمئزاز. الشيخ أشرف كان أكثر عطفًا وتفهمًا منهما".

"ماذا فعل الشيخ أشرف؟"

"عندما رأى هذين الجروين الصغيرين، فرح وأشفق عليهما، وأحضر لهما حليبًا طازجًا وأطعمهما بيده. ثم أنه أسكتني حين أردت إخباره عن مكان دفني للأم وجرائها الستة. لم يرد أن يعرف كي لا يسبب لي الحرج، لكنه في صباح اليوم التالي، حين رأى القبر القديم قد نُبش، أدرك ما فعلته، فأسرع إليّ وقال محذرًا، احتفظ بما فعلته لنفسك، وإياك أن يعرف أحد

ذلك. لا أحد يوافقك على فعلتك من الوجهة الدينية".

"أين دفنتها؟"

"رأيت قبرًا قديمًا، وقع شاهده، والعشب يغطيه، وترابه قد تحلل، فدفنت الكلاب فيه، وغطّيته بالتراب والعشب. ألا يجوز دفن الإنسان والكلاب معًا؟"

"ما زلتُ أحمل روح الماضي، فأنا أترك في البحر من يموت على ظهر سفينتي للأسماك، على الرغم من أن ذلك قد أصبح من الأعراف المهجورة في العديد من السفن. ألا نترك الإنسان في حضن الديدان والحشرات والأفاعي في التراب، فلماذا يكون الكلب سيئًا؟ ولعل أنسب حيوان في المقابر هو الكلب. في الأساطير اليونانية القديمة، تحرس الكلاب بوابة عالم الأموات، كي تمنع الأموات من الهرب. أنت فعلت مثلهم، لقد وضعت الكلاب في أرض الأموات، فلن يستطيع أحد الهرب من هناك، لذا يمكنك النوم بسلام".

"توقف عن السخرية مني، ارفع قدحك، لقد شربت من الماء الشافي، وحان وقت العرق".

"بصحة الكلبين اللذين تمكنا من البقاء على قيد الحياة!"

"بصحتهما!"

"البحار الأشقر، أنت صديقي، أيمكن أن نتشارك في شيء آخر؟"

"لا مانع عندي، ما الذي سنتشاركه؟"

"أفكر في الاحتفاظ بأحد هذين الكلبين، وإعطاء الآخر لأي شخص يريده. أنت أول من أعرضه عليك. هل تريده؟"

"حقًا؟"

"أجل".

"سآخذه في الحال، سآخذه معي إلى البحر. سيصاب بدوار البحر في بداية الأمر، ثم يعتاد على ذلك".

"عظيم. ليلتنا باتت أكثر جمالًا".

"لي شرط واحد يا معلم أقدو، لا أريد كلبًا بلا اسم، أطلق أنت اسمًا على كلبي. هل توصلت إلى اسم لكلبك؟"

"لكلبي اسم جاهز. كان لمعلمي جوزيف في ماردين كلب، وكان يعتني بنا معًا. سأسمي كلبي هذا توتيفي تيمنًا بكلب معلمي".

"توتيفي! اسم غريب، ماذا يعني؟"

"لا أعرف، عندما سألت المعلم جوزيف، قال إنه لا يعرف أيضًا. أنا أتحدث العديد من اللغات، ولم أتوصل إلى أصل هذا الاسم. هل يذكرك بأي شيء؟"

"دعني أفكر. لا، ليس اسمًا مألوفًا لي".

"يتحدث أهل البحر بلغات تختلف عن اللغات التي يتحدث بها أهل اليابسة. أنت تتحدث الإيطالية والإسبانية والبرتغالية والفرنسية والإنجليزية، بينما أنا أتحدث العربية والأرمينية والكردية واليونانية والسريانية. إذا تنقلت أنت بين بلاد الأناضول وبلاد ما بين النهرين، فلن يفهم أحد لغتك، وإذا ما أبحرت أنا في المحيطات على ظهر سفينتك، فلن يفهم أحد لغتي. أترى، نحن نكمل بعضنا بعضًا".

"معلم أقدو، لسانك اليوم طلقٌ، لكن كأنك تخفي انزعاجًا، أم أنني مخطئ؟"

"على العكس، أنا سعيد اليوم، عندي كلب وأنت في إسطنبول".

"ما دمت سعيدًا، فامنح كلبي اسمًا سعيدًا".

"اسمه جاهز بالفعل!"، قال أقدو رافعًا ذراعيه إلى السماء.

"ما هو؟"

"هافاري".

ضحك البحار الأشقر فرحًا بهذا الاسم، وشاركه أقدو الضحك.

مقبرة مركز أفندي

إسطنبول

1973

عاد البحار الأشقر بعد رحلة طويلة دامت عامًا. أيا كانت البحار التي خاضها والقارات التي زارها، فقد تغيرت حاله خلال هذا العام. شعره أصبح قصيرًا بعد أن كان ينسدل حتى كتفيه، وشاربه يلمع من زيت اللوز، وذقنه حليقة. وشاحه المتسخ قد اعتق عنقه، وخاتم ذهبي شارك الخواتم الفضية بشغل أصابع يده.

"انظر يا معلم أقدو، ماذا فعلت بي!"، قال البحار الأشقر، وأراه خاتمه الجديد، "إن مياه هذا النبع مباركة حقًا، وتفك الحظوظ المغلقة. في العام الماضي، لم نصدّق الشائعات حول بركتها، وضحكنا. لكن بعد أن شربت من ذلك الماء بضعة كؤوس، دار قدري. في الليلة نفسها، امتلكت كلبًا، الكلب هافاري رافقني مثل ظلي حتى نزلنا في البندقية. كانت السفينة في الميناء بانتظار تحميل شحنة، فنزلت أتجول في شوارع المدينة. بعد برهة من الوقت، تلفّت حولي فلم أجد هافاري. ناديت عليه فردّ عليّ نابحًا. تتبعت مصدر نباحه حتى دخلت حديقة، فإذا به رابضًا في حضن أجمل امرأة

رأتها عيني. حين أشرت له كي يتبعني، قالت المرأة إنه يريدها ولن يذهب معي، وبدا على ثغرها ابتسامة دفعتني للقول إني على استعداد لأقدم لها لا هافاري فحسب بل كل ما تبقى لي من أيام عمري. دعتني لشرب الشاي الطازج، وقالت إن اسمها روبرتا، فقلت لها إن اسم روبرتا أجمل من اسم بياتريس ملهمة دانتي. ربما تسرعت في التعبير عن مشاعري حتى قبل أن أكمل شرب الشاي. لقد اندفعت في كلامي بجرأة كأنني لست أنا حتى خشيت أن تطردني وكلبي. لكنها قابلتني بمنتهى اللطف والكياسة، وقالت إن اسم ليفانت كرسالة مفعمة بالكلِم الطيب. لقد كانت روبرتا أول من يخاطبني باسمي منذ سنوات. لقد سلمتها اسمي هناك، قضيت ذلك المساء أشرب الشاي في حديقتها، والليلة التي تلتها أيضًا. عندما أزفّ وقت إبحار سفينتي احترت وما عدت أعرف ما أفعل. لا البحر الأبيض ولا الأسود ولا كل المحيطات عادت تشدني. قلت، روبرتا، إن سفينتي تنتظرني، لكنني لا أريد الذهاب. قالت، ليفانت، هل ستعود إذا ما ذهبت الآن؟ فقلت ما عندي مكان آخر لألقي مراسي. رفعت رأسها نحو السماء وأشارت إلى الناحية الجنوبية الشرقية، وقالت هل ترى النجم الأبيض هناك؟ أنت بحار، وتعرف أن ذلك النجم يدعى نجم الكلب. لي شرط واحد، أن تترك كلبك عندي. سأتابع هذا النجم وهافاري بانتظار عودتك. ثم أخذت هافاري إلى جانبها وراحت تداعب عنقه، وتابعت الكلام، لا تنسَ أنه من جلبك إليّ. أجبتها بالمشاعر نفسها، وهو من عثر عليك من أجلي".

حين حاول البحار الأشقر التقاط أنفاسه بعد أن تحدث طويلًا ودون انقطاع، رفع أقدو قدحه وقال، "لا تدع شفتيك تجفّان، خذ جرعة من هذا".

بعد أن استأنف البحار الأشقر كلامه، لم يلاحظ امتلاء عيني أقدو بالدموع.

"بت أفهمك يا معلم أقدو، وأفهم أبي أيضًا. لقد أراد أن يُدفن في المقبرة نفسها مع خطيبته، التي فقدها قبل خمسين عامًا. وأنت تريد قضاء بقية حياتك هنا إلى جوار قبر المرأة التي أحببت. كنت أغبطك لكن كنت أرى أنه ينبغي لك أن تعطي لنفسك روحاً جديدة. اعتقدت أن ركوبك البحر معي سيفتح أمامك أفاقًا جديدة وستخط لنفسك حياة مختلفة. كنت أرى الحياة من زاوية تختلف عن رؤياك، ولم يكن باب قلبي المغلق قد فتح بعد. بعد أن رجعت إلى روبرتا، حدثتها عنك، وعن إقامتك في مدينة غريبة عنك بانتظار أن تدفن إلى جانب المرأة التي أحببت. هذا ما بت أعيش من أجله؛ أن أعيش مع روبرتا وأن أُدفن قريبًا منها. حدقت روبرتا بفضول في عينيّ، وقالت، اعتقدت أن البحارة يرغبون في الدفن في البحر. لقد انطفأت تلك النار التي في داخلي حبًّا بالبحر والدفن فيه. لقد نسيت البحر وما عاد يعني لي شيئًا. في تلك اللحظة، أحسست بالرهبة؛ الرهبة من ما يمكن للحب أن يفعله بالرجل. أبدت روبرتا لطفًا حين قالت، أريد أن أُدفن في البحر أيضًا، في البحر حيث ستُدفن أنت. بتُّ أدرك أن لا فرق بين البحر واليابسة، فالمكان الوحيد الأجمل في العالم هو جوار المرأة التي أحب. هل تعلم أن البحارة يحبون سرد هذا النوع من الحكايات، وتجميلها، والمبالغة في نقل أحداثها. عندما كنت أسمع حكاية كهذه، كنت أظن أنها بعيدة عن الحقيقة، وأنها محض خيال. انظر يا معلم أقدو إلى ما حدث لي، لقد تحولتُ إلى حكاية أشكّ فيها، فأسأل نفسي أحيانًا، هل هذا حقيقة! معلم أقدو، بمختصر الكلام، لقد أصبحت أشبهك".

في تلك اللحظة، لاحظ البحار الأشقر الدموع في عيني أقدو. وضع يده على معصم صديقه.

"لقد نكأت جرحك بكلامي الغبي" قال.

"كلا، لقد تأثرت من الفرح. أسعدني رؤيتك على هذه الحال. أنت طيب القلب يا البحار الأشقر!"

قرعا قدحيهما. تناولا اللحم الناضج على نار الشواء. لم يكتفيا، فطافت أصابعهما فوق الصحون والأطباق وحركاتٍ وإطباق في الأشداق تلاحقها.

كان الهواء باردًا، لكن نار المنقل والنبيذ والأحاديث الشائقة، أضفى عليهما جوًّا دافئًا تغمره المودة والسعادة.

"أتعلم يا صديقي" قال البحار الأشقر، "الشعور بالسعادة يجعلك ترى الأمور بطريقة مختلفة. كنت أحب الجوانب المختلفة لما أعرفه من لغات، واستمتع بالتحدث بها جميعًا. أما الآن، فتبدو الإيطالية لي أجمل لغات العالم. هناك قول في الايطالية: (Perdere la trebisonda) ويعني ضاعت طرابزون. في الماضي، كان ميناء طرابزون على البحر الأسود، نقطة التقاء السفن والقوافل المسافرة بين أوروبا والشرق. هذه المقولة كانت تقال عندما تضل السفن أو القوافل طريقها، ثم أصبح أكثر شمولية لتقال عندما يضلّ المرء طريقه في حياته. عندما كنت أبحر بسفينتي من ميناء إلى ميناء على هدي الخرائط طوال حياتي، في حقيقة الأمر كنت ضائعًا وأبحث عن طرابزوني. الأغرب من ذلك، أن المرء لا يعرف ما يبحث عنه إلا عندما يجده".

"هذا صحيح" وافقه أقدو القول، "المرء لا يعرف ما يبحث عنه حتى يجده".

"لقد أتيت هذه المرة وحدي، في المرة القادمة سأصطحب روبرتا،

لتتعرفا على بعضكما. لِمَ لا تأتي أنت أيضًا لزيارتنا في البندقية، ما قولك؟"

"لا" قال أقدو موجهًا نظره في الظلمة نحو شجرة يهوذا، والقبر تحت الشجرة، "لا يمكنني ترك إليف وحدها".

"لن نغيب طويلًا، سنعود في غضون شهرين".

"الموت عندي أهون".

"حسنًا، وماذا لو قلنا أسبوعًا واحدًا؟ نسافر بالطائرة بدلًا من السفينة".

"أنا، حتى عندما أضطر للذهاب إلى السوق، أشعر بالتوتر وأعود راكضًا إلى هنا، الأسبوع طويل جدًا".

"شئت أم أبيت، أرغب بشدة أن تأتي إلى البندقية وترى بيتنا. هافاري سيسعد برؤيتك".

"حقًا" قال أقدو، "أي نوع من الكلاب هو أشرس أم هادئ؟"

"إنه معتدل الطباع، يسمح لكل الأيادي أن تربت على رأسه. لكنه شره، لا يعرف الشبع. أضخم من أخيه". نظر البحار الأشقر إلى توتيفي الرابض أمام الشرفة، "كيف حال توتيفي، يبدو كأنه كلب هادئ".

"من قال!" قال أقدو. "لا يغرنّك أنه عاملك بلطف، إنه شرس جدًا، وأسمع بسببه الكثير من التوبيخ لأنه يطارد كل من يأتي إلى المقبرة. لا يسمح للقطط والكلاب بدخول المقبرة، ويلاحقها ما إن يشم رائحتها".

"معلم أقدو، لقد تركت كلبي مع روبرتا. إذا تركت توتيفي هنا مع إليف، فلن ينشغل بالك عليها. لو ترى البندقية لبضعة أيام على الأقل، ثلاثة أيام مثلًا؟"

"أنت تشبه أبطال الحكايات والأساطير، الذين تركوا كلابهم عند عشيقاتهم وارتحلوا. أيها البحار الأشقر، أنت بطل ملحمي، أما أنا فلست".

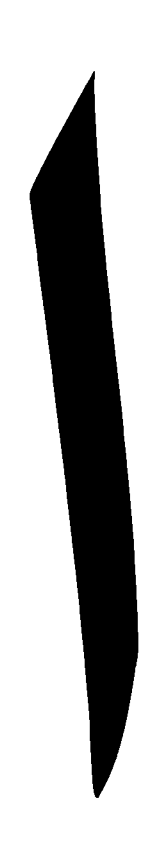
مقبرة مركز أفندي

إسطنبول

1965

شرع أقدو في نحت شاهد قبر إليف في صباح صيف مشمس. اسم إليف يقابله الحرف الأول في اللغة العربية "ألِف"، وهو عبارة عن خط عمودي مع انحناءة خفيفة. بسيط، ومطلق، وابتداء. عمل أقدو طوال اليوم تحت الشمس لنحت حرف الألِف العربي على الحجر. في تلك الليلة نام على حزن الأيام القديمة. في اليوم التالي، استيقظ مبكرًا ونحت عددًا من الحرف ألِف حتى المساء. كرر هذا كل يوم. بدا الصيف طويلًا، وشمسه حارة، لكن حزن أقدو كان يزول تدريجيًّا مع امتلاء سطح الحجر بأحرف الألِف. حلَّ الخريف والنُهُر قصُرت، وذات يوم، عندما كانت السماء مغطاة بالغيوم الحمراء، أنهى أقدو كامل عدد الحروف التي قرر نحتها على شاهد قبر إليف. وضع المطرقة من يده. مسح العرق عن جبينه. ركع على الأرض وعدّ الأحرف واحدًا واحدًا. لقد أنجز تسعة وتسعين حرف ألِف على شاهد قبرها. نام أقدو في تلك الليلة بقلب هانئ وغرق في أحلام سعيدة. رأى في أحلامه أن المقبرة تحولت إلى فضاء لا نهاية له ولا يوجد فيه سوى شاهد

القبر الذي نحته منتصب في الوسط. كان حرف الألف وحده، هو البداية، وهو النهاية، وشاهد القبر الذي نُحِت على شكل حرف أَلِف، يقف في الفضاء عاليًا مثل سروة سوداء:



كازينو باريس

إسطنبول

1976

بعد أن أنهى سيراني عقوبة السجن لعام واحد لاعتدائه على أحد الأشخاص، خرج بميل شديد إلى طي صفحة الماضي، وفتح صفحة جديدة لحياة منتظمة وبعيدة عن المشاكل مثلما فعل السيد كالندر. ورغبة منه في الابتعاد عن العالم السفلي، اقترح على السيد كالندر أن يشاركه في مجال العمل في المطاعم، وفتح مطعم هادئ وجميل على مضيق البوسفور. كانت بريهان سلطان الأكثر فرحًا برغبة سيراني في طي صفحة الماضي. عودة سيراني إلى البيت كل ليلة وقضائه بعض الوقت مع ابنتهما، واصطحابه لهما إلى مرتفعات تشامليجا والجزر، كانت لا ترى كل ذلك إلا في أحلامها. الآن وبعد أن أصبح ذلك حقيقة، آمنت أن هذا هبة ربانية على ما ذرفته من دموع لسنوات طويلة.

بدا الربيع أجمل لونًا وعطرًا من أي وقت مضى، والشوارع مليئة بأشجار السنط. النُهُر تطول، لكنها بدت قصيرة لبريهان سلطان. شعرت بسعادة لم يسبق أن شعرت بمثلها من قبل، وعادت لها الابتسامة بعد أن

فارقتها مع سفر صديقتها المقربة يوكسيل.

بعد وفاة والدة مظفر في العام الماضي، قررت يوكسيل ومظفر السفر إلى ألمانيا للعمل هناك، حسب التوجه العام في تلك الفترة. أصدرا جوازات السفر، وحزما أمتعتهما، وودعا بريهان سلطان بالدموع. كان الدافع الرئيس للسفر إلى ألمانيا، عدم قدرة يوكسيل على الإنجاب، والاعتقاد بأن أوروبا موطن العلاج لكل العلل.

أثناء اتصال هاتفي أجرته يوكسيل ذات مساء، قالت بريهان سلطان:

"أنا عاجزة عن الكلام. لا أعرف كيف أوضّح لك يا يوكسيل، كأن سيراني القديم قد مات، وأحياه الله من جديد لكن بروح ملاك وأعاده إليّ. ينام جواري في الليل، أستيقظ في الصباح أجده إلى جانبي. قد يحدث أن لا يكون جواري في بعض الليالي، لكنني أكون على علم أين هو. يدخل غرفة ابنتنا على رؤوس أصابعه ويتمدد إلى جانبها. أهذا هو سيراني الذي تعرفينه؟ عندما أفكر بمدى السعادة التي أعيش، أشعر بالخوف من فقدانها. قبل أيام، سألت سيراني، إذا كان لا يرغب في استمراري بالغناء في الكازينو، والاكتفاء بتسجيل الأسطوانات، أو حتى التوقف عن تسجيل الأسطوانات. هل تعلمين ماذا قال يا يوكسيل؟ لقد قال، أنت تحبين الموسيقى يا بريهان سلطان، فلا تتخلي عن شيء تحبينه. لم أصدق أذني، وكدت أقع ويغمى علي. حتى الآن قلبي يخفق بينما أتحدث معك. خذي إجازة وتعالي لترينه بأم عينك، لن تصدقي، تعالي لتأخذي ثلاث شعرات من رأسي، وتضعيها بين شعرك كي تنتقل سعادتي إليك".

لم تجد يوكسيل تلك الفرصة لتأخذ ثلاث شعرات من رأس بريهان سلطان.

أراد سيراني أن ترى بريهان سلطان أعمال التنسيق لحديقة المطعم الذي سيفتتحه في منطقة طرابيا على مضيق البوسفور. غادرا المنزل صباحًا في سيارته الكشف مستمتعين بالجو الدافئ في ذلك اليوم. تأملا البحر من خلال نظاراتهما الشمسية أثناء مرورهما من منطقتي أورطاكوي واميرغان، حتى وصلا إلى طرابيا. أوقفا السيارة في أرض مجاورة للمطعم. الأرض كانت ترابية. كان ينوي ضم تلك الأرض إلى المطعم بعد انتهاء الأعمال داخل المطعم لاستغلالها كموقف لسيارات زبائن المطعم. ترجَّلا من السيارة ونفضا الغبار عنهما، خلعا قبعاتهما وسارا متشابكي الأذرع. المسافة من موقف السيارات حتى المطعم لا تتجاوز العشرين مترًا، لكن سيراني وبريهان سلطان لم يتمكنا من قطع تلك المسافة، فقد انطلق وابل من الرصاص من نوافذ سيارة سوداء اقتربت منهما. حاول سيراني أن يخرج مسدسه، لكن الرصاص كان أسرع منه، فسقط على الأرض مضرجًا بدمائه. بريهان سلطان أطلقت صرخة قصيرة واحدة ثم سقطت على الأرض والدماء تنزف منها بغزارة. وقع رأسها على ذراع سيراني الملطخة بالدماء، فبدت كأنها أسندته عن عمد، وأغلقا أجفانهما في الوقت نفسه. تراخى جسداهما، وانتهت على الأرض حياتهما المشتركة بحلوها ومرها.

مركز للشرطة كان قريبًا من الموقع. وصلت الشرطة إلى مكان الحادث فور سماع إطلاق النار. سُجّلت أسماء المغدورين، وأُبلغ عبر أجهزة اللاسلكي اليدوية عن مشاهدة سيارة سوداء في مكان الحادث، وطُلب تعقبها وإيقافها. وصل الطبيب دون تأخير، لكنه لم يستطع فعل شيء سوى تسجيل ساعة وفاتهما. كان السيد كالندر آخر من وصل. كانت دموعه تنهمر على طول الطريق بين بي أوغلو وطرابيا. مسح دموعه وحبسها عندما نزل من السيارة

ودخل بين الجموع.

نشرت صحف اليوم التالي الخبر على الصفحة الأولى.

"كمين دموي لملكة موسيقى الأرابيسك!"

"قُتلت بريهان سلطان وزوجها!"

"مسارح إسطنبول فقدت صاحبة الصوت الحزين في هجوم دموي!"

تشاركت الصحف بنشر صورة بريهان سلطان ممددة على الأرض ورأسها على ذراع سيراني كأنها نائمة.

الجموع الكبيرة التي احتشدت للمشاركة بمراسم الجنازة كانت مبهرة مما جعلها من أخبار الصفحة الأولى للصحف أيضًا. حضرت عصابات العالم السفلي مراسم الجنازة وشاركت بعدد كبير من رجالها، وسيذكرون دائمًا اسم سيراني باحترام وبهالة أسطورية لمن سينخرط من الشباب الجدد في صفوفهم. إضافة إلى مشاركة روّاد كازينو بريهان سلطان، فقد شارك بزخم كبير مشاهير الفنانين في عالم الموسيقى والطرب ومصممو الأزياء ولاعبو كرة القدم وسائقو الحافلات الصغيرة والحمّالون. في الأيام الماضية، وقعت أحداث مؤلمة متتالية لمطربات الأرابيسك، البعض منهن شطب عشاقهن السابقون وجوههن بشفرات الحلاقة، والبعض الآخر أُطلق الرصاص على سيقانهن أثناء وقوفهن على خشبة المسرح. أما بريهان سلطان التي غلب الطابع الحزين على معظم أغانيها ولوّنه بلون الحداد، فقد كانت حياتها وموتها شبيهان بالأغاني التي اشتهرت في تسجيلاتها. السعادة قصيرة، والتعاسة طويلة، والحزن لا ينتهي في أغانيها.

اهتم السيد كالندر بكل ما يتعلق بمراسم الدفن والإجابة على أسئلة الصحفيين والشرطة. تحدث للصحفيين عن حزنه الشديد وفقدانه لاثنين من أبنائه، وسيواصل البحث عن السيارة السوداء، ومعرفة من يقف وراء هذه الجريمة البشعة.

ترك السيد كالندر متابعة شؤون الكازينو لرجاله، وراح يعدّ قوائم بأسماء كل من يشك بوقوفه وراء هذه الجريمة، من أعداء لسيراني ومعجبين مهووسين ببريهان سلطان، ثم نشر عيونه في كل مكان ليتعقبوا المشتبه بهم. تردد بدوره على أماكن في العالم السفلي انقطع عنها منذ سنوات، واستعان بأصدقاء له قدامى علّه يلتقط طرف خيط يساعده بالوصول إلى أدلة تكشف له الفاعلين. الاحتمالات كثيرة بوقوف إحدى عصابات الإتجار بالمخدرات وراء الحادث، أو أحد من أقارب ميخائيل آغا، الذي قُتل في أنقرة قبل أحد عشر عامًا، وربما رجل الأعمال وحيد كوتشسانلي كان يترقب الوقت المناسب للانتقام من سيراني منذ أربع سنوات. في غمرة انشغال السيد كالندر بالبحث عن طرف خيط يساعده بكشف الفاعل، لم يغفل عن رعاية ريحان والاهتمام بمستقبلها. رأى أن مواصلة تعليم الفتاة في مدرسة داخلية هو أفضل السبل لإبعادها عن مسيرة حياة والديها، ويفتح أمامها مستقبلًا واعدًا.

مدرسة تشامليجا الثانوية للبنات

إسطنبول

1976

حلّ الخريف مبكرًا واكتست الأرض بأوراق الأشجار الصفراء، وعبثت الرياح بالغسيل المنشور على الشرفات. أمسكت يوكسيل ذراع مظفر بصمت على غير عادتها، وانتظرت بقلق في الحديقة الواسعة لمدرسة تشامليجا الثانوية للبنات. عندما رأت ريحان تهبط الدرج، تذكرت الطفلة التي ودّعتها قبل عام ونصف قد كبرت وصارت فتاة تشد الانتباه بجمالها. تشبه أمها في ملامح وجهها وفي مشِيها وحتى في الميل الخفيف لعنقها.

شدّت يوكسيل على ذراع مظفر، وقالت: "يا إلهي، إنها عطْسة أمها. ليتها لا تشبها في كل شيء!"

تقدمت ريحان مسرعة وعانقت يوكسيل. بكت ريحان، وبكت يوكسيل أيضًا. دفنت ريحان رأسها في صدر يوكسيل كي لا تراها زميلاتها تبكي. بعد أن جلستا على مقعد جوار الحائط، مسحتا دموعهما ونظفتا أنفيهما، وشرعت يوكسيل بالكلام.

"عزيزتي ريحان، كيف حالك، هل أنت مرتاحة في المدرسة؟"

"أنا مرتاحة يا خالة يوكسيل".

"هذه المدرسة أكبر مما كنت أتوقع. ألقينا نظرة على المكان بينما كنا ننتظرك. المكان جميل جدًا، ماذا عن مهجع النوم؟"

"جيد".

"هل شكلت صداقات مع الفتيات المقيمات معك في المهجع؟"

"نعم، لي بعض الصديقات المقربات".

"رأيت بنات أكبر منك سنًا، هل يساعدنك؟"

"مهاجع بنات الثانوية منفصلة عن مهاجعنا نحن طالبات الإعدادية".

"هل يعاملنك بلطف؟"

"البنات طيبات، يساعدنني. يمرحن ليلًا في مهجع النوم ويغنين".

"ألا تمرحين معهن وتغنين؟"

"كلا، أنا أتابعهن من بعيد فقط".

"ستشاركينهن مع الوقت، لقد استفسرنا عن هذه المدرسة، فتأكدنا أنها من أفضل المدارس في إسطنبول. ماذا عن الطعام؟"

"الطعام جيد، ويمكننا شراء الطعام من المقصف متى شئنا".

"هل معك ما يكفيك من النقود؟"

"نعم يا خالة يوكسيل. أودع لي العم كالندر عند مدير المدرسة مبلغًا كبيرًا من النقود. أطلب منه مصروف جيبي، كلما دعتني الحاجة إلى ذلك".

"ليسلم السيد كالندر، إنه رجل طيب. هل يزورك؟"

"أجل".

"ذهبنا لرؤيته أمس أيضًا".

"متى أتيتما إلى إسطنبول؟"

"يوم أمس، ما إن نزلنا من الطائرة حتى توجهنا لزيارة السيد كالندر، وسؤاله عن أوضاعك، وقد أتينا لرؤيتك اليوم".

"متى ستعودان إلى ألمانيا؟"

"يمكن أن نعود في غضون أسبوعين، وربما سنتأخر بالعودة. الأمر عائد لك".

"لماذا الأمر عائد لي؟"

كان مظفر يستمع إليهما بصمت حتى تلك اللحظة، عندئذ أخرج بطاقة من جيبه وأراها لريحان.

"انظري يا ريحان، بطاقة الإقامة هذه حصلنا عليها من الدولة الألمانية. عندما تحصلين عليها، تصبح حياتك في أمان. كلانا نعمل هناك، ونكسب مالًا جيدًا، ونعيش في بيت جميل. تناقشنا ويوكسيل فكرة مجيئك معنا، إذا شئت، ستكونين فردًا من عائلتنا، وتبدئين حياة جديدة مثلنا".

أخذ مظفر نفسًا عميقًا، وتأمل وجهي ريحان ويوكسيل ليتحقق من نجاحه بإيصال ما طرحه، ثم انتظر حتى تتكلم إحداهما.

راحت ريحان تعبث بأظافرها، وأرخت عينيها إلى الأرض.

"عزيزتي ريحان" قالت يوكسيل، "نود تبنيك إذا شئت. نريدك ابنة لنا تعيشين معنا، ونمضي الحياة معًا. لا تتسرعي باتخاذ قرارك، قلّبي الأمر وفكري فيه جيدًا، سنتحاور لاحقًا. حين أخبرنا السيد كالندر بنيتنا هذه، سُرَّ كثيرًا، وأسعده أنك ستعيشين جوًا عائليًّا معنا وتؤسسين لنفسك مستقبلًا جيدًا في أوروبا. أفضل المدارس موجودة في ألمانيا. لو ترين ألمانيا ستحبينها. هناك سيارات، وقطارات أنفاق، أجل، لديهم قطارات تحت الأرض، يسمونها مترو. هناك عائلات تركية أيضًا، وتقيم بالقرب منا.

يمكنك تشكيل صداقات مع بناتهم أو مع بنات ألمانيات كما تشائين".

كانت يوكسيل تعانق ريحان وتحدثها، وحين لم تتمكن ريحان من حبس دموعها، أطرقت برأسها والتصقت بيوكسيل.

"أفتقد أمي وأبي" قالت دون أن ترفع رأسها، "أفكر فيهما كل ليلة، وعندما أستيقظ كل صباح، أتوقع أن أراهما أمامي. عندما تنام كل البنات في المهجع، أغطي رأسي باللحاف وأبكي. أمر بظروف صعب للغاية يا خالة يوكسيل..."

اغرورقت عينا مظفر بالدموع حين رأى يوكسيل وريحان تبكيان. قام عن المقعد وابتعد عنهما قليلًا. بعد برهة قصيرة، رأى رجلًا يتقدم نحوهم وابتسامة قد علت وجهه، توقع أن يكون أحد معلمي المدرسة، ردَّ على ابتسامته بابتسامة مماثلة.

"مرحبًا" قال الرجل،" اسمي فيروح، أنا مدير المدرسة".

"تشرفنا، أنا مظفر، من قرية أم ريحان. نقيم في ألمانيا في الوقت الحالي. وصلنا أمس إلى إسطنبول، وأردنا رؤية ريحان".

"خيرًا ما فعلتم يا سيدي".

نهضت يوكسيل وصافحت المدير وعرّفت بنفسها.

"أنا يوكسيل، أقرب صديقة لوالدة ريحان. نعمل في الخارج منذ عام ونصف، ولم تتح لنا الفرصة بالمجيء إلا أمس".

"أعرف ذلك" قال المدير، "حدثتني ريحان عنكما كثيرًا".

"ريحان مثل ابنتي. حضرت ولادتها. أتذكر ذلك يا مظفر؟ كنت تنتظر في حديقة المستشفى".

"أذكره كأنه حدث البارحة، أتيتِ وأخبرتني أن المولودة طفلة جميلة".

نظر المدير إلى ريحان برضى. بدا كأنه لم يلاحظ احمرار عينيها، توجه بالحديث إلى يوكسيل ومظفر.

"لا تقلقا بشأن ريحان، عائلتي تقيم هنا أيضًا. تأتي ريحان وتبقى عندنا متى تشاء، أخبرتها أنها أصبحت أحد أفراد عائلتي، وأنا أقف إلى جانبها مهما تواجه من صعوبات".

"شكرًا لك يا أستاذ فيروح" قال مظفر، "أولئك الفتيات أمانة بأعناق المعلمين الأفاضل أمثالك. أنت تعلم، فالوضع في البلاد مضطرب سياسيًا، والشباب في المدارس يشتبكون فيما بينهم، والأهالي قلقون".

"أنت محق يا سيد مظفر. الكل قلق جدًا، لذلك نبذل جهدنا لرعاية طالباتنا هنا، مهمتنا هي تثقيفهن في بيئة آمنة وتنوير عقولهن".

"ما أجمل ما تقول" قالت يوكسيل، "تبدو الحقائق للناس أكثر وضوحًا عندما يعيشون في أوروبا. يمكن أن يتطور بلدنا مثلهم أيضًا، طالما اختلاف الرأي لا يؤدي إلى قتال، ولا أحد يحاول التلاعب بعقول الشباب".

"تفضلوا" قال الأستاذ فيروح، "لنذهب إلى مكتبي، نشرب الشاي ونكمل حديثنا".

وضعت يوكسيل يدها على كتف ريحان بحنان، وصعدت معها درج المدرسة بسعادة كأنها تعانق ابنتها.

مدرسة تشامليجا الثانوية للبنات

إسطنبول

1976

بعد أن أطفأت المعلمة أضواء المهجع وأغلقت بابه، هدأت حركة الفتيات، وحان وقت تهامسهن في الأسرّة. قامت ريحان من سريرها بهدوء، وذهبت إلى سرير ثريا، وتمددت إلى جانبها.

"لا تشعرين بالنعاس، أليس كذلك؟" قالت.

"أي نعاس يا بنت؟ أسمعك تبكين في الليل منذ أيام، ألم تألفي هذا المكان بعد؟"، قالت ثريا.

"لقد تعبت من البكاء. أهكذا يبدأ التعود عليه؟"

ثريا أكبر من ريحان بعام واحد. العام بالنسبة للفتيات في ذلك العمر يعني تجارب أكثر ومعرفة أوسع.

"ألم أقل لك إننا جميعنا لم نألف هذا المكان سريعًا، ولم يرق لنا، ثم أحَببناه. للمعلمين دور في هذا الشعور، لكن للصديقات الحقيقيات دورًا أكثر أهمية، بمجرد أن تألفين وجودهن معك، تصبحين منتمية إلى هذا المكان".

"يبدو أن هذا الشعور قد بدأ يراودني".

"جاء أقاربك اليوم مرة أخرى؛ رأيتهم من النافذة".

"سيعودون إلى ألمانيا غدًا. لا أدري متى سيعودون مرة أخرى، ربما في غضون عام، أو عامين..."

"ألم تتناقشون ثانية حول موضوع سفرك معهم؟"

"تناقشنا. قلت أفضّل البقاء هنا، فأكدوا أن بابهم مفتوح لي دائمًا متى غيرت رأيي".

"هل أنت مقتنعة بذلك؟"

"قناعتي آتية من وجود قبريّ والديّ هنا، وأريد العيش قريبة منهما".

"عزيزتي ريحان، هذا ما تظنينه الآن، لأن جرحك لا يزال ساخنًا، ولم يبرد بعد. سيتغير تفكيرك في المستقبل، عندئذ تذهبين إلى ألمانيا، الحياة هناك أفضل من هنا".

تحدثت ثريا كمعلمة. على الرغم من أن والديها يزورانها دون انقطاع، إلا أنها أحست بمشاعر صديقتها اليتيمة ريحان، وحاولت طمأنتها بأن مشاعرها الحالية آنية وستتغير مع الوقت.

"آمل ألا يتغير رأيي" قالت ريحان بتصميم، "في الوقت الحالي، لا أفكر إلا في البقاء في إسطنبول".

"كما تشائين. ماذا أحضرا لك هذه المرة، ثيابًا ألمانية مرة أخرى؟"

"لقد أريتك الملابس الألمانية التي أحضراها في الزيارة الماضية. هذه المرة، أحضرا ملابس محلية، وحقيبة مليئة بأطعمة مختلفة. لو رأيتها، لسال لعابك".

"سال لعابي قبل أن أراها".

"سأحضرها من الخزانة غدًا، ونأكلها معًا عندما تطفأ الأنوار".

"هل أعطياك نقودًا؟"

"أكثر من آخر مرة أيضًا. ماذا أفعل بكل هذه النقود، لقد أودعت النقود عند الأستاذ فيروح".

"ألم تُبقي معك بعضًا منها؟"

"أجل".

"حسنًا لنقم بعمل شيء ما".

"لنذهب إلى كاديكوي وندخل السينما".

"تُعرض أفلام جديدة".

"لكن ليس نهاية الأسبوع هذا".

"لماذا؟"

"أخطط لزيارة أمي وأبي في مقبرة أيوب في عطلة نهاية الأسبوع هذا. يرى الأستاذ فيروح أن الوقت لم يحن بعد لمثل هذه الزيارة. حين أخبرت الخالة يوكسيل، تحدثت بدورها إلى الأستاذ فيروح. إنها المرة الأولى التي أذهب فيها إلى المقبرة".

"هل أنت متأكدة من ذلك؟ أقصد هل هذا تصرف سليم؟"

"أنا أريد ذلك. لم تبدِ الخالة يوكسيل اعتراضًا. لقد قالت لو إنني أخبرتها عندما أتت لزيارتي في المرة الأولى، لذهبت معي".

"أظن أنك لن تذهبين وحدك".

"سأذهب بصحبة الأستاذ فيروح وزوجته".

مدرسة تشامليجا الثانوية للبنات

إسطنبول

1978

يغادر معظم الفتيات السكن في نهاية الأسبوع لقضاء العطلة مع عائلاتهن، لذا فقد بدت حديقة المدرسة شبه خالية في يوم ربيعي جميل، اكتست فيه أشجار الحور بلباس أخضر يانع، وتزينت شجيرات الورد بألوان صفراء وبيضاء وحمراء، وعبقت الأجواء بأريجها. لم يهن على ريحان وثريا قطف الورود الجميلة للمدرسة، فاتفقتا على جمعها من حدائق البيوت المجاورة.

اصطفت البنايات والبيوت ذات الحدائق الكبيرة على جانبي شارع أجيبادم، وتدلت على الأسوار الواطئة للحدائق أزهار مختلفة الألوان والشذا من الورود والزنابق والجرسية والسنط. تنقلتا من حديقة إلى أخرى وقطفتا زهرتين كحد أعلى من كل حديقة كي لا تجورا على حديقة أكثر من غيرها. بعد أن قطعتا منتصف الشارع، كانت كل منهما قد جمعت باقة كبيرة من الزهور.

بعد أن تابعتا السير، لفت نظرهما شجرة مشمش قطوفها دانية في

إحدى الحدائق. باب البيت ونوافذه قد حجبتها الأشجار الكثيفة، فعبرتا السور من فرجة متهدمة وراحتا تغنيان وتملأن جيوبهما بالثمار على مهل، ثم غادرتا الحديقة وتابعتا السير على المنحدر. جمال الشارع زاد من سعادتهما.

على الرغم من كثرة ما جمعتاه من الزهور، لكنهما لم تستطيعا مقاومة جمال أزهار الوستارية المتدلية من سور إحدى الحدائق. وبينما كانتا تقطفان عودًا مزهرًا من هذه الوستارية، سمعتا صوت امرأة قادم من البيت في وسط الحديقة.

"يا بنات، ماذا ستفعلان بكل هذه الزهور؟ هل ستقدمانها إلى حبيبكما؟"

"هيا لنهرب" همست ريحان.

أوقفتها ثريا.

"أجل يا خالة" صاحت: "كيف عرفت؟"

"كم عمركما؟"، قالت المرأة ثم قصرت عينيها كي تراهما بوضوح أكثر.

"خالة" تابعت ثريا، "نحن نحب بعضنا. من غير المهم لمن تؤخذ الأزهار، ولكن مع من نجمعها".

"ماذا تقولين يا وقحة" رفعت المرأة صوتها، "لا يمكنني تحديد طولك من هنا، لكن ما شاء الله، لسانك بطول حذائك أنا قادمة إليك".

أسرعت ثريا وريحان بالركض حتى وصلتا إلى المنعطف. وقع منهما عدد من الأزهار أثناء ركضهما، وحين تأكدتا أن لا أحد يلاحقهما، عادتا وجمعَتا ما وقع منهما من أزهار ثم تابعتا المشي بسعادة مرة أخرى. سيفرح الشباب بالزهور حين يلتقيا بهم في شارع بهارية. كانتا على يقين من أن لا أحد من المكلفين بالمهمة نفسها قد جمع هذا الكم الكبير من الزهور.

أخرجتا بعضًا من حبات المشمش من جيوبهما وأكلتاها.

اليوم التالي، ستجري احتفالات الأول من مايو/أيار. تحتاج مواكب التجمع إلى الكثير من الزهور. طُلب من الصغار جمع ما يمكنهم جمعه من الزهور في عطلة نهاية الأسبوع، بينما أعدّ الكبار الملصقات واللافتات. على الرغم من إلحاح ثريا وريحان على المشاركة في المسيرة، لكن لم يُسمح لهما لصغر سنهما. كان الجميع يتصرفون بحذر، فقد تعرضت احتفالات العام الماضي للهجوم وقتل ثلاثة وثلاثون شخصًا.

"ربما سيسمحون لنا بالمشاركة عندما يرون هذا الكم الكبير من الأزهار" قالت ثريا.

"سوف يغضب الأستاذ فيروح إذا غبنا عن المدرسة غدًا"، قالت ريحان.

"المدرسة أولًا! المدرسة أولًا!" خشّنت ثريا صوتها مقلدة صوت الأستاذ فيروح.

ريحان أيضا شاركتها الدعابة، "التعليم أولًا! التعليم أولًا!"

ضحكتا بصوت مرتفع متجاهلتين نظرات المارة. عندما وصلتا إلى شارع بهارية، شاهدتا شباب المجموعة يجلسون في أقصى ركن من حديقة الشاي في نهاية الشارع. الطاولات أمام المجموعة كانت مغطاة بالأزهار. إذن فقد وصل الأطفال الآخرون قبلهما وسلموا أزهارهم، ألبستا وجهيهما قناع الجدية، واقتربتا بخطوات أنثوية هادئة.

ارتفعت أصوات من المجموعة.

"انظروا من أتى!"

"لقد اكتمل العمل".

"ثريا وريحان، أزهار ربيعنا".

كان هذا الكلام موجهًا لهما وللأزهار أيضًا.

اقتربت البنتان من الطاولة ووضعتا باقتي أزهارهما فوق الزهور الأخرى. قالتا إن هذا ما استطاعتا جمعه، وإذا ما لزم الأمر فإنهما على استعداد لإحضار المزيد، تابعت ثريا الحديث بخجل.

"ما دام غير مسموحٍ لنا بالمشاركة في المسيرة غدًا، فقد اتفقت وريحان أن نتابعكما من بعيد...".

"لقد تحدثنا بهذا الأمر من قبل" قال أحد الشباب، "هذا التجمع محفوف بمخاطر شديدة. تذكران ما وقع في العام الماضي، وقد يقع هذا العام أيضًا. أخبرنا الجميع أنه لا مشاركة لمن في عمركما. إضافة إلى ذلك، إذا سمحنا لكما بالحضور، فسوف يعاقبكما الأستاذ فيروحٍ ويعاقبنا أيضًا".

"أردنا أن نساعد في المسيرة غدًا، مثلما ساعدنا في جمع الزهور".

"لا تقلقا، سيكون هناك عدد كافٍ من المساعدين من بين الخمسمئة ألف مشارك في المسيرة غدًا".

أنهى الشباب الكلام مؤكدين أن لا مجال لمشاركة البنتين قطعيًا، وقاموا باحتضان الزهور ثم ودعوهما وغادروا حديقة الشاي.

"سيشاركون في المسيرة من دوننا" قالت ريحان.

"آمل ألا يحدث لهم شيء غدًا" قالت ثريا.

"أرجو ذلك".

"ريحان، هل تعرفين ماذا نسينا؟"

"ماذا نسينا؟"

"لم نقدم لهم بعضًا من ثمار المشمش، كيف لم نتذكر وجيوبنا مليئة

بالمشمش؟"

"لن ننسى أن نحضر لهم ثمار المشمش في المسيرة القادمة".

"المشمش، والزهور و..."

"وماذا؟"

"السينما بالطبع يا بنت".

"هيا لنلقي نظرة على إعلانات الأفلام الجديدة".

تنقلتا بين خمس من دور السينما لنصف ساعة. في النهاية، اختارتا فيلم "حرب النجوم" المعروض في سينما ريكس من بين الملصقات والإعلانات الملونة والمقالات الكبيرة والصغيرة والأفلام المحلية والأجنبية. جلستا في الصف الخلفي الأخير من صالة العرض متشابكتا الأيدي.

مقبرة مركز أفندي

إسطنبول

1983

أعلنت لجان الأنشطة الفنية للجامعات عن تنظيم مسابقة للرقص بعد شهرين من تاريخه. اتفق أعضاء فرقة الرقص الشعبي لطلاب وطالبات جامعة إسطنبول على الالتقاء يوم السبت في صالة الألعاب الرياضية العائدة لسكن أتاتورك للطلاب، للقيام بالاستعدادات والتحضيرات اللازمة. عندما رأى الشباب المقيمون في ذلك السكن عشرات من الفتيات يدخلن حديقة سكنهم في عطلة نهاية الأسبوع، لم يترددوا في التصفير والضحك ومعاكستهن. تجاهلتهن البنات المشاركات، ودخلن صالة الألعاب الرياضية، وتدربن مع الشباب على الرقص.

ريحان وثريا كانتا من أعضاء فرقة الرقص الشعبي لطلاب وطالبات جامعة إسطنبول. ريحان في السنة الأولى في كلية الحقوق، وثريا في السنة الثانية في الكلية نفسها. بعد انتهاء البروفة، تدرجتا في الأزقة المؤدية إلى موقف الحافلات على الطريق الرئيسي. وبينما كانتا تتحدثان بمرح، توقفت ريحان فجأة، وأشارت إلى شاخصة عند ناصية أحد الشوارع.

"انظري يا ثريا" قالت، "مقبرة مركز أفندي هناك".

تذكرت ثريا أيضًا اسم المقبرة. مرَّ اسمها فيما روته لها ريحان من أحاديث عن حياتها. نظرت إحداهما إلى الأخرى، دون أن ينبسا ببنت شفة. سارتا تحت أشعة الشمس الدافئة نحو الشاخصة حتى وصلتا إلى المقبرة. تنقلتا بين الحجارة القديمة والقبور المكسوة بالأعشاب، وتأملتا ما يحيط بهما من أشجار. أشجار السرو الباسقة تناطح السماء، والصنوبر والتنوب تعطران الأجواء بأريجهما، ولم يستغرقا وقتًا طويلًا حتى رأتا شجرة يهوذا من بعيد. دنتا من شجرة يهوذا تلك وألقتا النظر على شاهد القبر جوارها. أعادت ريحان على ثريا ما سبق أن أخبرتها عما سمعته من أمها عن أقدو والبيت، ورغبة أقدو أن يدفن إلى جوار خالتها عند موته. جلستا على علوٍ من الأرض لمراقبة البيت القريب من القبر وساكنه، متسائلتين عن إمكانية العيش في مثل ذلك البيت الأقرب إلى كوخ صغير.

"ألا تريدين التعرف على ذلك الرجل عن قرب؟" سألت ثريا.

"كلا" قالت ريحان، "ربما من اختار لنفسه العيش في هذا المكان لا يرغب بمقابلة أحد له علاقة بماضيه".

شاهدتا شخصًا قادمًا من خلف البيت. تابعتا أقدو بقامته الطويلة ونظرات عينيه الصارمة وشعره الأبيض يرتقي الشرفة ويدخل البيت ثم يعود حاملًا وعاء. وضع الوعاء أمام الكلب الرابض في الشرفة. جلس على الأريكة. أخرج علبة تبغ من جيبه وأشعل سيجارة. فتح الراديو على الطاولة. لا يمكن سماع صوت الراديو بوضوح من بعيد. ضجيج السيارات المارة من الشارع المجاور، وأصوات الزوار الذين يمشون بين القبور، وأصوات العصافير وحفيف الأشجار تغمر أجواء المقبرة. الوقت يقاس هنا بالأصوات

لا بالساعات. قام أقدو عن كرسيه حين رفعت صلاة العصر من المسجد. شرب كأس ماء من الإبريق على الطاولة. لا يزال المساء بعيدًا. بعد أن مشى بتثاقل نحو الورشة خلف البيت، تعالى صوت المطرقة.

عندما قدمت ريحان وثريا إلى المقبرة، هل سمعتا صوت المطرقة؟ الأصوات مثل النجوم في السماء، تتعاظم وتتعاظم ثم تنتشر. لا يعرف المرء أي صوت يختار، وأي صوت يتابع ويفهمه. الأرواح هي الأكثر معرفة بذلك. أرواح المقابر تتابع كل الأصوات، وتدرك معانيها. وقع خطى قنفذ يمشي بخفة على أوراق الشجر، كوز صنوبر يسقط على الأرض، صوت صافرة سفينة متجاوزاً الأبنية حتى يصل إلى هنا. الحياة هنا، والأرواح جزء من هذه الحياة ما دامت قادرة على سماع تلك الأصوات. أصوات المطارق تهبط على الرخام الصلب محدثة أثلمًا حادة. كل الحروف وكل الأشكال ولدت من الصوت لا من الرؤى. للقلم صوت في كل كلمة تسيل على الورق، وصوت أنفاس الناس الجالسين بصمت إلى جوار بعضهم بعضًا.

أمسكت ثريا بيد ريحان. "هل أنت بخير؟" قالت.

رفعت ريحان رأسها وكأنها استيقظت من غفلة. نظرت إلى ثريا.

"اشتقت إلى أمي وأبي" قالت، "على الرغم من إني لا أعرف خالتي، لكنني أشعر بالشوق إليها أيضًا. أعرف كل شيء عن حياتها، وأملها، وسوء طالعها. إذا كانت حالي هذه دون معاصرتي لها، فما حال أقدو الذي شاركها بكل معاناتها وماذا يحمل في صدره؟ استمعي إلى أصوات المطرقة. إنه يتنقل ذهابًا وإيابًا بين الماضي القديم إلى الحاضر. يرى أقدو وجوهًا ساحرة في تلك الأصوات، ويختار النظرات المراوغة، والشعر الطويل الممشط بعناية".

أخرجت ريحان مشطها من حقيبتها ووضعته في كفِّ ثريا.

"هذا المشط لأمي" قالت، "انظري كم هو قديم، صورة شاه ميران بهتت".

وضعت ثريا المشط تحت الشمس، وقلّبته باهتمام كأنها تتفحص ماسة نفيسة.

"هذا الجمال نادر الآن" قالت.

"في الواقع" قالت ريحان، "هذا مشط خالتي إليف. عندما كانت فتاة صغيرة، كانت تمشط شعرها أمام المرآة وتغوص في المرآة حالمة. كانت ترى أن شاه ميران على المشط تبتسم لها. بعد أن فقدت الرجل الذي أحبته وتزوجت من شخص آخر، أعطت المشط لأمي. عندما هربت أمي من القرية، أخذته معها مع ما أخذته من متاع. كانت تظن أن شاه ميران تبتسم لها أيضًا. مع مرور الوقت، ما عادت تعرف على وجه اليقين بما تراه على المشط. عندما كانت تمشط شعري، كانت تروي لي قصة شاه ميران. شاه ميران سلطانة الأفاعي، جميلة مثل خالتي، هذا ما كانت تقوله أمي. رأسها رأس إنسان، وجسدها جسد أفعى. عندما ماتت، انتقلت روحها إلى امرأة أخرى. كانت أمي تقول إن روحِ خالتي ظلت ترافقها من خلال هذا المشط، وسترافقني روحها في المستقبل".

جامعة إسطنبول

إسطنبول
1984

جلست ريحان وثريا على العشب الأخضر المترامي الأطراف في الفناء الخلفي للجامعة. باركتا لبعضهما على سبيل المزاح بغلبة الشمس على البرد وقهره. شدت ريحان شعر ثريا ووضعت ثريا ترابًا في ياقة ريحان. حين نهضت ريحان ونفضت ثيابها، سقطت ورقة من جيبها. التقطت ثريا الورقة وقرأتها.

"ما هذا؟" قالت.

"رقم الغرفة التي يرقد فيها العم كالندر في المستشفى. لقد اعتدت الاتصال بالعم كالندر من وقت إلى آخر، وحين اتصلتُ به هذا الصباح، رد عليّ أحد رجاله وأخبرني أنه يرقد في سرير الشفاء في مستشفى تشابا منذ ثلاثة أيام. دخوله المستشفى لم يكن نتيجة عراك أو شجار، بل بسبب اشتَداد الصداع النصفي الذي يعاني منه منذ فترة. كتبت رقم غرفته كي أزوره اليوم"، قالت ريحان.

"سآتي معك"، قالت ثريا.

تدرجتا إلى الفناء الأمامي للجامعة، مرورًا من جوار برج بايزيد حتى ميدان الحرية. استقلتا حافلة صغيرة وانطلقتا إلى مستشفى تشابا الحكومي.

آثرت ثريا انتظار ريحان في الحديقة وجلست على مقعد أحمر اللون قائلة، "سأنتظرك هنا، من الأنسب أن تلتقي به وحدك".

وصلت ريحان إلى غرفة السيد كالندر، مع دخولها خرج شيهموس مساعد السيد كالندر، ليتركهما وحدهما.

"سلامتك عمي كالندر، كيف حالك؟" قالت ريحان بعد أن قبلت يده.

"أيتها البنت الباريسية، لم أردك أن تأتي إلى المستشفى، لكنني سعيد برؤيتك".

يحب السيد كالندر أن يطلق عليها اسم الباريسية كما كان يفعل أبوها.

"لماذا لم يخبرني أحد؟ لكنت أتيت قبل الآن. لقد اتصلت هذا الصباح وعلمت بدخولك المستشفى بطريق الصدفة"، قالت ريحان.

"لا بأس، أخبريني، كيف حال دراستك؟"

"على ما يرام. الأسبوع الماضي أدينا امتحانات نصف الفصلية. لقد نجحت فيها كلها. ستعقد النهائيات بعد شهرين، وأذاكر منذ هذه الأيام".

"أحسنت يا بنيتي، أنا فخور بك".

"لتسلم يا عم كالندر".

"هل سبق أن أُتيت إلى هنا؟"

"إلى المستشفى؟ كلا، هذه أول مرة"، قالت ريحان.

"هل نسيت أين ولدت؟ هل تظنين أنك ولدت في باريس حقًا؟"

"هذا ما تقوله أنت" قالت ريحان ضاحكة، "لقد فهمت. لا أدري، لقد غاب عن ذهني أنني ولدت هنا، ولكن بعد ذلك لم آتِ قط".

"آمل ألا يحدث ذلك" قال السيد كالندر، وأشار إلى الزهور في يد ريحان، "إلى متى ستظلين جالسة والزهور في يدك؟"

انتبهت ريحان أنها تجلس ولا تزال تحمل الزهور في يدها. قامت إلى النافذة، ووضعت الزهور في مزهرية فارغة كانت على حافة النافذة وملأتها بالماء حتى نصفها.

"رائحة هذه الزهور ستنعشك يا عمي كالندر. ما الذي جرى لك، وماذا قال الأطباء بالضبط؟"

"لم يخبروني بالتفصيل. أعاني من الصداع منذ شهر، وأصبح مزمنًا، في تلك الأثناء، فقدت الكثير من وزني. مع أنني فرحت لخسارتي بعضًا من وزني وضمور بطني، لكن الأطباء أبدوا تخوفًا من ذلك، وقاموا بعمل تحاليل وصور أشعة، ثم أخضعوني للعلاج بعد إصرارهم على البقاء في المستشفى. عمود المصل هذا لا يفارقني. لا أدري ماذا يحقنونه من حين إلى آخر، ما يسبب لي الشعور بالوهن ورغبة في النوم".

"جميل، ستشعر بالراحة مع الوقت بفضل ذلك. لقد أرهقت نفسك بالعمل ليل نهار منذ سنوات، ولم تعتنِ بصحتك قط. لم أسمع أنك ذهبت يومًا في إجازة، اعتبر هذه إجازة لك للراحة".

"آمل أن أتمكن من الراحة. بنتي، دعك مني، أخبريني عن حالك، هل لديك ما يكفيك من النقود؟"

"أجل عم كالندر، أنا ممتنة لك".

"لست بحاجة لتكوني ممتنة مني. تعلمين أن هذا المال هو مال أبيك وأمك، أنا أحتفظ به من أجل مستقبلك. لحسن الحظ أنك أتيت الآن، في الواقع، سأعطيك مبلغًا كبيرًا من المال لتودعيه في حسابك".

"ما الحاجة إلى كل هذا؟"

"بنتي! لا يعلم المرء ماذا يخبئ له القدر، قد يدخل المرء السجن حينًا، وقد يدخل المستشفى حينًا آخر. لقد أكّد هؤلاء الأطباء على ضرورة بقائي في المستشفى، لكنهم لم يخبروني متى سأخرج. يتهامسون فيما بينهم ولا يوضحون لي شيئًا. لا أحد يعلم، أحببت أن أطمئن عليك".

"عم كالندر..."، قالت ريحان، لكن السيد كالندر قاطعها.

"لا شيء يدعو للقلق، نادي لي على شيهموس. إنه ينتظر بالباب، نادي عليه ليدخل".

فعلت ريحان ما قاله لها. دخل شيهموس واقترب من السرير.

"تفضل سيد كالندر"، قال.

"شيهموس" قال السيد كالندر، "أحضر دفتر الشيكات من حقيبتي، وأعطني قلمًا أيضًا".

فتح شيهموس خزانة الملابس، وأخرج الحقيبة ثم فتحها وأخرج دفتر الشيكات ووضعه أمام السيد كالندر.

بدا السيد كالندر بشعره الأبيض وعظامه البارزة من شدة هزاله يواجه صعوبة بالنهوض. ساعدته ريحان حتى تمكن من الجلوس منتصبًا. قلّب القلم بين أصابعه عدة مرات كأنه يفكر في شيء ما. ملأ ورقة الشيك ببطء مثل الأطفال الذين يتعلمون القراءة والكتابة. بعد قراءة ما كتبه مرة أخرى، قطع ورقة الشيك وثناها، ووضعها في جيب ريحان الواقفة إلى جواره.

"كل ذلك غير ذي أهمية يا باريسية، دراستك هي الأهم، أكملي دراستك لتصبحي شخصية مهمة. هل نحن متفقون على هذا الموضوع؟ أريد أن اسمع منك ذلك ثانية".

"متفقون يا عم كالندر، لا يغيب عن ذهني أبدًا"، قالت ريحان.

"بنتي، اذهبي الآن، ولا داعي لحضورك إلى هنا مرة أخرى. المستشفى ليست جيدة. سأتصل بك عندما أخرج، اتفقنا؟"

"سأظل أمر للاطمئنان عليك وأذهب سريعًا"، قالت ريحان.

"لا داعي" قال السيد كالندر، "ابتعدي عن كل ما يسبب لك الكرب، المستشفى مكربة. لا تأتي إلى هنا، وانتظري حتى أتصل بك. هل اتفقنا؟"

"اتفقنا"، قالت ريحان وقد أحنت رأسها.

"ابنتي الجميلة، ليمنحك الله صفاء الذهن. اذهبي بأمان الله. أريد أن أنام، أنا متعب".

قبلت ريحان يد السيد كالندر وخرجت من الغرفة. ابتعدت في الممر قليلًا ثم أومأت لشيهموس كي يأتي إليها.

"شيهموس" قالت، "ماذا أصاب العم كالندر؟ لقد هزل كثيرًا، ماذا يقول الأطباء؟"

"حاله لا تسر"، قال شيهموس.

"لماذا، أرجوك، قل لي، لقد أقلقتني!"

بعد قليل من التردد قال شيهموس بحزن.

"السيد كالندر لا يعلم، لا تخبريه، إنه مصاب بالسرطان".

"ماذا تقول يا شيهموس؟"

"مصاب بسرطان البنكرياس. شخّص الأطباء حالته بالأمس. لكنهم

لم يخبروه حتى الآن كي لا يصاب بالاكتئاب أيضًا. نحن لم نخبره أيضًا".

حبستِ ريحان دموعها وخرجت إلى الحديقة. كانت ثريا لا تزال جالسة على المقعد الأحمر، عانقتها واستسلمت للبكاء.

جامعة إسطنبول

إسطنبول

1984

تصاعدت حدة التوتر مع بداية شهر أكتوبر/ تشرين الأول بعد أن رفع الطلاب عريضة جماعية إلى عمادة كلية الحقوق للمطالبة بتغيير نظام الامتحانات. كانت هذه أول مرة، يتحرك فيها جميع الطلاب متعاونين خلال فترة الأحكام العرفية، لكن العميد والشرطة السياسية اعتبروا أن المنظمات الإرهابية وراء هذه الحركة، وليست مطلبًا ديمقراطيًا. نشطت الشرطة السياسية من أجل الكشف عن الشبكة التي تقف وراء هذا العمل، اقتادت الطلاب من مساكن الطلاب والبيوت في منتصف الليل، ونقلتهم إلى قسم شرطة غايريت تبه الشهير بوسائل تعذيبه الخاصة بسحب الاعترافات، وانقطعت أخبارهم منذ ذلك الوقت.

أدى إعدام أحد المعتقلين في أحد السجون قبل أسبوعين، وشنق آخر أمس إلى ارتفاع موجة السخط والتململ والترقب المتوتر في حديقة الجامعة. اندس بين صفوف الطلاب رجال شرطة بزي مدني وهويات طلابية لمتابعة ما يجري بين الطلاب، وملاحقة موزعي المنشورات السرية في الجامعة، بعد

عملية الإعدام التي تمت قبل أسبوعين. تظاهر بعض هؤلاء الشرطة المدنية بقراءة كتاب جامعي في الحديقة، أو تصفح جرائد تنشر أخبار الإعدامات في إطار صغير في الصفحات الداخلية بينما تتصدر الصفحات الرئيسية أخبار عن تمديد عقد شركة كوكا كولا المنتجة في تركيا لثلاث سنوات أخرى، وعن ارتفاع الأسعار في تركيا على الرغم من أنها مثيرة للقلق لكنها ضرورة حتمية حسب تقرير صندوق النقد الدولي، وعن ارتفاع قيمة الدولار الأمريكي إلى أربعمئة وعشرة ليرات، وعن قيام قيادة الأحكام العرفية بسحب أعداد مجلة فيديو- سينما لمخالفتها للتعليمات الصادرة عن القيادة، وأن خمسة وخمسين مليون علبة سجائر أجنبية ستصل قريبًا إلى البلاد. وعلى صفحة الأخبار الأجنبية ورد خبر يحمل عنوان الغطرسة الفرنسية، يذكر أن أعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي وقفوا دقيقة صمت حداداً على روح خضر أصلان الذي أعدم في تركيا في اليوم قبل الماضي.

بإشارة واحدة، اجتمع كل رجال الشرطة عند الدرج المؤدي إلى صالة الطعام، بعد أن كانوا منتشرين في أرجاء الجامعة. كان مدخل الصالة ممتلئًا في ساعة الظهيرة، ولافتة حمراء معلقة بين شجرتين شوهدت من بعيد. وبينما تراجع الجميع خوفًا من احتمال وجود قنبلة أسفل اللافتة، تقدم شرطيان نحو اللافتة لمعاينة المكان. لم يجدا ما يشير إلى وجود قنبلة، لكن اللافتة قد كُتب عليها من الأمام الإعدام جريمة ضد الإنسانية، ورُسم على خلفها زهرة تشبه زهرة الأقحوان. الزهرة شدت اهتمام رجلي الشرطة أكثر مما كتب على اللافتة فلويا شفتيهما استهزاء. نزعا اللافتة ووضعا الدليل الجنائي في كيس ثم نظرا بحقد وعداء إلى كل جموع الطلاب الذين كانوا يراقبونهما.

رجل يحمل جهاز اتصال لاسلكي، جمع الفريق حوله، مما يعني أنه

رئيسهم. أخبرهم أن أحد الطلاب قد رأى اثنين يعلقان اللافتة. كلاهما يرتديان معطفًا رماديًّا، ويضعان طاقية تكاد تغطي وجههما، لكن مشيتهما توحي بأنهما بنتان. الأولى تلبس بوطًا أحمر، والأخرى تلبس حذاء أسود. بعد أن علقا اللافتة انطلقتا مسرعتين خلف مبنى المكتبة.

الطلاب الذين يرتدون معاطف رمادية أو أحذية سوداء، عددهم لا يعد ولا يحصى، أما من يلبس بوطًا أحمر فهم قلّة. بعد نصف ساعة، رجال شرطة في ثياب مدنية، أوقفوا فتاة عند البوابة الرئيسية للجامعة، التي تؤدي إلى ميدان الحرية. الفتاة ذات البوط الأحمر هي ريحان، تدرس في كلية الحقوق وتحمل في حقيبتها ديوان شعر. أمسكوا الفتاة من ذراعيها واقتادوها إلى مركز شرطة بايزيد، على بعد مئة متر. انتظروا مجيء شاهد العيان من الجامعة. حاولت ريحان إثبات براءتها بشتى السبل. خرجت من الفصل لأن لا درس بعد الظهر، كانت ذاهبة إلى سكن وزنجيلر للطالبات، على بعد دقيقتين. وعندما سئلت لِمَ سلكت الطريق الأطول للذهاب إلى السكن الجامعي عبر البوابة الرئيسية للجامعة بينما السكن أقرب من الباب الجانبي للجامعة، قالت إنها كانت ستمر على سوق الكتب المستعملة قبل الذهاب إلى السكن الجامعي. كانت شفتاها ترتعشان، وازدادتا ارتعاشًا عندما تعرّف عليها أحد الطلبة. يبدو أن هذا الطالب يعمل مُخبرًا لدى شعبة المخابرات، وقد أكد بشكل قطعي أنه رأى هذه الفتاة تعلّق اللافتة مع فتاة أخرى. لا يعرف اسميهما، لكن هاتين الفتاتين لا تفترقان أبدًا، ويراهما مع بعضهما في الجامعة دائمًا، ويمكنه التعرف على الفتاة الأخرى من خلال صورتها أيضًا. اعتبرت الشرطة هذا الكلام دليل إدانة كافٍ. عصبوا عيني ريحان، وألقوها في سيارة تفوح منها رائحة زيت المحرك والبول. بدا كأن

السيارة تمضي في طريق وعرة من ارتجاجها. لم ينتظروا للوصول إلى جهتهم المجهولة، بل راحوا يضربون ريحان في السيارة حتى أدموا شفتها، وشتموها بأقذع الشتائم، ووصفوها بالعاهرة، واستهزأوا بزهرة الأقحوان التي كانت مرسومة على ظهر اللافتة، ونعتوا ريحان بالرومانسية الغبية.

مقبرة أيوب

إسطنبول

1985

بدا الغطاء الثلجي الهائل الذي يحجب منحدر مقبرة أيوب كأنه سحابة متعبة. في ساعات الصباح الباكرة، بانت عتمة على بياض الثلج تتنقل بين القبور، زوار قد أتوا لزيارة أحبائهم. الرئيس كوبرا أول من وصل إلى المقبرة، وجلس على حجرٍ غطّاه بجريدة، يتحدث موجهًا نظره نحو شاهد القبر أمامه.

"أختي" كان يقول، "لقد أضعت البنت التي أخبرتك عنها. أقصد ريحان يا أختي. عشرة أيام قد مرت، دون العثور على أثر لها. عندما اختفت في الضباب تلك الليلة، ظننت أن عثوري عليها لا يحتاج إلى طول وقت وعناء. لكن كأن في الضباب ضباب آخر اختفت فيه وطارت في السماء. كانت مريضة، جلد على عظم؛ لقد توقفت عن الأكل مؤخرًا وأعلنت إضرابها عن الطعام. حاولت إقناعها برغبتي في مساعدتها، تحريرها من الاعتقال وتنظيف ملفها. بعد إعدام إرهابي في الأيام الأخيرة، قام الطلاب بتعليق لافتة في حديقة الجامعة احتجاجًا على ذلك. قبض عناصرنا على

هذه البنت ريحان. في ذلك الحين، كنت خارج المدينة في مهمة رسمية. عندما عدت إلى إسطنبول، طُلب مني تولي التحقيق معها، قالوا لي اعتنِ بملكة الجمال. لقد أطلق عليها رجالنا هذا الاسم لشدة جمالها. توجهت إلى حجرة الاستجواب لأرى تلك الفتاة. كانت ممددة على أرض الغرفة عارية، عيناها معصوبتان. عندما سمعت صرير الباب ووقع قدمي، قامت واستندت إلى الحائط. لقد تعرضت الفتاة لتعذيب وحشي كأنها فجرت مركزًا للشرطة لا مجرد رفع لافتة احتجاج على عمليات الإعدام. دنوت منها ورفعت العصابة عن عينيها، فرأيت أجمل فتاة في العالم أمامي حتى أن العصابة قد سقطت من يدي. أختي، هل تذكرين ابنة جارنا الطبيب التي أُعجبتِ بها، وحاولت أن تآلفي بيننا؟ ضعي جمال عشر بنات فوق جمال ابنة الطبيب تلك، وأضيفي فوقه ما تشائين من خيالك، فيكون هو جمال ريحان. إذا كان هذا جمالها في أشد حالاتها بؤسًا، فكيف سيكون جمالها بعد أن تخرج من المعتقل وتتعافى؟ لقد توقفت أنفاسي بينما كنت أفكر في ذلك، حتى أنها قد حدقت فيّ كأنها شعرت بما يدور في خلدي. هل أنا أمام منظمة، أم مجرم، أم جمال؟ غابت عني القدرة على التفكير. غادرت الحجرة وأخبرت العناصر في الردهة عن ذهابي إلى اجتماع مهم وحذرتهم من لمس البنت حتى عودتي. انطلقت من فوري إلى الشارع، لم أعرف ماذا أفعل، فأنا رجل لم يعرف العشق في حياته. بتّ أتخبط كغريق في البحر لا يعرف العوم، ويصارع الأمواج العاتية. رحت أتجول في الشوارع والأزقة علّ نسيم الخريف في ذلك الوقت ينعشني. دخلت إحدى الحانات وغرقت في الشرب. لم أحسب لا عدد المرات التي دار فيها عقرب الساعة في ساعتي، ولا عدد الأقداح التي وُضعت أمامي. عندما غادرت الحانة في منتصف

الليل، كانت الفودكا والجن والويسكي تجري في عروقي بدلًا من الدم. عدت إلى المركز ودخلت حجرة الاستجواب. أخرجت العناصر، وبقيت وحدي مع ريحان. كانت تجلس على الأرض وعيناها معصوبتان. أنهضتها وربطت يديها بالطاولة. أتذكر كل شيء، أتذكر ما فعلته في تلك الليلة، على الرغم من أنني كنت في حالة سكر شديد. هل تعرفين ما كنت أريده في تلك اللحظة يا أختي؟ ليتها لم تعتقل، وليتها لم تعش أحداث تلك الليلة البتة. وليتني أنسى ما ارتكبته من خطأ تلك الليلة، وليتني لم أتذكر فعلتي النكراء مع تلك الفتاة عندما استيقظت في صباح اليوم التالي وصداع شديد في رأسي. عندما أدركت أنني أمام طريق مسدود، جئتك لأتحدث معك. أخبرتك أنني وجدت الفتاة التي ستملأ فراغ حياتي. تذكرين، أنني تحدثت معك طويلًا، لكنني لم أذكر لك ولا كلمة واحدة عن فعلتي النكراء مع الفتاة. لم أتمالك نفسي فبكيت أمامك. لقد ظننت أن ذلك ليس سوى انفعال عاطفي لأخيك الذي ذاق طعم الحب أول مرة، في حين كنت أبكي نفسي؛ لقد شعرت بالخجل من نفسي أول مرة، فقد كنت لا أهتم بمشاعر أحد وأذلهم دائمًا. لقد نصحتني في ذلك اليوم، بالتحدث إلى البنت، وأن أبث لها ما يختلج من مشاعر نحوها في داخلي، لقد استمعت إليك. عندما عدت، لم أذهب إلى حجرة الاستجواب، بل طلبت من العناصر أن يلبسوها ويحضروها إلى غرفتي، رفعت العصابة عن عينيها، أجلستها على الكرسي المقابل لي. كان بيننا طرابيزة، وضعت كأسًا ساخنًا من الشاي أمامها وآخرًا أمامي كأننا جالسين في حديقة الشاي. قلت ما عندي من كلام لم تكن تتوقعه. لو كنا حقًا في حديقة الشاي لارتبكت وما استطعت قول هذا الكلام أمام هذا الجمال. في غرفتي، كنت أتحدث كعادتي من مركز القوة، كأنني

أكشف ملفًا جرميًّا. لذلك لم يكن كلامي مقنعًا لها. لم تصدق حبي لها واستعدادي لترك مهنتي هذه كي تقبل بالزواج مني. قابلتني بنظرات عدائية. سألت بصوت حزين، لماذا تجهد نفسك معي بلا طائل، أنا لست في موقع ذي أهمية كما تظن، لماذا كل هذا الكذب الذي تدعيه. لم تلمس كأس الشاي، كان عليّ التحلي بالصبر. في اليوم التالي تحدثت بكلام أجمل، بت أحضرها إلى غرفتي كل يوم، مستخدمًا نبرة صوت مختلفة في كل مرة كي تصدقني. لقد أخبرتها عنك، وأنك من اقترحت أن أبثّها ما في صدري. ظننت أن ريحان إذا ما استراحت ولم تتعرض للتعذيب، فثقتها بي ستزداد. ابتعدت عنها لبضعة أيام، في انتظار أن تدرك اختلافي عن الآخرين، وتفكر في صدق نواياي تجاهها. لكنها ازدادت عنادًا وأضربت عن تناول الطعام. لقد خاضت معركة الأمعاء الخاوية وتوقفت عن تناول الطعام والشراب باستثناء الماء. عندما رأيتها على تلك الحال، أشفقت عليها، وهانت علي نفسي، فركعت أمامها وأمسكت بيدها. أختي، المرء عندما ينفرد بالمرأة التي يعشق لا يتورع عن التذلل لها، لقد قلت لها إنني لا أستطيع العيش بدونها، وإن ردّتني، سأقتلها وأقتل نفسي. كانت لا تزال على قناعة أن ذلك ليس سوى ألعوبة استجواب، وما كل ذلك الكلام سوى فخ للإيقاع بها. شعرت بالعجز، لا أعرف ماذا أفعل. في النهاية، قررت أن أسهل لها وسيلة للهرب. قلت لها، إذا أعطيتك فرصة للهرب من هنا، فهل ستصدقينني؟ قالت، أيعني ذلك أنك ستعلن موتي إثر إصابتي أثناء محاولتي الهرب، كما هي عادتكم؟ لقد قرأت الكثير من مثل هذه الأخبار في الصحف، أنت غير صادق على الإطلاق. فكرت بأنني سأستطيع إقناعها، فقلت لها سأساعدك على الهرب، وآتي إليك عندما تصبحين في مكان آمن. فتحت

حقيبتي، لقد أريتها كل النقود التي سحبتها من البنك لبدء حياة جديدة معها، وجوازي السفر المزورين الذين أعددتهما لكلينا. قلت إن هذا المال يكفينا، سنغادر البلاد بجوازات السفر هذه. عندئذ شعرت كأنها بدأت تصدقني، فتحت عينيها على سعتيهما بدهشة، قالت إنك جاد، قلت إنني أكثر جدية مما تتخيلين. بعد يومين، وضعت خطتي موضع التنفيذ. أخبرت العناصر في وحدتنا أن الفتاة بدأت في الانهيار، ووافقت على أن ترينا بيتًا جوار سكن الطلاب يجتمع فيه أعضاء التنظيم السري. انطلقنا إلى تلك المنطقة عند حلول المساء، أمرت العناصر بالتباعد والتفرق لكشف المنطقة بشكل أوسع. في ذلك الوقت، عشّى الضباب المدينة. عندما دخلنا الشوارع الجانبية همست لريحان كي تركض. بدت أكثر اقتناعًا بما أقوله لها، فانطلقت راكضة لثقتها أننا لن نطلق النار عليها. صحت بالعناصر الذين يقفون خلفي أن الفتاة قد هربت وبدأنا نبحث عنها. وجهت الجميع إلى شوارع أخرى، وذهبت في الاتجاه الذي هربت منه ريحان. كنت متحمسًا وسعيدًا مثلها. سألحق بها قريبًا وأمسك بيدها، وبعد أن ينقشع الضباب، سأؤَسس معها حياة جديدة. هذا ما كنت أتمناه لو اجتمعت بها. لا أعلم كيف جرى كل ذلك يا أختي، لقد تبخرت البنت في ذلك الحي الصغير وطارت في السماء. لقد أحضرت كلبَ أثر ليتعقبها. فتشنا كل مكان وكل شارع، بما في ذلك سكن الطلاب، وأخذنا الكلب إلى مقبرة مركز أفندي. كان الجو شديد البرودة، والجليد في كل مكان، ومع انقشاع الضباب، بدأ الثلج بالهطول. إذا لم تجد ريحان مكانًا يقيها في تلك الليلة، فمن المستحيل أنها بقيت على قيد الحياة بحالتها الصحية السيئة تلك، ولن يصبح عليها الصباح. كدت أصاب بالجنون من شدة الغضب. رجل يدعى

أقدو يقيم في كوخ في المقبرة، أيقظته من نومه. ادعى أنه لم يرَ الفتاة أيضًا. شككت في كلامه في بداية الأمر، لكن شكوكي لم تكن في محلها، كان الرجل نائمًا في بيت من غرفة واحدة. عندما أوصلنا كلبنا إلى المقبرة متعقبًا الرائحة، ظننا أنه يتتبع رائحة البنت، ثم اتضح أنه يتتبع رائحة كلب أقدو، فصببت جام غضبي على ذلك الرجل المسن المسكين. لقد ضربت الرجل وقتلت له كلبه أيضًا. في الواقع، كان ينبغي قتل كلبنا الأخرق بدلًا من كلبه. أختي، إن المرء لا يعرف ما يفعله عندما يفقد صوابه. ليت يدي كسرت قبل أن أضرب ذلك الرجل، لا يفارقني في منامي منذ أيام. ما رأيك يا أختي، أأذهب لزيارته؟ لابد أن أعتذر منه، وأطلب منه أن يسامحني، أليس كذلك؟ أعاني من صداع شديد. لا أستطيع النوم إطلاقًا. كنت وحدك يا أختي، وأنا الآن وحدي أيضًا. سأذهب إلى ذلك الرجل المسن، وأسترضيه، وأطلب منه أن يسامحني".

مستشفى تشابا الحكومي

إسطنبول

1985

قبل عام مضى، زارت ريحان السيد كالندر في هذه المستشفى، وجلست ثريا في حديقة المستشفى بانتظارها، على مقعد أحمر، والآن، تجلس ثريا وحدها على المقعد نفسه، تراقب القاصي والدّاني من حولها. سيئ الحظ من يأتي إلى المستشفى من المرضى، بالمقابل، هم محظوظون عند لقائهم لأحبتهم في هذه الحديقة. منذ أشهر، تواظب ثريا على المجيء إلى هنا، لا تتوقف عن النظر إلى ساعة يدها كمريضة قلقة، بانتظار زائرها. اليوم، آتى انتظارها أُكُله. على الرغم من أن ريحان قد تغيّرت كثيرًا، إلا أنها تعرفت عليها بين كل هذه الجموع. لم تقم وتهرع إليها، حسب اتفاقهما، بل انتظرت حتى تأتي ريحان إليها.

لقد رتبتا بينهما العام الماضي، مكانًا للقاء سري بينهما. إذا ما تعذر التواصل بينهما، فيأتيا إلى هذه الحديقة كل يوم خميس في الساعة الثانية. عليهما أن لا تفقدا الأمل، وتستمران بانتظار بعضهما حتى لو مرَّت أسابيع وأشهر. منذ الانقلاب العسكري عام 1980 - كم ترتيب هذا الانقلاب؟ -

لقد اختفى الكثير من الناس قسرًا أو اختبأوا، وبات الجميع يحاولون خلق فرص لتحديد أماكن مسبقة للقاء بعضهم بعضًا.

تعانقت ريحان وثريا عناق شوق خمسة أشهر. لم يلتفت أحد إلى بكائهما. لقد قضتا نصف صداقتهما الطويلة في البكاء والنصف الآخر قضتاه بالضحك. كان الميزان متعادل الكفتين، لكنه مال الآن من ثقل دموع الفرح باللقاء.

جلستا، وشرعت ريحان بالكلام أولًا. تحدثت عن اعتقالها وهروبها وعن حياتها مع أقدو بأدق التفاصيل. لم تأتِ إلى هنا للقاء حتى اليوم، فقد كانت في الفترة السابقة، مريضة وخائفة، وغير قادرة على التفكير بشكل سليم. لم يكن جسدها ضعيفًا فحسب، بل عقلها أيضًا. لقد استراحت في المقبرة؛ تعافت واستعادت وزنها السابق الآن.

"لقد اشتقت إليك كثيرًا"، قالت ريحان بينما تضغط على يد ثريا.

"لقد اشتقت إليك بجنون" قالت ثريا، "لقد ظننت أنك مت. عندما نشرت الصحف خبرًا عن إرهابية تدعى ريحان قد هربت، فرحت جدًا، لأنني سألقاك قريبًا. لكنك لم تأتي هنا ولم تتصلي بي. لقد انتظرناك والرفاق على أمل أن نراك، لكنك لم تتصلي بأحد. مع مرور الوقت اعتقدت أنها خدعة من الشرطة. بكيت كثيرًا جدًا. ومع هذا فقد واظبت على المجيء إلى هنا كل أسبوع وانتظرتك".

"ثريا، أتصدقين ما حصل لنا؟، أين كنا قبل عام، وأين أصبحنا الآن؟"

"اضطررت للاختباء بعد اختفائك. فتشوا غرفتي في سكن الطالبات، وفتشوا بيت أهلي في القرية. عندما اختفيتِ ظننا أنك قد قُتلت، فعلقنا ملصقات لك في أنحاء المدينة. في ذلك الوقت تم القبض على عدد من

الرفاق، وأصبح اسمي في قائمة المطلوبين، وظهرت صورتي في الصحف".

"لم أكن أعرف" قالت ريحان وقد بدت محرجة وحزينة.

"ما قمنا به لا يمثل تهديدًا للأمن والاستقرار، لكن السلطة الحاكمة تعتبره هكذا، وتتعامل معنا على هذا الاعتبار. الدائرة حولنا تضيق، وينصحني الرفاق بالسفر خارج البلاد".

"تعالي وابقي معي في المقبرة إذا شئت".

"ريحان، أنت مطلوبة، إذا وجدوك، فلن يتركوك على قيد الحياة. ينبغي عليك السفر خارج البلاد أو اذهبي إلى الجبال".

"لا داع إلى ذلك، أنا بأمان الآن" قالت ريحان، "أصبح عندي هوية جديدة، وأعيش في مكان لا يمكن لأحد أن يجدني فيه".

"في المقبرة؟ إلى متى؟"

"يبدو ذلك غريبًا، أليس كذلك، لكنني اعتدت على ذلك بالفعل. أشعر أن أغدو مثل والدي تمامًا. إنه مثل الهدية التي أتتني مقابل ما ذرفت من الدموع لسنوات لتملأ الفراغ في حياتي".

"أتفهمك، ابقي هناك لفترة، لكن في النهاية..."

أسكتتها ريحان حين قالت "ثريا!"

"ما الأمر؟"

"ثريا، أنا حامل".

صمت كل من كان في حديقة المستشفى. توقف وقع الخطوات، وانقطع تغريد الطيور، حتى حركة المرور في الشارع قد توقفت. آلاف الاحتمالات مرت بذهن ثريا، وانمحت في اللحظة نفسها. حارت ثريا في ما ينبغي لها فعله أو قوله. هل ينبغي أن تكون سعيدة أم حزينة؟ "ماذا،

كيف؟" تعتعت.

"لا يبدو عليّ، أليس كذلك؟" قالت ريحان "ارتديت فستانًا فضفاضًا، ليخفي البروز في بطني".

"في أي شهر؟" قالت ثريا مؤجلة السؤال الأهم.

"الخامس".

بينما كانتا تنظران إلى بعضهما، كانت ثريا تعد الأيام في ذهنها، وتقلب أوراق التقويم، وتحبس أنفاسها. تنقلت بين الشهور والفصول، وفي النهاية كان عليها أن تتوقف في مكان محدد.

"قلبي سينفطر" قالت.

"الأمر صعب" قالت ريحان، "لكن ينبغي لي أن أوضحه لك".

روت ريحان ما حدث لها أثناء احتجازها. توقفت عدة مرات عن الكلام وغرقت في التفكير. عندما أنهت قصتها بصوت خجول، عانقت صديقتها.

"ألم تحاولي؟" سألت ثريا، ثم أجابت نفسها دون انتظار إجابة من ريحان، "لا أظن ذلك".

"ماذا؟" قالت ريحان رافعة رأسها المتعب.

"ألم تحاولي إسقاط الجنين..."

"كلا" قالت ريحان، "لم يخطر ببالي البتة".

"أقول هذا لأن الشرطة..."

"ليس لأحد" قالت ريحان ووضعت يدها على بطنها "هذا طفلي أنا، وليس طفل أحد آخر".

أدركت ثريا أنها وتّرت ريحان بكلامها، فمدَّت يدها ووضعتها على

بطن ريحان.

"هذا الطفل لك" قالت، "وسيكون طفلك جميلًا مثلك تمامًا. سوف تطلقين عليه اسم أبيك أو أمك، وسوف تعيشين بسعادة معه مدى الحياة. أليس كذلك؟"

"صحيح" قالت ريحان، "لكنني لن أطلق عليه اسم أمي أو أبي".

"هل فكرت في اسم آخر؟"

"الاسم في ذهني منذ شهور" قالت ريحان.

"حقًا؟"

"إذا كانت بنتًا، فسأسميها ثريا".

مالت ثريا إلى الخلف قليلاً وتأملت ريحان، محاولة قراءة نظراتها. كانت ريحان جادة وسعيدة ومبتسمة، ابتسمت ثريا أيضاً. الآن يمكنهما ملء الكفة الأخرى من ميزانهما للبكاء والضحك.

مستشفى تشابا الحكومي

إسطنبول

1985

عندما التقت ثريا بريحان للمرة الثانية في حديقة المستشفى، أخبرتها أنهما قد لن يلتقيا مرة أخرى.

"لقد أمّن الرفاق لي جواز سفر، وسأسافر خارج البلاد خلال بضعة أيام".

"أود بقاءك بالقرب مني، لكنني أخشى أن يُلقى القبض عليك".

قالت ثريا: "روى لنا أحد الرفاق قبل أيام، أن رجلًا مسنًا كان معتقلًا في سجن ديار بكر، قد تعرض للتعذيب كل يوم، حتى فقد شعوره بالواقع. بات يعتقد أنه ورفاقه في العنبر قد ماتوا، والسجن هو قبرهم ومثواهم في جهنم، وأكبر شاهد على ذلك ما يقاسونه الآن من شدة العذاب، ويعتقد أن زبانية جهنم ليسوا سوى حراس السجن الذين يعذبونه. حاول رفاقه في العنبر إقناعه بأنهم لا يزالون جميعهم على قيد الحياة، وأكبر دليل على ذلك أهاليهم الأحياء الذين يزورونهم كل يوم زيارة. فأجابهم عن قناعة إنما هم يزورون قبورنا ويبكون علينا، والحديث بيننا وبينهم مجرد أوهام. بعد فترة،

تقرر إخلاء سبيل الرجل المسن. لم يصدق الرجل، وشعر بالخوف، إذ لا يمكن النجاة من جهنم والعودة إلى الحياة ثانية. حين فتحوا له باب السجن ورأى الدنيا أمامه كما تركها، توقف قلبه ووقع على الأرض ميتًا. منذ أيام، وظنون الرجل لا تغيب عن ذهني، في الواقع، نحن جميعنا أموات ومثوانا جهنم هذا البلد، نحاسب على ذنوب اقترفناها، ولا يمكننا الخروج من هنا. هل أنا مثل ذلك الرجل لن أتمكن من السفر خارج هذا البلد، وسيتوقف قلبي حين تحين ساعة سفري؟"

نظرت ريحان إلى صديقتها بحزن "ثريا" قالت، "كنتِ دائمًا أكثرنا حكمة، تعلمين أنك ستخرجين من هنا بسلام، أفهم سبب قلقك، لأنك لا تريدين المغادرة. حاضرك هنا، ماضيك هنا، أحلامك هنا. فراقك لكل ذلك يثير قلقك".

"يصعب علي أن أبتعد عنك، أن أترك أمي وأبي..." قالت ثريا.

"أتمنى لو لهؤلاء الناس مشاعر مثل مشاعرك" قالت ريحان بينما تقلب بصرها بين الجموع المتدافعة في الحديقة، "انظري إليهم، أكثرهم لا يعقلون إنما يعيشون في جهنم. في اللحظة التي يدركون ذلك، سيشعرون بالمعاناة، لذلك هم لا يريدون معرفة الحقيقة المرّة".

"لكن كيف ينبغي لنا التعامل مع هؤلاء الناس، نأسف من أجلهم أم نغضب منهم؟"

"أشعر بالأسف من أجلهم أحيانًا، وبالغضب منهم في أحايين أخرى".

مدّت ثريا يدها ولمست بطن ريحان.

"كيف حال الجنين؟" قالت، "دعك من مشاكل الناس، وحدثيني عنه".

"أترين؟ يكبر بسرعة كبيرة".

"لقد لاحظتك عند قدومك للتو، على الرغم من فستانك الفضفاض".

"مع مرور الأيام، يزداد شعوري بالتعب، والرغبة في النوم طوال الوقت".

"يقال إن الجنين يركل أحيانًا، هل هذا صحيح؟"

"أجل، يركلني أحيانًا، فيضحكني".

"طفل شقي" قالت ثريا، سحبت يدها واتكأت على المقعد ثم واصلت كلامها: "ريحان، أرى أنه من واجبي إخبارك بما دار من نقاش بين الرفاق حول جنينك هذا".

"ماذا قيل؟"

"قيل إن عليك إسقاطه. لكن الوقت قد فات الآن، ربما كان عليك فعل ذلك في حينه. لقد احتدم النقاش قليلًا. دافعت ورفيقان آخران عن تصرفك، أو بالأحرى عن الطفل، وقلنا إن لا حق لأحد بالكلام حول الطفل سوى أمه".

أمالت ريحان رأسها إلى صدرها وأطرقت. ما كان يدور في ذهنها أحاسيسٌ لا أفكار. كانت ترى أن الأحاسيس التي تنبع من بطنها وقلبها تبثّ حب الطفل في كل خلية من دماغها أهم من كل شيء، وحتى من حياتها.

"أخبرتك ذلك كي لا تتفاجئي إذا ما سمعت يومًا بهذا الكلام. لا تبالي، هذه إحدى نقاشاتنا المعتادة. هل يعلم الطفل عن هذا؟ كلا. عسى عالم جميل بانتظاره" قالت ثريا.

"أجل، عالم جميل" قالت ريحان، "ربما ولادة هذا الطفل هو الدليل

الوحيد على أننا لسنا في جهنم. على الرغم من أن خوفي لا يزول أبدًا..."

"الخوف من ماذا؟" سألت ثريا.

"ذلك الشرطي يظهر في أحلامي، يخطف مني طفلي الذي في بطني. كابوس مزعج لا يفارقني".

"ريحان، لا يمكنك البقاء هنا مع هذا الخوف، سنخرجك أنت أيضًا من هذه البلاد. لن يستطيع هذا الشرطي الوصول إليك أبدًا.

"الخوف في أوهامي فقط" قالت ريحان، "في الواقع لا يمكنه إزعاجي أبدًا، لقد مات كما أخبرني أقدو".

قصرت ثريا عينيها. "هل أنت واثقة من ذلك؟" قالت.

"أقدو قال ذلك، وأنا أصدق أقدو. ما عاد لهذا الشرطي من وجود، لكن الخوف موجود. لم أتعلم السيطرة على مخاوفي بعد، لكن لا تقلقي، كل شيء يسير نحو الأفضل. كوني مطمئنة، خوفي الآن عليك، سأشعر بالراحة إذا ما أسرعت بمغادرة البلاد قبل اعتقالك".

"أنا أفهمك. سأغادر في أسرع وقت" قالت ثريا وقد هدأ صوتها، "لكنني سأفتقدك أنت والطفل. هذا الطفل ليس طفلك وحدك بل طفلي أيضًا، لتعلمي ذلك".

"أعلم" قالت ريحان بينما تنظر إلى صديقتها بعينين حزينتين.

أخرجت ثريا علبة من حقيبتها، "بما أنني لن أكون معك عند الولادة، فقد أحضرت لك هديتي من الآن"، قالت.

"هدية؟"

"نعم، هدية".

فتحت ريحان العلبة فرأت شالًا جميلًا موشى بالأصفر والأخضر

والبرتقالي. تلمست الشال، فشعرت بوجود شيء داخله. فضّت ثنايا الشال فإذا بمشط بين ثناياه؛ مشط خالتها الذي يحمل نقش شاه ميران. رفعت ريحان رأسها بعينين دامعتين. "أكاد لا أصدق".

"عندما اعتقلتك الشرطة، انطلقت من فوري إلى غرفتك في السكن وجمعت أغراضك، وحين رأيت مشطك تذكرت مدى تعلقك به، فاحتفظت به لك حتى اليوم".

"لا تعرفين مدى سعادتي، شكرًا لك..."

"ريحان، سترين أن شاه ميران ستبتسم لك يومًا ما".

"أنت شاه ميراني"، قالت ريحان.

شبكتا أيديهما، جلستا في صمت والسعادة على وجهيهما مثل كبار سن في نهاية عمر مضى بالأحزان. طالت الظلال وازدادت، حطت العصافير على الشجرة أمامهم ثم طارت، لعب الأطفال لعبة طاق طاق طاقية على العشب بمرح.

"نحن رومانسيون أغبياء" قالت ريحان، "بعد أن اعتقلني رجال الشرطة راحوا يضربوني ويستهزؤون مني ويقولون رومانسية غبية. هذا الشيء الوحيد الصحيح الذي قالوه، ها أنت الآن ستذهبين عني بعيدًا، ضعي ذلك في رأسك".

"ما الذي ينبغي لي وضعه في رأسي، هل أننا أغبياء أم أننا رومانسيون؟"

ضحكتا بمرح كما في الأيام الخوالي.

مقبرة مركز أفندي

إسطنبول

1985

عندما ألقى البحار الأشقر مراسيه في الميناء، كان الخريف يغمر المدينة بألوانه النحاسية، والأماسي تحلّ في ساعة مبكرة، والرياح تذري عن القبور ما تراكم طوال الصيف من غبار. يجلي أقدو كلل وإرهاق النهار بشرب الشاي والسجائر في المساء. ريحان ترضع ابنها وتهيئه للنوم، وترى وجهه أينما ولّت وجهها.

شعرت ريحان بالبرد مع هبوب رياح داعبت أغصان الأشجار بشيء من الشدّة. تناولت سترتها من على الأريكة ووضعتها على كتفيها.

"الجو يزداد برودة" قال البحار الأشقر.

أشار أقدو بيده نحو الجهة الغربية من السماء.

"كان المعلم جوزيف يقول إذا ما ظهرت نجوم بنات أطلس في السماء مساءً، يتدثر الراعي بفروته".

"لم أسمع بهذه المقولة".

"للنجوم في البحر دلالات تختلف عن دلالاتها في سهل ما بين النهرين".

"صحيح" قال البحار الأشقر، "نقول حان وقت رفع الأشرعة، عندما تظهر نجوم بنات نعش في السماء. تهب أمواج ورياح البحر بلطف. ويرى بحارتي في نجوم الشقيقات السبع أنفسهم كالآلهة اليونانية القديمة الذين كانوا على علاقة بالشقيقات السبع".

"المعلم جوزيف لم يخبرني قط عن أسطورة الشقيقات السبع، كان يسميهم عناقيد العنب ويعوي مثل الذئب مول- مول".

"ما معنى ذلك؟" قال البحار الأشقر.

"نجمة في اللغة البابلية القديمة".

تدخلت ريحان موجهة الحديث إلى أقدو. "بابا" قالت، "ألذلك تقول لطفلي مول- مول حين تداعبه؟"

"نعم، هذا مول مولي" قال أقدو مطلقًا إحدى ضحكاته غير المتوقعة.

"كم أنا ساذجة، ظننت أنها مجرد كلمة للتودد ولا معنى لها".

في تلك الأثناء تعالى بكاء الطفل، نهضت ريحان مسرعة وقالت إن الطفل جائع ودخلت الغرفة.

رفع أقدو والبحار الأشقر رأسهما إلى السماء مرة أخرى، تجولا بين النجوم وغرقا في ثنايا الأيام الخوالي.

"كم عامًا مضى على أول لقاء لنا؟" قال أقدو، "في الماضي، عندما كنت تغادر إسطنبول، كنت أعلم أنك ستعود في غضون بضعة أشهر، وأتوقع يوم عودتك. أما في الوقت الحاضر، فنادرًا ما تأتي إلى إسطنبول حتى بت أخشى أن لا أراك ثانية. ما عدت أعرف متى تعود، فأغرق في ذكريات الأيام الجميلة التي قضيناها معًا".

"ليتني أتمكن من المجيء دائمًا" قال البحار الأشقر بصوت حزين،

"لكن منذ أن بعت البيت في الحي، انقطعت علاقتي بهذه المدينة. وحين أسافر، أعود إلى بيتي في البندقية. عندما أفتقد روبرتا وابني، أتخيلهما يقيمان في إسطنبول أحيانًا، لكن سرعان ما أرى سفينتي قد رست في ميناء البندقية. جدران بيتي مليئة بلوحات لمناظر من إسطنبول. ليس خطأي وحدي في هذا البعاد. أنت أيضًا تشاركني بالخطأ، فعلى الرغم من إلحاحي الدائم، لكنك لا تزورنا في البندقية. أتعلم أن روبرتا تقول إن كثرة ترددي عليك في إسطنبول يدفعك إلى عدم التفكير بالمجيء إلى البندقية لترانا؟"

"لو كان بإمكاني مغادرة هذا المكان، لقضيت عندكم جُلّ أيامي".

"تحدثنا عدة مرات، في كل مرة كنت أتفهمك، ولكن الآن تغير وضعك. ريحان هنا الآن، يمكنها البقاء مع إليف لعدة أيام، بدلًا منك".

"أنت مخطئ" قال أقدو، "سابقًا، كان وجود إليف يمنعني من مغادرة هذا المكان، أما الآن، فوجود ابنتي وحفيدي إضافة إلى إليف يمنعني من المغادرة. ماذا سيفعلون بدوني؟"

"حسنًا" قال البحار الأشقر، "لقد أسكتني كعادتك، الأمر متروك لقرارك. هل تعلم أنني لم أعد أشعر بالقلق عليك، وما عادت الأفكار السوداء تراودني، حين أتذكر أنك ما عدت تعيش وحدك، وأن لديك أسرة سعيدة، فأطمئن عليك ويهدأ بالي".

"بصحة عائلتينا السعيدتين" قال أقدو رافعًا قدحه، "هيا يا صديقي أنحن في الجامع؟ ارفع قدحك".

"أقدو" قال البحار الأشقر، " بينما كنت تحكي لي ما حدث مع ريحان، غضبت من نفسي، لِمَ لم آتِ في حينه. كنت سأكون عونًا لك في أيام الشدة تلك. كنت سآخذها معي في السفينة إلى البندقية، حيث لن يتمكن أحد

من العثور عليها. ربما لو حصل ذلك، لتعّين عليك القدوم لزيارتنا".

"كنت مكبل اليدين لا أعرف ما ينبغي لي فعله حين وجدتها. لكن، حين خطرت حجرة الخلوة ببالي، هدأ بالي قليلًا، ومن ثم عندما أصدرت لها هوية جديدة تنفست الصعداء".

"لقد أخطأت يا أقدو. لقد تركت لك رقم هاتف بيتي في البندقية. لو اتصلت بروبرتا وأعلمتها بالأمر، لأوصلت الخبر إليّ حتى لو كنت في آخر الدنيا".

"أعلم أن هذا خطأي. لكن لم يخطر ببالي الاتصال بك البتة. الورقة التي كتبت عليها رقم هاتفك ظلت على هذه الطاولة لبضعة أيام، يبدو أن الرياح قد أطارتها، فغابت عن ذهني. من كان يعلم أن كل هذا سيحدث؟"

"سأكتب رقم هاتفي مرة أخرى، ولكن سأعطيه هذه المرة إلى ريحان. إنها تجيد الاحتفاظ بالأشياء المهمة".

"هل تعلم، أنني لم أتحدث بالهاتف سوى مرة واحدة في حياتي. كان ذلك من أجل ريحان قبل حوالي عشر سنوات. عندما قرأت في الجريدة أن والديها قد قُتلا، خفت على البنت من البقاء وحيدة دون معيل، فقررت الاتصال بمدير الكازينو، لأعرب عن استعدادي لرعايتها. لم أعرف كيف أستخدم الهاتف، لكن الشيخ أشرف كان معي، وبفضله تمكنت من إجراء المكالمة. لا تندهش، لم يكن أحد في حياتي كي أتصل به. عندما كنت طفلًا، كنت أرى الهاتف من بعيد، في بعض المحلات في ماردين. لقد ظننت في حينه، أن هذا الجهاز السحري يكشف المجهول. ظننت أني إذا ما تحدثت به، فقد ينقل صوتي إلى أمي. ثم أخبرني المعلم جوزيف كيف يعمل الهاتف، وأن لا أضع آمالي فيه بلا جدوى".

"إذن فقد تحدثت عبر الهاتف مرة واحدة فقط" قال البحار الأشقر.

فكّر قليلًا بينما ينقر بأصابعه على الطاولة، "سوف نحسم هذا الأمر غدًا، سوف نتصل ببيتنا ونتحدث إلى روبرتا. ستكون سعيدة لسماع صوتك أيضًا، وسيساعدها ذلك على تحسين لغتها التركية قليلًا. أليس ذلك جيدًا؟ سأطلب من ريحان الاتصال بنا في طالع كل الشهر".

"أنا لا أفهم بهذه الأمور، تفاهم أنت مع ريحان. على أية حال، فهي تقرر كل شيء هنا. لقد أردت شراء بيت في الحي لتقيم ريحان فيه مع طفلها، لكنها لم توافق، ورفضت أن تتركني وحدي. لذا فقد أقمت غرفة إضافية إلى جانب البيت. نحن الآن مرتاحون".

"لقد اضطررت لإنفاق الكثير من المال في هذه الظروف الصعبة، لم يبقَ لديكم ما يكفي من النقود. سأترك لك بعض المال".

"يكفيني أنك فكرت بذلك" قال أقدو، "أشكرك، لدي ما يكفي من المال. لا أجد بابًا لأنفق فيه الأموال التي كسبتها منذ سنوات. خلاصة القول، أنا سعيد لوجود ريحان وطفلها كي أعتني بهما".

"يا لسعادتك".

"عندما جاء المولود ذكرًا، طلبت ريحان مني تسميته. لا تعلم كم كنت منفعلًا، لا أعرف ما ينبغي لي فعله. قبل سنوات مضت، صبي صغير عمل معي، وقد مات في سن صغيرة في ظروف مؤسفة. كان اسمه باقي، فقررت تسمية ابن ريحان باسم ذلك الصبي".

"لن تجد ريحان أبًا أفضل منك في هذا العالم".

"لن تجد، أليس كذلك؟" سأل أقدو بجدية.

"هل لديك شك في ذلك؟"

"ليس الشك هو الموضوع، في نهاية الأمر فهذا المكان مقبرة، وأي مكان آخر سيكون أكثر راحة للأم وابنها".

"قد يشعران براحة أكبر، لكن لا يمكن أن يكونا أكثر سعادة".

استرخى وجه أقدو المتوتر. تبدد الضباب في عينيه.

"لنشرب نخب ذلك"، قال.

"لنشرب" قال البحار الأشقر، وأضاف بينما يرفع قدحه، "ولنشرب نخب توتيفي أيضًا".

تجرع أقدو قدحه ووضعه على الطاولة. طاف ببصره في كل أرجاء المقبرة، كأن توتيفي سيظهر من بعيد. أعطى أذنه للظلمة بانتظار سماع صوت أنفاسه. لو لم تدخل ريحان وطفلها في حياته لما كان بوسعه أن يحتمل فقدانه لتوتيفي. على أية حال، منذ ما يقرب من عام، يستيقظ ليلًا وينظر من النافذة، كلما سمع صوت كلب أثناء نومه.

"لو رأيت توتيفي في آخر لحظاته" قال أقدو، "كم بدا المسكين عاجزًا. لم أستطع إنقاذه. ألا يغضب الإنسان من نفسه؟ أنا غاضب من نفسي لموت توتيفي".

"ليس من الصواب لوم نفسك" قال البحار الأشقر، "لقد فعلت أقصى ما يمكنك فعله. أترى! لقد أنقذت حياة ريحان".

"لقد فعلت ذلك، لكن الفتاة لم تتغلب على مخاوفها بعد. ترى الكوابيس أثناء نومها، وتصيح أبي، احمني، ثم تستيقظ فزعة".

"ليس سهلًا ما عايشته من أيام عصيبة، لكن ذلك الخوف سيزول مع الوقت".

بعد أن غاب نظر أقدو في البعيد، أعاد الحديث عن الكلاب، "كيف

حال هافاري؟" سأل.

"لقد مرض هافاري الشهر الماضي، أخذناه إلى الطبيب البيطري، تقبلنا احتمال موته. من السهل علينا أن نتقبل ذلك، لكن يصعب على ابني عليّ أندريا تقبّل موته. الصبي في العاشرة من عمره، وقد أمضى سنوات حياته العشر مع هافاري".

"هذه هي الحياة يا صديقي البحار، لكل داء دواء إلا ألم موت من تحب. سيعيش عليّ أندريا أيضًا هذا الألم وسيعاني كثيراً. لا أعرف طريقًا آخر لقبول حياة طويلة بحلوها ومرها".

"معلم أقدو، أنت رجل يابسة، لقد دفنت توتيفي هنا. تحدثت مع روبرتا، وإذا وافق ابننا عليّ أندريا، فسوف ندفن هافاري في البحر. إنه بحار أيضًا، وقد رافقني في العديد من رحلاتي البحرية".

"بعد أن تودعه البحر، سأتولى أمر شاهد قبره هنا، سيكون مثل شاهد قبر توتيفي".

"هل نحتت شاهد قبر لتوتيفي؟"

"نعم" قال أقدو، "أو بالأصح، أضفت نقشًا آخر على شاهد القبر الذي نحته سابقًا. عندما كان توتيفي وهافاري في صراع مع الموت، كانت أمهما وستة آخرين من إخوتهما الجراء قد ماتوا. تذكر أنني عندما دفنتهم في قبر قديم ووضعت شاهد قبر لهم نقشت عليه رسمًا لأنياب بعددهم. عندما مات توتيفي، أضفت نابًا آخر على الشاهد. سأقوم أيضًا بنقش ناب آخر لهافاري، وعلى الرغم من أن جثته لن تدفن إلى جوار أمه وأخوته، لكن أرواحهم ستلتقي".

"كلام جميل، ستعود العائلة وتلتقي أرواحها ثانية هنا".

مقبرة مركز أفندي

إسطنبول

1985

لم يستطع أقدو النوم بعد مغادرة البحار الأشقر عند منتصف الليل. السؤال الذي لم يجد له جوابًا منذ شهور، أرّقه مرة أخرى. كيف ينحت شاهد قبر للرجل ذي السبعة أسماء؟ عندما يفكر في هذا السؤال، يغوص في ذكريات طفولته، يحلم، ويأمل أن ينزل نور الإلهام عليه. لا تقنعه أي من الأفكار التي تتبادر إلى ذهنه. سيخلق روحًا، وليس حجرًا، ينتظر أن تظهر تلك الروح أمام عينيه. يعرف كيف يكون صبورًا. يراقب النجوم ويصبر على الزمن. يعد النجوم التي تفرقت في الاتجاهات الأربعة. نجم آخر افترق. مرَّ آخر سرب لطيور النورس في الليل، فوق المقبرة وصاح. شرب أقدو كأسًا من الماء من الإبريق على الطاولة. أشعل سيجارة. أخذ الحقيبة من فوق الأريكة، وأخرج مذكرات الرجل ذي السبعة أسماء. أعاد قراءة المذكرات التي قرأها مرارًا لعله يجد بين سطورها ما قد ينير له فكرة أو يحضر له في مخيلته صورة لشاهد القبر الذي سينحته.

هوزات

درسيم

1938

صاحب هذه المذكرات الملازم آدم كريتلي. أرجو ممن يجدها أن يرسلها بالبريد إلى عنوان خطيبتي مسكال دوروسو في إسطنبول. الملاحظات الموجودة في مذكراتي كتبت إليها شخصيًا، وأود الإعراب عن خالص امتناني مقدمًا لاحترامكم لتلك الخصوصية. عنوان خطيبتي:

شارع صالكيملي، قصر الجوهر،

اميرغان، إسطنبول.

الأربعاء 1 يونيو 1938.

عزيزتي مسكال، الكلمة الأولى لك دائمًا، والكلمة الأخيرة لك وحدك أيضًا. أمضينا هذا الصباح في اجتماع للقيادة، وغدًا ننطلق إلى الميَدان في ساعات الصباح الأولى، قيل لنا أن نكمل استعداداتنا خلال هذا النهار. لقد مر أسبوع منذ أن جئت هنا من وحدتي في إزمير، ولم تستلمي الرسالة التي أرسلتها إليك بعد. سأكتب رسالة أخرى لك الليلة وأبلغك

عن آخر موقف، وبعد ذلك سينقطع التواصل بيننا لفترة من الوقت. سألت عن المدة التي ستستغرقها الوظيفة الميدانية، فقالوا بضعة أسابيع لا أكثر، ذلك يعني أن لا أتمكن من إرسال أو استقبال الرسائل منك لبضعة أسابيع. تذكرت الدفتر الذي أخذته معي. سأستعيض بكتابة مذكراتي على ذلك الدفتر عن كتابة الرسائل، وعندما أعود من الميدان، سأرسل لك هذه المذكرات بالبريد، لترين أنني لم أنساك حتى عندما فقدنا الاتصال فيما بيننا، وأنني حملتك في قلبي في كل مكان. لقد قرأنا في الصحف أن عملية درسيم قد اكتملت بنجاح العام الماضي، وأن زعيم التمرد قد تم أسره وشنقه. في الواقع، ما زالت الاضطرابات قائمة. سكن لهيب النار وبقي جمرها، ودورنا الآن إطفاء الجمر. هذا الكلام يعود لقائدنا النقيب طان. النقيب طان رجل مثقف وواسع المعرفة. أظهر اهتمامًا عندما علم أنني مدرس تاريخ، دعاني إلى خيمته لشرب الشاي. قال خلال حديثنا، إن بلدة هوزات كانت في الماضي، قاعدة عسكرية للبيزنطيين، تعلمين عند قولي في الماضي، أقصد بداية الألفية الأولى. المناطق المحيطة بها جبلية، والجبال مغطاة بأشجار البلوط. عندما قلت إن هذه المنطقة جبلية، ضحك النقيب وقال إن الجبال الحقيقية تقع شمال مقاطعة درسيم، وإن هذا المكان يعتبر أرضًا منبسطة مقارنة بالمرتفعات الأخرى، ثم استعاد جديته وصحح كلامه. قال، ينبغي أن نقول مقاطعة تونجلي لا درسيم. على الرغم من تغيير اسم المقاطعة بموجب القانون الذي صدر قبل ثلاث سنوات، إلا أننا لا نزال نعود إلى الماضي في كلامنا. خلال ثلاث سنوات لا يمكن محو اسم عمره آلاف السنين. الجبال والبلوط أو اسم المقاطعة لا يعنيني بشيء، ما أريده أن أكون في إسطنبول الآن، وأتمشى معك من ساحل اميرغان إلى إستينية.

أحاول أن أتذكر ما فعلناه في مثل هذا اليوم من العام الماضي. هل تقابلنا في ذلك اليوم؟ هل وقفنا على شاطئ البحر، وتابعنا احتراق أحد القصور في منطقة كانليجا على الشاطئ المقابل؟ أم تحدثنا عن خبر سقوط المنطاد الألماني زبلين في أمريكا؟

يسهل التحدث عن سنوات بداية الألفية، بينما يصعب تذكر ما حدث قبل عام. أعتقد أن الزمن مهم في البعاد، لكن عندما نكون معًا فالمهم معرفتنا لبعضنا لا الزمن. عندما كنت معك في إسطنبول أنت الموجودة لا الزمن، والآن بعد أن أصبحت على بعد ألف كيلومتر عنك، وجدت نفسي غارقًا في الزمن. أشاهد كل لحظة تمر من دونك من خلال النظر إلى عقرب الدقائق في ساعتي، النهاية المدببة لعقرب الدقائق تدور وتدور، وتحفر قلبي مثل المحراث. هناك من ينادي عليّ من بعيد. لقد كتبت ذلك أثناء استراحتي، والآن ينبغي لي الذهاب.

ليلًا.

أمضينا نهارنا بالاستعدادات المكثفة والركض هنا وهناك. أخيرًا دخلنا الخيام وتمددنا على أسرّتنا. انتهيت من الرسالة التي كتبتها لك ووضعتها في مغلف وسأسلمه للجندي المرسال في الصباح. ستطفئ الأنوار بعد قليل. لن أنام في الحال، أريد أن أقضي آخر لحظات الإنارة معك، فتحت مذكراتي، وما إن أفتح صفحاتها، كأنني أراك أمامي، نتحدث معًا إلى طاولة على ساحل البحر، في حديقة الشاي في منطقة ينيكوي. كأنني أحدثك عن إجراء صيانة لبيتنا على شاطئ بيبيك، حيث سنقيم بعد زواجنا، وتحدثيني عن خالتك القادمة من أثينا. بالمناسبة، كيف

حالها، لقد خطر ببالي للتو أنك لم تذكري عنها شيئًا في رسالتك الأخيرة. أقول لك إنني أريد الزواج في الحال، فتذكريني بإصرار والدك على إنهائي لخدمتي العسكرية أولًا. يهب هواء بارد من باب الخيمة المفتوح، فيقوم أحد الجنود ويغلقه. يا للغرابة، عندما يحل الظلام في موسم الصيف هنا، يصبح الجو باردًا فجأة. جندي من مدينة قونية يشرع في الغناء. اعتدت على سماع الأغاني الشعبية، وما عدت أغلق أذني كما كنت أفعل في السابق، ولا يمكنني إغلاق أذني كما في المرة الأولى، ولا أتوقع أن يهتم أي شخص بالأغاني الأوروبية هنا.

العساكر هنا قادمون من مناطق بعيدة من الأناضول، ويتحدثون بلهجات مختلفة، حتى إني أجد صعوبة في فهم ما يقولونه أحيانًا. نبقى في الخيام لأنها منطقة عمليات، وأنا الضابط المسؤول في هذه الخيمة، يطلقون علي الإسطنبولي. هنا، يُطلق على الجميع اسم مسقط رأسهم. إسطنبول تثير فضولهم، فمعظمهم لم يرَ البحر. وعندما أحدثهم عن أسوار المدينة التاريخية، وبرج الفتاة، والسيدات الأنيقات اللواتي يذهبن للتسوق في الشوارع المضيئة، يستمعون إليّ بشغف كأن فيلمًا سينمائيًّا يعرض أمام أعينهم. يسألون أسئلة غريبة، مثل، هل مياه البحر زرقاء حقًّا؟ ماذا يظهر في السماء ليلًا، أتظهر النجوم عندكم أيضًا؟ كم هو غريب، أليس كذلك، يظنون أن إسطنبول في كوكب آخر. الجميع هنا مارقون، لا يذهب أحد إلى المسجد، ماذا يعبد أهل إسطنبول؟ الجميع ما عداي متزوجون، والبعض عنده أطفال أيضًا. كنت سأصبح جنديًّا متزوجًا هنا لو سمح لي والدك بذلك. كنت سأحمل صورة طفلنا مع صورتك في جيبي. عند قولي طفل، خطر ببالي، حادثة وقعت بالأمس، سأخبرك بها.

أمس.

أثناء الغداء سمعت صياحًا دبَّ بين العساكر على مسافة غير بعيدة مني. غالبًا ما يقع شجار هنا، لذلك ظننت أن هذا الشجار كما سبقه من شجار. نُقل أمامي عسكري غارق بدمائه إلى الخيمة الطبية. كان ذلك العسكري قد استلم قبل الغداء، رسالة من بلدته. سالت الدموع من عينيه بينما كان يقرأ الرسالة، ولم يجب على استفسار زملائه عن سبب بكائه. كان حديث الزواج، وقد وصلته أخبار محزنة عن ولادة زوجته. ماتت زوجته أثناء الولادة، ولم يعش المولود سوى يومًا واحدًا فقط. عندما أنهى الرسالة، راح يمزق ثيابه، ثم استل سكينه وقطع معصمه. من يريد أن يكون في مكان هذا العسكري؟ غضب أصدقاؤه على كاتب الرسالة، وقالوا إن ابن عمه الذي كتبها، إما أنه خفيف العقل أو يحقد على هذا العسكري لسبب ما. من المعتاد أن لا ترسل أخبار سيئة عن الأهل لأي عنصر في الجيش، حتى نحن سكان إسطنبول نعرف ذلك. حالة العسكري الصحية حرجة، ولا يتوفر له هنا إمكانية المعالجة اللازمة لحالته، لذلك نُقل إلى المركز الصحي في درسيم الليلة الماضية.

نهر الفرات

درسيم

1938

الثلاثاء 14 يونيو 1938.

عزيزتي مسكال، إذا ما سئلتُ عن ماهية الزمن، فقد أصبحت أعرف الإجابة الآن، إنه بئر لا قرار له، بئر لا أراك فيه إلا عندما أنحني. عندما أغوص في مائه وأشرب منه، وأشعر بغياب العالم خارج البئر. المعرفة شيء والأحاسيس شيء آخر. المعرفة هي المهمة السهلة للعالم الآن، عصرنا يحل هذه المشكلة بالعلم والتقنية، والآن، بات الناس بحاجة إلى سبر غور الأحاسيس. يجب أن يمهد العلم الجديد الطريق لذلك، ويوضح ليس ماهية الوجود فحسب، بل ماهية عدم الوجود أيضًا، وإلا فإن الناس المحاصرين داخل شباك الخرافات المتوارثة، لن يتمكنوا من التخلص من عاداتهم القديمة. نعرف طبيعة العادات، فهي تتبعنا بإصرار منذ آلاف السنين. العادة معرفة جاهزة، تمنع الناس من تعلم أشياء جديدة. لقد عشت ذلك هنا، حتى أن شعبنا لا علم له بالزمن. لم أرَ قط عسكريًّا واحدًا يحمل ساعة في يده، باستثناء الضباط. الساعة الثالثة أو التاسعة بالنسبة لهم لا اختلاف بينها، فالوقت عندهم يقاس برؤية الشمس أو القمر، ولا يرون في

حملي للساعة سوى زينة مثل الخاتم، بل لقد تساءل البعض إذا ما كانت تميمة. لقد سمعوا أن أهالي إسطنبول يؤمنون بدين جديد، وربما هذه تميمة من ذلك الدين. على الرغم من أنهم لم يواجهوني بذلك، لكنني خمنت ذلك من تهامسهم، ثم أنهم يتساءلون عما أكتبه في هذه المذكرات.

نحن حاليًا، في قرية تضم ثلاثين خانًا. وصلنا قبل ساعتين. لا أحد فيها، مثل العديد من القرى، لقد أخلوها وهربوا قبل وصولنا. لم يتركوا شيئًا ولا حتى الحيوانات، لا أغنامًا أو أبقارًا لنذبحها ونقتات بلحمها. ليس من السهل إطعام تسعين جنديًا. سنكتفي اليوم بالطعام القليل الموجود في أكياسنا. معنا مرشد من أهل المنطقة، يتحدث عن كهوف خارج القرية. ربما اختبأ القرويون هناك. الظلام على وشك الهبوط. من الخطر الذهاب إلى الكهوف في مثل هذه الساعة، فقد نتعرض لإطلاق نار. سنستكشف تلك الكهوف صباح الغد، أنا لا تعنيني الكهوف ولا ساكنيها، ما يهمني رؤية نهر الفرات خلف مرتفعات تلك الكهوف. منذ أسبوعين، الشيء الوحيد الذي شغل بالي هو نهر الفرات بينما كنا نتنقل على منحدرات ومرتفعات تلك المنطقة. جميع الأغاني الشعبية هنا تدور حول نهر الفرات، لقد سمعت أول أغنية قبل ثلاثة أيام.

قبل ثلاثة أيام، السبت.

دخلنا قرية أخلاها الأهالي كعادتهم عندما يسمعون بتقدمنا نحوهم، لا حياة فيها مثل الصورة، ولا حتى نباح كلب. تفقدنا جميع البيوت واحدًا واحدًا.

تصلنا الأخبار عن القرويين، وخاصة أخبار النازحين إلى جبال منذر في

الشمال، يقاومون العساكر وينصبون لهم الكمائن ويقتلونهم. على الرغم من اشتباكنا معهم مرتين، إلا أننا لم نتعرض لأية إصابات حتى الآن. لقد تعاملنا بسهولة مع هذه الحفنة من الناس التي لا تملك شروى نقير. أراد بعض العساكر دفن من قتلنا من القرويين، حتى لو كانوا أعداء، فمنعهم النقيب طان من فعل ذلك، تُركت الجثث في العراء لتقتات الذئاب والطيور بها.

أثناء تجولنا في القرية، أوقفنا عويلٌ كسر الصمت المخيم على القرية، تلفتنا حولنا للوصول إلى مصدر الصوت. شاهدنا امرأة جالسة على صخرة أعلى القرية؛ عجوزًا ملتفة بغطاء رث تبكي وتولول بصوت مرتفع. رددت الصخور صوتها كرنين أجراسٍ صمّ آذاننا. ذهلنا من شدة الحيرة من منظرها، فلم نحرك ساكنًا. بعد أن أنهت المرأة نواحها، قامت بهدوء، ورمت الغطاء عن جسدها، فبدت عارية تمامًا. بدا كأن عمرها مئة عام، أو مئتا عام، وربما ألفا عام، وكأنها قد خرجت من التاريخ. لم يكن هناك لحم على جسدها الهزيل، كانت من جلد وعظم فقط. لقد صاحت بكلام غير مفهوم، كأنها تتحدث بلغة الأموات، لا لغة الأحياء، لم نفهم شيئًا مما قالته. ثم نزلت عن الجرف وابتعدت. لقد فاجأتنا بجرأتها، سألنا مرشدنا عما قالته المرأة، فقال إنها تعلن رفضها الفرار مع من فر من القرويين من هنا، وإنها ولدت هنا وستموت هنا. أما رثائها فكان حول نهر الفرات. لقد احتضن الفرات آلام الناس. بسط جناحيه هنا منذ أربعين ألف سنة. الأيام ستمضي، مياه الفيضان ستنحسر، الرياح القديمة ستهب. الجبال ستزهر، ونهر الفرات سيستمر في التدفق مع أغاني الفتيات.

أثار نهر الفرات اهتمامي مرة أخرى، على خلاف ما كنت أقوله لطلابي في الفصل. انتابني فضول شديد لرؤيته عن قرب. لقد أظهر النقيب طان

معرفة واسعة حول المنطقة مثل المرشد ابن المنطقة، إذ قال إن النهر على مسيرة يوم واحد على الأقدام، ويمكننا الوصول في غضون ثلاثة أو أربعة أيام إذا تباطأنا. النقيب طان يعمل في هذه المنطقة منذ عامين وقد تعلم اللغة الكردية. قررت البدء في تعلم اللغة الكردية مثله. يقول النقيب طان إن الأكراد هم أتراك جبليون، وإن لغتهم قد تحورت وتغيرت بعد أن عاشوا في الجبال منقطعين عن العالم -يقصد لما لا يقل عن ألف عام-. عندما رأيت حال قرويي هذه المناطق، وجدت أن أفراد وحدتي أكثر تحضرًا. من الضروري تعليمهم الأساسيات قبل تعليمهم الساعة. أشك في معرفتهم للأعداد وحسبتها. الأيام والأشهر لا أسماء لها في حياتهم العادية. يعرفون من الزمن موسمين فقط، يميزون الأول بالشمس والآخر من الثلج. يشبهون قبائل أدغال إفريقيا. إنهم متخلفون للغاية، ومحدودو التفكير. يخطئون ويعيشون بشكل خاطئ لأنهم لا يعرفون ماذا يريدون. كيف يمكنهم بناء مستقبل وهم يرزحون تحت هذا الفقر والفاقة والعزلة؟

اليوم، ليلًا.

لم نستحم منذ أسبوعين. لا أستطيع النوم من حكة أصابتني. قمت وجلست جوار نار أشعلها الحراس المناوبون. أحاول كتابة بضعة سطور في مذكراتي بينما يتمازح الحراس ويتضاحكون. روحي مسكال! أدركت أننا لم نعطِ الليالي حقها في إسطنبول. عندما نتزوج، سنوقد نارًا في حديقة بيتنا ليلًا ونجلس جوارها. نعيش معًا الجمال الليلي لسماء إسطنبول المرصع بالنجوم. عندما أفكر في عينيك هنا، أفكر في إسطنبول أيضًا. زرقة عينيك هي نفسها زرقة البحر هناك، وأنا هائم الآن في طيف ذلك اللون الأزرق.

نهر الفرات

درسيم

1938

الاثنين 20 يونيو 1938.

عزيزتي مسكال، لقد شاهدت نهر الفرات اليوم أخيرًا. بعد أن تم تنظيف المنطقة من المتمردين بعد اشتباك دام استمر ثلاثة أيام، تنفس الجميع الصعداء. سنقضي الليلة هنا ونتابع طريقنا غدًا، لكنني لم أكن على استعداد لانتظار الغد. أردت أن أرى نهر الفرات خلف الجرف الصخري المقابل في أسرع وقت ممكن. طلبت الإذن من النقيب طان لتسلق الجرف. كان الوحيد الذي تفهّم حماسي. أشار النقيب طان إلى ساعة يده أولًا، ثم إلى الشمس الآيلة للغروب ثانيًا، وأكّد على ضرورة عودتي خلال ساعتين، أي قبل حلول الظلام كي لا أضل طريقي. على الرغم من شعوري بالتعب والجوع، فقد كانت قدماي تسابقان الريح. سرعان ما وصلت إلى قمة الجرف ونظرت إلى أسفل الجرف حيث تهب الرياح القوية.

عزيزتي مسكال، لقد راودني الشعور نفسه عندما رأيتك أول مرة في إحدى الحفلات. كنت ساحرة وتخلبين الألباب. نهر الفرات بدا لي ساحرًا

ويخلب الألباب أيضًا. لقد امتد مثل ثعبان ذهبي اللون تحت شمس الأصيل، لا نهاية له. تناولت منظاري ونظرت بشغف كأنه بإمكاني رؤية طرفه الآخر الممتد على طول ثلاثة آلاف كيلومتر. بدا لي كأن هذا المنظار يقرّب الزمن لا المكان، فقد ظهر أمام عيني تاريخ يمتد لآلاف السنين. تلك الأراضي التي امتدت على طول سهل ما بين النهرين ومن الخليج العربي إلى البحر الأبيض المتوسط، هي التي أنجبت الزراعة والكتابة والعجلة. وعندما كُتبت ملحمة جلجامش هناك، لم يكن هوميروس جد اليونانيين قد وُلد بعد. بنوا القنوات المائية، وشقوا الطرق التجارية، وشيدوا ليس سبعًا من عجائب الدنيا فحسب بل سبع عشرة من عجائب الدنيا. كانوا يدعون بالسومريين والبابليين والآشوريين، ولكن كيف حلَّ عراة وجهلة وفقراء محلهم على هذه الأرض على مر العصور؟ نقّلت المنظار بأناة إلى اليمين، وإلى اليسار، وإلى البعيد، وإلى القريب. أين ذهب صانعو التاريخ، من هؤلاء الناس الذين يعيشون مكانهم الآن، في بيوت طينية متباعدة؟ أنا على استعداد لأقسم أن أولئك الذين أناروا مشاعل الحضارة هنا قبل خمسة آلاف عام، كانوا أكثر تقدمًا من سكان تلك القرية الواقعة على نهر الفرات العظيم أو بوراتّو كما أسماه الأكّاديون. نقّلت منظاري ثانية، وتأملت الجبال على ضفة النهر الأخرى، وجفلت عندما رأيت ظلًّا غريبًا قريبًا جدًا مني. رفعت المنظار عن عيني وإذ بي أرى أيلًا على بعد بضعة أمتار مني. لم يلاحظني الأيل، وربما ظن أنني صخرة من صخور هذا الجبل. وقف على حافة الجرف برقبته الطويلة، يراقب نهر الفرات. لقد رأيتك أنت مرة أخرى تبهرين البصر. لو كان معي آلة تصوير بدلًا من المنظار، لصوّرت الأيل. بما أنني لم أتمكن من التقاط صورة له، فينبغي لي وصفه لك. فراء

أصفر يمتد من الصدر الأبيض للأيل حتى عنقه، ويمتزج فراء ظهره بألوان برتقالية وبنية وحمراء. رأيت العديد من الثعالب والذئاب والماعز الجبلي هنا، لكنني أواجه أيلًا أول مرة. يظهر عليه النبل والوقار ما لم أره عند الحيوانات البرية الأخرى من خصال. تجاهله لي، ووقفته الجسورة على حافة الهاوية، جعلا منه سيد هذه الجبال. أنا على استعداد لأقسم أن هذا الأيل قادم من أقدم العصور. جلجامش كان يطارد هذا الأيل منذ خمسة آلاف سنة، واستلهم نبوخذ نصر الثاني بناء حدائق بابل المعلقة من الجمال الأسطوري لهذا الأيل، واستباح الإسكندر الأكبر سهل ما بين النهرين لعشقه لهذا الأيل. الأيل المقدس الذي لم يحظ به أحد منهم، هو الآن هنا أمامي. أخذت أول نفس، ثم النفس الثاني، في النفس الثالث صوبت بندقيتي نحوه. أصبت الأيل في قائمته الخلفية برصاصة واحدة. كان يقف على حافة الجرف، كان من الممكن أن يقع إلى الأمام، لكنني اخترت أصابته في قائمته الخلفية كي يقع إلى الخلف ويكون وجبة عشاءي لهذه الليلة. لم يقع الأيل على الأرض، ولم يدر رأسه لينظر إليّ أيضًا. أحنى رأسه، كأنه يشاهد انعكاسه في الهاوية. كانت نظراته ثابتة، بقفزة واحدة، وثب على قائمتيه الخلفيتين، وانطلق نحو الهاوية.

نهر الفرات

درسيم

1938

الخميس 18 أغسطس 1938.

عزيزتي مسكال، أؤمن إيمانًا راسخًا بوجود الروح، فبينما جسدي منهك هنا، روحي معك في إسطنبول. بفضل السعادة التي يشعر بها روحي، يتمكن جسدي من تحمل الصعوبات هنا. حين بدأنا العملية العسكرية كان من المقرر أن لا تستمر أكثر من بضعة أسابيع، وها قد دخلت شهرها الثالث الآن، ولا يُعرف إلى متى ستستمر. العساكر في حالة مزرية. لقد دفعنا التعب والقذارة والحرمان من الطعام لبضعة أيام إلى التجرّد من إنسانيتنا. عندما نقتحم بيوت القرويين وننظر في مراياهم، يخال إلينا أن في المرايا أعداء لنا، فنصوب بنادقنا نحوهم، ثم نستدرك خطأنا ونحاول تهدئة روعنا. ما عدنا نتمكن من التعرف على أنفسنا في المرايا، أنا لا أشكو من ذلك، ولكن من البقاء بعيدًا عنك. لقد ذقت كل شيء هنا، وربما سأذوق الموت أيضًا، لكن أمنيتي الوحيدة هي رؤيتك قبل أن أموت.

كنت تضحكين من كثرة ثرثرتي عندما أكون معك، لكن هذه

المرة، سأتوقف عن الكلام، أريد أن أشعر بوجودك، وأنفاسك إلى جانبي ولا شيء غير ذلك. مع تصاعد القتال في الميدان هنا، وسقوط قتلى بين جنودنا، فقدت الشعور بالأمان، وبت أفكر كثيرًا في الموت. الموت مثل صورة مطبوعة على بطاقة قديمة، وعندما تقلبينها، ستجدين كلامًا مكتوبًا على وجهها الخلفي. أنا دائمًا أرى اسمك على الوجه الخلفي لصورة موتي. عندما أموت، لا أريد أن أفكر في أي كلمة سوى اسمك. لتسدل مسكال جفنيّ.
عندما كنت أبحث عن معنى لاسمك في عصور مختلفة ولغات مختلفة، شعرت بالسعادة لأنني مدرس تاريخ. لم أخبرك إلى ماذا توصلت، لقد أردتها أن تكون مفاجأة ليلة زفافنا. الوضع الآن تغير وأريد كتابتها في المذكرات لأن أنفاس الموت تحيط بنا. إذا كنت تقرئين هذا أول مرة، فهذا يعني أنني ميت.
يقولون الأرواح خفيفة، يقولون إنها تطير، أما اسمك فله ثقل ووزن، روحي ستحمل ثقل اسمك. سِكال أو سِكل من ثِقلٍ في اللغة العربية ، وكلمة مِسكال من مثقالٍ في اللغة العربية. في العصور القديمة، يعني قبل آلاف السنين، كان المسكال أي المثقال وحدة لوزن الأشياء الثمينة مثل الذهب والفضة والأدوية. أنا هنا قريب من أرض الأكّاديين. قبل أربعة آلاف عام، استخدموا اسمك، وأطلقوا عليه مشكالو. لو عشنا في ذلك العصر، لكنت حبيبتي مشكالو. ولكنت شيكل بلغة موسى عليه السلام، وشيكلا بلغة عيسى عليه السلام. من أجلك، كنت سأدخل دين موسى ودين عيسى. يدعونك الفينيقيون مشكال، والسريانيون واليونانيون يسمونك سيكلوس، والأرمن يثنون على جمالك فيسمونك ميسبال. لا يمكن لأية لغة أو دين أن يتحاشى قداستك. ورد اسمك ثماني مرات في القرآن الكريم. أنت مسكال في الأراضي الممتدة من البلقان إلى الأناضول، ومن إيران إلى الهند. هذا ليس

غريبًا، الغريب أنه على الرغم من كثرة اللغات والأديان والحضارات وكل هذه العصور الطويلة، لم أسمع البتة عن أحد اسمه مسكال سواك. لكنني سمعته هنا، في هذه الأصقاع، منذ عشرة أيام. لم أستطع النوم براحة منذ عشرة أيام، ولم أستطع أخذ دفتر المذكرات وفتح صفحاته. لقد أجبرت نفسي الليلة، ربما تهدأ تلك الأصوات التي تؤرقني، وأستطيع كتابة ذلك بهدوء. إذا لم أمت، فسأمزق هذه الصفحات من المذكرات، ولن أخبرك بمضمونها، سأحتفظ بها لنفسي. لكن إذا مت هنا في ساحة القتال، فيجب أن تعرفي كل شيء، يجب أن تحملي هذا السر بدلًا مني. هذا ما يقوله صوت المؤرخ في داخلي.

قبل عشرة أيام، الثلاثاء.

عندما انطلقنا كنا تسعين نفرًا، وبعد أن اجتمعنا مع كتائب أخرى أثناء تقدمنا على طول نهر الفرات، وصل عددنا إلى ثلاثمئة. أنا لا أحسب قتلانا. نواصل السير مع حوالي مئتي أسير في مقدمتنا، وعدد الأسرى آخذ في الازدياد مع وقوع أسرى جدد كل يوم. لا أحد يعرف لماذا نأخذ هؤلاء الأسرى الآن، على الرغم من أنه يتم قصف كل المتمردين بالطائرات، ويسممون داخل الكهوف التي يختبئون فيها، وتقطع رؤوس الناجين منهم. حتى النقيب طان لا يعرف السبب أيضًا، فقد جاءه هذا الأمر من المقر الرئيسي في درسيم، وطُلب منا إحضار نصف ما يقبض عليهم أحياء. هذا إذا بقي منهم على قيد الحياة أحد. حالتهم مزرية، يمشون بأقدام حافية، والنساء والأطفال منهم يعانون من الفاقة والجوع والعري منذ أشهر. لا حاجة إلى معرفة لغتهم لفهم ماذا يقولون، كلامهم ليس سوى تأوه وأنين

وعويل. لا أحد يعلم كم من الأسابيع ستستغرق هذه المسيرة، ومن المستحيل أن يبقى منهم الكثير على قيد الحياة. ليست قمم الجبال وحدها مغطاة بالثلوج فحسب بل منحدراتها أيضًا، وحتى في منتصف ليالي الصيف هنا يتشكل الصقيع الشتوي. مئتا أسير يتكومون كالخراف فوق بعضهم منكمشين في الحظيرة من شدة البرد، ورائحة البول والقيح تزكم الأنوف. من يراهم في الظلام لا يمكن له إلا أن يحسبهم قطيع من الخراف. ومع ذلك، ظهرت فتاة جميلة جدًا بين هذا القطيع كظهور الماس المتلألئ من الفحم. أمسك بها جنود الوحدة التي قابلناها للتو وأنزلوها في الجدول. استطاعت الفتاة المسكينة الصمود ليوم كامل في وجه اغتصاب عشرات الرجال لها، ثم تركوا جثتها في الجدول. في الصباح جاءتني امرأة، بدا لي من صوتها كأنها في الأربعين من عمرها، بينما بدا وجهها كأنها في الثمانين من عمرها. تكلمت بعينين دامعتين وأنف وفم ينزفان دمًا، كنت أتعلم لغتهم منذ شهرين. لكنني لم أتمكن من فهم كلام المرأة لبكائها وتعتعتها. استدعيت العسكري حيدر الذي أصبح مرشدنا بعد أن قُتل دليل وحدتنا الشهر الماضي. حيدر، كان مسؤولًا عن إحدى الوحدات الأخرى، وحين رأى المرأة أمامي، رفع إلى الهواء سوطًا في يده، وضحك حين أخفضت المرأة رأسها خوفًا. حسب ما قالته المرأة، فقد ذهبت إلى كل الضباط واحدًا واحداً، منذ الليلة الماضية، فلم تنل منهم سوى الصفع والركل، وعندما شاهدتني في زي الضباط من بعيد، هرعت نحوي. هي أم الفتاة التي اغتُصبت وقُتلت أمس. كل ما تريده أن تُدفن جثة ابنتها وأن لا تترك في العراء. لقد حاولت دفنها بنفسها، لكنها مُنعت من ذلك، فلجأت إلى التوسل لدى كل من ترى من الضباط. ضحكتُ، وأشرت لها إلى الجثث مقطوعة الرأس الملقاة على

المنحدر. قلت للمرأة، بماذا تختلف ابنتك عن الآخرين، الكل ستأكلهم الطيور أو الديدان، لقد ماتوا وانتهى أمرهم، عليك أن تنقذي حياتك. شدت انتباهي كلمة من بين كلام وتوسلات المرأة، بدت مألوفة لي، وليست من الكلمات الكردية التي تعلمتها هنا، ولكنني سمعتها في مكان آخر. لم أكن متأكدًا. طلبت من حيدر أن يترجم كل ما قالته المرأة بالكامل وألا يتجاوز عن أية كلمة. قال إن المرأة قالت أريد أن أغطّي ابنتي مسكال حتى لا تبرد. عندئذ علمت أن اسم ابنتها مسكال. اندفعت وأمسكت بيد المرأة، وأخبرتها ألا تقلق، وأنني سأحقق لها مرادها. حدق حيدر فيّ بدهشة، كررت كلامي وأمرت حيدر بترجمته. دهشت المرأة مثل حيدر. لم تصدق ما سمعته، فأعادت السؤال عليه مرتين. قلت لحيدر أن يأخذ المرأة إلى جوار الأسرى ثم يعود إليّ. حيدر عسكري غريب التصرفات، لقد أصيب خلال إحدى المعارك في الشهر الماضي وفقد الوعي، وبعد أن شفيت جراحه تبين أنه قد فقد ذاكرته. لا أدري لِمَ لم يعيدوه إلى بيته في هذه الولاية. عند كلِّ حديث يدور مع حيدر، يبدو كأنه يتذكر شيئًا من ماضيه، يقلّبه في عقله، ويبحث عن طرف خيط يستعيد ماضيه من خلاله. ثم يبتسم ببله، يضرب الأرض بسوطه. في بعض الأحيان يخرج الناي من حقيبته ويعزف عليه، لا ينظر إلينا ولكن إلى الجبال والغابات المقابلة له. أوصل المرأة وعاد، سألني إذا كنت جادًا فيما قلته للمرأة. أدركت أنني إذا لم أقنع حيدر بأسبابي، فسيبلغ رؤسائي عني. وإذا كذبت، فإن كذبي سينكشف بسهولة. لم يكن أمامي خيار سوى قول الحقيقة. أخبرته أن اسم خطيبتي مسكال أيضًا، وأنني إذا لم أحترم جثة تلك الفتاة، فذلك يعني عدم احترامي لخطيبتي. استمع حيدر إليّ دون أن ترف عيناه ثم قال إنه سيساعدني. لم أكن أتوقع

أن يتقبل الأمر بهذه السهولة. عندما سكن الليل، قمت وحيدر بجولة في محيط المعسكر؛ ضابط وعسكري يقومان بجولة في المعسكر لا يلفتا انتباه أحد. نزلنا إلى الجدول. يعرف حيدر مكان الفتاة. عثرنا على الجثة بوقت قصير. البدر كان يسطع كمصباح ساعدنا على رؤية الجسد العاري. النجوم أيضًا أضاءت أنوارها الرقيقة تلك الليلة تعاطفًا مع الفتاة. انحنيت وتأملت وجه الفتاة. لحسن حظها أنها ماتت، فالموت خير لها من هذه الآلام، وقد بدا وجهها هادئًا للغاية. وشم على ذراعها اليسرى. أتعرفين أكثر ما يغضب العساكر هنا، ألا نجد مصحفًا في بيوت القرى التي ندخلها. القرويون لا يأخذونه معهم عند فرارهم، لكن صورة حضرة عليّ كالعلم معلقة في كل البيوت ويأخذونها معهم. هذه الفتاة كانت علوية مثل كل القرويين الذين قابلناهم، وشم ذو الفقار موسوم على ذراعها اليسرى، وغطى السيف ذو الحدين لحضرة عليّ كل ذراعها. تأملت جمال البنت في ضوء القمر، والدم يغطي ذراعيها وفخذيها. خلعت معطفي وغطيتها. قبل ثلاثة آلاف عام، عندما اجتاح اليونانيون الأناضول وهاجموا طروادة، كان الصراع الأكبر بين البطل اليوناني أخيل وأمير طروادة هيكتور. عندما سقط هيكتور على الأرض في معركة شرسة، قال إن أمنيته الأخيرة أن يُدفن بطريقة كريمة، لكن رغبته لم تتحقق. ظل والد هيكتور أكثر من اثني عشر يومًا، يتوسل ويبحث عن وسيلة هنا وهناك، ويقبل يد أخيل، حتى تمكن من أخذ جثة ابنه ودفنها. أخذتُ المجرفة في يد حيدر وألقيت على الفتاة أول حفنة تراب. كان عقلي في حالة من التشوش. شعرت مثل بريام والد هيكتور وملك طروادة، ومثل أم عاجزة تدفن ابنتها. أدركت أن روحي التي عاشت بعيدًا عني في إسطنبول معك، قد عادت إلى جسدي لأول مرة، وأنها شاركتني

بإلقاء التراب على جثة الفتاة الصغيرة. تحدثت روحي معي وهمست في أذني حتى لا يسمعها حيدر الذي كان يقف جواري. قالت لي روحي أن أحفظ ما رأيته في ذاكرتي، وأن أميز الشر فيه. ثم قالت يا ملازم آدم، الإنسان ليس هو نفسه في كل الأمكنة، لقد أصبحت شخصًا آخر في الجيش، ونسيت أنك المعلم آدم. ما عدت تختلف عن حيدر العسكري الذي يقف جوارك، هو أيضًا، نسي شخصيته السابقة. لكنه يحاول تذكّر نفسه، فافعل مثله، واسْعَ لتذكر نفسك، ولتجد نفسك السابقة.

مقبرة مركز أفندي

إسطنبول

1994

بينما كان أقدو وريحان يتجاذبان أطراف الحديث على الشرفة، كان القمر هلالًا يسطع في السماء والرياح تنسم برقة على الأغصان، والنجوم تبدو كحبات قمح نثرتها ضربة منجل. برنامج الأغاني في الراديو لهذه الليلة، كان لأصوات لها وقع ثقيل وحزين، لكن حين سمعا أغنية لصوت يعرفانه أرهفا السمع إليها. كانت الأغنية الأكثر شهرة لبريهان سلطان، ثم تلاها أغنية أخرى لها. تنسمت ريحان صوت والدتها القادم عبر الزمان، واستنشقته مثل دخان سيجارة وملأت رئتيها.

"ابنتي" قال أقدو، "حتى الأمس، عندما كانت موسيقى الأرابيسك ممنوعة في الراديو والتلفزيون، كان بث أغاني أمك على الهواء ممنوعًا، أما الآن فتذاع أغانيها الواحدة تلو الأخرى".

"عندما كنت في الجامعة، كنت أشعر بالحرج الشديد لأن أمي مغنية أرابيسك. في ذلك الوقت كان أغاني الأرابيسك مثالًا للذل العاطفي في الريف، وما كنت أستطيع فعل أي شيء. كنت أتحاشى أن يراني أحد

عند شرائي لأحد أشرطة أغاني أمي التي تُباع في كل مكان. عندما كنت أتجول في الشوارع أحيانًا، وأسمع إحدى أغانيها تصدح من أحد محلات بيع أشرطة الأغاني، أتوقف وأستمع إلى الأغنية حتى النهاية، بينما أتظاهر بالنظر إلى الواجهة الزجاجية للمحل. في البداية كنت أظن أنني سأبكي، ثم باتت الفرحة تغمرني. كنت أرى أمي في انعكاس صورتي على الواجهة الزجاجية. أنظر إليها بحنان وأبتسم، وكانت أمي تبتسم لي أيضًا".

"أنت تشبهينها كثيرًا" قال أفدو، "عندما كنت صغيرًا، كنت أظن أن كل الأطفال يشبهون أمهاتهم. ذات يوم، في سوق ماردين، رأيت امرأة بيني وبينها وجه شبه شديد، فقلت لنفسي ربما هي أمي. رحت أتابعها أينما ذهبت. بعد أن اشترت بعض البندورة والفلفل، دخلت دكان مبيّض الأواني النحاسية، واستعادت طنجرة لها يبدو أنها تركتها عنده كي يبيّضها. بعد خروجها تعثرت ووقعت على الأرض، وتبعثرت أغراضها على الأرض. هرعت مع من هرع من الشباب لمساعدتها. بدا أن إحدى قدميها قد تأذت، إذ لاحظت عرج في مشيها بعد أن قامت. واصلت تعقبها خشية عليها من الوقوع ثانية. أحببت كلتا قدميها، حلمت أنني وضعت رأسي على إحدى قدميها في إحدى الليالي ورحت في نوم عميق، وفي ليلة أخرى حلمت أني نمت على قدمها الأخرى. إن الأحلام أسرع من الواقع، لكن للواقع القدرة على اللحاق بالأحلام بطريقة غير متوقعة. بعد قليل، وصلت المرأة إلى بيتها، فاستقبلها عند الباب طفلان، بنت وولد. كان الطفلان في عمري، لكنهما لا يَشبهان أمهما ولا يشبهاني. لقد كانوا عائلة لا أحد فيها يشبه الآخر، ولا أنا واحد منها. عندئذ اعتقدت للمرة الأولى أن بحثي عن أمي لا جدوى منه. ربما أمي قد ماتت، لذلك فقدنا أثر بعضنا".

"أبي" قالت ريحان، "أحيانًا، أعتقد أننا أموات أيضًا. نحن نعيش في هذه المقبرة منذ سنوات. ماذا لو كنا أمواتًا ونظن أننا أحياء؟ ماذا لو نحن مثل تلك الأرواح؟"

"لا أنكر أنني لم أشعر بمثل هذا الشعور أيضًا" قال أقدو، "بينما كنت أتمشى بين القبور في الليل عند مجيئي إلى هنا، كنت أعانق شواهد القبور الباقية من عصور قديمة وأسألها، هل أنت شاهدة؟ لقد اعتاد المعلمون القدامى على تسمية شاهد القبر بالشاهدة، أي أن شواهد القبور شاهدة على حياتنا. ذلك جعلني أؤمن بوجودي على قيد الحياة".

انتهى برنامج الأغاني، وبدأت الأخبار. بينما كان مذيع الراديو يتلو تصريحات السياسيين في الذكرى الأولى لمجزرة سيواس، قالت ريحان "أبي، لماذا لم تسمح لي بالمشاركة بمسيرة استنكار تلك المجزرة في العام الماضي؟"

ظل أقدو صامتًا. نبرة الاستنكار في صوت ريحان أدانت تلقائيًا ما أذيع من خبر ثقيل على النفس. أشعل سيجارة أخرى وأخذ رشفة من الشاي. عندما ينظر المرء إلى المقبرة من بعيد، يظن أن كل الأموات كأنهم ميت واحد. وعندما يقترب منها ويدخل، ويتجوّل بين الحجارة الطحلبية والتراب المتحلل، يدرك أن كل ميت قائم بحد ذاته.

قبل عام.

ورد ذكر أسماء ثلاثة وثلاثين شاعرًا وكاتبًا ومغنيًا شعبيًا في الراديو، وسيُعرفون بعد الآن باسم قتلى سيواس. لقد أمضوا حياتهم في تأليف الكتب أو غناء الأغاني الشعبية، وقد وافاهم الموت في يوم لم يتوقعوه. عندما دُعوا للمشاركة في مهرجان الحكيم سلطان عبدل في سيواس، تعرضوا لهجوم

مباغتٍ من قبل عشرة آلاف شخص خرجوا من صلاة الجمعة، وقضوا نحبهم بعد أن أضرمت النيران في الفندق الذي نزلوا فيه. ألقى مسؤولو الدولة باللائمة على المثقفين والفنانين الذين تعرضوا للهجوم بدلًا من الجموع التي حاصرت الفندق بتنكات البنزين، وأفادت بعض الصحف أن إقامة تمثال للحكيم سلطان عبدل مؤخرًا، عمل يستفز المشاعر الدينية للناس، وعرضت محطات التلفزة والصحف صورًا لحشود من الجماهير رفعت شعارات تقول "لتحيا الشريعة"، وصورًا أخرى لجماهير تسحل التمثال في شوارع سيواس، ما أثار الرعب بين الناس كأن الحمى الصفراء قد انتشرت في أرجاء البلاد.

قبل أربعمئة وثلاثين عامًا.

كانت سياسة الاستئصال التي نفذتها الدولة العثمانية ضد القبائل العلوية التي تعيش في الأناضول تتعاظم يومًا بعد يوم. تلك هي سياسة غذّتها الخلافات المذهبية التي تعود إلى الجيل الأول المؤسس للإسلام. القصر العثماني الذي اعتمد المذهب السني، سعى لبسط سلطته في الأناضول، بسحق من لا يدفع الضرائب من القبائل الرعوية والفلاحين الفقراء، واتهم بالكفر كل من لم يرضخ لمراسيم الباب العالي. كان الدين هو السلطان والقصر والدولة. أما الدين عند الفقراء من ذوي المعتقدات العلوية، كان أسلوب الحياة الذي يرتكز على الإنسان وعلى صفاء سريرته كي يحظى بالجَنة الموعودة. الحكيم سلطان عبدل، الذي رأى أن الخلاص في الحياة، يكون قبل العالم الآخر، بات رمزًا للعلويين في السهوب، وأججت أغانيه الشعبية وألحانه روح التمرد في نفوس مريديه، وتناقلت الألسن حديثه عن

فساد رجالات الدولة.

وصلت أخبار الحكيم سلطان عبدل إلى قصر حاكم سيواس، وبما أن الوالي هو رأس الحربة للسلطة العلية العثمانية في الأناضول، فقد أمر بإلقاء القبض عليه وإحضاره إلى سيواس، ليعلّق على حبل المشنقة أمام جموع الناس. قول الحكيم سلطان: "لا تبحث عن الله بعيدًا / دع قلبك طاهرًا، فالله قريب منك"، ظلت الألسن تتناقله، وظل الخوف منه مستمرًا منذ ذلك اليوم.

اليوم، ليلًا.

لم يجب أقدو على استفسار ريحان. منذ قدوم ريحان إلى هذه المقبرة، كانت تظهر ردود أفعال متفاوتة على ما تسمعه من أخبار من الراديو وتبدي رغبتها في العودة إلى حياتها السابقة، فيهدئها أقدو على الدوام ويقنعها بوجهة نظره.

ما الذي يمكن لريحان فعله؟ الأشرار في كل مكان، وهم كثر. يطاردون طير السهل بحجارة الجبل، مع أن الجبل ليس لهم، والحجر ليس لهم، وطير السهل ليس لهم، وعلى الرغم من ذلك يريدون الاستحواذ على كل شيء. هذه حالهم منذ مئات السنين بل منذ آلاف السنين، أشرار ومخادعون. ما يصيب ريحان، سيصيب طفلها في نهاية الأمر. الحديث عن هذه الأمور من شأنه أن يزعج أقدو وريحان. سيكون الحزن ثقيلًا لكنه سيمضي. علمتهم المقبرة أن كل شيء يمر ويمضي. ينظران معًا إلى السماء، ويصغيان إلى الليل، وعندما يستيقظان في صباح اليوم التالي، يباشران عملهما، الذي يتكرر بالطريقة نفسها كل يوم.

أغلق أڤدو الراديو. سمع الصوت المبحوح يمزق سكون الليل. رفع رأسه إلى السماء كأن الصوت قادم من بين النجوم. تأمل أبراج النجوم واحدًا واحدًا. هل آخر الأبراج بينها، برج الأموات؟ عاد الصوت مرة أخرى. الصوت المعهود للبوم، ضبابي وبعيد. كأن صوته قادم من عصور لا نهائية. البوم، الذي يحوم فوق المقبرة منذ قرون، يخص الأرواح بندائه حتى لو سمعه الأحياء، ليذكّرهم أن زوال الحياة أمر محزن، وأبدية الموت أمر رائع. يهبط صوت البوم موجة وراء موجة يعانق الأشجار والحجارة والتراب. يلامس لون مياه النبع الجارية. لون الليل يتغير من الأزرق إلى الأحمر، ومن الأخضر ليعود إلى اللون الأسود. كان القمر هلالًا يسطع في السماء والرياح تنسم برقة على الأغصان، والنجوم تبدو كحبات قمح نثرتها ضربة منجل.

فُتح باب الظلام. ظهر باقي في بيجامة مخططة. تقدم بخطوات نائمة، وصعد إلى حضن جده. انكمش بين ذراعيه العريضتين ليغفو مرة أخرى. تمتم أن نومه قد قطع، وأنه خائف لرؤيته حلمًا مزعجًا.

ربت أڤدو على شعره. "هل أحكي لك حكاية؟" قال، "سوف تهنأ بنوم عميق".

"احكِ لي يا جدي حكاية" قال باقي.

قرية كوناك غورميز

سهل هايمانا

1958

كانت الشمس تتوارى خلف التل وزرقة السماء تزداد قتامة مع عودة قطيع الأبقار إلى القرية. كل بقرة تعرف طريقها إلى بيت صاحبها. بعد أن ترك الراعي البقرتين البيضاويتين العائدتين لعائلة إليف عند مدخل القرية، تحركتا ببطء نحو البيت المطلي بالصباغ النيلي. ملأت آخر الفتيات أوانيهن بالماء من النبع وانصرفن. خيم صمت بارد على القرية مع استعداد النجوم الأولى للتألق.

"باقي" قال أقدو، "كنت في عمرك عندما سمعت هذه الحكاية أول مرة، وكنت أتعلم كيفية نحت شواهد القبور من معلمي."

شبّه باقي نفسه بماضي المعلم أقدو، ويستمع الآن، إلى الحكاية نفسها، ويتعلم كيفية نحت شاهد قبر من معلمه. شعر بالسعادة تغمره، وراح يستمع لمعلمه بينما يأكل لفافة خبز بالجبن.

"باقي، كان يا ما كان في قديم الزمان جدّة عجوز تعيش وحدها في الحقول بين الذئاب والأرانب والثعالب. ما بقي من عمرها ربما طويل،

وربما قصير. بيتها ربما كان قريبًا، وربما كان بعيدًا. تعاني من الوحدة منذ أن تزوجت ابنتها وانتقلت إلى قرية في السهول. قررت الجدة زيارة ابنتها قبل حلول الشتاء، فأعدت سلتين إحداهما مليئة بالزبد والأخرى بالجبن، ثم انطلقت في وقت مبكر مع برودة صباح اليوم التالي. عبرت الجدول، وهبطت المنحدر. وعندما دخلت الغابة، وضعت السلتين على الأرض وجلست تحت شجرة. شربت قليلًا من الماء، وأسندت ظهرها إلى جذع الشجرة. ثعلب بذيله الأحمر البرتقالي، خرج من بين الأشجار، واقترب من المرأة العجوز وسألها يا أيتها الجدة الظريفة ذات الشعر الأشقر، ماذا تفعلين هنا؟ عندما قالت الجدة إنها ذاهبة لترى ابنتها، راح الثعلب يشكو ويتذمر من شعور الوحدة الذي يعاني منه في حياته، وأن لا أحد له في هذا العالم، وليت له أم مثلها تهتم بشؤونه. بعد أن أطلق سيلًا من الكلام الرقيق والجميل، قال، ليتك يا جدتي تأخذيني معك، وسأكون ابنك. وافقت الجدة على طلب الثعلب دون تردد. الشعور بالوحدة بعد رحيل ابنتها كان قاسيًا عليها، لذلك فقد أسعدها طلب الثعلب أن يكون ابنًا لها. تابعا الطريق معًا. كانت الجدة عجوزًا واهنة، والسلال التي تحملها ممتلئة وثقيلة، فعرض الثعلب مساعدتها. أليس هو ابنها، ويجب عليه مساعدتها. أعطته الجدة إحدى السلتين، فأشعرها ذلك ببعض الراحة. تابعا طريقهما، يتجاذبان أطراف الحديث، حتى تركا الغابة خلفهما ووصلا إلى منطقة صخرية. قال الثعلب إنه يشعر بحاجة إلى التبول، وسيذهب خلف الصخرة. تابعت الجدة السير، فقد كانت تمشي ببطء على أية حال، وسرعان ما سيلحق بها الثعلب. بعد أن خطت الجدة بضع خطوات، توارى الثعلب خلف صخرة. كانت عصافير بطنه تزقزق من شدة الجوع، ففتح السلة وأكل كل ما فيها من الزبد. ثم ملأ

السلة الفارغة بالتراب، ولحق بالجدة. خلال الاستراحة التالية، قام بتبديل السلال خفية عن الجدة. قام بالحيلة نفسها بعد أن انطلقا قليلًا. توارى خلف صخرة. لكن معدته كانت ممتلئة، لكن الطمع من شيمه فالتهم كل الجبن في السلة الأخرى. وصلا إلى القرية قبل حلول الظلام. وعندما وصلا إلى بيت الفتاة، طلب الثعلب الإذن، وقال، جدتي، اذهبي إلى أختي، فأنا أريد التجول في القرية علّي أجد أحداً من أصدقائي. دخلت الجدة باب الفناء، وعانقت ابنتها وهدّأت من نار شوقها إليها. ثم أعطتها البشارة مع السلتين، وقالت إنها قابلت ثعلبًا واصطحبته معها ليكون ابنًا لها. بعد أن فتحت الابنة السلتين ووجدت ترابًا بدلًا من الزبد والجبن، قالت، لقد خدعك الثعلب المكار يا أمي، واحتال عليك.

اختفى الثعلب بعد أن احتال على الجدة، وما عاد له من أثر. أقامت الجدة عند ابنتها سبعة أيام بلياليها تبثها أشواقها وحنينها، ثم قررت العودة إلى بيتها قبل هطول الأمطار. في مساء اليوم نفسه، علم الثعلب بعودة الجدة، فجاء وجلس على حجر أسود كبير كان أمام بيتها، وراح يغني ويسخر من الجدة، ويضحك: الجدة الشقراء يا جدتي الشقراء/ ماذا وضعت في سلتك / ههه، ههه، يا جدتي الشقراء! ظل الثعلب يأتي كل أمسية ويغني الأغنية نفسها ويلهو ويسخر من الجدة.

قررت الجدة أن تنصب له شركًا. أعدت في النهار قطرانًا وصبته على الحجر، ودخلت البيت بانتظار ضيفها الشرير. ما إن حل الظلام حتى جاء الثعلب. الصخرة سوداء والقطران أسود، وسماء الليل سوداء أيضًا. جلس الثعلب في مكانه المعتاد دون أن يدرك ما نصب له من شرك، وراح يغني. الجدة الشقراء، يا جدتي الشقراء / ماذا وضعت في سلتك / ههه ، ههه ،

يا جدتي الشقراء! عندما هم بالنهوض، لم يستطع فذيله قد التصق بالحجر. فتحت الجدة الباب واندفعت نحوه، فوثب الثعلب وثبة من حلاوة الروح قطعت ذيله الملتصق بالحجر. فرحت الجدة بالغنيمة، وأخذت الذيل إلى البيت. ضفرت الذيل مثل جديلة فتاة، وزينته بخرز ملون وعلقته على الحائط. لم ينتظر الثعلب مساء اليوم التالي، إذ جاء مبكرًا، وتوسل إلى الجدة وقال، جدتي ذات الشعر الأشقر، أعيدي لي ذيلي. أصدقائي يسخرون مني. تعلمين كم هو محرج أن يكون الثعلب بلا ذيل. يطلقون النكات عليّ عندما أدير ظهري، ويقولون مَنْ ذيله قصير / عقله صغير. ضحكت الجدة عندما سمعت هذا الكلام، وقالت إذن يقولون إن من ذيله قصير/ عقله صغير ههههه".

أنهى باقي لفافة الخبز والجبن وشارك في الحكاية بسعادة.

"هذا جزاء الثعلب الشرير، أحسنت يا جدة" قال.

"الجدة كانت أكثر حكمة وعطفًا من الثعلب. لقد أشفقت على الثعلب وقالت له إذا ما استطعت تحقيق ما سأشرطه عليك، سأعيد لك ذيلك. أقسم الثعلب على الوفاء بأي شرط تطلبه. قالت الجدة، شرطي ليس صعبًا جدًا، أريدك أن تذهب إلى تلك العنزة على الجبل وتجلب لي الحليب منها. أحضر الحليب، وخذ الذيل. فرح الثعلب كثيرًا وانطلق راكضًا إلى العنزة. قال مرحبًا يا عنزة، أنا في عجلة من أمري، هل يمكنني الحصول على بعض من حليبك؟ سآخذ الحليب إلى الجدة، كي تعيد لي ذيلي، بعد ذلك يمكنني الالتحاق بأصدقائي. بدت العنزة جائعة جدًا ومنهكة من بحثها الطويل عن العشب على منحدرات الجبل طوال اليوم. قالت أخي الثعلب، إذا أحضرت لي بعض الأوراق من الشجرة أسفل الجبل، أعطيك الحليب. ذهب الثعلب

إلى الشجرة، وقال أيتها الشجرة العظيمة، اسمحي لي بأخذ بعض من أوراقك كي أعطيها إلى العنزة. سآخذ حليبًا من العنزة لأعطيه إلى الجدة كي تعيد لي ذيلي وألتحق بأصدقائي. مطت الشجرة أغصانها الطويلة، فحفت أوراقها الكثيفة، وطلبت من الثعلب الذهاب إلى النبع البعيد لجلب الماء لها. وصل الثعلب إلى النبع يلهث. قال من فضلك أيها النبع، أيمكنني أخذ قليل من الماء؟ سأروي بالماء ظمأ الشجرة لتسمح لي بأخذ بعض من أوراقها كي أعطيها إلى العنزة. كلما أسرعت في إحضار حليب العنزة إلى الجدة، فذلك أفضل، سأسترد منها ذيلي وألتحق بأصدقائي. قال النبع أنا حزين للغاية اليوم، اذهب واستدع الفتيات. لتأتي الفتيات ويغنين ويرقصن ويقفزن حولي، سأعطيك الماء عندما أشعر بالسعادة. ذهب الثعلب إلى الفتيات وحاول حثهن قائلًا تعالين يا فتيات، لتغنين وترقصن حول النبع، سآخذ ماءها وأروي بها جذور الشجرة، سأعطي أوراق الشجرة للعنزة. عندما آخذ حليب العنزة إلى الجدة، سأستعيد ذيلي منها، بعد ذلك يمكنني الالتحاق بأصدقائي. تحدثت الفتيات بحزن مثل النبع، قالت الفتيات إن أحذيتنا قديمة، خذها إلى الإسكافي ليصلحها. توسل الثعلب للإسكافي، وقال، انظر إلى حالي، أنا منهك من الجري. من فضلك أصلح أحذية البنات. ستغني الفتيات ويرقصن عند النبع، وسآخذ ماء النبع وأحضره إلى الشجرة. سأعطي أوراق الشجرة إلى العنزة. سأجلب حليب العنزة إلى الجدة. عندما تأخذ الجدة الحليب ستعيد لي ذيلي، عندئذ يمكنني اللعب مع أصدقائي. إنهم يسخرون مني بسبب حالتي. الإسكافي رجل عجوز فقير، قال، أنا جائع، هل يمكنك جلب بعض البيض من الدجاجات، لم أتناول ولا حتى لقمة واحدة منذ الصباح. الثعلب اقترب بلطف من الدجاجات، وقال، عزيزاتي الدجاجات،

يا صديقاتي، لقد أتيت عند أرجلكن، أسألكن معروفًا أول مرة في حياتي. هل تتكرمن وتتلطفن وتهبنني زوجًا من بيضكن الجميل، لا أريدها لي بل للإسكافي. الإسكافي سوف يصلح أحذية الفتيات، ستغني الفتيات ويرقصن عند النبع. سآخذ ماء النبع وأروي به جذور الشجرة، سآخذ أوراق الشجرة إلى العنزة. عندما أعطي الجدة حليب العنزة، سأستعيد ذيلي وأتمكّن أخيرًا من اللعب مع أصدقائي. نقت الدجاجات وأعلنت مطلبها. قالت، اذهب إلى البيدر، واطلب من المزارعين بعض القمح. لقد كنت لطيفًا جدًا معنا، فلا تنس أن تكون لطيفًا معهم أيضًا. انطلق الثعلب لاهثًا من شدة التعب والإرهاق. قال أيها المزارعون الأفاضل، أرجو أن تهبوني حفنة من قمحكم. لا أريده لي فأنتم تعلمون أنني لا آكل القمح، أريده للدجاجات، وأنا أحاول تلبية رغبتهن. في المقابل سوف تعطيني البيض. البيض ليس لي، سآخذه إلى الإسكافي. سيصلح الإسكافي أحذية الفتيات، وستلبس الفتيات أحذيتهن ويرقصن ويغنين عند النبع. سأروي عطش الشجرة بماء النبع. سأطعم العنزة أوراق الشجرة. سآخذ حليب العنزة اللذيذ، وأعطيه إلى الجدة. عندما تعيد لي الجدة ذيلي، سأكون أسعد ثعلب في الحقول وأنضم إلى أصدقائي مثل الأيام الخوالي. لم يكن يومًا جيدًا للمزارعين، لذا لم يكونوا لطفاء مع الثعلب، طاردوه ورشقوه بالحجارة، وقالوا انظروا إلى الثعلب الماكر، يظن أننا أغبياء، إنه يحتال علينا، من يعلم ماذا يدبر من حيلة".

بعد أن شعر باقي بالأسف من أجل الجدَّة قبل قليل، شعر بالأسف من أجلَ الثعلب هذه المرة.

"مسكين يا الثعلب" قال، "يا لحظّه العاثر. صحيح أنه يدفع ثمن شروره، لكن هذا كثير عليه. من سيساعده؟"

"لا تقلق يا باقي" قال أقدو، "الثعلب ليس بحاجة إلى أحد كي يساعده، يجد مخرجًا لكل مأزق دائمًا. وهذا ما فعله هذه المرة. بعد أن طارده المزارعون، ركض واختبأ خلف التل، منتظرًا حلول الظلام. عندما لفه حجاب الليل، شرع بالصراخ قائلًا ساعدوني، ساعدوني، الذئب قادم. سيفتك بمواشيكم وحميركم، أنقذوا دوابكم. حين سمع المزارعون ذلك الصوت المحذر، حملوا مذارهم وفؤوسهم وهرعوا لحماية قطعانهم. ما إن ابتعد المزارعون عن أرض البيدر حتى زحف الثعلب على بطنه بهدوء حتى وصل إلى البيدر. قال، ماذا أفعل، أنتم لا تفهمون سوى هذه اللغة. وصل الثعلب في غمضة عين إلى القن، ووضع القمح أمام الدجاجات. أعطته الدجاجات البيض، فأخذه إلى الإسكافي. بعد أن ملأ الإسكافي بطنه وشبع، أصلح أحذية الفتيات. لبست الفتيات الأحذية الجديدة، وغنَّين بمرح ورقصن عند النبع. صب الثعلب ماء النبع الصافي على جذور الشجرة، وأخذ منها الأوراق وأعطاها للعنزة. انطلق إلى بيت الجدة بسرعة البرق، حاملًا معه حليب العنزة، لكن الجدة لم تكن في البيت. لقد ذهبت الجدة إلى الغابة فبقرتها قد ولدت هناك. تسلق الثعلب السور ودخل من النافذة المفتوحة، عندما أنزل ذيله المعلق على الحائط تأمله بإعجاب. بدا الذيل رائعًا وقد ضُفر وزُيّن بالخرز الملون. شكر الثعلب الجدة على ذلك، وشرب نصف الحليب الذي أحضره، وترك نصفه الآخر للجدة. شبك ذيله ومضى إلى أصدقائه يغني فرحًا. دهش أصدقاؤه من جمال ذيله وشبهوه بالثعلب الأمير في الحكايات، وسألوه من أين حصل على هذا الذيل الرائع. قال الثعلب آه أيها الأصدقاء، لقد سخرتم مني وقلتم من ذيله قصير / عقله صغير"، لقد شعرت بالإهانة، لكنكم أصدقائي وسأقدم لكم معروفًا على أية

حال. هل تعلمون من أين حصلت على هذا الذيل؟ هناك في البحيرة البعيدة، أخرجته من هناك. قاع الماء مليء بذيول جميلة. ليتني غطست أكثر عمقًا في البحيرة، لحصلت على ذيل أجمل من هذا. أنتم تعرفونني، أنا كسول قليلًا، ولا أحب الغوص حتى القاع. هرعت الثعالب إلى البحيرة وحاولت الوصول إلى القاع بالقفز في الماء. لكنها لا تعرف السباحة، وأوشكت على الغرق، فخرجت من الماء بخفي حنين. ضحك الثعلب كثيرًا، حتى وقع على قفاه. منذ ذلك اليوم، أصبح الثعلب أكثر حكمة ورحمة قليلًا، وعاش بسعادة أكبر. وللنساء المسنات نصيبهن من هذه السعادة".

مقبرة مركز أفندي

إسطنبول

1995

أمضت ريحان وقتًا طويلًا من المساء في قراءة رسالة ثريا عدة مرات، ثم ذهبت إلى غرفتها وشرعت بكتابة رد عليها. منذ أن سافرت ثريا إلى فرنسا، لم تنقطعا عن تبادل الرسائل بانتظام. ظل أڤدو جالسًا وحده في الشرفة بينما كانت ريحان تكتب رسالتها. السيجارة لا تفارق أصابعه، يستمع إلى أصوات الليل منتظرًا جنية النوم التي تحوم في الحي المجاور حتى تأتي إليه.

عندما اتجه نجم أصفر من الجنوب إلى الغرب، ركّز أڤدو حواسه على ذلك النجم لسماع صوته كما كان يفعل في صغره. لقد تعلم من معلمه في ماردين أنه يمكنه ذلك. وصل إليه صوت النجم على شكل موجات، نزلت من طبقات السماء العليا، واختلطت بماء النبع. كان محقًا من ادعى قدسية هذا الماء، وبرِئ من أمراضه وتحققت أمنياته بعد أن شرب منه. نبع يهوذا يتغذى من دموع الناس الأبرياء، ويصفو من نقاء الأرواح التي أسقطت الشر من أجندتها عند موتها. شاهد أڤدو اختفاء النجم الأصفر دون أن يترك أي أثر لذرات ضوء، فتمتم بأمنية يحملها في قرارة نفسه دائمًا.

لقد أنهى عملًا عظيمًا اليوم. بعد أن وضع اللمسات الأخيرة على شاهد القبر الذي شغل عقله وتفكيره لسنوات، حمله ونصبه على مقدمة قبر الرجل ذي السبعة أسماء.

عندما كان يعيد قراءة مذكرات الرجل ذي السبعة أسماء، يتيه في الذكريات، ويفكر بشكل آخر لشاهد قبر أكثر ملائمة مع روح الرجل ذي السبعة أسماء، فيصاب بالقنوت. بعد أن شكّل العديد من الأحجار على مدار الفصول ورسم أشكالًا جديدة في مخيلته طوال ليالٍ بيضاء، عاد إلى البداية وأدرك أن شاهد القبر الذي صممه في اليوم الأول من هذا العمل المضني، هو الأكثر ملائمة لروح ذلك الرجل.

المعرفة شيء والإدراك شيء آخر. عندما نحت الحجر الأول ، كان يعرف، لكنه لم يكن يدرك إن كان يتلاءم مع روح الرجل ذي السبعة أسماء أم لا. لكي يدرك، كان عليه التخلي عن كل ما لديه، ويشدّ الرحال إلى المجهول، يعبر الوديان السبعة، ويعطي شكلاً للشاهد في كل واد، وعندما وصل أخيرًا إلى الشاهد الذي يريد، تفاجأ بأنه أول شكل وضعه لشاهد القبر في أحلامه، كما يروى في الأساطير. كان شاهد القبر أسود اللون وبقع بيضاء متناثرة على سطحه مثل نجوم درب التبانة. الثقب الصغير في وسط الشاهد يجذب كل النجوم في ظلامه الأسود ويبتلعها. من يغمض عينه وينظر من خلال الثقب سيسقط في وادي غي، يختلط عقله، ويعتقد أنّه ينظر حيث الله. عندما ينظر إلى الجانب الآخر من الشاهد، لا يرى شيئًا. الثقب الذي ابتلعَ كل النجوم والظلام لا يوجد سوى الله واللاشيء، لقد تنقل الرجل ذو السبعة أسماء من مدينة إلى أخرى معلقًا بين الاثنين طوال حياته.

بعد أن أنهى أقدو ما شغل جل تفكيره وجهده من عمل، قرَّر الشروع

بعمل شاهد قبر لنفسه.

هل مضى ثلاثون عامًا على مجيئه إلى هنا وعثوره على قبر إليف؟ لقد احتفظ لنفسه مكانًا جوار قبرها، ليكون قبرًا له. رفعه بالتراب وشاهد قبر بلا اسم. منذ تلك الليلة، أدرك أنه سيواصل حياته هنا ويموت هنا. من يمر بذلك القبر الخاوي الذي احتفظ به لنفسه، يظن أن جثمانًا لميت يرقد داخله، في حين ليس فيه سوى روح لحي. شاهد القبر كان قطعة رخامية بيضاء من الأزمنة الغابرة، بلا اسم نصبها عند مقدمة القبر. لم يفكر أقدو بعمل شاهد قبر جديد لنفسه. الرخام الأبيض يليق بموته، أبيض مثل حليب الأم. ناعم وصافٍ، ولا حاجة لكتابة أي شيء عليه. كل صباح، ظلال شاهد قبر إليف يمتد مثل شجرة السرو ويسقط على شاهد قبر أقدو الرخامي الأبيض. تلك الظلال تدخل الدفء إلى قلب أقدو.

عندما همّ بتشغيل الراديو، شعر برغبة في شرب الشاي. إبريق الشاي كان على الطاولة منذ أكثر من ساعة. رفع غطاءه، لا يوجد به سوى القليل من الشاي البارد، صبه في كأسه، وأتبعه بثلاث ملاعق من السكر، على الرغم من علمه أن كمية السكر هذه لا تذوب بسهولة في الشاي البارد. استمع إلى الأخبار في الراديو، الأزمةُ السياسية التي اندلعت مع انهيار الحكومة الائتلافية هزت الأسواق المالية، رجل الأعمال وحيد كوتشسانلي دعا إلى ضبط النفس وتجاوز أزمة الحكومة بهدوء في مرحلة بدأ فيها الاقتصاد بالنمو، التقرير الذي يُزعم أنه أدى إلى انهيار الائتلاف الحكومي، يذكر أن حوالي نصف المحافظين في جميع أنحاء البلاد من الأصوليين المناهضين للجمهورية، أكثر من مئة وخمسين ألف عامل قد بدأوا الإضراب عن العمل، توفي ثلاثة سجناء سياسيين في الأحداث التي اندلعت في سجن بوكا،

وتجاوزت قيمة الدولار أمريكي ثمانية وأربعين ألف ليرة.

بينما شخص بصر أقدو في الظلام، راح يغني أغنية كان يرددها في قرية إليف: العاشق المتيّم سائر على الدرب يا حبيبتي/ الدرب هو عمر طويل/ عصفور يتيم على غصن محبٍّ/ العمر هو درب طويل.

لم يكن عبثًا حبه للظلام. يغني للأرواح في الظلام، ويفضفض عما يختلج في صدره ويستمع إلى همومهم. لقد هبطت الأرواح إلى عالم خالٍ من الخطيئة تحت الأرض، إلا أنهم لا يزالون يصغون للأرض ويأملون في العودة إلى الأرض. في المساء يتأوهون ويئنّون مثل المدانين الذين تم سجنهم للتو. لقد اعتقدوا أن ربهم سيظهر لهم فورًا عند موتهم، ولمّا لم يظهر لهم راحوا يتوسلون إليه، وبعد طول انتظار، ظنوا أنهم في حلم وسيستيقظون منه قريبًا. وبعد توالي الأصباح، ومرور الليالي، ومُضيّ الشهور والمواسم، وساعة الاستيقاظ من الحلم لم يحن أوانها بعد، قالوا يا ربنا هل غضبت علينا في هذه الأرض الرطبة؟ إذا كنت تسمعنا، فارحمنا برحمتك، وإذا كان صوتنا لا يصل، فألهمنا من أين أتينا، وإلى أين نحن ماضون؟ يا ربنا.

غرق أقدو في التفكير لم يدم طويلًا على الرغم من أنه نسي شرب الشاي. تناول الكأس وتجرع نصفه دفعة واحدة وتنهد، ثم أكمل النصف المتبقي في جرعة أخرى. قرر النهوض والتجول، مشى إلى النبع ومرَّ بين الضفادع التي هربت عند سماعها لوقع خطاه، ملأ كفَّيه بالماء، بلل شعره ولحيته. ثم مشى بخطوات ثقيلة إلى قبر إليف. وقف عند القبر والتقط أنفاسه، ثم قال: "إليف، أظن أن جنية النوم قد نسيتني الليلة"، ثم عاد أدراجه وتمشى حول الورشة، إلى أن توقف عند قبر خلف البيت. تسعة أنياب منحوتة على شاهد القبر حيث يرقد توتيفي وعائلته. أحد الأنياب

يمثّل توتيفي، وآخر لهافاري، والباقي للأم وبقية الجراء الستة. وضع أقدو راحة يده على النقش الذي يمثل توتيفي. أعطاه رائحته، إذا بقي لفترة أطول، ستمتلئ عيناه بالدموع. سحب يده وسار غربًا باتجاه المسجد. قبل أن يصل إلى الجدار الجانبي، وقف أمام قبر صغير. هنا ترقد ابنة مدير الأحوال المدنية السيد سليم التي رحلت ولم تتجاوز الربيعين من عمرها. لو بقيت على قيد الحياة، لكانت الآن في الثانية عشرة ربيعًا، وربما ذهبت إلى مدرسة حفيده باقي نفسها. قد لا يجتمع الطفلان معًا، إلا عند الالتقاء في فترة الاستراحة. عندما يكبران، وينتقلان إلى أحياء أخرى من المدينة، ويلتحقان بمدارس مختلفة، ويعملان في وظائف مختلفة، وينسيان وجه بعضيهما؛ قد يلتقيان مصادفة مرة أخرى، عندئذ سينظران إلى بعضهما وسيشعران بألفة لا يعرفان سببها، وقد لا يتذكران أين التقيا في الماضي. عندما يشعران برائحة زكية باقية منذ الطفولة، ستنشط ذاكرتهما ويسألان بعضهما عن ماضيهما. بعد أن يربطا الماضي بالحاضر، وتشدهما تلك الرائحة الزكية بسحرها فيقسمان أن لا ينفصلا عن بعضهما بقية حياتهما. ينتقلان إلى بيت واحد، ويزوران بلدانًا حدّداها على الخريطة، يكبران معًا ويشيب شعرهما معًا. ذات يوم، سيمشيان بخطوات بطيئة، وعندما يجلسان ليستريحا في الحديقة، تمسك ابنة مدير الأحوال المدنية يد باقي الهرمة، "أتعلم يا باقي" تقول، "لقد مت عندما كنت في الثانية من عمري، كم كانت الحياة معك ستكون رائعة لو لم أمت".

مشى أقدو جنوبًا. هبَّت من البحر رياح الليل الباردة. ربما جنيَّة النوم قد جلبت هذه البرودة. ركع أقدو جوار أحد القبور، القبر لوالد البحار الأشقر. "مرحبا أيها البحار العجوز" قال، "لم أزرك منذ وقت طويل، لقد

تركت العالم الخارجي. ربما عالمك أسوأ، لا أدري، لكن بالتأكيد لن يكون أفضل. لقد تعلقت بالماضي لأنك تعلم أن المستقبل أسوأ. لقد حملت فتاة شبابك في داخلك طوال العمر، ابنك يقول إنني أشبهك، إنه محق".

أخذ أقدو حفنة من تراب قبر البحار العجوز واتجه إلى الغرب هذه المرة. كان يحفظ المقبرة مثل الخريطة فعلى الرغم من الظلمة، فقدمه لا تتعثر بحجر، ولا تقع في حفرة. لو عصب عينيه، لمشى بالسهولة نفسها. وقف جوار قبر مادلين. حسب حسبة سريعة في ذهنه. "ترقدين هنا منذ ثمانين عامًا" قال ثم نثر حفنة التراب التي في قبضته على القبر. "خذي ما أحضرته لك من تراب البحار العجوز. كان بحارك شابًا عندما أحببته. وعندما متِّ بقيت شابة، بينما هو قد تحمل عبء التقدم في السن من دونك. لا تظني أن الأمر سهل، فأنا أعيشه، الإنسان في الملاحم اليونانية يشبه الآلهة. أنت مقيدة إلى صخرة والطيور البرية تنهش كبدك كل يوم. عندما تنامين، تظنين أن الهموم ستتلاشى. في الصباح تجدين نفسك مقيدة إلى الصخرة نفسها".

كان أقدو يتحدث دائمًا بالأرمينية مع مادلين. لمس شاهد القبر بيده، مرر أصابعه على حرف الميم وعلى نقش الوردة الذابلة. "لقد صدئت لغتي الأرمنية تمامًا" قال، "لولاك لنسيتها تمامًا. سأذهب الآن، وفي المرة القادمة، سآخذ حفنة من تراب قبرك وأنثرها على قبر البحار العجوز".

تذكر أقدو أنه لم يطفئ الراديو عندما ترك الشرفة. لام نفسه فصوت الراديو سيوقظ ريحان. اتجه مسرعًا إلى البيت. عندما وصل، وجد الراديو مطفأ. متى أغلقه؟ لم يتذكر. الهدوء كان مسيطرًا حوله. غبار النجوم في كل مكان. إذن فجنية النوم قد أتت بعد أن غادر أقدو الشرفة، وعندما لم

تجده، نثرت غبار النجوم الأزرق في كل مكان. أطفأ أقدو ضوء الشرفة. خلع سترته وحذاءه. تدثر بالبطانية واستلقى على الأريكة. أطبق الكرى أجفانه، فكّر في جمال شاهد القبر الذي أكمل نحته اليوم، ثم سبح بهدوء في أحلامه. رأى نفسه في المنام يقترب من الثقب الأسود في شاهد قبر الرجل ذي السبعة أسماء، ثم ينساب من الثقب مثل شهاب.

ماردين

سهل ما بين النهرين

1939

الأربعاء 20 سبتمبر 1939.

هذه المذكرات عندي منذ عام. صاحب المذكرات الملازم آدم كريتلي قد مات في اشتباك على ضفاف نهر الفرات العام الماضي. كان الوقت ليلًا، عندما تعرضنا لنيران مفاجئة، فاختبأنا خلف الصخور. بعد توقف سريع لتلك النيران، وجدت آدم كريتلي ملقي على الأرض ورصاصة قد اخترقت ظهره. هل كنا نطلق النار في الظلام أمامنا بينما العدو كان خلفنا؟ لا أدري. انحنيت عليه وأمسكت يده. بينما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة لم أستطع تمييز سوى كلمتين مما حاول قوله، إحداهما مسكال والأخرى مذكرات.

أخذت دفتر مذكراته من حقيبته وأخفيتها في معطفي. كان هدفي من قراءة مذكراته، البحث ما بين سطورها علّي أجد شيئًا يشير إلى ذاتي، أو يوصلني إلى طرف خيط يربطني بماضيّ. لقد خُدعت من قبل الجميع، باستثناء الملازم آدم. جميع الضباط كانوا يظهرون الود في وجهي، ويهزؤون مني في ظهري. أخفوا عني حقيقة أني لست أنا على الرغم من معرفتهم

بذلك. لقد فقدت ذاكرتي، وكنت بحاجة إلى المساعدة. كلمة واحدة كانت كافية كي أصل إلى حقيقتي، تلك الكلمة كانت اسمي الحقيقي، لكنهم لم يخبروني بالحقيقة. أسموني حيدر، ثم جاء قروي عجوز وادعى أني عليّ. لم يكن الاسم مجرد كلمة، بل كان يعني ماضٍ آخر وشخصًا مختلفًا تمامًا. كان حيدر عسكريًّا بسوط، وكان عليّ فلاحًا فقيرًا. أيهما أنا؟ هل كنت أحدهما، أم كنت كليهما، أم أنني لم أكن أي منهما؟ لم أكن أعرف كيف أجد نفسي، فهربت، وعبرت الجبال والأنهار، ووصلت إلى ماردين. أنا الآن أهرب من هناك أيضًا. سأرحل قبل أن تصل إليها الحرب التي اندلعت في أرجاء أوروبا. سأنطلق إلى دمشق ومن ثم إلى القدس. هل ستصل الحرب إلى هناك أيضًا؟ عندئذ سأجد مكانًا آخر أفرّ إليه.

آنسة مسكال! لم أترك بابًا إلا طرقته منذ عام كي أتذكّر ماضيّ؛ زرت أضرحة الأولياء، وعلقت الأقمشة على الأشجار المباركة، وصليت في المساجد، وصليت في الكنائس. ولما لم تؤدِ علاجات الأطباء إلى نتيجة ضربت رأسي بالحائط. وعندما لم أجد نفسي في عليّ أو حيدر، قررت أن أجرب أن أكون شخصًا آخر فأشعلت شمعة في الكنيسة وأسميت نفسي عيسى. الناس تعطي أسماءها للآخرين، أنا أخذت اسمي من شخص سيء الحظ وبائس وفقير. تملأ آلاف الأفكار رأسي، وأقول لنفسي أحيانًا، ما دمت لا أتذكر ماضيّ، ما الذي يؤكد لي أني لست الملازم آدم؟ ربما لذلك أحمل هذه المذكرات. ربما اختل عقلي عند إصابتي أثناء الاشتباك، فظننت أنني مت بدلًا من العسكري حيدر الذي مات جواري، نسيت اسمي وهربت من وحدتي. الوقت ليل الآن، أكتب هذه المذكرات من مقبرة في ضوء مصباح الكيروسين، النجوم تملأ السماء فوق رأسي. يقولون هنا، إن

لكل إنسان نجمه في السماء، أنا الوحيد الذي فقدت نجمي الذي أضاع مكانه وتاه في الفضاء، أبحث عن نجمي.

عزيزتي الآنسة مسكال هل أنا خطيبك؟ إذا كان الأمر كذلك، انتظريني. انتظريني حتى يجد نجمي الضائع مكانه في السماء، سأعود إليك، سنقيم حفل زفافنا، سننتقل إلى بيتنا ذي الحديقة الواسعة على شاطئ بيبيك، سننجب أطفالًا رائعين. سنطلق على كل طفل ما يحمله اسمك في مختلف العصور. وبينما أكتب هذه السطور، كل شيء يتجسد أمام ناظري، إلا وجهك لا يتجسد أمام ناظري. إذا لم أستطع التعرف عليك عندما أصل إليك، كيف سأعرف أني أحبك؟ ربما يجب أن أحاول تذكر وجهك من الآن بدلًا من تذكر نفسي. حين أتذكر وجهك، سأكون على يقين منك ومن نفسي، وسآتي إليك راكضًا. انتظريني حتى ذلك اليوم.

دمشق

سوريا تحت الانتداب الفرنسي
1940

الأربعاء 22 مايو 1940.

الآنسة مسكال تتابع رحلتي من إسطنبول! دخلت رحلتي إلى القدس شهرها الثامن، بعد أن ظننتها لن تستغرق سوى ثلاثة أشهر. عندما وصلت إلى دمشق مرورًا من حلب وحماة وحمص على نهر العاصي، كان الشتاء قد حل، وجلدي قد التصق بعظامي من شدة هزالي. وقعت من شدة إعيائي في الشارع على الأرض، وعندما فتحت عينيّ وجدت نفسي بين الأطباء والراهبات في المستشفى العسكري الفرنسي. كنت والراهبة راشيل نتوقع موتي كل يوم، على الرغم من عنايتها لي أثناء مرضي لأسابيع. سبب اهتمام الأطباء والراهبة راشيل بي ظنهم أنني سوري نازح من إقليم هاتاي. لواء إسكندرون، كان جزءًا من سوريا ثم ألحق إلى تركيا في الصيف الماضي وأطلق عليه اسم إقليم هاتاي، ظنوا أنني أحد الكثيرين ممن نزحوا إلى سوريا من هناك. عندما خرجت من المستشفى، كانت الأعلام واللافتات الكثيرة التي رأيتها في الشوارع تؤكد على انتماء لواء إسكندرون إلى سوريا،

وتعبيرًا على رفض الانتداب الفرنسي والمطالبة بالاستقلال التام. حتى أنا، على الرغم من ضحالة معرفتي في الأمور العسكرية، لكنني شعرت أن قوة الفرنسيين الذين تعرضت بلادهم لاجتياح الجيوش الألمانية، قد تضعضعت في سوريا.

لو بقيت لفترة أطول في المستشفى، لكنت متُّ بنوبة قلبية، فالاستماع إلى الصوت المرتفع للراديو يذيع آخر تطورات الحرب الدائرة في أوروبا على مدار الساعة كل يوم، أشبه بسماع صوت عزرائيل. في أحد الأيام، سمعت أن هتلر وموسوليني اتفقا على التحالف في الحرب الدائرة هناك، وفي يوم آخر علمت أن هتلر قد استولى على الدنمارك والنرويج. في كل مرة يرتفع فيها صوت هتلر، يتقدم الجيش الألماني في جبهة جديدة، ليدخل فرنسا وهولندا وبلجيكا ولوكسمبورغ. عندما كنت استيقظ كل صباح كنت أخشى رؤية الجنود الألمان يعبرون الشارع أمام المستشفى.

شعرت بالارتياح عندما بقيت وفيًا لرحلتي وانطلقت في طريقي إلى القدس مرة أخرى أمس. لقد استعدت قواي الآن، وتجاوزت ضيق التنفس الذي كنت أشعر به، رجلاي قويتان، وسأصل إلى القدس في غضون شهر. أسير أسرع من الجنود في المعركة. حملي خفيف، وهدفي واضح. آمل أن أجد نفسي في مكان ما على طول هذا الطريق. القديس بولس وجد نفسه أيضًا على هذا الطريق. سمعت القصة نفسها من المعلم ديكران ومن الراهبة راشيل أيضًا عندما كنت في المستشفى.

منذ ألف وتسعمئة وخمسة أعوام.

ولد بولس وترعرع في طرسوس، أهم مدينة رومانية في المنطقة. ارتحل

إلى القدس في شبابه لدراسة اليهودية، وبانضمامه إلى الحركة الفريسية، جذب الانتباه إلى قدراته القيادية. في ذلك الوقت، كانت القدس تحت الحكم الروماني، واتجهت الطائفة اليهودية إلى تبنّي الثقافة الرومانية يومًا بعد يوم. عارض الفريسيّون هذا التحول الثقافي، بينما اعتبرته الحركة اليهودية الأخرى، أي الصدوقيين، أمرًا طبيعيًّا، ثم أنهم اختلفوا أيضًا في العديد من القضايا السياسية والدينية. لاقى الفريسيّون قبولًا واسعًا في أوساط الطبقات الدنيا، بينما وجد الصدوقيون الدعم بين النخبة. استند الصدوقيّون إلى التوراة المكتوبة الأولى، في حين، تبنى الفريسيّون الكتب المقدسة التي كُتبت بعد تناقلها شفهياً لأجيال. أكد الفريسيون على خلود النفس، في حين، لم يؤمن الصدوقيون بالبعث بعد الموت، واختلفوا في تفسير الكلام المقدس أيضًا، فقد فسر الصدوقيّون عبارة العين بالعين، على أنها تعني الجزاء بالمثل أي أن العين مقابل العين، بينما اعتبر الفريسيّون أنه يجوز دفع بدل معادل لقيمة العين.

في غمرة الاختلافات المذهبية التي كانت الطائفة اليهودية تعايشها في حياتها اليومية، وجدت نفسها تواجه أتباع نبي جديد، خرج من بينهم اسمه عيسى. وبينما كان الفريسيّون والصدوقيّون يتنافسون فيما بينهم لمعاقبة من اتبع طريق عيسى، برز القاضي بولس بتشدده، منتقلًا من مدينة إلى مدينة لمعاقبة الخطأة. بعد مرور عامين على صلب المسيح، اتجه بولس إلى دمشق لمعاقبة المسيحيين هناك. في طريقه من القدس إلى دمشق، سمع صوتًا جهوريًا وسطع نور أفقده بصره. كان النور والصوت للسيد المسيح. قال بولس بعد أن ظل في الظلمة لثلاثة أيام، إنه عندما فتح عينيه، رأى الحقيقة على طريق دمشق، فوجد نفسه مع الاستنارة الإلهية. لقد قرر أن يكمل

حياته كأكثر المسيحيين إخلاصًا على الإطلاق. بعد أن نال شهرة بتشدده في معاقبة الخطأة، بات يشتهر الآن بإخلاصه للمسيح، حتى إن البعض قد أطلق عليه اسم الحواري الذي جاء بعد الحواريين الاثني عشر. تلك هي حكاية القديس بولس مع طريق دمشق كما روتها لي الراهبة راشيل، ثم أتبعت أن لكل إنسان طريق دمشق في هذه الحياة، وأنني سأجد طريق دمشق الخاص بي في يوم من الأيام، وسوف أستنير بنور الحقيقة. لقد آمنت بكل من معجزة القديس بولس ومعاناتي.

اليوم، مساء.

عندما أُمعن التفكير في ما يجري حولي، أعتقد أن الملازم آدم كريتلي قد وجد طريق دمشق. حين أراد دفن جسد الفتاة القروية مسكال في أرضٍ ارتوت بالدماء والموت، لإبعادها عن حقد الدنيا الوحشي، عاد إلى نفسه وتذكر حاله القديمة. بعد ذلك اليوم، عاملني معاملة حسنة وحماني من الآخرين. بدأت أشعر بالتحسن بفضله. لو لم يمت، لكنت نجحت في الوصول إلى نوري بمساعدته. لكن ذلك لم يكتمل، فقد عادت الأفكار المضطربة تنازعني. لقد أضعت نفسي تمامًا. قد أجد هنا ماضيّ الذي فقدته على ضفاف نهر الفرات، وأتذكر أنني الملازم آدم كريتلي.

عزيزتي الآنسة مسكال، مع انطلاقي في هذا الطريق، أتمنى أن يعمي النور المقدس عينيّ، وتمتلئ أذنيّ بالصوت المقدس، وأن يظهر وجهك أنت أمامي، لا وجه السيد المسيح. عندئذ سأعود إلى إسطنبول راكضًا، وأتعرّف عليك من بين آلاف الأشخاص، وأعانقك مقتربًا من عينيك الزرقاوين اللتين بلون بحر إسطنبول. سنتعانق، سنذهب بأيد متشابكة إلى طريق

الشاطئ. سنمشي من الساحل حتى إستينية كما فعلنا في الماضي، نتابع السفن التي تمر عبر مضيق البوسفور وساحل كانليجا على الضفة الأخرى، وتغنين بصوتك الجميل أغنية أوروبية نالت شهرة حديثًا، ثم سأخبرك بما عايشته من أحداث بحلوها ومرها.

بيت المقدس

فلسطين تحت الانتداب البريطاني
1945

الثلاثاء 12 يونيو 1945.

قُرَّة عيني الآنسة مسكال، أشاهد من النافذة المقبرة اليهودية خالية من الأشجار. يبدو أن حال المقبرة هذه تزعج الأرواح. أفتقد أشجار المقبرة في ماردين والظلال التي تحيط بالأرواح. تجولت اليوم، في أحياء تعادي بعضها بعضًا، وعزفت على الناي في الشوارع، لست معادياً لأحد، وقد كسبت مالًا جيدًا. باتت شمس الأصيل تهبط في وقت متأخر، وفي تلك الساعة عدت إلى فندق البحر الأبيض المتوسط حيث أقيم، وتأملت المقبرة من النافذة. بت في هذه المدينة، أعرّف نفسي باسم موسى، فاليهود والمسيحيون والمسلمون يحبون اسمي ويظهرون المودة. الكل يحييني بسلامه المقدس الخاص، وأنا أرد عليهم بسلام عادي غير مقدس.

لا أعلم موقع الرب في اللغة. كيف لي معرفته دون معرفة نفسي؟ ذلك اليوم سيأتي، عندما أجد نفسي، وأجد الرب الذي في معتقدي القديم. كلاهما مرتبطان ببعض. يجب أن يعطيني الرب اسمي، ويجب أن يدلّ

اسمي على الرب. ليس لدي توقعات أخرى. لا ينبغي أن نتوقع أي شيء آخر من الرب. لكن المقدسيين لا يعتقدون ذلك. يتشاجر أبناء الديانات المختلفة ويتقاتلون ولا يمرّون من شوارع بعضهم بعضًا. هتلر مات، وموسوليني مات، والحرب في أوروبا وضعت أوزارها، لكن القدس التي بقيت بعيدة عن نار الحرب لست سنوات، لم تستطع إنهاء الصراع داخلها. لا يبدو أن للصراع نهاية في هذه المدينة التي عاشت حروبًا لا حصر لها على مدار التاريخ الطويل، ووقعت تحت السيطرة الآشورية والرومانية والعثمانية ووقعت الآن، في أيدي البريطانيين. بينما يدّعي كل طرف أن القدس ملك له، فإنهم لا يؤكدون ادعاءهم بالكلام بل بالسلاح، ويصرّون على عرض صفحة من التاريخ التي إلى جانبهم. لقد قضيت الحرب العالمية هنا بأمان، لكنني أشعر أن الأمور ذاهبة إلى المجهول، وبات عليّ شد الرحال. أريد أن أبقى بعيدًا عن أماكن القلاقل والاضطرابات، أفكر في نفسي فقط. إلى جانب قراءة الكتب في المساء، أغوص في الخرائط مؤخرًا. أبحث في أطلس العالم عن مدينة جديدة لنفسي واسمًا جديدًا في الأطلس. أينما أكون يا آنسة مسكال، سأرسل لك بطاقات بريدية جميلة من هناك.

أكثر ما يدور الحديث عنه في القدس بعد الدين هو التاريخ. ربما سيساعدني ذلك في العثور على نفسي، لذلك أقرأ مع الجميع وأشارك في النقاش. أفكر في الدين التالي الذي سأختاره لنفسي. على الرغم من أني قد تعلمت الكثير، إلا أني أخشى ألا أجد نفسي أبدًا. ماذا لو لم أستطع تذكر ماضيّ على الإطلاق؟ ماذا سأفعل بعد ذلك يا آنسة مسكال، ماذا ستفعلين عندك بدوني؟ الوقت يمضي سريعًا كحجر يسقط من السماء، لا يعرف التوقف، لا ينتظرنا. هل يجب أن أفكر في طريق آخر؟

الصليبيون الذين جاءوا إلى القدس في العصور القديمة ظلوا بعيدين عن ديارهم لعشرة أو عشرين سنة، وقطعت عائلاتهم الأمل من عودتهم. بعد تلك السنين، عندما عاد بعض الجنود الصليبيين إلى ديارهم، لم يستطيعوا التعرف على أقاربهم، ولم تستطع عائلاتهم أن تجد شبهًا بين مظهرهم وطباعهم الحالية مع ما كانوا عليه في شبابهم قبل ذهابهم إلى الحرب منذ زمن بعيد. لقد استغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى يعتاد بعضهم على بعض. وصل ذلك إلى مسامع بعض الجنود الصليبيين الذين كانوا لا يزالون في أرض المعارك، وعندما حان وقت عودتهم إلى وطنهم اختاروا طريقًا آخر غير طريق قراهم الفقيرة. لقد ذهبوا إلى عائلات في حال ميسورة وأفضل من حالهم، ولا تعلم بموت رجلها المنتظر خلال المعارك الدائرة في الشرق. قدموا أنفسهم باسم رجلها المنتظر. تحت النظرات الحائرة، والادعاء بأن الزمن قد غيّر من غادر وغيّر من بقي أيضًا، كانوا يدخلون في سرير المرأة التي انتظرتهم لسنوات. أرادت المرأة أن تصدق أكثر من أي شخص آخر، وتخشى عدم التصديق. مشاعر الشك والتردد والقبول لدى العائلات تهدأ في وقت قصير، ويقنع الجميع أنفسهم، ويفرحون بعودة المحارب العظيم ويقيمون الاحتفالات بدلًا من الحداد على وفاة شخص لم يُرَ منذ فترة طويلة ولن يُرى مرة أخرى. التشبث بفرح اللقاء بشخص عائد مع بعض التغيير أفضل بكثير من إعلان الحداد على شخص مجهول المصير. هذه هي الحياة، تنسج شباكها بطرق مختلفة كما اليوم نفسه أيضًا، وكما كان قبل ألف عام.

آنسة مسكال، أحاول تذكر ماضيّ منذ سنوات، ربما أعتقد نفسي أني خطيبك آدم كريتلي، أحلم بمستقبلنا المشترك الذي سننسجه معًا. كم من الوقت سأظل أحلم؟ لماذا لا أستطيع أن آتي إليك الآن؟ ماذا لو أتيت، ولم

أستطع التعرف عليك مثل جندي صليبي لم يرَ خطيبته لسنوات، وأنت إذا ما وجدت صعوبة في التعرّف عليّ مثل امرأة تنتظر خطيبها الجندي الذي لم تره لسنوات؟ سندرك في وقت قصير أن هذه المعضلة ليست من نتاجنا نحن، بل من الغشاوة التي نثرها علينا ما يدعى بالزمن، أليس كذلك؟ ننظر إلى بعضنا أول يوم كغرباء، ثم نجلس إلى جانب بعضنا في اليوم الثاني مع قليل من الألفة، أما في اليوم الثالث سنتجاوز ما بيننا من وحشة، ونتبادل الابتسامات مثل الأيام الخوالي.

القاهرة

مصر تحت الحماية البريطانية
1952

الخميس 24 يوليو 1952.

حشاشة كبدي الآنسة مسكال، تمكنت من الهروب من مصر في سفينة أبحرت هذا الصباح. ست سنوات أمضيتها في القاهرة بخير، وأصبح عندي أصدقاء كثر تمكنت بفضلهم من صعود هذه السفينة. كنت أخطط للبقاء في القاهرة لفترة أخرى، لكن ما حدث في الأمس، غيّر كل خططي. قامت مجموعة من الضباط بثورة ضد الملك فاروق وراعيته بريطانيا. يريدون أن يتنازل الملك عن العرش وإنهاء الحماية البريطانية في البلاد. بينما شعرت بالخوف من أن تراق دماء بريئة، رحب الكل بما جرى واحتفلوا كأنه العيد لسبب ما ونزلوا إلى الشوارع يهللون، ومن بينهم أصدقائي. إنهم لا يأبهون بما تسببه الحرب من آلام، أو بالأحرى لا يبالون. لا أحد يدري ماذا سيجري في الغد، لذا فقد قررت مغادرة مصر وبحثت عن أسرع طريقة لذلك.

وصلت إلى ميناء الإسكندرية وصعدت إلى هذه السفينة التي تحمل اسم الريح الأبيض. تابعت الشاطئ بنظري من على سطح السفينة حتى

غادرت الميناء، ولما أصبحنا في وسط البحر نزلت إلى قمرتي، وشرعت بكتابة مذكراتي. سوف ترسو السفينة في عدة موانئ على البحر الأبيض المتوسط، سأنزل في أحد تلك الموانئ، يجب أن تهدأ هواجسي أولًا كي أقرر في أي من هذه الموانئ سأنزل.

بينما كنت أسير بين الجموع المحتشدة في الشوارع أمس، لمع في رأسي خاطر غريب. ماذا لو سبَّبت لي هذه الاضطرابات صدمة أعادت لي ذاكرتي؟ حدث رائع، بل أكثر من رائع، لكن ماذا لو لم أكن الملازم آدم كريتلي في ماضيّ؟ ماذا لو كنت شخصًا آخر غير الذي تخيلت أن أكون؟ حين دار في ذهني كل ذلك أمس، تركت الجموع تمر من حولي، توقفت عند حديقة وأسندت ظهري إلى سورها. قلت في قرارة نفسي، لا، لا يمكنني ذلك، لا أريد أن أكون شخصًا آخر.

آنسة مسكال! أنت مالكة روحي، ولا أقبل أي ماضٍ لا أكون فيه خطيبك آدم. أن أتذكر، يعني أن أتذكرك أنت، ولا أتذكر سواك. أنا من دونك لست أنا. أفضل البقاء على حالي هذه، أحلم أنك جزء من حياتي وحياتي أنت. يمكنني قضاء عمري كله على هذه الحال من الأحلام، أفكر فيك كل ليلة، وأغفو على أمل أن أسعد برؤية وجهك في المنام.

مقبرة مركز أفندي

إسطنبول

2002

يوم ذهب باقي للتسجيل في قسم الاقتصاد في جامعة بوغازيتشي، كانت الشمس ساطعة والجو حارًا ورطبًا جدًا. يكبر باقي مع كل إشراقة جديدة للشمس. بعد أن أمضى أڤدو ضحى نهاره في نحت الرخام في الورشة، نزف أنفه وشعر بالدوار عند الظهيرة.

نادى أڤدو على ريحان لتساعده على الوصول إلى الشرفة وتمدد على الأريكة. توقف الرعاف، لكن الدوخة لم تزل، فأغمض عينيه كأنه نائم في النهار. هرعت ريحان إلى عيادة الطبيب في الشارع المقابل للمقبرة. ذلك الطبيب سبق أن جاء مرارًا عند كل عرَضٍ صحي أصاب أڤدو منذ سنوات. عندما وصلا إلى البيت وسمع أڤدو صوتهما، فتح عينيه وحدق ببله، كأنه يرى أناسًا غرباء لم يرهم من قبل، أجاب على أسئلة الطبيب باقتضاب.

قاس الطبيب ضغط دم أڤدو، وتفحص عينيه وأذنيه وفمه، وأصغى إلى نبضات قلبه ثم حقنه بحقنة أخرجها من حقيبته، وقال إن أڤدو يعاني من ارتفاع في ضغط الدم وينبغي له الذهاب إلى المستشفى لإجراء فحوصات

طبية شاملة.

"لن أذهب إلى المستشفى" قال أقدو بصوته الهادر، "لقد نزف أنفي وتوقف، لا مشكلة في ذلك. الصيف حار هذه السنة، وقد اعتدت على حدوث ذلك في صغري في المواسم الحارة".

تعرف ريحان طباع والدها. لا يذهب إلى الطبيب سواء آلمه ظهره أو معدته، يتناول ما تحضره ريحان من أدوية من الصيدلية في بداية الأمر، ثم يتوقف عن تناولها بعد أيام.

"دكتور" قالت ريحان، "لا عليك من أبي، اكتب لي ما يجب أن يتناوله من دواء، سأحضره".

"سأكتب لك وصفة طبية، لكن ضعي في اعتبارك أنه لا يزال بحاجة إلى إجراء فحوصات طبية شاملة. ليفحصوا دماغه وقلبه".

"والدي ينسى كثيرًا هذه الأيام ، تختلط الأسماء عليه، حتى أنه نسي لمن نحت شاهد قبر في الأسبوع الماضي".

"اسمعي، ذلك سبب آخر للذهاب إلى المستشفى، صحة الإنسان ليست رفاهية".

"هل تصف له دواء للنسيان؟"

"منذ متى بدأت هذه المشكلة؟"

"منذ فترة، كانت قليلة الحدوث، لكنها أضحت تتكرر كثيرًا منذ شهرين. على الرغم من إصراري الشديد كي يذهب إلى الطبيب، إلا أنه يرفض دائمًا وأنه سيتعافى بعد انتهاء موجة الحر".

"حسنًا" قال الطبيب، "سأصف له أربعة أدوية، أحضريها كلها".

وصل باقي بعد وقت قصير من مغادرة الطبيب. يحمل في يده بطاقة

طالب جامعي جديدة، والابتسامة تعلو وجهه.

عانقته ريحان وقالت "مبارك يا بني".

لاحظ باقي شرود نظرات ريحان.

"هل أنت بخير يا أمي؟" سأل.

"أنا بخير، لكن جدك متعب قليلًا، إنه نائم في سريره".

"ماذا أصابه؟" قال باقي بلهفة، "لنأخذه إلى المستشفى".

أجلسته ريحان على الأريكة وهدأته، وأخبرته بما حدث.

لا يغادر أقران أقدو بيوتهم إلا من أجل الذهاب إلى المسجد وقد لا يستطيعون أحيانًا، بينما يعمل أقدو في ورشته طوال اليوم ويعتقد أن جسمه قوي وصلب كالرخام. يبدو أنه يتمتع بصحة جيدة وقوي، لكنه بدأ يمر بحالات غريبة مؤخرًا. بعد ساعة من تناوله الطعام، ينسى ويأكل مرة أخرى، وعندما تلاحظ ريحان ذلك، يعود إلى رشده. أصبح ينام أحيانًا، أثناء النهار، على الرغم من أنه لم يفعل ذلك سابقًا البتة.

"سأقيم في سكن الطلاب مع بداية العام الدراسي يا أمي" قال باقي، "أرى أن ترحلي وجدّي من هذه المقبرة، وتستأجران بيتًا قريبًا منها كي يأتي متى يشاء وينحت الحجارة من وقت إلى آخر. أعلم أنه لن يتخلى عن نحت شواهد القبور أبدًا".

"قل له ذلك بنفسك أيضًا" قالت ريحان، "لقد طلبت منه أكثر من مرة أن نرحل من هنا، وكان رده دائمًا أنه على استعداد لاستئجار بيت لي ولكَ، وسيزورنا باستمرار، أما هو فلن يغادر هذه المقبرة أبدًا".

"هل أدخل وأكلمه؟"

"لا ضير من ذلك" قالت ريحان، "اجلس إلى جوار جدك، سيسعد

برؤيتك إلى جواره حين يستيقظ. أما أنا، فسأذهب إلى الصيدلية لأحضر له أدويته".

دخل باقي وجلس إلى جوار سرير أقدو. على الرغم من الحرارة الشديدة في الخارج، إلا أن الغرفة كانت باردة. هدوء كان يسود الغرفة باستثناء تردد أنفاس أقدو العميقة.

تأمل باقي يد جده اليمنى المضمومة إلى صدره. اليد ضخمة، عظامها وعروقها بارزة ومليئة بالتجاعيد. لم يسبق لباقي أن رأى جلد جده متغضنًا إلى هذا الحد. اقترب وتأمل ملامح وجهه، لقد تغضنت جبهته وزوايا عينيه. دار في ذهن باقي أن جده سيستيقظ من نومه الآن، وسيذهب إلى ورشته في الحال، غير مبالٍ بكلام الطبيب. وضع يده على يد جده، مثلما كان يفعل في صغره. كان ينام إلى جوار جده لا أمه في معظم الليالي. يعانقه ويشعر بالأمان لوجوده إلى جانبه. عندما كان أصدقاؤه في مدرسة الحي يروون حكايات أبطال عائلاتهم، كان جده هو بطله.

فتح أقدو عينيه وقال: "هل أتيت يا بطلي؟ هل سجلت في الجامعة؟"

"نعم يا جدي" قال باقي ثم أخرج بطاقته الجامعية من جيبه وناولها إلى جده.

تأمل أقدو البطاقة على الوجهين. اغرورقت عيناه، وقبّل صورة باقي بعينيه الحادتين.

"أنا فخور بك" قال، "ما عاد بالي ينشغل لو أذهب بعد الآن. كنت أخاف دائمًا من بقاء أمك وحدها. لقد كبرت، وأصبحت شابًا، اعتنيا ببعضكما".

"ما هذا الكلام يا جدي، كأنك ستتركنا..."، قال باقي معاتبًا.

"كلا، لن أترككما، أنا بصحة جيدة. لقد أصبحت طالبًا جامعيًا الآن، وهذا ما دفعني لقول ذلك".

"أنت بصحة جيدة، لكن ربما عليك أن تعي أنك بحاجة إلى الاهتمام بحياتك أكثر".

"أنت من عليك الاهتمام بحياتك" قال أقدو، "دع السياسة وشأنها، ولتكن دراستك هي همك الوحيد في الجامعة. لا أحد لأمك سواك. نسمع الأخبار في الراديو كل يوم، الاضطرابات والاشتباكات الدموية لا تتوقف. اهتم بدراستك، واعمل على أن تكون علاقتك بمدرسيك جيدة".

"لا تقلق يا جدي، أفعل دائمًا ما تقوله لي".

"باقي، لقد كنت غافسونو دائمًا طوال حياتي، وعاشت أمك حياة صعبة هنا. لا أريدك أن تعيش مثلنا".

"ما معنى غافسونو يا جدي؟"

"لقد حملت هذه الكلمة معي منذ طفولتي ومعناها نازح باللغة السريانية. ما إن تتعثر في حياتك، ستعيش متنقلًا من مكان إلى آخر، وسيلازمك البؤس في حياتك. لقد عشت أنا ذلك، ولا أريدك أن تعيشه مثلي".

"جدي، أليس من الجميل لو تعيش أنت وأمي في سكن صحي أفضل؟ بعد انقضاء الصيف وبداية العام الدراسي، سأقيم في سكن الطلاب الجامعي، وليتكما ترحلان من هنا أيضًا. كم جميل لو استأجرنا بيتًا على الجانب الآخر من المسجد، مع تدفئة مركزية، سيكون دافئًا في الشتاء وباردًا في الصيف. تعيش هناك مع أمي".

"لقد تكلمنا بهذا الأمر من قبل. تعلم يا بني، أنني لا يمكنني ترك المقبرة".

"ليس عليك تركها يا جدي، يمكنك المجيء متى شئت والعمل في ورشتك مرة أو مرتين في الأسبوع، لكن لا يمكنك الاستمرار في نمط حياتك القديم، ذلك يضر بصحتك".

"هل أمك من تحشو هذا في رأسك؟"

قابل باقي ابتسامة أقدو بنظرة قلقة.

"هذا رأيي أنا. هل يستحيل فعل ما اقترحته؟"

"أين أمك؟ لماذا لا تقول ذلك بنفسها؟"

"ذهبت إلى الصيدلية لتحضر أدويتك. وصف لك الطبيب أربعة أدوية. أرجوك أن تناول دواءك بانتظام كي لا تسبب الحزن لأمي".

"أعطني كأسًا من الماء من هناك".

ملأ باقي الكوب وأحضره. بعد أن شرب أقدو الماء، استلقى مرة أخرى. شعر بالتعب، أغلق عينيه، تنفس بعمق.

"هل أنت بخير يا جدي؟" سأل باقي.

فتح أقدو عينيه وقال، "أنا بخير. هناك حقيبة تحت السرير، أحضرها".

انحنى باقي وسحب الحقيبة ووضعها في حضنه.

"ماذا فيها؟" سأل.

"فيها صور. صور لك ولأمك، وبعض الأخبار الصحفية، ودفتر مذكرات، ناولني تلك المذكرات".

"هل تكتب مذكراتك يا جدي؟"

"لا أمتلك هذه المهارة" قال أقدو، "إنها لصديق قديم لي. في الواقع، ربما كانت لشخص آخر قبله، قضية غامضة".

"أشعر بالفضول".

"مذكرات غريبة لا أدري كيف أصفها. لها بداية ولا نهاية لها. أو ربما العكس هو الصحيح، لها نهاية لكن لا بداية لها".

شرع باقي بتصفح المذكرات عشوائيًّا.

اميرغان

إسطنبول

2002

ذهب باقي إلى اميرغان بحثًا عن قصر جوهر في شارع صالكملي، لكن أحدًا لم يعرف لا القصر ولا الشارع. بعد أن أوشك باقي على فقدان الأمل، تذكّر أن غالبية العناوين في إسطنبول قد تغيرت قبل سبعين عامًا، فقرر مراجعة مكتب البريد علّه يلتقط طرف خيط يساعده بالوصول إلى غايته. لم يجد موظفو البريد أي دليل على وجود العنوان المطلوب، لكنهم وجدوا بناية تحمل اسم جوهر في شارع فاتح.

قرر باقي أن يطرق باب الحظ بهذه المعلومة اليتيمة. عندما وصل إلى شارع فاتح، سرعان ما عثر على بناية جوهر وقد كُتب اسمها على بابها الحديدي المزدان بالزهور. ربما كان قصر جوهر قائمًا على قطعة الأرض هذه، وبعد أن هدم أقيم مكانه بناية من أربعة طوابق، وأُطلق عليها جوهر تيمنًا باسم القصر. دخل باقي حديقة المبنى. توقف عند الباب وقرأ الأسماء المحاذية لأجراس الشقق. لم يجد لا اسم الآنسة مسكال ولا اسم عائلتها دوروسو. لقد مرّت عقود من الزمن، تغيّر فيها اسم الشارع، وهُدم القصر،

ورُفعت بناية متعددة الطوابق مكانه؛ وجود العائلة نفسها في المكان نفسه، سيكون صدفة عجيبة.

حديقة البناية واسعة ولا تزال خضراء على الرغم من برد شهر أكتوبر/ تشرين أول. ارتفعت أشجار أرز باسقة وشجرة زيزفون فضية إلى جانب شجيرات يهوذا صغيرة. النجيل المقصوص حديثًا يتمايل بالطول نفسه. وبينما كان يتراجع ليملأ ناظريه بجمال الحديقة، نادى عليه رجل من بين الأشجار.

"هل تسأل عن أحد؟"

" أبحث عن بيت الآنسة مسكال، أظن أني قد أخطأت بالعنوان".

"بل أتيت إلى العنوان الصحيح".

"حقًا؟"، قال باقي في ذهول وفرح في آن واحد، بعد يوم متعب قضاه في البحث عن العنوان.

"أجل، الآنسة مسكال تقيم في طابق التراس الأخير. ماذا تريد؟ أنا بواب البناية، ومن واجبي التحقق من كل من يدخل البناية. لقد ازدادت حوادث السرقة في هذه المنطقة في الأيام الأخيرة".

"أفهم ذلك" قال باقي، "معي شيء يخص الآنسة مسكال".

"تفضل، إنهم في البيت اليوم".

هذا اليوم من الأيام كان السبت، يوم زيارة باقي لأمه وجده، لكنه قرر قضاء عطلة نهاية الأسبوع في اميرغان بحثًا عن الآنسة مسكال ليسلمها المذكرات. بعد أن أمضى زهاء شهرين في قراءة تلك المذكرات، اقتنع أن صاحبة هذه المذكرات الفعلية هي الآنسة مسكال، لا الملازم آدم كريتلي ولا الرجل ذو السبعة أسماء، ومن واجبه تسليمها لها باليد.

بعد أن رن الجرس الذي صوته يشبه صوت الكناري، فتحت الباب امرأة في منتصف العمر.

ابتسم باقي باحترام.

"يوم سعيد" قال، "لقد أزعجتكم، أيمكنني رؤية الآنسة مسكال؟"

"حقًا؟" قالت المرأة بابتسامة خفيفة وحذرة. التفتت ونادت: "آنسة مسكال! ضيف لك بالباب، هلّا أتيت؟"

كم يبلغ عمر الآنسة مسكال؟ هل ما زالت آنسة؟ بإجراء حسبة سريعة وفقًا للتواريخ الموجودة في المذكرات، لابد أن يكون عمرها قد تجاوز الثمانين. يبدو مثيرًا للدهشة أن المرأة التي فتحت الباب دعت المرأة العجوز بآنسة، وطلبت منها الحضور إلى الباب بدلًا من دعوة باقي إلى الدخول إليها.

جاءت شابة إلى الباب، "تفضل!" قالت.

كان باقي يتوقع رؤية امرأة عجوز، فكرّر "أردت رؤية الآنسة مسكال".

"نعم، أنا مسكال" قالت الشابة.

"أظن..." تلعثم باقي، وارتجف صوته: "أظن أن هناك خطأ ما، أردت رؤية مسكال دورروسو".

نظرت الشابة والمرأة إلى بعضهما، اقتربت المرأة خطوة.

"هل تسأل عن والدتي؟" قالت بدهشة، "لقد ماتت منذ فترة طويلة، بخصوص ماذا تريد رؤيتها؟"

انتشرت الأفكار في رأس باقي مثل شبكة العنكبوت وتوسعت بحلقات جديدة.

"معي مذكرات تخصها" قال.

أخرج دفتر الملاحظات القديم المهترئ من حقيبته ومده. أخذته المرأة وفتحت الصفحة الأولى. قرأت بضعة أسطر ثم رفعت نظرها نحو باقي، وتأملته بذهول.

"ادخل من فضلك، أرجو المعذرة، لقد تركناك واقفًا بالباب".

"لا عليك".

جلسوا متقابلين على مقاعد غرفة المعيشة. المياه الزرقاء لمضيق البوسفور والمنحدرات الخضراء للشاطئ المقابل بدت من النافذة الواسعة كلوحة فنية مؤطرة.

"عندما قلت مسكال، ظننت أنك تسأل عن ابنتي. لم يخطر ببالي قط أنك تسأل عن أمي. ماتت أمي في السنة التي ولدت فيها ابنتي، فأطلقت عليها اسم أمي".

بدا دفتر المذكرات الموضوع بينهم على الطاولة الزجاجية الوسطية، كأنه يحدق بهم كقطعة أثرية نادرة في متحف.

"لأوضح لك، إذا سمحت لي" قال باقي، "على الرغم من الغموض الذي يكتنف كاتب هذه المذكرات، لكن من الواضح أنه كان لوالدتك خطيب ملازم يدعى آدم كريتلي، وقد طلب في بداية هذه المذكرات ممن يجدها تسليمها إلى مسكال دوروسو حسب العنوان المكتوب، وقد وصلت إلى ذلك العنوان بعد طول بحث وعناء. لا أدري إذا كان هذا الملازم قد توفي عام 1938 في المعارك التي دارت في الشرق، أو أنه قد فقد ذاكرته إثر حادث ما. كتب هذا الملازم المدعو آدم كريتلي مذكرات ورسائل إلى آنسة تدعى مسكال. على احتمال أن آدم كريتلي قد مات، ووقعت هذه المذكرات في يد عسكري كان قربه، فقد كان ذلك العسكري غريب الأطوار، لا يتذكر

ماضيه ويعاني من فقدان الذاكرة. سافر هذا العسكري حول العالم، وتابع كتابة المذكرات، ظناً منه أنه آدم كريتلي، ويأمل في الوقت نفسه أن تعود إليه ذاكرته في يوم من الأيام. قبل أن يموت أوصى جاره أن يسلم هذه المذكرات إلى جدّي. لقد أعطاني جدّي إياها منذ شهرين. بعد قراءتي لهذه المذكرات وجدت لزامًا عليّ تسليمها إلى مسكال دورروسو التي كتبت من أجلها هذه المذكرات، وأن لها الحق في الاطلاع عليها، على الرغم من مرور زمن طويل على كتابتها".

"الشاي جاهز، أحضريه يا ابنتي"، قالت المرأة.

قامت الشابة مسكال، وذهبت إلى المطبخ ثم عادت حاملة صينية عليها ثلاثة كؤوس من الشاي. وضعت كأسًا أمام كل من باقي ووالدتها.

وضع باقي ثلاث قطع من السكر في كأسه.

"بالمناسبة، لقد نسيت أن أقدم نفسي، اسمي باقي" قال.

"وأنا زبيدة" قالت المرأة، "أنت تعرف اسم ابنتي. هل أنت طالب في الجامعة؟"

"نعم، أدرس الاقتصاد في جامعة بوغازيتشي. في السنة الأولى".

"يا للصدفة الجميلة، ابنتي أيضًا قد باشرت الدراسة في جامعة بوغازيتشي هذه السنة".

"حقًا؟ أي قسم؟"

"أنا أدرس الرياضيات" قالت مسكال ثم التفت إلى أمها. "أمي، هل كانت جدتي مخطوبة قبل جدّي؟"

"نعم" قالت السيدة زبيدة، "كان خطيب أمي معلمًا. مات أثناء خدمته العسكرية. في ذلك الوقت، كانت هناك حرب في الشرق شبيهة

بالحرب الحالية. عندما قُتل خطيبها في تلك الحرب، دُفن هناك، لصعوبة إحضار جثمانه إلى إسطنبول. إنه أمر غريب حقًا. بعد أن سعت أمي لتجاوز هذه الواقعة الأليمة، بدأت في تلقي رسائل ادعى كاتبها أنه خطيبها، وأنه فقد ذاكرته وسيعود يومًا ما إلى إسطنبول ويتزوجها بمجرد أن يتذكر ماضيه. احتفظت والدتي بهذه الرسائل في صندوق. في ذلك الوقت، كان لنا قصر في مكان هذه البناية. عندما تزوج أبي وأمي، انتقلا إلى جزيرة الأميرات، وهدم القصر وبنيت هذه البناية مكانه. انتقلت إلى هنا بعد أن مات أبي ثم أمي. ربما استمر إرسال تلك الرسائل، لكنها لم تصل بعد أن تم تغيير اسم الشارع وهدم القصر".

"لم تذكري لي ذلك قط يا أمي".

"حكاية مضى عمر طويل عليها يا ابنتي، حتى أني قد نسيتها".

نظر باقي إلى الأم وابنتها الجالستين مقابله، ولاحظ أن عيونهما تشبه لون البحر المقابل لهما. تذكر ما كتبه آدم كريتلي عن عيني مسكال في مذكراته. الماضي الذي كان يفكر فيه باقي لم يكن ماضيه بل ماضي شخص آخر، وظهر أمامه الآن.

"أمي" قالت مسكال، "هل تعلمين أين تلك الرسائل الآن؟"

"لابد أنها في بيت الجزيرة، ربما بين ما بقي من أغراض أمي".

كانتا تتحدثان عن تاريخ ضائع.

"هل نذهب إلى الجزيرة غدًا، ونبحث عن الرسائل؟"

"على رسلك يا ابنتي، لنقرأ هذه المذكرات أولًا لنعرف ما فيها".

"كم ذلك مثير!" قالت مسكال بحماس، "كانت جدتي تعيش حياة شبيهة بالأفلام".

ابتسم باقي كأن الحديث يدور حول شخص يعرفه.

"آنسة مسكال" قال، "وأنت أيضًا تحملين اسم جدتك المثير للاهتمام وتواصلين حياتها بالفعل".

"اسمي مثير للاهتمام!" قالت مسكال وقد تجهم وجهها، "مسكال تعني وحدة لقياس الوزن، هذا كل شيء. كان الجميع يسخرون من اسمي في المدرسة الابتدائية".

"ماذا تقولين!" قال باقي منتصبًا في مقعده. "مسكال من أجمل الأسماء".

"مسكال اسم جميل؟"

"ألا تعلمين من أنت؟ قبل أربعة آلاف سنة، أطلق عليك الأكّاديون اسم مشكالو. ودعاك الآراميون شيكلا، والعبرانيون خاطبوك بشيكل. مجّدك السريان على أنك سيكلوس، والأرمن ميسبال. كل الأقوام والأديان تحتضن اسمك وتستمد القوة من وجودك. أنت مسكال، الذي يجمع التواريخ من آفاق مختلفة ويمزج بين المناطق الجغرافية والأزمنة البعيدة. من دونك، تفقد العصور دلالاتها".

جامعة بوغازيتشي

إسطنبول

2002

هطلت الأمطار بغزارة أثناء عقد الطلاب لمنتدى في حديقة الجامعة احتجاجًا على نظام التعليم. أبدى من كان يلقي الخطابات من الطلاب العزم على البقاء في أماكنهم، وظلوا يرددون الشعارات على الرغم من شدة هطول الأمطار. لكن الجموع التي تتابعهم سرعان ما تفرقت، ولم يتبق سوى عدد قليل من الأشخاص الذين يحملون المظلات أو يرتدون المعاطف المطرية -ربما كانوا من رجال الشرطة المتنكرين بملابس مدنية-. كان باقي أيضًا من بين الحضور، ولو لم يكن ينتظر مسكال المشاركة بالاحتجاج لذهب إلى المقصف منذ وقت طويل. على أية حال، وبعد أن تفرّق غالبية الحضور، صاح أحد المتحدثين أن أعمال المنتدى قد أُجّلت وسيواصلون احتجاجاتهم بسلوك طرق مختلفة كل يوم للإعراب عن رفضهم لنظام التعليم.

دخلت مسكال وباقي إلى المقصف المركزي المطل على الحديقة وأخذا كأسين من الشاي وجلسا إلى طاولة جوار الواجهة الزجاجية. لم يبتلا

لارتدائهما معاطف مطرية. خلعا معطفيهما ووضعاهما على مسند كرسيهما. أدفآ أيديهما الباردة بمسك كأس الشاي.

"هل تشاركين دائمًا في المظاهرات؟" سأل باقي.

"أشركتني أمي في مظاهرة في يوم المرأة العالمي مرتين. هذه مشاركتي الثالثة. عندما رأيت الدعوة لهذا النقاش على السبورة أمس، قررت المشاركة".

"ألا تخافين؟"

"لا أعرف".

"أليس من الأفضل لو تعرفين؟"

"هل أنت خائف؟"

"لا أدعو ذلك خوفًا" قال باقي، "لكنني لا أريد أن أفقد تركيزي على دروسي. أبقى بعيدًا عن مثل هذا النوع من المواضيع".

"أشياء كثيرة تبعدك عن التركيز على دروسك، مثل قراءة الكتب، أو الذهاب إلى السينما، أو البحث عن عناوين أناس لا تعرفهم، وتقديم مذكرات قديمة لهم..."

"أنت محقة" قال باقي، مبتسمًا وقد احمر وجهه خجلًا، "ربما أفعل أكثر مما قلت".

"أنا مثلك" قالت مسكال، "أقرأ الكتب أو أذهب إلى السينما، أو أقلب بيت جدتي رأسًا على عقب كي أعثر على الرسائل المذكورة في المذكرات".

"هل ذهبت إلى البيت في الجزيرة؟" سأل باقي.

"نعم، لقد ذهبت إلى الجزيرة مع أمي ووجدنا الرسائل في إحدى الخزائن. بعد قراءة المذكرات بدت الرسائل التي وجدناها غريبة وحزينة

وفي الوقت نفسه مروعة".

"هل قرأت المذكرات بأكملها؟"

"قرأنا أنا وأمي لبعضنا بعضًا بصوت مرتفع،" قالت مسكال، ثم سكتت وقصرت عينيها "لقد بكينا كثيرًا أيضًا. كم كانت صعبة ومحزنة الحياة في تلك الأيام".

"لم أستطع منع نفسي من قراءة تلك المذكرات عدة مرات" قال باقي.

"أنت لا تركّز على دروسك، هل أنا مخطئة؟"، كان صوت مسكال جادًا لا ساخرًا.

"أنت محقة، الأمر كذلك بعض الشيء. لقد شتّت المذكرات تفكيري، ثم أدركت أن لا راحة لي إلا بالعثور على صاحبة المذكرات كي أعرف بقية الحكاية."

"هل شعرت بالراحة بعد أن وجدتنا؟"

تكلم باقي متأملًا عيني مسكال.

"ما عدت وحدي تائهًا في حكاية هذه المذكرات. وجودك وأمك معي قد أعطاني الكثير من الراحة، شعرت أن العبء قد خف عليّ".

"هل تعلم ما قالته أمي؟"

في تلك اللحظة، علا صخب في المقصف، وهز أرجاء المكان غناء شباب المنتدى المجتمعين في إحدى زوايا المقصف. مال باقي على مسكال كي يتمكن من سماعها.

"ماذا قالت؟" سأل.

"قالت كأن هذا الشاب يعيش بين شخوص المذكرات، وحساسية صوته تعود إلى ذلك الوقت من الماضي لا الحاضر الذي نعيشه".

"أواضح إلى هذه الدرجة؟"

"جدًا".

"يبدو الأمر كأنني قد وقعت في بئر، لا أعرف كيف أخرج منه ولا أريد الخروج منه في الوقت نفسه".

"الوضع ليس بهذا السوء" قالت مسكال، "أنا الآن في ذلك البئر أيضًا، لكنني لا أشكو على الإطلاق".

"سعيد لسماعي ذلك".

"أحضرت لك أشياء ستجعلك أكثر سعادة".

أخرجت مسكال كتابًا جامعيًّا من حقيبتها. فتحت الكتاب وأخرجت منه بعض البطاقات البريدية ووضعتها أمام باقي.

"البطاقات المرسلة إلى جدتك..." قال باقي، وقد لمعت عيناه.

مرّر أصابعه على المغلفات الباهتة، كأنه يلمس أعمالاً فنية نفيسة. تأمل الصور التي على الوجه الأمامي للبطاقات. شوارع ومبانٍ وأصيل وأماسي لمدن لا يعرفها. قرّب باقي البطاقات التي تحمل آثار سنوات طويلة ماضية إلى أنفه واستنشقها. رفع رأسه وتأمل مسكال بنظرات مبهمة ممزوجة بالحزن والسعادة.

"هل هذا كل شيء؟" سأل.

"كلا" قالت مسكال، "هناك غيرها في البيت. أحضرت بعضًا منها لتراها".

"بما أنك قرأت المذكرات، هل تخبريني برأيك، هل تعتقدين أن آدم كريتلي قد مات في الجبهة، أم أنه قد فقد ذاكرته وارتحل تائهاً؟ هل آدم كريتلي من فقد ذاكرته أم شخص آخر؟"

"تحدثنا طويلًا وأمي عن هذا لأيام عدة. اعتقدنا من خلال بعض الصفحات أن هذه المذكرات كتبها شخص واحد، لكن هناك صفحات بدت أنها كُتبت من شخصين مختلفين".

"أنا أيضًا، توّهتني بعض الصفحات. حرت بذلك منذ شهور، ولم أصل إلى نتيجة أكيدة".

"بعد أن دققت أمي الخطوط بعناية، قالت إنها لا ترى أي فرق بين الصفحات المكتوبة عندما كان آدم كريتلي في الجيش والصفحات المكتوبة بعد سنوات. إذا لم يكن الشخص نفسه من كتبها، فلا بد أن العسكري الآخر الذي عثر على المذكرات قد ظل يحاول تقليد خط آدم كريتلي لفترة طويلة".

"أنت محقة في ما قلتيه في اليوم الأول للقائنا؛ إن هذه الحكاية أشبه بفيلم سينمائي".

"كل ذلك يسبب الحزن للمرء، ويجعله تواقًا في الوقت نفسه، إلى أن يكون جزءًا من حياة تلك المذكرات. كل رسالة منها مفعمة بالعواطف والألم" قالت مسكال.

قلب باقي إحدى البطاقات. نظر إلى تاريخها وتوقيعها.

"أنت محقة يا مسكال" قال، "لنأخذ هذه البطاقة... لا نعلم طبيعة ذلك اليوم الذي كُتبت فيه، إن كان يومًا مشحونًا بالأمل أم باليأس".

روما

إيطاليا

1966

الأربعاء 13 أكتوبر 1966.

عزيزتي الآنسة مسكال، استيقظت في ساعة مبكرة من صباح اليوم. غادرت غرفتي في الطابق الثاني المطلة على ميدان نافونا وذهبت إلى الكافيتريا بجانب نافورة ديل نيتونو على الجهة الأخرى من الميدان. في ساعات الصباح الأولى، تكون الأجواء هادئة والميدان قليل الزحام. جلست إلى طاولة على الرصيف. بعد أن أحضرت صاحبة الكافتيريا فياميتا القهوة والكرواسون كما هي عادتي المعهودة كل صباح، أخرجت الورق والقلم وبدأت أكتب إليك. تعلم فياميتا خوفي الشديد من الحروب، لذا بعد أن قالت إن الأمريكيين قد قصفوا فيتنام الشمالية بالنابالم مرة أخرى، أضافت ضاحكة أنه لا داعي لخوفي، فموقع فيتنام على الخريطة لم يتغير، ولا تزال بعيدة جدًا عنا. ضحكت أنا أيضًا وشكرتها على طمأنتي. ثم سألتني عن مكتب البريد الذي سأرسل لك رسالتي لهذا اليوم. لقد اعتدت أن أرسل لك رسائلي من مكتب بريد مختلف في كل مرة، عله يجلب أحدها لي الحظ فأحظى برد منك.

اليوم، سأرسل هذه الرسالة من مكتب بريد مارموراتا. يحيرني أن المعجبين بمكتب البريد هذا كثر، على الرغم من أنه يبدو بمبناه الغريب، يتعارض وتاريخ روما العريق. جدرانه عادية، ونوافذه غير مزخرفة، ويبدو بلا روح. المغلفات التي تحمل اسمك كالهمسات قد تضفي روحاً على حجارة مكتب البريد ذاك.

بعد قليل، سأغادر الكافيتريا، فأمامي مسيرة ساعة على ضفاف نهر التيبر حتى أصل إلى مكتب بريد مارموراتا. سأتابع التدفق العظيم للنهر بينما أفكر بأن تغييري لاسمي على مر السنوات الماضية من عيسى إلى موسى وأسماء أخرى، ودخولي من دين إلى دين لم يفتح لي الباب السري لحياتي. فليعطَ سر العالم للأنبياء، أما أنا فلا أريد سوى معرفة سري الخاص بي فقط. لماذا ممنوع عليّ ذلك؟ سأشكي حالي إلى نهر التيبر، عندما أكون وحدي. تأمل المياه والغوص في جريانها اللانهائي يفرّج الغم عن قلبي. نحن في آخر أيام الخريف الجميلة، وسرعان ما تتحول النسائم الباردة إلى رياح شديدة البرودة يتبعها هطول الأمطار والثلوج. شتاء روما سيء. كيف الأجواء في إسطنبول يا عزيزتي مسكال؟ هل بدأت موجات الصقيع؟ هل تحول لون البوسفور من الأزرق إلى الرمادي؟ أحضرت فياميتا فنجان قهوة ثانٍ لي وآخر لها، وجلست قبالتي لتطلب مني أن أغادر الكافيتريا إذا ما جاءت أمها.

تقيم فياميتا ووالدتها روزا في الطابق العلوي للكافيتريا. لقد ساءت حال أَمها مرة أخرى منذ يوم أمس. تعاني روزا من ثقل الشيخوخة وحالات النسيان المفاجئ التي تصيبها، وغالبًا ما تسبب الإرباك لمن حولها. في الأسبوع الماضي، ظنت أني زوجها المتوفى منذ سنوات. عانقتني بحرارة،

وأمسكت بيدي ووضعتها على رأسها كي أربت على شعرها، وقد أسعدها ذلك كطفلة صغيرة، وسألتني إن كنت أشعر بالجوع كي تسلق لي بعض حبات من البطاطا التي أحب. وعندما قلت إنني لست جائعًا، استاءت، وبدا الحزن على وجهها، واغرورقت عيناها بالدموع.

نعتقد أن من المستحيل عودة عجلة الزمن إلى الوراء، لكن كبار السن يستطيعون ذلك ويعيشونه. عندما يصل بهم العمر إلى الحدود النهائية للمستقبل، يعودون بعجلة الزمن إلى الوراء ويعيشون الماضي ويحيونه. حينئذ يوقفون الزمن في عقولهم ويجمعون ما بين الماضي والمستقبل في الوقت الحاضر. حقيقة ظن روزا أني زوجها المتوفى منذ سنوات، ليس مرضًا بل انتصارًا على قسوة الزمن. انتصار للسعادة. لقد قهرت روزا الزمن عندما وضعت أصابعي على شفتيها وقبّلتها. كان العالم الذي أمام عينيها يختلف عن العالم الذي أراه. بينما كانت في نظري غريبة عني، كنت في نظرها الرجل الذي كان زوجها في الماضي. كنا نعيش في واقعين مختلفين. من منا كان الحقيقة في تلك اللحظة يا ترى؟ تناولت رشفة من قهوتي. فكرت ملياً ثم قلت لفياميتا إنني لن أغادر إذا جاءت أمها. لتأتِ روزا وتراني. لتعتقد أني زوجها مرة أخرى، لتعانقني، سوف أعانقها. سأضم وجهها بين كفي وأتأمل عينيها، سأربت على شعرها. سأقول لها: "أنا جائع يا روزا، هل تسلقي لي بعضًا من حبات البطاطا؟"

اميرغان

إسطنبول

2002

حين ذهب باقي إلى بناية جوهر للمرة الثانية، كان يحمل باقة من زهور النجمية في يده. أخذت السيدة زبيدة زهور النجمية من باقي ووضعتها في مزهرية، ثم وضعت المزهرية إلى جانب إصيصين للزهور على حافة النافذة. زهر البنفسج كان في أحد الإصيصين، وزهرة الربيع في الإصيص الآخر.

"شكرًا لك يا باقي" قالت، " أزهارك الوردية جاءت في تناسق تام مع أزهاري البنفسجية والصفراء".

"أنا سعيد لأنها أعجبتك" قال باقي.

"سأذهب إلى المطبخ" قالت السيدة زبيدة. خرجت وتركت باقي ومسكال وحدهما في غرفة المعيشة.

"الأزهار أهم شيء في حياة أمي" قالت مسكال، "بيتنا مليء بالزهور".

بَدأت السماء تمطر رذاذًا في الخارج.

وقف باقي ومسكال أمام الواجهة الزجاجية لغرفة المعيشة، وراحا يتأملان مياه البوسفور العاصفة صامتين. تصاعد حدة هطول المطر أدى

إلى حجب الرؤية عن أشجار الشاطئ المقابل للبوسفور، وما عاد بالإمكان تمييز السفن العابرة للمضيق.

"بيتكم جميل" قال باقي، "إطلالته رائعة، تأسر المرء أمام النافذة طوال اليوم".

"نعم جميل" قالت مسكال، "لكن عندما يعيش المرء الحالة على الدوام، تخرج من دائرة اهتماماته وينساها. كثيرًا ما أجلس في هذه الغرفة، دون أن يخطر ببالي تأمل هذه الإطلالة. تلك هي خطورة التملك".

"لماذا تقولين ذلك؟"

"عندما تتملك الجمال، يصبح الجمال أمرًا اعتياديًّا".

"لكن للجمال وجوه مختلفة" قال باقي، "وقد يكتسب كل يوم وجهًا جديدًا. انظري الآن، إنها تمطر اليوم. تلك الباخرة هناك، تمخر المضيق قرب الشاطئ. سفينة شحن حمراء قادمة من أعالي المضيق. الجمال لا يثبت على حال، يتغير طوال الوقت. الجمال الذي شاهدته من خلال هذه النافذة في الأسبوع الماضي والجمال الذي أشاهده الآن، متشابهان ومختلفان في الوقت نفسه".

التفتت مسكال إلى باقي الواقف قربها، فتلاقت أنفاسهما.

"كي نلاحظ هذا الجمال على الدوام، فهذا يعني أننا بحاجة إلى كلمة وعين تطل من الخارج".

"تعالي إلى بيتنا ذات يوم" قال باقي، "ربما ترين هناك الجمال الذي فقدت أنا رؤيته".

في تلك اللحظة، نادت السيدة زبيدة.

"هيّا يا شباب".

لقد أحضرت السيدة زبيدة صينية عامرة بأطباق من الحلوى وكؤوس الشاي يتصاعد منها البخار. وضعتها على الطاولة الوسطية. ناولت طبقًا لكل من باقي ومسكال الذين جلسا على مقعدين متجاورين، ووضعت أمامهما كأسين من الشاي الساخن.

"أنت تضع ثلاث قطع من السكر، أليس كذلك؟"

"نعم، شكرًا"، قال باقي بصوت متفاجئ.

"تذوق الرز بالحليب، لنرى إذا ما أعجبك. ثم أريد رأيك بالكعك".

"أمي طباخة ماهرة" قالت مسكال.

"باقي" قالت السيدة زبيدة، "عندما جئت في المرة السابقة، لقد انشغلنا بموضوع المذكرات، فنسينا تقديم واجب الضيافة لك. لذلك طلبت من مسكال دعوتك".

"الرز بالحليب لذيذ جدًا، سلمت يداك" قال باقي، بينما همّ بتناول الملعقة الثانية، "أشكركم على دعوتكم".

"قولوا يا شباب" قالت السيدة زبيدة، "ما أخبار الدراسة؟ السؤال موجه إلى كليكما".

"على أية حال، فأنا أخبرك كل يوم".

"ليكن، أخبريني مرة أخرى".

"حسب ما أرى فمسكال تتابع دراستها على نحو أفضل مني. لقد شغلت المذكرات تفكيري وأخذت الكثير من وقتي المخصص للدراسة" قال باقي.

"باقي" قالت السيدة زبيدة، "لقد عرفت بفضلك، الكثير من الأمور عن أمي لم أكن أعرفها سابقًا. لقد أعدت قراءة المذكرات مرة أخرى أمس،

وأرغب في الذهاب إلى بيت الجزيرة ثانية. سأعيد البحث في أغراض أمي، ولابد أن هناك المزيد لمعرفته عنها. يمكنك المجيء معنا في نهاية الأسبوع، إذا ما شئت. نذهب ثلاثتنا إلى هناك".

"يسعدني ذلك جدًا".

"لماذا نؤجل ذلك حتى نهاية الأسبوع؟" قالت مسكال، "لنذهب غدًا".

"مسكال! غدًا الإثنين، ألن تذهبي إلى الجامعة؟" قالت السيدة زبيدة.

"ما الضير إذا لم نذهب يومًا..."

"ابنتي، بيت الجزيرة لن يهرب. نذهب في عطلة نهاية الأسبوع".

تألق البرق ودوّى الرعد في الخارج. مع هدوء الرعد، سمع صوت المطر بوضوح أكثر. كانت إسطنبول تعيش منخفضًا جويًّا قاسيًا".

"لحسن حظي أنني وصلت قبل هطول المطر" قال باقي.

"كيف حال أمك؟" قالت السيدة زبيدة، "أخبرتني مسكال أن أمك وجدك يعيشان معًا، هل كلاهما بخير؟"

"أمي بخير، لكن لا يمكنني قول الشيء نفسه عن جدي".

"أهو مريض؟"

"في الواقع، هو رجل صلب، يعمل من الصباح إلى المساء كل يوم. لا يبالي بشيء. في الآونة الأخيرة، بدأ يعاني من فقدان الذاكرة. نوباتها قصيرة، ثم يعود إلى رشده".

"ماذا يقول الأطباء؟"

"يرفض جدي الذهاب إلى المستشفى، لكن أمي تحضر له الطبيب إلى البيت ليعاينه. ثم أنه لا يواظب على تناول الأدوية التي يصفها له الطبيب،

لذلك يختلف وأمي دائمًا".

"أعرف طبيبًا ماهرًا، إذا ما ذهب إلى عيادته..."

"لتسلمي، هذا إذا ما تمكنا من إقناع جدي بمغادرة المقبرة، فسنأخذه إلى طبيبك".

"ماذا تقصد بمغادرة المقبرة..."

نظر باقي بجمود ثم قال: "جدي معلم شواهد قبور. يقيم في المقبرة منذ سنوات عديدة. بيته وورشته هناك. لقد اختار الاستقرار في المقبرة ليكون إلى جوار قبر جدتي. يجلس في الشرفة في المساء، ويكلم جدتي التي ترقد مقابله، تحت شجرة يهوذا. يبدو ذلك غريبًا، لكنه سعيد بذلك. لم أرَ أحدًا بمثل سعادته قط".

"ما أروع ذلك!" صاحت مسكال.

"أجل يا ابنتي" قالت السيدة زبيدة، "تبدو لنا الأمور رائعة عندما ننظر إليها عن بعد".

مقبرة مركز أفندي

إسطنبول

2002

اجتازت رياح الخريف البحر الواسع الهائج حتى وصلت إلى المقبرة، فعانقت الأشجار والتراب. النجوم حولت السماء إلى ثريا كبيرة رائعة، تنشر ضياءها فوق المقبرة. رفع أقدو رأسه، شاهد ما يعرف من النجوم، فتتبع مساراتها واحدة واحدة. تلك تسلية كان يمضي فيها الليل في طفولته، فيغرق في مسارات لانهائية تتقاطع في السماء. الزمان يمر، والعمر يمضي، لكن النجوم ظلت على حالها. الأيام تنقضي، والنجوم تقطع المسار نفسه دون توقف.

يرتدي أقدو سترة صوفية، ويتدرّج ببطء في الهواء البارد، محدقًا في النجوم تارة وفي شواهد القبور تارة أخرى. أيها على الأرض، وأيها في السماء؟ في مثل تلك الليالي كان يخلط ما بين الأماكن. يظن نفسه يسير بين النجوم، وغبار النجوم عالق على أصابعه عندما يلمس شواهد القبور. صوت وصل إلى مسمعه. استدار ونظر وراءه. لا أحد، لكنه سمع وقع خطوات ناعمة. إن الصوت قادم من عالم طفولته، يسير خلفه بهدوء، متتبعًا خطاه على

العشب. حبس أنفاسه منتظرًا اقتراب حافي القدمين في الظلام. مر الزمان بالانتظار. ادلهمّ الليل، وطاف صوت النبع سبع مرّات حول المقبرة. لم يستطع طيف طفولته الوصول إليه. ظل وقع الخطى على البعد نفسه دائمًا. هل هذا ما يدعونه بالماضي؟ بعيد وفي الآن نفسها قريب بما يكفي لسماعه.

تابع أقدو المشي بهدوء بين العشب الجاف. مر بهدوء من جوار قبر البحار العجوز ومادلين وتوتيفي حتى وصل إلى قبر الرجل ذي السبعة أسماء. تأمل القبر المغطى بأوراق الأشجار وشاهد قبره المهيب منتصبًا عند رأسه. انحنى وجمع أوراق الأشجار الجافة ونظّف سطح القبر. لمس شاهد القبر بيد ملوثة بالتراب وأوراق الأشجار. كان شاهد القبر حالكًا كسواد الليل ويعج بخطوط بيضاء تشبه مسارات النجوم، ورياح الخريف تصفر في الثقب وسط الشاهد. اندمج العمر والكون ببعضهما في الصفير. قرّب أقدو رأسه نحو الثقب في شاهد القبر وتحدث هامسًا. قال للرجل ذي السبعة أسماء أنا لا أعرفك وأنت لا تعرفني أيضًا. أقدو الذي تظن أنك تعرفه ليس رجلًا عجوزًا واهنًا، بل صبيًّا في العاشرة من عمره. هذا الفتى الذي يتبعني طوال العمر موجود هناك، ينظر إلينا من عمق الظلام. التفت أقدو إلى الظلام. الظلام فراغ مقدس. لا بداية له ولا نهاية. يتوسع في كل الاتجاهات. في الظلام الشمال جنوب، والشرق غرب، وكل الاتجاهات في المكان نفسه. وحيثما يقف الإنسان فهناك مركز الظلام. كل الحقائق تصبح أسرارًا، ساحرة ومرعبة تذهب بالعقل. احلولك الظلام، وازداد الصفير شيئًا فشيئًا. هفت رياح مجنحة، وخشخشت أغصان السرو. صاح بوم لا يعرف أين مكانه. سمع وقع خطى مرة أخرى، من حيث تتدفق مياه النبع. من كان يراقب من؟ هل طيف طفولة أقدو يتابعه أم أنه هو من يتابع طيف طفولته طوال عمره؟

مقبرة مركز أفندي

إسطنبول

2002

اليوم، مساء.

دفعت الرياح الجنوبية الشرقية السحب بعيدًا، فظهر البدر ساطعًا في السماء مع وصول البحار الأشقر إلى المقبرة، وعلى الرغم من برودة الجو ذلك المساء، إلا أنه فضّل الجلوس في الشرفة. أخذ كل من ريحان وباقي ومسكال أماكنهم حول الطاولة. خيّم الصمت بعض الوقت. اتجهت أنظار الجميع نحو النبع وأشجار السرو. عاد البحّار الأشقر بذاكرته إلى ما ورد من أحداث في المذكرات. لقد سمعها من أقدو وقرأ بعضًا من صفحاتها قبل بضع سنوات؛ تلك المذكرات التي ذُكر فيها اسم مسكال في صفحاتها الباهتة، كما لو كانت إلهة. عدّل نظارته وتأمل وجه الشابة مسكال الجالسة على مقربة منه. حاول أن يجسد في مخيلته صورة لمسكال صاحبة المذكرات من خلال ملامح وجه حفيدتها. قصر عينيه، ثم اشتكى من نظاراته التي لم تعد تصلح لعينيه الهرمتين. سألته ريحان عما إذا كان جائعًا.

"دعك من العشاء الآن، يا ابنتي" قال، "أخبريني عن أقدو، لم يفارق

عقلي منذ أن اتصلتِ بي".

قبل أسبوع.

شعرت ريحان بالقلق بعد أن ظل أڤدو نائمًا على الرغم من شروق الشمس، على غير عادته المعهودة بالنهوض في الصباح الباكر، والذهاب إلى رخامه وحجارته. حامت حول السرير مترددة. نادت عليه أخيرًا، وأيقظته. تأمل أڤدو ريحان بنظرات ضبابية، ولم يبدُ عليه الصحو أو الغفو. "أين أنا؟" قال. وقعت ريحان في حيرة وقلق. جلست بجانب السرير. "دعيني أنام قليلًا" قال أڤدو، موجهًا نظراته الضبابية نفسها، ثم أغمض عينيه وعاد إلى النوم مع غطيط يصاحب تنفسه. بكت ريحان بصمت، وقد أعيتها الحيلة. سيرفض أبوها الذهاب إلى المستشفى، سيغضب إذا دعت الطبيب لمعاينته في البيت، سيمتنع عن تناول ما يوصف له من أدوية. لن يستمع أڤدو العجوز إلا إلى شخص واحد هو البحار الأشقر الذي حافظ على اسمه، على الرغم من الشيب الذي غزا مفرقه. أسرعت ريحان إلى الهاتف واتصلت بمدينة البندقية لتخبر البحار الأشقر عن حال والدها.

اليوم، مساء.

"أفتقد هذا المكان" قال البحار الأشقر مطلقًا بصره بالنظر إلى المقبرة، "أحب صوت الأمواج في البندقية، وصدى الأصوات المترددة على الجدران الرطبة، لكنني مع كل يوم يمر، أفتقد خرير ذلك النبع الذي يختلط مع الليل الأخرس. بالتأكيد، فأڤدو الأكثر من أفتقد. عندما أخوض في هذا الحديث مع زوجتي روبرتا، تقول إني أتقدم في السن".

ردت ريحان على البحار الأشقر بابتسامة.

"أبي يفتقدك أيضًا" قالت، "آه، ليته يعترف باعتلال صحته. إنه واثق جدًا من جسمه القوي، ولا يقبل أن يكون ذهنه مريضًا. لا يريد الاعتراف بأن عقله يشيخ أسرع من جسمه. أرأيت ما فعله اليوم أبي الذي كان لا يملُّ من الجلوس هنا في الشرفة، ولا يكفُّ عن الاستماع إلى الراديو حتى ساعة متأخرة من كل يوم؟ لقد ذهب إلى الفراش مع الغسق، على الرغم من سعادته بمجيء مسكال".

اليوم، بعد الظهر.

أقدو الذي لا يفارق ورشته، ويقضي النهار بطوله في نحت الحجارة وحفر النقوش للأرواح، ما إن سمع باسم الفتاة التي أتت مع باقي في فترة ما بعد الظهيرة حتى رمى المطرقة والإزميل من يده، واتجه إلى الشرفة ليجلس معها. أمضى باقي الأسبوع الماضي، إلى جانب جده ولم يذهب إلى سكن الطلاب. لم يخبر باقي جده بأنه سيعود من الجامعة اليوم وبصحبته مسكال. أراد أن يفاجئه بحضورها. دخلت مسكال المقبرة بحماس مسبق، وعندما رأت البيت القائم بين شواهد القبور مثل لوحة زيتية، شعرت كأنها خطت خطوة نحو حياة مشابهة لما قرأته في المذكرات. شربت من ماء النبع وتأملت الحجارة المتهدمة والأشجار القديمة حولها. بعد أن جلست في الشرفة، ظلت تقلب بصرها حولها بشغف. استمعت إلى صوت أقدو المتموج ارتفاعًا وانخفاضًا. بينما كان أقدو يتنقل من موضوع إلى موضوع، توقف عن الكلام فجأة، ونظر إلى وجه الفتاة الشابة.

"آنسة مسكال، هل كان شعرك طويلًا مثل الآن؟" سأل. فقالت

مسكال: "لم أفهم، هل تقصد عندما كنت صغيرة؟" تابع أڤدو ضاحكًا بصوت مرتفع: "أقصد قديمًا، قبل ستين أو سبعين عامًا، عندما كنت مخطوبة للملازم آدم كريتلي".

حارت مسكال في الرد، وخيم الصمت على الجميع، ودارت النظرات بين الوجوه الحائرة. تدارك أڤدو حاله، ولبس وجهًا جادًا، ثم وجه بصره نحو القبور وحلق في أجواء بعيدة. لم يمضِ وقت طويل حتى نظر إلى الشابة مرة أخرى.

"آنسة مسكال" قال، "سأروي لك حكاية النجار والملكة ذات الشعر الطويل".

كان أڤدو يحب رواية الحكايات حول النار في ظلام الليل، ولم يسبق له قط أن روى حكاية في النهار، بيد أنه شرع قائلًا، "كان يا ما كان، كان هناك نجار، استدعاه الملك ليصنع أثاثًا للقصر. عندما دخل صالة القصر، كانت الملكة جالسة على أريكة تتأمل وجهها وشعرها الطويل في مرآة تحملها في يدها. وقعت المرآة من يد الملكة على الأرض حين رأت النجار. هرع النجار ليناول المرآة للملكة، فالتقت نظراتهما في المرآة، ووقع النجار في حب الملكة. عاد النجار إلى ورشته بعد أن غادر القصر. بعد أن كحل السهاد عينيه تلك الليلة، وتقلب على نار الشوق، أدرك أن تخليه عن هذا الحب من رابع المستحيلات. كان عند النجار صندوق سحري ورثه عن معلمه. أخرج ذلك الصندوق من المخزن، ثم أخرج منه مطرقة ومسامير سحرية وصنع بابًا. حمل النجار الباب حتى القصر وأسنده على سوره، ما إن تخطى عتبة الباب حتى دخل إلى عالم غير مرئي. في تلك الأثناء، متسول كان يراقبه من بعيد. ذُهل المتسول عند اختفاء النجار داخل الباب. اقترب من

الباب ونادى على الناس من حوله. على الرغم من أنه أقسم بأغلظ الأيمان باختفاء النجار حين دخل من هذا الباب، إلا أنه لم يستطع إقناع أحد. حاول المتسول أن يمر من الباب، لكنه لم يختفِ، ولم يصبح غير مرئي. تفرقت الجموع وابتعدت ظنًّا منها أن المتسول ليس سوى مجنون فاقد العقل. أسرع المتسول إلى حراس القصر وأبلغهم بوجود ساحر اختفى في سور القصر. أما النجار فقد مر من الباب ودخل حديقة القصر الخضراء المورقة، ورأى الملكة جالسة جوار حوض الماء. لم يستطع أن يخفي حبه، فبثها مشاعره في الحال، ثم أخبرها عن صنعته السحرية. ملكات ذلك الوقت لم يأتِ مجدهن من ظاهر عظمتهن، بل من أعماق قلوبهن، إذ قالت الملكة إنها تبادله الحب أيضًا. تعانقا وتغازلا، وأمضيا الوقت معًا حتى غربت الشمس وغادرت السماء، فغادر النجار أيضًا القصر من بابه السحري بعد أن وعد الملكة بالعودة ثانية. كان المتسول بانتظار النجار عند الباب، وما إن رآه يخرج من الباب حتى صاح مناديًا الحراس. أمسك الحراس بالنجار واقتادوه وبابه إلى الملك. سأل الملك النجار عن سره وخيّره بين أمرين، إما أن يخبره عن سر الباب أو يموت. قال النجار، إن كل باب يُصنع لشخص بذاته، وهو وحده من يمكنه المرور من ذلك الباب. حاول الملك المرور من الباب، لكنه وجد نفسه في المكان نفسه، فأمر النجار بصنع باب خاص به من أجود أنواع الخشب. اعترض النجار وقال إن كل الأخشاب متشابهة، وأن الباب الوحيد الذي يعلو فوق كل الأخشاب يصنع من الجليد فقط. الملوك دائمًا يستحقون الأفضل. ملوك ذلك الزمان، الجشع يسلب عقلهم. أمر الملك رجاله بإحضار الجليد من الجبل في الحال. شرع النجار على الفور في العمل. لم ينم الملك تلك الليلة، وظل يراقب النجار أثناء عمله.

اكتمل الباب الجليدي قبل شروق الشمس. تلمس الملك الباب الجليدي بيده بفضول، ثم خطى عبر الباب، وعيناه تلمعان، فاختفى بالفعل. بزغت الشمس، وغمرت أشعتها غرف القصر عبر نوافذه الملونة. لم يكن الباب خشبيًّا بل جليديًا... مع مرور الوقت... بدأ الجليد في الذوبان ببطء... وراح الباب يذوب شيئًا فشيئًا... في تلك الأثناء استيقظت الملكة، وبينما راحت وصيفاتها يخبرنها بما يجري في القصر... ظل الجليد يذوب ويذوب ..."، في تلك اللحظة، توقف أقدو عن رواية الحكاية، وشخص بصره. لو كانت الذاكرة طيرًا، فالطير الذي في رأسه قد طار وحلق بعيدًا. انتظر بعض الوقت حتى يعود الطير. لكن طير الذاكرة رفرف بجناحيه العريضين وحلَّق حتى وصل إلى سحب السماء الشاحبة. ضحك أقدو، ورفع بصره نحو السماء. تمتم مخاطبًا نفسه دون مبالاة بغرابة ضحكه، "لقد عملت اليوم بجد، وعمل عقلي بجد أيضًا، لأدخل وأنام قليلًا". قام من مكانه بتثاقل رجل عجوز. حين فتح الباب وعبر منه، ظن أنه سيغادر هذا العالم إلى عالم آخر غير مرئي مثل النجار في حكايته.

اليوم، بعد الظهر.

قدمت ريحان الشاي إلى مسكال أولًا ثم إلى باقي. وضعت قطعة كيك أمام كل منهما. بينما كانت ريحان تتحدث مع مسكال، لم تركز نظراتها إلى عينيها الزرقاوين، بل إلى شعرها الناعم الطويل. قالت في قرارة نفسها إن هذا الشعر الجميل لا يليق به سوى المشط الذي يحمل نقش شاه ميران، وستتبسم شاه ميران عندما تنزلق الأطراف العظمية للمشط برفق على هذا الشعر الناعم.

اليوم، مساء.

بعد أن استمع البحار الأشقر إلى ما قالته ريحان، ظهر عليه القلق والفضول.

"لم أسمع هذه الحكاية من أڤدو" قال، "يبدو أن لديه حكايات لم يروها لي".

لقد أظهرت الحكاية غير المكتملة خطورة الوضع، وأن صحة أڤدو في تدهور. لابد من إقناعه بضرورة مراجعة الأطباء دون تأخير، وتلك المهمة تقع على عاتق البحار الأشقر. إذا لم يتمكن من إقناعه، فلن يتمكن أحد آخر فعل ذلك. في تلك اللحظة، سمع صرير الباب. وقف أڤدو على العتبة بوجه يحمل تعابير جامدة كأنه هبط من عالم آخر. نقل بصره إلى الظلام. سار ببطء حتى وصل إلى حافة الشرفة. لم يكن معنيًا بالجالسين في الشرفة، بل بالمقابر والأشجار التي ضربت جذورها في الأرض منذ قرون. رفع رأسه. دارت عيناه تمسح السماء بانتظار مجيء طير عريض الجناحين. لم يرَ طيرًا، لكنه شعر به محلقًا في السماء المظلمة. لم يحتمل البحار الأشقر ما ألمّ بصديقه، فقال: "أڤدو يا صديقي العزيز. لقد مضى وقت طويل لم نلتقِ. جئتك للتو من البندقية. جئت لرؤيتك. زوجتي روبرتا تهديك السلام أيضًا". تريث قليلًا علّ رشد أڤدو يعود إليه عند سماعه هذا الكلام؛ لكن أڤدو ما كان ليثوب إلى رشده إلا إذا سمع رفيف جناحي طير في الظلام، ظل واقفًا على حاله تلك. اقترب البحار الأشقر منه وعانقه. لف ذراعيه حول كتفيه. أسند أنفه على رقبته التي تفوح منها رائحة الرطوبة والعرق والشوق. في حين، ظل أڤدو منتظرًا، وذراعيه تتدليان على جانبيه مثل غصنين جافين. صوت الريح داعب الأغصان، وصوت الزمن أيقظ

الأرواح، لكن صوت جناحي الطير لم يُسمع. تملص أقدو بهدوء من ذراعي البحار الأشقر. دار بنظراته على وجوه الجالسين إلى الطاولة. "أنتم!" قال بحدة، "لماذا لم توقظوني؟ لقد أظلم الليل!". عاد ببصره إلى المقبرة. نهضت الأرواح من قبورها ونظرت إليه. أرادت الأرواح فهم ما يجري في البيت تلك الليلة، وقد انتابها الفضول لمعرفة ما سيفعله أقدو. بدا كأن الأرواح جزء من حكايته تلك، تخطو عبر الباب الجليدي، فتدخل عالمًا آخر وتعلق هناك، ولا تتمكن من العودة إلى حياتها القديمة بعد ذوبان الباب الجليدي. تعيش مع معاناة الرؤية من بعيد، والسماع من بعيد. توهجت في الظلام شواهد القبور التي اتكأت عليها الأرواح، حتى بدت كأنها أُلبست باللون الفضي للبدر. حتى مياه النبع الجارية قد أخذت نصيبها من ذلك الوهج. رفع أقدو يده وأشار في الظلام.

"أشجار اللوز!" قال، "بستان اللوز، هناك!". اقترب منه البحار الأشقر وخاطبه بصوت رقيق، "أقدو يا صديقي العزيز، لنجلس ونتحدث قليلًا". نظر إليه أقدو بوجه قلق، "نجلس؟" قال، "أهذا هو وقت الجلوس؟ إن إليف تنتظرني، هناك!".

في ذلك الجانب من الظلام، حين كان الجميع لا يرون سوى شواهد القبور وأشجار السرو، كان أقدو يرى بستان لوز شاسع. واصل كلامه بحزم: "لقد تأخرت كثيرًا. ينبغي لي الذهاب إلى بستان اللوز في الحال!".

في تلك اللحظات، لم يسمع أقدو ما كان يدور من حديث في الشرفة. لقد شعر بطير عريض الجناحين يمسك به من كتفيه، ويرفعه برفق في الهواء، ويحمله بعيدًا.

قرية كوناك غورميز

سهل هايمانا

1958

منذ أن نما العشب واخضرّت السهول، غدت الأبقار تتأخر في العودة إلى القرية. وعلى الرغم من أن راعي القطيع يسعى إلى الوصول إلى القرية قبل غروب الشمس، إلا أن الحيوانات تتباطأ عند كل أرض خضراء تمر منها على طول الطريق إلى القرية. عندما رأت إليف بقرتيها البيضاويتين تبتعدان عن القطيع وتقفان في المرج الواقع على طريق المقبرة، ناولت دلو الماء لرفيقاتها عند النبع وانطلقت وراء البقرتين ثم قادتهما حتى الجدول. بعد أن عبرت البقرتان الجدول تحركتا دون قِياد، باتجاه البيت المطلي بالصباغ النيلي.

في اليوم التالي، لم تكن البقرتان البيضاويتان بين قطيع الأبقار عندما وصلت القرية. عندما لم تجدهما إليف في المرج، اتجهت نحو بستان اللوز لعلهما ما زالتا هناك ترعيان. في ذلك الوقت، كانت الشمس على وشك الاختباء خلف التل، والسماء تصطبغ باللون الأحمر. عندما رأت إليف بقرتيها البيضاويتين بين أشجار اللوز من بعيد، حثّت خطاها، لتصل إليهما

قبل حلول الظلام، لكنها تباطأت بعد أن رأت رجلًا جالسًا تحت إحدى الشجرات. كان الرجل معلم شواهد القبور أقدو.

وقف أقدو على قدميه عندما أصبحت إليف على مقربة منه.

"لا تخشي شيئًا، أريد أن أكلمك".

"هل أنت من تعمدت تأخير الحيوانات في البستان؟" سألت إليف.

"لو قلت لا، هل ستصدقينني؟"

"أنا مخطوبة، لا تلاحقني".

"ذكرت لك في رسالتي أني لن أتركك أبدًا، ولم أتلقَ ردًا منك".

"لا أرد على رسالة شخص لا أعرفه، لقد قلت لباقي أن يخبرك بأن تنساني نهائيًا".

"حتى باقي أدرك بحسه الطفولي أنني لا يمكنني التخلي عنك".

أطرقت إليف برهة من الوقت، تفكر في رد مناسب خشية وقوعها في خطأ يُحسب عليها.

"لقد أرسلت لي قطعة ذهب في منديل" قالت.

"أجل، لقد أخذتها عندما بدأت العمل هنا، وأردت أن أهديها لك".

"لا يمكنني قبولها. قل لباقي كي يأتي عندي لأعيدها لك".

أطرق أقدو هذه المرة. هذا هو حديثه الأول مع إليف، وربما لن تتاح له الفرصة للتحدث إليها مرة أخرى.

"إليف!" قال، "أنا لا أملك شيئًا، ذلك الذهب كل ما أملك، وقد أعطيَتك كل ما أملك. من الآن فصاعدًا، سيكون كل ما أملكه ملكًا لك".

شعرت إليف برهبة عندما خاطبها أقدو باسمها. خشيت أن تزول المسافة التي بينهما.

"أتيت إلى قريتنا كغريب، أكمل عملك، وغادر من هنا كغريب".

"لن أغادر هذه القرية حتى تأتي معي".

لم يعد أمام إليف أي شيء لتقوله. لقد اكتفت بما قالته. لقد كادت أن تنسى أنها جاءت إلى هنا بحثًا عن بقرتيها. توجهت نحوها.

تقدم أقدو أمامها بهدوء، محاولًا ألا يخيفها. ثم توقف على بعد خطوتين منها.

تجمدت إليف في مكانها وقطبت حاجبيها.

"ابتعد عن طريقي!" قالت، "وإلا سأصرخ وألمّ عليك القرية كلها".

"لا داعي للصراخ" قال أقدو، "لا أريد سوى التحدث معك، هل ستستمعين إلي؟"

"سبق وقلت ما قلته، ماذا ستقول غير ذلك؟"

"لم أقل كل شيء بعد".

أبدت إليف تجاهلًا لما قاله أقدو، وتجاوزته مبتعدة. أمسكت بقرتيها من رقبتها ووجهتها نحو طريق القرية. ظنت أن أقدو سيوقفها. فكرت في قرارة نفسها بما ستفعله عندئذ. سمعت أصوات الكلاب في البعيد. نظرت إلى بيوت القرية في الجهة المقابلة. عدّت خطواتها، خطوة، خطوتان، ثلاث خطوات، ثم توقفت. التفت ونظرت إلى أقدو.

"حسنًا" قالت، "قل بسرعة ما تريد قوله. الظلام على وشك الهبوط".

تقلب لون السماء من الأحمر إلى الأزرق الداكن. راحت الرياح تهب بين الأشجار وتلثم أوراقها. تراقص اللوز على الأغصان، وغردت طيور القبرة المتوّجة من قريب. بدا الظلام يهبط بسرعة بينما إليف بانتظار ما سيقوله أقدو.

"نجم الراعي بدأ في التألق، أترينه؟" قال أقدو.

لم تفهم إليف ما يرمي إليه بكلامه هذا، فنظرت إليه بدهشة. هل سيمضي الوقت بهذا الكلام الفارغ؟ على أهالي القرية أن يكونوا في بيوتهم عندما تبدأ النجوم بالتّألق. من يتأخر بعد ذلك، سيسبب القلق لأهله، وسيخرجون للبحث عنه. عندما لم يلتفت أقدو إلى إليف وظل يوجه نظره إلى السماء الغربية، رفعت رأسها من بين البقرتين بدافع الفضول.

"أيهما نجم الراعي؟" قالت.

"انظري إلى قمة التلة هناك، ثم ارفعي بصرك إلى الأعلى، سترين هناك ذلك النجم الساطع".

"أذلك النجم الفضي؟"

"أجل هو".

"كيف تعرف ذلك؟"

"من السهل معرفة ذلك النجم الفضي فهو ساطع جدًا. يظهر إلى جانب الشمس دائمًا، يظهر معها في الغرب مساءً وفي الشرق صباحًا، لا يفارق الشمس أبدًا".

"يبدو أن الأمر بسيط".

"أجل، الأمر بسيط" قال أقدو، "وأنا لن أفارقك مثله أيضًا".

أمسكت إليف برقبتي البقرتين، وسحبتها نحوها كأنها تحتمي بها، وأخفت وجهها.

"لا أمل في ذلك" قالت، "طريقك في اتجاه، وطريقي في الاتجاه الآخر".

تراجع أقدو خطوتين إلى الوراء. أراد أن يهدئ من قلق إليف التي تحاول عدم إظهاره.

"لن أخطفك ولن أكرهك على فعل ما لا ترغبين" قال، "أتمنى أن تفهميني، أن تحبيني. مهما قلتِ الآن، فسأظل بانتظارك حتى تكون المبادرة منك. لا شيء آخر في حياتي أسعى إليه سواك".

"سترى مع الوقت أن لا جدوى من انتظارك".

اكتحل وجه أقدو بالحزن.

"هل تعلمين!" قال، "عندما كنت صغيرًا، كنت أغني من شارع إلى شارع، وأرى غيري من الأطفال يمرون ممسكين بأيدي أمهاتهم. كل أم تحمل اسمًا، وحين ينام الأطفال في حضنهن، يعرفون وجه أمهم واسمها. لم أحظ بنعمة النوم تلك. مع مرور الأيام، تجاوزت حنيني إلى رؤية وجه أمي، وتنقلت طفلًا من مدينة إلى أخرى على أمل اكتشاف اسمها فقط. سألت كل من قابلته عنها، بحثت عن اسمها في كل لغة تعلمتها. لطالما قلت إني حتى لو نسيت كل اللغات والكلمات وأصبحت أبكمًا، فيكفيني معرفة اسم أمي. معنى الحياة كان في كلمة واحدة، النوم على هذه الكلمة وفي نسيان الحياة. عندما كنت طفلًا، لم أنجح بامتلاك تلك الكلمة السحرية. لقد شعرت بالعجز. وعندما لم يبق أمامي طريق آخر، قررت أن أمضي عمري في اللجوء إلى الموت والتشبث بشواهد القبور. لم أكن أعرف أنني سأعثر على تلك الكلمة في إحدى قرى السهوب النائية، بعد أن توقفت عن البحث عنها. لقد فاجأتني تلك الكلمة قبيل مساء ذلك اليوم، حين شاهدتك عند النبع. سمعت اسمك، فنمت سعيدًا تلك الليلة. وحين استيقظت صباح اليوم التالي شعرت أنني شخص مختلف. كنت الكلمة التي بحثت عنها، أنت إليف، وإليف وجهك. القدر الذي كتب عيشي بلا أم في طفولتي، هو القدر نفسه الذي كتب لي العيش معك. أنا أستسلم لقدري".

خفَّت حدة صوت إليف.

"لا تتكلم هكذا" قالت، "أنت غريب، أتيت من بلاد بعيدة. أشعر بالخوف منك".

"لا تخافي يا إليف، لا تخافي مني".

خيم الصمت عليهما. كانت أيام الموسم حارة، والأمسيات دافئة، والرياح تنسم بلطف. أربك الصمت إليف، وحارت في ما تقول.

"سيقلقون عليّ في البيت" نطقت بصعوبة.

"هل يمكنني أن أطلب شيئًا أخيرًا منك؟" قال أقدو.

"ما هو؟" سألت إليف.

"هلا ناديتني باسمي؟"

تشبثت إليف برقبة البقرتين البيضاويتين. كان اللون الوحيد الذي يمكن أن تلجأ إليه من بين الألوان المتقلبة بين السماء والأرض، هو بياض الأبقار المسالمة. رفعت رأسها ببطء.

"أقدو" همست إليف، "لقد حل الظلام، ينبغي أن أذهب".

برهان سونميز (1965 -) قاص وروائي من تركيا. صدرت له عدّة روايات، منها: الأبرياء (2011)، إسطنبول إسطنبول (2015)، المتاهة (2018). ترجم إلى اللغة التركية «زواج الجنة والجحيم» للشاعر ويليام بليك (2016). حصل على جائزة فاتسلاف هافيل (2017) في الولايات المتحدة، والجائزة الأدبية للبنك الأوروبي (2018) في بريطانيا.

صفوان الشلبي مُترجم من الأردن. ترجم عدة أعمال أدبية من التركية إلى العربية؛ منها روايتا عزيز نيسين "وهل تأتي قليلًا" و"مجنون على السطح"، ورواية برهان سونميز "المتاهة"، ومختارات من قصص سعيد فائق بعنوان "رجل عديم الجدوى". نال جائزة الشيخ حمد للترجمة العام 2015.

الحجر والظلال

يعتقد أقْدو أن الأرواح تكلّمه، وأنّه لذلك يستطيع صنع شاهد قبر مختلف لكل روح، ويعبّر عنها. إنّه المعلّم الذي يسكن كوخًا جوار المقبرة، ويقصده الأغنياء لصنع شواهد خلّابة النقوش والتصميم لموتاهم. يعكف الآن على صنع شاهد لصديقه الذي يحمل سبعة أسماء لكثرة البلدان التي هرب إليها من الحروب. وفي سلامه مع الأموات، يومًا ما تهرع إلى كوخه فتاة هاربة، لم يكد يسألها عن الأمر ويخبئها حتى دخلت عليه الشرطة بحثًا عنها. ما الذي سوف يفعله أقْدو بعد أن علم أن الفتاة التي يخبئها، هي ابنة أخت حبيبته التي اختفت بعد أن رسمت له طريق القتل والموت والسجن، والعيش بين الحجر والظلال.

Cover Design © Ahmed Al-Sabbagh


ISBN 978-9948-04-765-0

